سلسلة «الحقيقة الصعبة» (٦)

Series "The Hard Truth" (6)

بَينَ العَقل وَالنّبيّ

بَحث في العقيدة الدِّرزيَّة

BETWEEN REASON & PROPHET

STUDY ON DRUZE BELIEF



أنوَر يَاسين، وَائل السَيِّد، بهَاء الدينُ سَيفُ الله

ANWAR YASSIN, WA'EL AS- SEID, AND BAHA AD- DIN SEIF ALLAH

September 2, 2010
Printed Book Pagination
Arabic
Fonts: Arabic Transparent &
Simplified Arabic

سلسلة «الحقيقة الصعبة» (٦)

أنوَر يَاسين

وَائل السَيِّد

بهَاء الدينُ سَيفُ الله

بَينَ العَقل وَالنّبيّ

بَحث في العقيدة الدِّرزيَّة

دار « لأجل المعرفة »

ديار عَقْل ــ لبنان

١٩٨٥

صدر عن « سلسلة الحقيقة الصعبة »:

١ ــ أبو موسى الحريري. **قسّ ونبيّ. بحث في نشأة الإسلام.**

٢ ــ أبو موسى الحريري. **نبيّ الرحمة وقرآن المسلمين.بحث في مجتمع مكّة.**

٣ ــ أبو موسى الحريري. **عالم المعجزات. بحث في تاريخ القرآن.**

٤ ــ أبو موسى الحريري. **أعربيّ هو؟! بحث في عروبة الإسلام.**

٥ ــ أبو موسى الحريري. **العلويون النصيريون. بحث في العقيدة والتاريخ.**

٦ ــ أنور ياسين، وائل السيّد، بهاء الدين سيف الله، **بين العقل والنبيّ. بحث في العقيدة الدرزيّة.**

٧ ــ حمزة بن علي، إسمعيل التميمي، بهاء الدين السموقي، **رسائل الحكمة،** كتاب الدروز المقدّس. تحقيق أنور ياسين.

٨ ــ حامد بن سيرين، **مصادر العقيدة الدرزيّة.**

ديَار عَقَل ــ لبنان

١٩٨٥

بَينَ العَقل وَالنَبيّ

مُقدّمَة

نشهدُ أمام الله أَنّنا نقولُ الحقّ، ولا نقولُ إلاّ الحق. ونشهدُ أمامَ الضــمير أَنّنــا ننقــلُ بصدقٍ وأمانة. ونشهدُ أمامَ الناسِ أَنّنا لن نتوخَّى من عملِنا سوى الخير. ولا يخالجنّ نفسَــكَ، أيها القارئُ العزيز، أيُّ شكٍّ في شَهادتِنا. ولا تَعتبِرَنَّ بحثَنا مهاترةً، أو نيلاً من كرامةِ إنسان. ولئن كانتْ جولتُنا في مُنعَرَجِ الأسرار، فإنّ سرَّ الإنسان يبقى لدَينا مَصونَاً. ولئن كان قصــدُنا كشفَ سرِّ « الله والحكمةِ »، فإنَّ القصدَ ايّاه يستحثُّنا لصونِ سرِّ الإنسان وكرامتِه.

ليسَ ككشفِ سرِّ « الله والحكمة » ما يُغني سرَّ الإنسان ويريحُ قلقَه. ولن نبقى حيــالَ هذا القلق بغيرِ طائل، ولا أَمامَ السرّ دون نَيلِه. لنا دعوةٌ نريدُ الجهادَ لأجلها، دعوةٌ إلى المعرفةِ والحرّيّةِ، أو قلْ: دعوةٌ إلى الحرّيةِ في المعرفة، ولا أحد في الدنيا يستطيعُ أن يَصرِفَنا عنهــا. ولنا هدفٌ نقصدُ بلوغَه، ولو رَكِبْنَا المخاطِرَ: هدفُ معرفةِ الحقيقةِ وتحقيقِهــا، لأنّ « هــدفَ الحياةِ الإنسانيّةِ هو معرفةُ الحقيقَةِ وتحقيقِها »[١].

---

(١) كمال جنبلاط، هذه وصيّتي، ص ٥٠.

لن نبلغَ الهدفَ إنْ كنتَ في شكٍّ ممّا نقول. ولن نتمَّ دعوتَنا إنْ لم تتوفَّرْ لديكَ المصادرُ والمراجع. ولا حجّةَ لكَ علينا لو لم تكنْ هذه المصادرُ والمراجعُ مخطوطاتٍ نادرةً وسـرّيّة. ولكنّنا سنوافِيكَ بنموذجٍ عنها، وسندلُّك عليها في مكتباتِها وأرقامِها، وسننقلُ لكَ منها نصوصاً إضافية. ونَعِدُكَ بالأمانة لها. فصدِّقْنا، أيها القارئ العزيز، إنَّ الأمانةَ وَالله، نبراسُنا، والصدقَ همُّنا، ونَقْلَ الحقيقةِ حقيقتُنَا... ومع هذا، سوفَ يدفعونَكَ إلى الشكِّ دفعَاً، ويُنكِرون علينا العلـمَ والمعرفة... وعليكَ أنتَ أنْ تَحكم.

*****

لكي نبلغَ وايّاك الهدف نتمنّى عليكَ أن ترسخَ لديك هذه العقيدة: إنَّ اللهَ لم يكلّفْ إنساناً للدفاعِ عنه، لا يهودِيّاً ولا نصرانيّاً ولا مسلماً ولا درزيّاً... وليس لأحد من هؤلاء أن يحتكـرَ الله، ويمنعَه عن سواه، إذا ما حَظِيَ بنعمةِ لقياه. وليسَ لأحدٍ منهم أن يفتخِرَ بأنّ اللهَ اجْتَبَاهُ على حساب العالمين، وتَبنَّاه دونَ سائرِ البشر. وليسَ لأحدٍ أيضاً أن يطمئِنَّ إلى الله فَيعفِي نفسَه من التفتيشِ عنه. إنّ خيرَ المواقفِ منَ اللهِ أنْ يَمنحَك اللهُ حرّيّةَ البحثِ عنه في كلِ آن.

لقد عَجَّزْنَا اللهَ بتعصّبِنا له، فباتَ، وكأنّه إنسانٌ، لا يعرفُ مَنْ يُبغِضُ ولا مَنْ يُحِبّ. بل باتَ يُحِبُّ مَنْ نَحِب، ويُبغِضُ مَنْ نُبغض. بعضُ الغيارى استأثروا به فمنعـوه عَـن سـواهم لينعَموا وحدَهم بالملكوت. وبعضُ العاشقين أحبّوا له ما يُريدون هم، واختاروا له ما يشاؤون.

فغدا إلهُ اليهودِ يَكرَهُ النصارى، والهُ النصارى يكرهُ المسلمين، وإلهُ المسلمين يكرهُ الـــدروز، وإلهُ الدروز يعلو الجميع... هي غَيْرَةُ البشرِ على الله حتى يبقى اللهُ رهينتَهم يتلـــوّنُ بـــألوانِ حبّهم وبغضهم.

يسترعيك ذلك في اليهودية التي لمستْ في قلبِ الله إعجَابـــاً. فجعلَتْـــهُ يَختارُهـــا دون البشر، وعيّنتْ نسبتَه إلى آبائها « ابراهيم وإسحق ويعقوب »، وحصرتْ عبادتَه فـــي هيكـــل سليمان، واحتكرتِ الوحي والأنبياء، وافتخرتْ بالناموس يُنَزّلُ عليها... وعندما هُجِّرَ اليهـــودُ من وطنِهم هَجَّروا اللهَ معهم، وفي نَواحِهم على ضفافِ أنهارِ بابل ناحَ الله مثلَهم، وفي شَتَاتِهم في أقطارِ الدنيا رَحل اللهُ معهم، وعندما رَجَعُوا يَبْنُونَ دولةَ اسرائيل بَنَوا لله « كِنِيْسِتْ » على مثال هيكله القديم.

وجاءت المسيحيةُ، وكان اللهُ محجوراً عليه في بيتِ داود، ومقيَّداً بسلاسِل النـــاموس، فدعا المسيحُ إلى إله يُعبَد بالروح، وفي كل مكان، ودعا إلى مصالَحَةٍ شاملةٍ بينَ الناس، وعلَّمَ أنَ اللهَ محبّة... ولكنّ زماناً ما مرّ على الكنيسةِ حاولتْ فيه احتكارَ الله والاستئثارَ به، فقيّدتْـــه بناموس جديد، وحكمتْ على كلِ مَن هو خارجٌ عنها بأنّه لن يَنالَ مِن إلهِ المحبّة أيّةَ محبّة... فوقعتِ المسيحيّة باليهوديّة، وخافت على الله من أن يكون إلهَ العالمين.

وجاء الإسلامُ، ودعا إلى « لا إلهَ إلاّ الله »، واحدٍ للجميع، فكان بذلك خيرَ الـــداعين. ولكنّ المسلمين وقعوا في ثلاثِ خطايا إلهيّة: الأولى أنّهم ألزموا اللهَ بكتابة القـــرآن فـــألزموا الناسَ بشريعةٍ مربوطةٍ بِعُمُدِ السَماء؛ الثانية أنهم دَعَوا إلى الله بالسيفِ والعنفِ فكان الجهـــادُ المقدّس في سبيلهِ حرباً على الناسِ حتى يَقولوا: أسلمْنا؛ والثالثة أنّهم

اطمأنّوا إلى اللهِ كثيراً حتى أقعدَ الاطمئنانُ كلَ مسلمٍ عن البحث وحرّيّةِ المعرفة. بهذا احتكــرَ المسلمون اللهَ من جديد، وفرضوه على الناسِ فَرْضَاً.

وجاءتِ الدرزيّةُ، فكان حظُّ اللهِ فيها عُجَاباً. لقد منعتْه عن غير المنتمين إليها، وأَغلقتْ دونَهــم أبوابَ الــدعوة، وسترتِ « الحكمةَ » عن غيــر أهلهــا ومستحقّيها، وحصرتْ نعمةَ « الكشفِ » فيها... وكان احتكارُها لله من أدهى الأخطار عليه. وأدهى الأخطار إنّها استترتْ في سائرِ أديانِ البشر، ليستمرَّ البشرُ جميعُهم حيثُ هم في ضلالهم هالكين، ويكــون الــدروز وحدَهم الناجين.

*****

فما عساكَ تفعل، أيها القارئ العزيز! أتكونُ لإلهِ موسى حيثُ هو في هيكل ســليمان؟ أم تكونُ لإلهِ عيسى يسرَحُ في الكونِ الرحيب؟ أم تجاهدُ في سبيلِ الله مع محمّــد والمســلمين الفاتحين؟ أم أنتَ في الدرزيّة أغلقتَ عليك الأبوابَ ونَعِمتَ وحدَك بمعرفتِه؟... أنت تقرّر. أمّا نحنُ فلن ندعوك إلى أيّ قرار... همّنا أن نحرّرَ الله منّا، وأن نُفْلِتَ المسكينَ، الذي هو الله، من أيدينا، ومن أوهامِنا وأفكارِنا وتصوّراتِنا، ومن الجهادِ في سبيله والدفاعِ عن كرامتــه علــى حساب الإنسان وكرامته.

*****

١) الدرزيّة سنة ٢٠٠٠

هذه النظرة السريعة كانتْ ضروريّةً لنا للدخولِ بكَ ومعَك، أيّها القارئ العزيز، إلــى خدرِ الدرزيّةِ التي تستهوِينا أسرارُها، وقد

تستهويكَ أيضاً. يستهوينا مفهومُها للالوهةِ المتجلّيّةِ عَبْرَ الأدوار، وموقِفُها الصريحُ من الأنبياءِ والأديان، ومنزلةُ العقلِ حيثُ هو أصلُ الموجودات، ومناقبيّتُها المتجسِّدَةُ عند أصحابها... لعلّه يُفتَحُ بابُ الدعوةِ يوماً وأنتَ على أعتابِه لا تعرفُ ماذا تفعل. وها نحنُ على أبواب دَوْرٍ جديد، قد يُدركُنا على حينِ غفلة. ونخشى أن نكونَ وإيّاك من الغافلين!

لقد نَبَّهَنَا إلى ذلك الشهيدُ البطلُ كمالُ جنبلاط «ذو السلطة الروحيّة »[٢]، عندما أنبأنا، قبل نُقْلَتِهِ الأخيرة، بقوله: « وسيُفتَحُ دَورُ طَلَبٍ ــ أو طلاّبٍ ــ جديدٌ في حدودِ ســنةِ ٢٠٠٠ بتجلٍّ إلهيٍّ وظهورٍ حكيمٍ جديد. وعند ذلك يُفتَحُ الطريقُ من جديد، ويصيرُ بإمكانِ جميعِ الناسِ في كافّةِ أصقاعِ العالَمِ سلوكُها »[٣].

وها نحنُ على أبواب السنة الــ٢٠٠٠، وشهادة الشهيد قد تتحقّق، وهو الذي قيل فيه: إنّه « شهيدُ الإنسانيّة جميعِها »[٤]، وإنّه « شخصيّةٌ عالميّةٌ، تلاقَتْ فيها أنبلُ شمائل الإنســانِ المتحضِّر... هو ذلك العملاق، قَدَمَاهُ على الأرض، وجَبْهَتُهُ في أبعد مرامي البَصَر »[٥].

*****

٢) من هو الدرزيّ؟

وأنت، أخانا الدرزيّ، قد لا تكونُ وحدَكَ تنتسِبُ إلى الدرزيّة

(٢) كمال جنبلاط، هذه وصيّتي، ص ٥٠.
(٣) نفس المرجع.
(٤) حافظ أبو مصلح، واقع الدروز، ص ٥٠.
(٥) سامي أبو شقرا، مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ، ص ٢٨١.

بحمل اسمِها وبالحصولِ على كتبِ الحكمةِ وأسرارِها وبوارثتها عن الآباء والأجداد، فـ« الدرزيّ » ليسَ اسماً وَقْفاً على مَن نُسمّيهم الدروز، أي على النِحْلةِ الموجودةِ في لبنان وفي جبلِ العرب بسوريا وفي إسرائيل أو تركيا أو حتى في شمال باكستان، بل الدرزيّ هو كلُ توحيدي، أي كل مَنْ يَعتقدُ بوَحدةِ أديانِ العالَمِ كافّةً، وكائناً ما كانتْ طقوسُها وشعائرُها؛ أي إنّه اسمٌ ينصرِفُ إلى مسيحيين وبوذيين ومسلمين وهندوكيين... »(٦). وقد يكونُ الدروز منتشرين « تحتَ تَسْمِياتٍ أخرى في كافةِ أديانِ العالَمِ، يُمَثِّلونَ بالتالي أكثرَ من ربعِ البشريّة »(٧).

ولم تقتصرِ الدرزيّة، بمفهومِها الحقيقي، على درزيّةِ اليوم، بل هي كانت منذ أقدم العصور، مستترةً في جميعِ الأديانِ ومسالكِ العرفان. « فدعوةُ التوحيد انّما هي استمرارٌ للمسالكِ العرفانيّةِ القديمةِ وتطوّرٌ لها. وقد استبطَنَتْها الشرائعُ السماويّةُ السابقةُ، كما احتضَنها الإسلامُ فيما بعد وغذّاها... ونحنُ إذا دَقَّقْنَا النظرَ نرى أيّةَ صلةٍ وثيقةٍ تربطُ مسالكَ الحكمةِ عبرَ التاريخِ بعضَها ببعض »(٨). فالدروز هم بالتالي « جماعةٌ كانت منذ كانَ الوجود. ولَيْتَهُمْ يَعلَمون »(٩).

هذا المفهومُ الصائبُ للدرزيّة جَعَلَنا معنيِّينَ بها حيثُ نحنُ في مواقِعنا الإيمانيّةِ والدينيّةِ المختلفةِ. وإنّنا لنرى في هذه النظرةِ

---

(٦) كمال جنبلاط، هذه وصيتي، ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٧) نفس المرجع، ص ٥٠.
(٨) الدكتور سامي مكارم، أضواء على مسلك التوحيد، ص ١٠٠.
(٩) الشيخ محمد أبو شقرا، في مقدمة على كتاب « أصل الموحدين الدروز »، للقاضي أمين طليع، ص ٦.

الحجّةَ الدامغة لمعرفةِ أسرارِها واكتشافِ كنوزِها وحَلِّ رموزِها. بل نرانا مدفوعين إلى ذلك، ملبّين دعوةَ الحكمةِ القائلة: « أجيبوا الداعي إذا دعاكم، واسمَعَوا نداءَه، إذا نَادَاكم... ارتقِبُــوا الحقَّ في كلِ عصرٍ وزمن، ولا تركنوا إلى التقصيرِ، بعدَ الطَلَبِ والتشميرِ... فــإنّ حقــائقَ الحكمةِ تَكشِفُ لكم عن مشكلاتِها، وتفتحُ لكم أَغلاقَها وأقفالَها... »[١٠].

*****

٣) اسم الدرزيّة:

أمّا اسمُ الدرزيّة « فلا يَقبَلُ بهِ الدروزُ بحَالٍ من الأحوال. وقد أُطلِــقَ علــيهم كرهــاً منهم. وهم يفضّلون اسمَ « الموحدين » ولقبَ « بني معروف ». ولا يرون مبــرِّراً تاريخيّــاً لهذا الاسم، كما لا يجدونَه في كتبِهم المقدسةِ ولا في تاريخهِم القديم. يقول عجــاجُ نُــوَيْهِض، مختصِراً رأيهم، إن هذا الاسمَ لم يلزمِ الموحّدين أبداً:

فــ« المؤرّخين الثلاثة الكبار... الذين كتبوا في النِحَلِ كلِّهــا، واستقصَــوها واحــدةً واحدةً، وفصّلوا عقائدَها؛ وفُرِّعَ بعضُها من بعض تفصيلاً لا مزيدَ عليه؛ هؤلاءِ المؤرّخــون، وهم الشَهرَسْتاني وابن حَزْم والبغدادِي، وانتهَوا من أعمالِهم في القرنِ السادس... لم يَــذكروا في كتبهِم شيئاً عن « الدروز » أو « الدرزيّة ». ولا ذكرَ عندهم للدروز اطلاقاً.

« والمؤرّخان... ابنُ الأثير وأبو الفداء، وقد أرّخَا حوادثَ الشام سنةً فسنةً تقريبــاً، لا ذكرَ عندهما للدروزِ اطلاقاً. وابنُ عساكر

---

(١٠) رسالة الرشد والهداية، رقم ٣٩ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ من « رسائل الحكمة »، طبعة ١٤٠٠ هـ التي نعتمدها في بحثنا.

وابن الجوزي وابن خلدون، لا ذكر عندهم للدروز اطلاقاً. وكُتُبُ الأميرِ جمالِ الدين عبد الله التّنوخي (+ ٨٨٤ هـ) نحو ١٧ كتاباً مخطوطاً، لا ذكرَ فيها للدروز إطلاقاً. السجلُ الارسلاني... لا ذكر فيه للدروز اطلاقاً. ومثله تاريخ ابن سباط[١١]، وهذا كان في أوّل العهدِ العثماني. وأمّا الأشرَفاني، وكان معاصِراً للأمير ملحم المعني فإنّه أوردَ مرّة أو مرّتين في كتابه الضخم[١٢] اسم الدروز والدرزيّة، ولكن بطريقة الرواية عن غيره، لا من عنده. تلاميذُ التنوخي كَتَبَ كثيرٌ منهم ودوّنَ، ولا أحد منهم ذَكَرَ كلمةَ الدروز »[١٣].

ولكن، هل غاب عن عجاج نهويض أنّ مؤرخاً معاصِراً لنشأةِ الدرزيّة، والذي انتهى من وضعِ تاريخه سنة ٤٢٥ هـ، وهو يحيى بن سعيد الأنطاكيّ، يذكر في مواضع عديدة من كتابه اسم « الدرزيّة »؟؟؟ ألم يقرأ « أنّ بعضَ غلمان الأتراكِ وثبَ على الدرزي[١٤] وقتله... ولبثت الفتنة ثلاثة أيّام، وقتل فيها جماعة من الدرزيّة »؟[١٥]. ألم يقرأ أيضاً قوله: « تزايدَ أمرُ الدرزيّة إلى أن لَعَنُوا آدمَ ونوحَ وجميعَ الأنبياء ومحمّداً وعليّاً، وتغوّطوا في المساجدِ، ولَطَّخُوا القُبْلَة بالقذرِ، وبَالُوا على مصاحفِ القرآن »؟[١٦] ألم يقرأ أيضاً قولَه: « أذاعَ بعضُ الدرزيّة دعوتَه في قومٍ من المسلمين في موضعٍ يُعرَفَ بوادي التيم »؟[١٧] ألم يقرأ أخيراً قولَه: « وكان قد اجتمعَ في جبل السَمَّاقِ من بلدِ الرومِ جماعةٌ من الدرزيّةِ وجاهروا بمذهبِهم »؟[١٨].

---

(١١) « إلاّ في موضع واحد من الجزء الثاني عثرنا على ذكر للدروز والدرزيّة، ولكنّنا نعتقد أن هذا مدسوس مزيّف ». صفحة ر، انظر ص ٢٣٣.

(١٢) الأشرفاني، عمدة العارفين في ثلاثة أجزاء، مخطوط.

(١٣) عجاج نويهض، الأمير جمال الدين التنوخي.. ص: ذ، ر، ز...

بهذا الاسم عُرف الدروز إذن في تاريخهم ومنذ نشـأتهم، ولا مجـالَ بعـدُ لكثـرةِ المغالطات التي تنسبُهم إلى هذه أو تلك من النِسَبِ والتفسيرات. ويوجِزُ لنا غالبُ أبو مصـلح هذه المغالطات في قوله: « أمّا التسميةُ بالدروز فلها تفسيراتٌ عدّة، يُرجِعُهـا بعضُـهم إلـى المدعو الشيخ حسين الدرزي أحدِ كبارِ فلاّحي مصر، وهو أوّل من أيّد دعوةَ الحاكم بأمر الله، وسار في ركابه[١٩]. وجاء في تفسير لغوي لبطرس البستاني قوله: « لغويّاً: يُقال دَرَزَ الرجلُ أي تمكّن من نعيم الدنيا وخيراتها، « الدَرَزُ » هو النعيمُ (كلمة فارسية معرّبة). ويقول عبد الله النجار، بناء على ذلك، الدروز إذن هم أتباع النعيم، أي الذين سيدخلون حتماً إلى جنّات عَدْنٍ إذا ساروا في طريق قويم... ويعتقد البعضُ أنهّا نسبةٌ عسكرية لا مذهبية إلى القائدِ الفـاطمي الأمير أنوجور أبي منصور أنوشتكين الدرزي الذي قاد الدروز في قتالهم... في الأقحوانـة.. هناك... كان بناء الطائفة الدرزيّة العسكري المتين... وهناك... عُرفت الدرزيّة بأخوة السلاح ومعموديّة الدماء، فرقة عسكرية لا تنوء[٢٠].

---

(١٤) محمد بن إسمعيل الدرزي الملقب بأنشتكين، وهو من الدعاة الأول.

(١٥) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكيّ، نشر الأب لويس شيخو سنة ١٩٢٧ بمطبعة الآباء اليسوعيين، ص ٢٢٣ سطر ٧.

(١٦) نفس المرجع، ص ٢٢٤ سطر ١٠.

(١٧) نفس المرجع، ص ٢٢٦ سطر ١٧.

(١٨) نفس المرجع، ص ٢٦٥ سطر ٩.

(١٩) ليس هو محمد بن إسمعيل الدرزي المارّ ذكره في ملاحظة (١٤).

(٢٠) غالب أبو مصلح، الدروز في ظلّ الاحتلال الإسرائيليّ، ص ٤٨ ـ ٤٩، وهو يعتمد على سليم حسن الهشي، الإسماعيليون عبر التاريخ، الجزء الأول ١٩٦٩ ص ١١٩، وعلي سليم أبو اسماعيل، الدروز ـ التشيع الفاطمي الاسماعيلي، الجزء الأول، ص ٦٥... وأنوشتكين الدرزي المذكور في متن النص هو غير المذكور في (١٤).

٤) اسم « الموحّدون »:

لم يختر الدروزُ اسمَهم هذا، بل أُطلقَ عليهم كرهاً منهم، وهو يرجعُ إلى محمّد بن إسمعيل الدرزي ــ لعنَه الله، كما يقولون ــ، وهو الـ« غطريس... الذي تغطرسَ على الكشف بلا عِلمٍ ولا يقين. وهو الضدّ الذي سمعتم بأنّه يظهر من تحت ثوب الإمام (حمزة) ويدّعي منزلته، ويكون له خوار... »[٢١]. لأجل ذلك يفضّلون اسم « الموحدين »، نسبة إلى عقيدتهم الأساسية في « توحيد الله ».

وكثيراً ما يرد هذا الاسم في « رسائل الحكمة » وشروحاتها وسائر الكتب الدرزيّة. ففي « ميثاق وليّ الزمان »، وهو العهد الذي يكتبه الدرزي على نفسه، هذا القول: « من أقرّ أنْ ليسَ له في السماء إله معبود، ولا في الأرض إِمام موجود، إلاّ مولانا الحاكم جلّ ذكره، كان من الموحّدين الفائزين »[٢٢]. وقد ترى في كل صفحة من « رسائل الحكمة » اسم « الموحدين » و « أهل التوحيد ».

و « التوحيد » هو المذهب الثالث أو « المسلك الثالث »[٢٣]، على أنّ الأوّل هو « الإسلام » (السنّة) وصاحبه النبي محمّد، والثاني هو « الإيمان » (الشيعة) وصاحبه علي بن أبي طالب. يُكنّى الأوّل باسم « التنزيل » أو « الظاهر »، والثاني باسم « التأويل » أو « الباطن ». وقد يُسمّى أيضاً « التوحيد » باسم « الطريقة الوسطى »[٢٤] أو « الأوسط

---

(٢١) رسالة الغاية والنصيحة رقم ١٠ ص ٩٢. انظر فيما بعد...
(٢٢) ميثاق وليّ الزمان رقم ٥ ص ٤٨...
(٢٣) انظر الرسائل: ٣٨ / ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٩ / ٧٤، ٦٧ / ٨٢٥... وغيرها كثير.
(٢٤) ١٧ / ١٨٦، أيضاً: ١٣/ ١٤٤، ١٤ / ١٥٣.

الــذي هو المنهج الأقــوم والطريق الأسلم التي مَن سلكها نجــا، ومَن تخلّــف عنهــا هلــك وغوى »[٢٥]. هــذه هي « دعــوة التوحيد الناسخة لجميع الشرَعِ والأديان »[٢٦]، من اتّبعهــا « تبرّأ من جميع المذاهب، والمقالات، والأديــان، والاعتقـــادات كلّهـــا علـــى أصـــناف اختلافاتها »[٢٧].

*****

٥) الدرزيّة مذهب أم دين؟

مهما حاول الدروز اعتبار الدرزيّة مذهباً يضمّه الإسلام، أو ينتمي إلى الإسلام، بشكل من الأشكال، فهو، بالحقيقة، من قبيل التقيّة واتّقاء الخطر. الدرزيّة « ديــن » مســتقل تمــام الاستقلال، يقوم على أركان خاصّة، له كتابه المقــدس، وعقيدتــه، ونظرتــه إلــى الكــون، وفرائضه، ومناقبيّته، وطقوسه، وأنبياؤه... وكلّها لا تمتّ إلى الإسلام بصلة... وهــذا مــا لا يريد المسلمون تصديقه، ولا الدروز يريدون الاقرار به. وسترى ذلك في فصل لاحق. لكنّنــا الآن نودّ الانتقال بك إلى حديث مثير جرى بين الدكتور مصطفى الشكعة وبين الشيخ محمّــد أبو شقرا شيخ عقل الدروز والأستاذ كمال جنبلاط حول هذا الموضوع.

يقول الشكعة: « قد حرصتُ عَمْداً في أوّل حديثي مع الشيخ أن استعملَ لفظةَ « الدين الدرزي »، ولكنّ الشيخَ سارعَ في حزمٍ وقال:

(٢٥) الرسائل ١١ / ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٢٦) ٧٧ / ٧٠٠.
(٢٧) ميثاق وليّ الزمان ٥ / ٤٧.

« يا أخي، أرجوك، لماذا لا تقولْ « الدين »؟ قلِ « المذهب »، لأنّنا مسلمون موحِّدون »[٢٨]. ثم انتقلَ الشكعة إلى السيدِ جنبلاط ليَسْمَعَ منه: « الدروزُ... اعتنقوا الإسلامَ في مرحلةٍ من مراحلِ عقيدتِهم؛ ولمّا كانتِ العقيدةُ عندهم متطوّرةً فقد تحوّلوا عن الإسلامِ إلى دينٍ آخرَ مستقلٍ هو الدينُ الدرزي، إن الدّرزيَة كانتْ مذهَباً إسلامِياً، ثم تطوّرتْ وأصبحتْ ديناً مستقِلاً. والأقطابُ هم الذين يحدِّدون الدينَ من زمنٍ إلى زمن... ولذلك فالدرزيّةُ دينٌ متطوّرٌ... » ثم يحادثُ الشكعة جنبلاط ليَسمعَ منه أيضاً: « لا يقبلُ الدروزُ أحداً في دينِهم... الدينُ الدرزيّ دينٌ صوفيٌ... الدينُ الدرزيّ تنظيمٌ حربي... »[٢٩].

لقد احتارَ الشكعةُ في أمره فذهبَ يَقرأُ سامي مكارم في ردِّه على السفيرِ عبد الله النجّار، ويقولُ الشكعة: إن الدكتورَ مكارم يوافقُ النجارَ بقوله إن الدرزيّة مذهبٌ من « الإسلام من حيثُ انحصارُه في القرآن وعدم خروجِه عنه »[٣٠]. والنجّارُ، بدوره، يصرّحُ عن « التوحيد » بقوله: « فهو ليس ديانة »[٣١]، ويختم مقدّمةَ كتابِه بدعوته لنا: « ولندخلْ في صلب هذا المذهب »[٣٢]. ثم يشدّدُ في متن الكتاب قوله: « هذا المذهب التوحيدي قائم على الإسلام »[٣٣]، ولكنّه، في طبعةٍ ثانية

(٢٨) مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص ٢٩٢.
(٢٩) نفس المرجع، ص ٢٨٩ ـ ٢٩١.
(٣٠) الدكتور سامي مكارم، أضواء على مسلك التوحيد، ص ١٠٤ ـ ١٠٥، السفير عبد الله النجار، مذهب الموحدين الدروز، ص ١٦ من ط ٢.
(٣١) عبد الله النجار، نفس المرجع، ص ١٦.
(٣٢) نفس المرجع، ص ١٧.
(٣٣) مذهب الدروز والتوحيد، طبعة أولى، ص ٨٣. وهو عنوان هذه الطبعة التي ظهرت في طبعة ثانية باسم « مذهب الموحدين الدروز ».

يحذفِ جملة « قائم على الإسلام »[٣٤].

والدكتور سامي مكارم، فيما هو تقوم قيامتُه على السفيرِ النجار الذي حـاول إخـراجَ الدرزيّةِ عن الإسلام واعتبارَها، على غيرِ وعيٍ منه، ديناً مستقلاً، يقعُ هو نفسُه فـي نفـسِ الخطأ، فيقول: « إن نظريّةَ الانبثاقِ التي يشيرُ إليها الكتابُ إشارةً عابرةً هي من النظريـاتِ الأساسيّةِ في دِيْنِ التَوحيد »[٣٥]. ويطيرُ صوابُ الشكعةِ ويعلّقُ: « لقد فَزِعْتُ عندما قرأتُ هذه الجملةَ لصدورِها في مقامِ تصحيحِ ما اعتُقِدَ أَنَّهُ لا يُمثِّلُ نظرَ المذهب. وطافَ بذهني هـاجسٌ مَخُوفٌ. فكيفَ يكونُ المستقبلُ في نطاقِ الترابطِ العقيدي الإسلامي لو قالَ الكاتِبُ السنّي « دينَ السنّة »، ولو قال الكاتبُ الشيعيُّ « دينَ الشيعة »؟... وإنّي آمـلُ صـادِقاً أن تكـونَ هـذه التعبيراتُ غيرَ حاملةٍ المعنى الخطيرَ الذي يُفهَمُ منها لأوّلِ وهلة »[٣٦].

وهكذا احتارَ الشكعةُ في أمرهِ وهو يحادِثُ أقطابَ الدرزيّةِ ويقرأُ كتبتَهَا الأفذاذ: فشيخُ العقلِ « يَرْجُوهُ أن لا يقولَ عن الدرزيّةِ أنّها « دين »؛ وجنبلاطُ لا يُسمِعُه سوى أنّها «دينٌ»؛ وسامي مكارم يَسقُطُ في ردِّه على النجّار، وبلا قصد منه يقول بـ« دين التوحيد »؛ والنجّـارُ يخافُ من تسميةِ الدرزيّة بـ« ديانة »، ولكنّه لا يخافُ من اعتبارِها غيرَ الإسـلام... وراحَ الشكعةُ يجوبُ المجتمعَ الدرزيَ ليتأكّدَ من أفواهِ الأطفالِ والأولادِ حقيقةَ الأمرَ ويَرفَعَ عن عقلهِ المظَانَّ، ويقولُ لنا في جَولَتِهِ: « قد لاحظتُ

---

(٣٤) عبد الله النجّار، مذهب الموحدين الدروز، ط ٢، ص ١٢٣.
(٣٥) الدكتور سامي مكارم، أضواء على مسلك التوحيد، ص ١١٥.
(٣٦) مصطفى الشكعة، اسلام بلا مذاهب، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

أنّ كلَ طفلٍ درزيّ، حتى أبناء أصدقائنا المستنيرين، إذا سُئِلَ عن دينهِ قال: إنه درزي. فـإذا قيلَ له: يعني مسلم! أبدَى استغراباً شديداً. وكأنّ ليس ثمتَ علامةٌ تربطُ بينهَ وبينَ الإسلام. وله العذرِ في ذلك طالما أنّه لم يُعَلَّم أن الدرزيةَ مذهبٌ من مذاهبِ الإسلام...

« هذا في الأوساطِ الاجتماعية. فإذا انتقلنا إلى الأوساطِ العلميةِ وجدْنَا المؤلِّفينَ والمحاضِرين يتحدثون عن الدرزية وكأنّها دينٌ مستقلٌ، وليسَ مذهباً إسلامياً. وإذا أُشِيرَ إلى الشريعةِ الإسلاميةِ أُشِيرَ إليها وكأنّها شريعةٌ غريبةٌ لدينٍ غريب... والعباراتُ تُوحِي... أن الدرزيّةَ شيءٌ والإسلامَ شيءٌ آخر... »(٣٧).

ومع كل هذا لا يريدُ الشكعةُ أن يصدّقَ ما يَسمَعْه وما يَقرأُه، بل أرادَ أن يأخذَ الحقيقةَ مِن أربابها، فاعتمدَ بالنهايةِ على كلامِ شيخِ عقلِ الدروزِ محمّد أبو شقرا الذي « رجاه » أن يقولَ بأنّ الدرزيَة مذهبٌ لا دين... وغابَ بالُ الشكعة عن أنَّ الشيخَ « شيخٌ مثقفٌ، خَطيبٌ، يُجيدُ الكلامَ المدروسَ العميقَ »(٣٨)، على حدِّ قولِ حافظ أبو مصلح؛ وفات الشكعةَ أنّ «حافظَ» هذا مَادِحَ الشيخِ وَضَعَ عنواناً في كتابه أسماه: « ديانة الدروز »(٣٩). وغابَ بالُ الكلِ عمّا قاله « المؤرِّخ المتعمِّقُ الأستاذُ يوسف ابرهيم يزبك » في مقدّمتِه لكتابِ « الدولة الدرزيّة » الذي نَقَلَه حافظُ أبو مصلح إلى العربية. أجاب يزبك على سؤال: « وهلْ مذهبُ التوحيدِ دينٌ؟ فأجيبُ: نعم. نعم. نعم. »(٤٠).

---

(٣٧) مصطفى الشكعة، اسلام بلا مذاهب، ص ٢٨٢...
(٣٨) حافظ أبو مصلح، واقع الدروز، ص ١٧.
(٣٩) نفس المرجع، ص ١٨ ـ ٢١.
(٤٠) بيجه ده سان بيير، الدولة الدرزية ترجمة حافظ أبو مصلح، ص ٢٦.

٦) « بنو معروف »

بقي علينا النظر في لقب « بني معروف » الذي يطربُ الدروزُ لـــه عنـــد سَـــماعِه. واختلفَ فيه الباحثون. فمنهم مَن يعتبرُه نسبةً إلى قبيلةٍ عربيةٍ اعتنقتِ الدرزيّةَ منـــذ نشـــأتها، فقال غالبُ أبو مصلح: « أمّا تسميةُ الدروز ببني معروف فتعودُ إلى اسمِ إحدى قبائلِهم السالفةِ الذكر. وذلك بتسميةِ الكلِ باسم الجزء »[٤١].

ومنهم مَن يعتبرُه اشتقاقاً لغوياً من « المعروف » بمعنى « الخير » و « الإحسان »، فيكون الدروزُ بالتالي « أبناء أو أصحاب الخير والاحسان ».

أو أيضاً مِنْ « عَرَفَ معرفة » بمعنى العِلْم. فيكونون بذلك « العارفين »، وأصحاب العرفان الذينَ ينالونَ المعرفةَ الاشراقيةَ من لدنِ الله. ومعنى ذلك أنّ « بني معـــروف » هـــم أصحابُ المعرفةِ اللدنيةِ الحقيقيةِ النهائيّة... والمعرفةُ الحقيقية هي معرفـــةُ الله متجلِّيـــاً فـــي الإنسان، أي هي معرفةُ اللاهوتِ في الناسوت، من قول الحكمة: « والمعرفةُ إنَّما هِـــيَ لِمـــا شُوهِدَ وَعُوْينَ »[٤٢]، « والمعروف » هو الله المتجلِّي في صورةِ الإنسان، و « بنو معروف » هم الذين حَظُوا بمعرفةِ اللاهوتِ متجلِياً في الناسوت.

أو أيضاً مِن « عَرَفَ » بمعنى « صَبَرَ »، والـــ« عَارِفُ » هو « الصَبُور »، مـــن دعوةِ الحكمةِ المستمرّةِ إلى « الصبرِ والاحتمالِ ». يقول بهاءُ الدينِ لنصر ابنِ فتوح: « ثَبِّتِ الجماعةَ في كل موضعٍ على السترِ واجمالِ الحال... ويكونوا على الصبرِ والاحتمـــال »[٤٣]. ويقول أيضاً في « مكاتبةِ رمزٍ إلى

(٤١) غالب أبو مصلح، الدروز في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي، ص ٤٩.
(٤٢) الرسائل: ٥٨ / ٤٥٤، ٧٤ / ٦٥٦.

الشيخ أبي المعالي « مَنْ صَبر على قَرِّ البردِ (المحنة) نالَ خضرةَ الربيعِ (الخــلاص) »[٤٤]، ويعلنُ أيضاً: « وأنا أقول: « إنّ الصبرَ في جميعِ الأمورِ مطيّةٌ لا تكبو بأهلِ الديانات »[٤٥]... وغير هذه في الصبر كثير. فيكونُ « بنو معروف » هم الصابرون على المحنةِ التي ألمّتْ بهم أيامَ « عليّ الظاهر » الخليفةِ الفاطمي الذي تولّى الحكمَ بعدَ « الحاكم » واضطهدَ الدروزَ مـا ينيف عن الستِ سنوات.

وقد تجوزُ أيضاً تسميةُ الدروزِ ببني معروف مأخوذةً من « الأَعراف »، الاسم الــذي تُطلِقُه الرسائلُ كثيراً عليهم، ومأخوذٍ من آيةٍ قرآنيةٍ تقول: « وعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُــونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُم »[٤٦]، تسمّيهم « الحكمةُ » بقولِهــا « رجــالُ الأعرافِ شهداءُ الــدينِ ســاداتُ الأممِ »[٤٧]، وقائمُ الزمانِ حمزةُ هو « سَدِيْقُ الاعراف »[٤٨]، و « صاحبُ رجالِ الأَعــرافِ الأطهارِ »[٤٩]، وهم في نهايةِ الــدهرِ « خَيْلُ الأَعــرافِ »[٥٠]، و « الاعــرافُ أصحـــابُ اليمين »[٥١] الناجون.

وأفضلُ النِسَبِ لبني معروف كونُهم أصحابَ معرفةِ اللاهوتِ في صــورةِ الناســوت. وهم يَعتبِرون أنفسَهم مختصّين بما دونَ سواهم.

---

(٤٣) رسالة ١٠٧ / ٨٢٨، وأيضاً ص ٨٢٧.
(٤٤) رسالة ١٠٥ / ٨١٦.
(٤٥) نفس المرجع.
(٤٦) القرآن، سورة الأعراف ٧ / ٤٦ وأيضاً ٤٨.
(٤٧) الرسائل: ٦١ / ٤٧٧، انظر أيضاً: ٧٤ / ٦٦٣ وغيرها...
(٤٨) رسالة ٩٩ / ٧٩٣. « السادق » وكل مشتقّات الصدق بالـ« س ».
(٤٩) رسالة ٧٢ / ٦٣٣.
(٥٠) الرسائل ٤٩ / ٣٦٣، ٦٠ / ٤٧١.
(٥١) رسالة ٦٦ / ٥١٦.

٧) « رسائل الحكمة »:

إنّ مصادرَ بحثِنا كثيرة، رَجَعْنَا إليها كلِّها، ودَقَّقْنا فيها، واهتدَيْنا بِهدْيها، ونَقَلْنا منها بأمانةٍ كلّيّةٍ حَملناهَا مِشعَلاً، حتى يجيءَ كتابُنا ــ ولو باعتداد ــ موافِقاً عقيدةَ « الحكمة »، ومطابِقاً لفهمِ أصحابِها الصادقين. وعمدةُ المصادر « رسائلُ الحكمة » أو « المعلومُ الشريف »، وتتألّف من ١١١ رسالة، « جَمَعَها المغفورُ له الأميرُ عيسى التنّوخي[٥٢] في ستةِ كتب. وقد جَمعَ إليها الأميرُ عبد الله جَمال الدين التنّوخي، قدّسَ الله سرّه، السجلاتِ الأربعةَ، وألحقَها في أوّلِ الكتاب... وهذه الكتبُ الستةُ مرتّبةٌ كما يأتي من حيث الدرجة:

الكتابُ الأوّل، ويُسَمّى « السِيَر » ــ جَمْع سِيرة ــ وَعَدَدُ رسائله أربعَ عشَرة رسالة. أوّلُه السجل[٥٣]، وآخِرُه رسالةُ السبب[٥٤]، وعدَدُ كلماتِ هذا الكتاب ٢٩.٤٠٠ كلمة.

الكتابُ الثاني، ويُسمّى « الردّ »، وفيه ستٌّ وعشرون رسالةً، أوّله رسالةُ الدامِغَة[٥٥] المتضمِّنة الردَّ على النُصَيْرِي، وآخِرُه شعرُ النفسِ[٥٦]، وَعَدَدُ كلماتِه ٢٣.٨٠٠ كلمة.

---

(٥٢) وهو الجدّ الخامس للأمير عيسى التنوخي المعاصر للأمير السيّد، لم يذكره الشيخ الأشرفاني في كتابه « عمدة العارفين ».
(٥٣) كل ما يُسمّى سجلاً هو نص مولانا الحاكم، قبل بدء الدعوة ٤٠٨ هـ.
(٥٤) نص إمام الزمان حمزة.
(٥٥) نص إمام الزمان حمزة.
(٥٦) باسم ناظمه « إسمعيل التميمي » الملقَّب بـ« النفس »، وهو تالي حمزة وثاني الحدود الخمسة لدعوة التوحيد. سيأتي الكلام عليه.

الكتـــابُ الثـــالث، ويسمَّى « الجـــزء »[٥٧]، وفيه خمسَ عشرة رسالة، أوّلـــه رسالة « الجزء »[٥٨]، وآخرُه رسالةُ التَعَقُّب، وعددُ كلماتِه ٢٢.٥٠٠ كلمة.

الكتابُ الرابع، ويسمّى « الإِيقَاظُ »، وفيه ثلاثَ عشرةَ رسالة، أوّلهُ رسالة «الإِيقاظ»، وآخرُه رسالةُ « السَفَر »، وعدَدُ كلماتِه ٢٠.٢٠٠ كلمة.

الكتابُ الخامس، ويُسمّى « المِعْرَاج »، وفيه سبعُ رسائل، أوّلُه رسالة « المِعْـــراج »، وآخرُه رسالةُ « الردّ على أهل التأويل »، وعددُ كلماته ١٩.١٠٠ كلمة.

الكتـــابُ السادس، ويُسمّيه بعضُهـــم « التوبيخ »، وفيه ستٌّ وثلاثون رســـالة، أوّلـــه « التوبيخ لابن البَربَرِيّة »، وآخره « منشورُ الغَيْبَة »، وعددُ كلماته ٢٥.٠٠٠ كلمة »[٥٩].

هذه الرسائل تجدُها مجموعةً في ثلاثةِ مجلّداتٍ، طبعتْ سنةَ ١٤٠٠ هـــ / ١٩٨٠ م، وعليها نعتمدُ في بحثنا. وتجدُها في المكتبة الوطنيّةِ بباريس في نُسَخٍ عديدةٍ من كلِ جزء، من الرقم ١٤٠٨ حتى

---

(٥٧) في طبعة سنة ١٤٠٠ هـ سمّيت هذه الرسالة باسم « الوصايا السبع للموحدين ». وهو من الدكتور محمد كامل حسين في كتابه « طائفة الدروز، تاريخها وعقائدها » بمصر سنة ١٩٦٢، ص ٩٨. والأصح ما ورد في الرسالة نفسها: « الجزء الأول من السبعة أجزاء »...

(٥٨) من أول الكتاب الثالث إلى النهاية (أي نهاية السادس) نصّ سيّدنا بهاء الدين.

(٥٩) راجع: توفيق سليمان، أضواء على تاريخ مذهب التوحيد، بيروت، كانون الأول سنة ١٩٦٣، دار ألف ليلة وليلة، ص ٢٩ ـ ٣٢.

الرقم ١٤٣٦، وفي المكتبةِ الفاتيكانيّة من الرقم ٩٠٩ حتـــى ٩١٣، والأرقـــام: ٣٧٩، ٧٢١، ٩٣٣، ١٣٢٢، ١٣٣٥، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٨، وفـــي المتحـــفِ البريطاني الأرقام: ١١٤٣ ــ ١١٤٧، ١٣٨، ومكتبة كمبـــردج الأرقـــام: ١٣٦١ ــ ١٣٦٥، ومكتبة مانشتسر ريلند الأرقام ١١٧ ــ ١٢١، ومكتبة بْرِنْسْتُونْ جَارِيْتْ، الأرقـــام: ١٦١٣ ــ ١٦١٦، ومكتبة أكسفُورد، ٤٢٠ ــ ٤٣٢، ومكتبة مْيُـــونِخ: ٢١٧ ــ ٢٢٤، ومكتبـــة لَيْـــدِنْ: ١٩٧٨، ومكتبة بَرْلِين: ١٨٧٠، ١٥٥٠، ١٤٠٣ ــ ١٤٠٩، ٢٠٩٩، ٨١٤ ــ ٨١٩، ومكتبة فِيِّنَّا: ١٥٧٣؛ والمكتبة البُودْلِيينِيَّة: ٤١٦ ــ ٤١٨، ومكتبة شَسْتِرْ بيتِـــي: ٣٣٧٣، والمتحـــف الاسيوي في لييننجراد: ٩٦ ــ ١٠٠، وأَبْسَالاَ نورَنْبرِج: ٥٠١ ــ ٥٠٤، ودار الكتب المصرية، والمكتبة التيموريّة، قسم العقائد، وقسم النِحَل، في أرقام متعدّدة ومتفرّقة، ومكتبات لبنانيّة عامّة وخاصّة، وخلوات درزيّة كثيرة، لا نجد لذكرها وتعيينها حصانة.

والمعروفُ أن جميعَ رسائلَ الحكمةِ وشروحاتِها تُنْسَخُ باليـــد، ولا يجـــوزُ طباعتُهـــا اطلاقاً. ينسخُها شيوخٌ مدَرّبون، بأمانةٍ كلّيّةٍ، وبألوانٍ خمسةٍ ترمزُ إلى حدودِ الدعوةِ الخمســـة، وتؤلّفُ ألوانَ العلمَ الدرزيّ. بيد أنّ عدداً منها طُبِعَ وتُرجِمَ إلى لغاتٍ أجنبيّة، نُثْبِتُ لها سَـــرْداً في آخرِ الكتاب.

٨) شروحات « الحكمة »:

اعتمدْنا أيضاً على شروحاتِ « رسائلِ الحكمةِ »؛ وسيّدُ الشارحين الأميرُ السيّدُ عبـــد الله التّنوخي، قدّسَ الله سرّه. يقولُ فيه الشيخُ الفاضلُ

أحدُ كبارِ الموحدين الدروز في القرنِ الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) بعدَ مَضِـــي أكثرَ من قرنٍ على وفاتِه: « شروحاتُ الأميرِ السيّدِ إمامنَا، وهي أَوّلُ ما يُحَاسِبُنَا اللهُ فيهِ يـــومَ القيامة، لأنّها واضحةٌ مُوضِحَةٌ. ما تَرَكَتْنا في شبهَةٍ، ولا أبقَتْنا في حَيرَةٍ. وفيها كفايَتُنَا، ومـــا نريدُه عِلماً وَعَمَلاً »(٦٠).

لقد تركَ لنا الأميرُ السيّدُ أكثر من أربعةَ عشرَ تفسيراً، أجلّها تفسيرُه علـــى « رســـالةِ كشفِ الحقائقِ » رقم ١٣ من الجزء الأوّل في مجموعة « رسائل الحكمة »، وهو كتابٌ ضخمٌ تزيدُ صفحاتُه على الألفِ صفحة. جميعُ ما وضعَه الأميرُ السيّدُ مخطوطٌ، سرِّيّ، نادرٌ. يعتمِدُ عليه الدروزُ حتى يومنا، ويُجِلّونَه كالحكمةِ نفسِها.

واعتمدْنَا أيضاً على مُعْجَمٍ ضَخمٍ لألفاظِ « الحكمةِ »، كان سبيلَنا وهدايَتنا في اقتناصِ معاني الكلماتِ، كلمةً كلمةً، وهو « كتابُ الدُّرَرِ المضيّةِ، واللمعِ النورانيّة، في تلخيصِ ألفـــاظِ الحكمةِ الشريفةِ ومعانيها الروحانيّة »، مُنَسَّقٌ على طريقةِ المعاجمِ العربيةِ القديمـــة، أي أنّـــكَ تبحثُ عن الكلمةِ المطلوبةِ ابتداءً من حرفِهـــا الأخير، فكلمةُ « حكمة »، مثلاً، تَطلبُها في بابِ « الميم » فصلِ « الحاء ». يعتمدُ هذا الكتاب على مراجعَ درزيّة جمّة « بحيثُ أنَ المـــداومَ لمطالعتِه والمتبحِّرَ فيهِ يَكفيهِ ذلك عن غيره، لأنّ الذي يَطلبُه في المفرّق قد حصَل له في هـــذا الكتاب مجموع » (المقدمة، ص ١). وشبيهٌ به كتـــاب « المنـــاظرات »، وكتـــاب « عمـــدة العارفين في قَصِص النبيّين »، وهما من أجلّ المراجع النادرة.

---

(٦٠) انظر ابراهيم يزبك، وليّ من لبنان، منشورات أوراق لبنانيّة ١٩٦٠.

٩) مصادر عربيّة حديثة:

استطعنا أيضاً أن نجمعَ كتباً درزيّة حديثة، وضعَها باحثون دروز وغيرُ دروز، وترى لها ثَبْتاً كاملاً في مراجع الكتاب. وكان بودّنا الأخذُ بالمبدأ القائل: إن الحقيقةَ تؤخَذُ من فمِ أصحابِها؛ ولكنّ الحقيقةَ الدرزيّة يَعمَدُ أصحابُها على كتمانِها، وَفْقَ مبدأ « التَقِيَّةِ » التي تقولُ به الحكمةُ الشريفة، وذلك لمنعِها وصَونِها عن غيرِ مستحقّيها. لأجل ذلك يصعبُ علينا الاعتمادُ عليهم، كما نعجزُ عن استخلاصِ الحقيقةِ عندهم.

لكنّ السفيرَ عبد الله النجّار، في كتابِه « مذهب الموحدين الدروز » في طبعته الثانية سنة ١٩٦٧ وطبعته الأولى سنة ١٩٦٥، يخرج عنهم، اللّهمَ إلاّ في بعضِ الأمور كانَ فيها حَذِراً لدقّةِ الموقِف... ولذلك أصدرتِ السلطاتُ اللبنانيّة المختصّة قَراراً رقمه ٤٨٩ بتاريخ ٢ تموز سنة ١٩٦٥ يقضي بمنع الكتابِ ومصادرتِه. ولذلك أيضاً كَلَّفَ مجلسُ الطائفةِ الدرزيّةِ الدكتورَ سامي نسيب مكارم بالردِّ عليه في كتابٍ أسماه « أضواء على مسلك التوحيد « الدرزيّة »، وقدّم له معاليَ الأستاذ كمال جنبلاط والسيّد بايازيد (؟)، طبعة صادر سنة ١٩٦٦.

ولن نمرَّ على الردِّ وطريقةِ وضعِه دون ملاحظة: لم يوفّرْ لنا السفيرُ النجارُ فكرةً واحدةً إلاّ دَعَمَها باستشهادٍ من نصوصِ « الحكمة »، وأنتَ لنْ ترى في « مقدمةِ » جنبلاط، أو في « توطئة » بايازيد، أو في الكتابِ كلّه، استشهاداً واحداً بنصوصٍ درزيّة، في حين أنَّ الثلاثةَ لم يوفِّروا لنا فيلسوفاً من الفلاسفةِ الأقدمين، أمثال فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو،

أو من الفلاسفةِ المسلمين، أمثال الفارابي وابن سينا وأخوان الصفاء، أو من أصحابِ الطريقةِ الصوفيّة، أمثال البُسطامي والتَستُّري والجُنَيد وابن عَرَبي وفريد الدين العَطَّار والحَلاّج والغَزالي... وسواهم، أو من المفكرين الغربيين... إلاّ حشروه في الكتاب. لكأنّ كلّ النصوصِ تَصلحُ للردِّ على السفيرِ ما عدا النصوص الدرزيّة المعنيّة. والمعلوم أنّ الموضوعَ يدورُ كلّه حولَ مفهومِ السفيرِ لهذه النصوص وصحّةِ نقلهِ عنها والاعتمادِ عليها.

وبينَ الكتب العربيّة التي عالجتِ الدرزيَّة بشيء من الموضوعيّة، كتابُ طائفة الدروز، تاريخها وعقائدها « للدكتور محمّد كامل حسين، سنة ١٩٦٢، وهو مفقود. إلاّ أنّ الدكتورَ، على موضوعيّته واعتمادِه على النصوص، لا يريدُ أن يصدِّقَ ما يقرأُ من نصوصٍ تهدمُ الإسلامُ وتنقُضُ دعائِمَه وتشتمُ نبيَّه، بل يريدُ، رغم كل شيء، اعتبارَ الدروز من المسلمين الذين « لا يقبلون بغيرِ الإسلام بديلاً » (ص ١٢٧)... وكذلك أيضاً كتابُ « مذاهب الإسلاميين »، الجزء الثاني، للدكتور عبد الرحمن بدوي، المطبوع في دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٧٣. لقد صودر الكتاب مباشرة بعد طبعه، وهو مفقود من أسواق المعرفة. وهو أيضاً، رغم موضوعيّته، يتحاشى نصوصاً كثيرة من الحكمةِ جريئةً على الإسلام...

١٠) المصادر الأجنبيّة:

أمّا الكَتَبَةُ الغربيّون الذين عالجوا موضوعَ الدرزيّة فقليلون. على رأسهم البارون Sylvestre de Sacy في مؤلَّفِه الضخمِ المسمّى:

Exposé de la Religion des Druzes المطبوع سنة ١٨٣٨. يعالج الكتابُ معظمَ العقائدِ الدرزيّة معالجةً موضوعيّة موسَّعة. في الجزء الأوّل منه ثَبْتٌ لرسائلِ الحكمة ولتاريخِ الحاكم بأمر الله، وفي الجزء الثاني عرضٌ موسّع للعقيدة مع ترجمةٍ لنصوصٍ عديدة. لقد بقيَ الكاتبُ أكثرَ من أربعين سنة يبحثُ ويدرس ويترقَّب المزيدَ من المخطوطاتِ الدرزيّة ليزيد في فهمِ ألغازِ الحكمة وأسرارها، ولكنّ دون جدوى؛ فجاء كتابُه مقصوراً على مقدرتِه الشخصيّة. وهذا نقصٌ لم يستطِعْ تفاديه. وقد أخذ عليه Henri Guys جملةَ ملاحظاتٍ في كتابه: Théogonie des Druzes المطبوع سنة ١٨٦٣... ومع هذا يبقى الكتابُ مرجعاً رئيساً للباحثِين، ويبقى الكاتِبُ جَدَّهُمُ الأَوّل.

أمّا Henri Guys في كتاب: La Nation druze, son histoire, sa religion, ses mœurs et son état politique المطبوع سنة ١٨٦٣ فهو أيضاً من المراجع الهامّة لفهم الدرزيّة، ولكنّه مختَصر، ولا يعتمدُ كثيراً على النصوص. وهو يتضمَّن نظرةً شاملةً وسريعةً في تاريخ الدروز والحاكم، وفي العادات الدرزيّة، وحالتِهم السياسيّة والاجتماعيّة...

وما يوجَد في « الموسوعة البريطانيّة »، المجلّد الثامن، تحت اسم « الدروز »، وفي « الموسوعة الإسلاميّة »، المجلّد الأوّل، وغيرها من المرجع الأجنبيّة التي ترى لها ثبتاً في مراجع الكتاب، فلا جديد فيها. وقد يكون « سِلْفِسْتِرْ دِى سَاسِي » مَرجَعَها وأبَاها.

*****

١١) هذا الكتاب:

أمّا هذا الكتاب الذي لم نوفِّر له مَرجَعاً الاّ اعتمدْناه بأمانةٍ صادقةٍ، فهو يتضمّنُ قــولَ الحقّ، بِمَحَبَّةٍ؛ وقد لا تُغرِينا كرامةُ الحقِّ أكثرَ ممّا نحن مُلزَمون بمحبّةِ أصحابِه. في ظنّنِا أنّنا سنُحاسَبُ يوماً، أمامَ الله والضمير، لا على محبّتنا للحقيقة، بل على مقدارِ محبّتِنا للإنسان. إن حقيقةَ المحبّةِ تستهوينا أكثرَ من محبّةِ الحقيقة. ومع هذا، لن نكونَ بعيدين عن الأمرين معــاً. بكلِ إخلاصٍ نقول: نريدُ الإنسانَ حرّاً، واللهَ حرّاً، والحقيقةَ حرّةً. نريد « الحكمــة » حــرّةً، والكشفَ عنها حرّاً، والحُكمَ علينا حرّاً.

بهذه الكرامة نريد لهذا الكتاب النَجاح، ونريدُ له أن يكونَ سَعْياً لأهلِ الكرامة؛ فيَضَــعُ الحكمةَ في متناوَلِ كلِ إنسانٍ، لأنّنا مُطَالَبون أمامَ الله بالجوابِ على سؤاله لنا: « ماذا صَنَعْتَ بأخيك؟ » (سفر التكوين ٤ / ١٠)، ولم يَسألِ اللهُ يوماً: ماذا صنعتَ بالناموس؟ أو بالحكمةِ؟ أو بالحقيقةِ؟ أو بأيّةِ قيمةٍ أخرى. سرُّ الإنسان هو المَصُونُ لَدَينا، وليس أيُّ سرٍّ آخر. وإنّنا نَسعى جُهدَنا ليكونَ سرُّ الإنسان غنيّاً، لا سرُّ الحكمةِ. وكلُ إنسانٍ يستحِقُّ الحكمةَ، وليس العكس.

فَلْيَتْرُكْ لنا محبّو اللهِ والحكمةِ حظَّ السعيِ وإيّاهم إلى إغناءِ سرِّ الإنسان وصَونِهِ، لأنه، لا الله ولا الحكمة، بحاجةٍ إلى صيانة. فماذا يضيرُ الحكمةَ وأصحابَها إنْ نحــن سَــعَيْنَا إلــى اكتشاف سرّها، واعتبرْنا الإنسانَ قلبَ هذا الكونِ ورأسَه؟! أيَّ نَغَمٍ طروبٍ نَنْشِدُ لِيَفهَمَ أصحابُ الحكمة أنَّ الوحيَ كان لأجلِ الإنسانِ، والنبوءاتِ كذلك، والحكمــةَ أيضــاً؟ ولــيس العكــس يجوز؟!!

إذا جاز لبني معروف اللجوءُ « إلى أطرافِ لبنانَ أَمَلاً بأنّ يُتاحَ لهم العمــلُ بحريّــةٍ وأمان »[٦١]، أفلا يجوزُ لنا نحنُ هذا « الأمل » نفسُه للعمل بــ« الحريّةِ والأمانِ » نفسَيهما؟! وإذا جازَ لهم أن يعرفوا كلَ شيء عن غيرهم، أفلا يجوزُ لهذا الغير أن يَعرِفَ شيئاً عــنهم؟! إنّهم يَعرِفون سرَّ اليهوديّةِ واليهود، ويعرفونَ سرّ المسيحيّة والمسيحيين، ويعرفون سرّ الإسلام والمسلمين... يعرفــون التوراة والإنجيل والقرآن... هل من حقِّهم أن يمنعُونا عنهم، ويمنعُوا « الحكمةَ » عنّا؟!

نحن وإيّاهم نبحثُ عن الحكمةِ والحقِّ بِلَهَفِ الظمآنِ إلى الماء. فلا يَنخدعُ واحدُنا بأنّ اللهَ أقامَه على الحكمة قَيِّماً، وعلى أبوابِ السماء حارِساً! لا نظنُّ بأنّ مفاتيحَ مغاليقِ الملكــوتِ بيدِ واحدٍ منّا، لِيُدخِلَ مَن يَشاء وَيَمْنَعَ مَن يشاء. كلّنا ضارِعٌ إلى الله لِيَفْتَحَ له. ولــيس يجــوز للمتنعّمِ بضوءِ النهارِ أن يَرْغَبَ لغيره المكوثَ في ظلمةِ الليل. كلُّنَا يستحقُ النورَ والمعرفــةَ، واللهُ يدعو الجميعَ إليهما، بل يمنُّ على مُتَبَادِليّ الخيرِ سعادةً أوفى.

قَدَرُنا أنّنا عاشقو الإنسان حيثُ هو ومِن حيث هو. نَسعَدُ لسعادته، ونَحيا لكرامته. مِن حقِّه علينا كلُّ ما لَدَينا. ومن حقّنا عليه ألاّ يكونَ علينا مغلَقاً. وحظُّنا من الكونِ الرحيب إيّــاه. لن نتركَ أمامَه باباً موصدَاً، حتى لا يبقَى له علينا حجّة. يكفينا ما على الأرضِ من ظلام، وما في قلوب الناس من المآسي، وما في كواليس سياسات دول العالم من أسرار ومؤامرات.

المؤلّفون.

---

(٦١) يوسف يزبك، وليّ من لبنان، ص ٢٧.

الفصل الأول

تَاريخُ الحَاكم وَنَشأة الدرزيَّة

أوّلاً ــ مصادر التاريخ

ثانياً ــ نسبة الحاكم

ثالثاً ــ الحاكم تحت الوصاية: ٣٨٦ ــ ٣٩٠ هـ

رابعاً ــ الحاكم يستقلّ بالسلطة: ٣٩٠ ــ ٣٩٥

خامساً ــ غرابة الأحكام وسجلاّت الأمان: ٣٩٥ ــ ٣٩٨

سادساً ــ ذروة الشذوذ: ٣٩٨ ــ ٤٠٨

سابعاً ــ نشأة الدرزيّة: ٤٠٨ ــ ٤١١

ثامناً ــ نهاية الحاكم: ٤١١ هـ

خاتمة الفصل

أوّلاً ــ مَصَادرُ التَاريخ

إن عصر الحاكم بأمر الله هو « أغرب عصر في تاريخ مصر الإسلاميّة، وربّما كان أغرب عصر في تاريخ الإسلام كلّه، عصر يمازجه الخفاء والروع، وتطبعه ألوان من الاغراق والتناقض، مدهشة مثيرة معاً »[١]. ومهما دقّقنا في مصادر هذا العصر لن يبرح « الروع » مكانه، لأنّ المؤرّخين أنفسهم، على كثرتهم، غاضوا في غموضه وطرافته.

وكان أوّل المؤرّخين الذين وصل إلينا تاريخه يحيى بن سعيد الأنطاكيّ، وهو شاهد عيان، دوّن الأخبار والحوادث، ونظر فيها مرّات عديدة، يقول: « كنت ألّفت هذا الكتاب لمن كلّفني، ووقع لي بعد ذلك تواريخ لم أكن وقفت عليها عند شروعي في عمله، فغيّرته بأجمعه، وبدّلت نظمه، وألّفته تأليفاً ثانياً. ثم أيضاً، بعد انتقالي إلى مدينة أنطاكيَة في سنة ٤٠٥ للهجرة، تصفّحته تصفيحاً ثانياً، وتحصّل لي تواريخ أخر، فخرّجت منها ما ألحقته به، وأضفته إليه، وغيّرت بعضه، وقرّرت الأمر على هذه النسخة »[٢].

(١) محمد عنان، الحاكم بأمر وأسرار الدعوة الفاطمية، ص ١٠٤.
(٢) تاريخ الأنطاكيّ صنفه تتبّعاً لتاريخ سعيد بن بطريق الذي انتهى فيه سنة ٣٢٦ هـ. أمّا الأنطاكيّ فقد انتهى فيه سنة ٤٢٥ هـ. نشرهما معاً الأب شيخو، طبعة الآباء اليسوعيين، سنة ١٩٠٥ و١٩٢٩.

انتهى الأنطاكيّ في تاريخه سنة ٤٢٥ هـ، وهو يعرض عصر الحاكم بدقّة متناهية سنة فسنة، و « يبدى في استعراضه لحوادث العصر اعتدالاً واتّزاناً ودقّة، تجعل لروايته قيمة خاصّة »[٣]. ويحتلّ الكلام فيه على الحاكم قسماً ضافياً، من ص ١٨٠ حتى ٢٣٤. أمّا التواريخ التي نقل عنها الأنطاكيّ، بحسب شهادته، أمثال سيرة المعزّ لابن زولاق، وتاريخ مصر للمسبّحي، وخطط القضاعي، وتاريخ ابن الطوير، وتاريخ ابن المأمون، وغيرها، فقد دثرت؛ ولكن بقي منها الكثير في تواريخ اللاحقين.

كما الأنطاكيّ أخذ عن السابقين كان أيضاً مصدراً للذين أتوا بعده. وإنّنا نرى عند جميعهم اهتماماً بالغاً بهذه الحقبة من تاريخ مصر. ويعادل تاريخ الأنطاكيّ أهميّة « كتاب سير الآباء البطاركة » لساويرس بن المقفّع أسقف الاشمونيين، وفي ذيله ملحق يسمّى « سير البيعة المقدسة »[٤]. وتفوق الكلّ أهميّة تلك الرسائل التي كتبها إمام الزمان حمزة، وفيها الشيء الكثير عن الحاكم وتصرّفاته[٥]... أمّا سائر المؤرّخين الذين أخذنا عنهم لإثبات حجّتنا فالكلام عنهم يطول.

... لكنّنا لن نمرّ دون الإشارة إلى كتاب « أخبار الدول المنقطعة للوزير جمال الدين أبي الحسن بن علي بن كمال الدين الخزرجي المصري (+ ٦٢٣ هـ)، وكتاب « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » لشمس الدين أبي المظفّر يوسف بن قزاوغلى المعروف بسبط بن الجوزي (+ ٦٥٤)، وتاريخ

---

(٣) محمّد عنان، الحاكم بأمر الله...، ص ١٠.
(٤) مخطوط المكتبة الوطنية بباريس، ودار الكتب المصرية النسخة المصوّرة عنه، رقم ٦٤٣٤ ح.
(٥) انظر: « السجل المنهي فيه عن الخمر » رقم ٢، و « خبر اليهود والنصارى » رقم ٣، و « كتاب فيه حقائق... » رقم ١١... وغيرها في « رسائل الحكمة ».

أبي هلال الصابي، المنشور ضمن كتاب « تجارب الأمم » لابن مسكويه، و « تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام » للذهبي (+ ٦٧٣ هـ)، وكتاب « وفيّات الأعيان » لابن خلّكان (+ ٦٨١ هـ)، و « تاريخ أبي صالح الأرمني »، (أواخر القرن السادس هـ)، و « تاريخ المسلمين » للمكين بن العميد (أواخر القرن السابع هـ)، و « مختصر تاريخ الدول » لابن العبرى (+ ١٢٨٦ م) و « نهاية الارب » للنويري (+ ٧٣٣ هـ)، و « صبح الأعشى » للقلقشندى (+ ٨٢١ هـ)، « و كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » للمقريزى (+٨٤٥)، وله أيضاً « كتاب اتّعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء، وكتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى (+ ٨٧٤ هـ)، وتاريخ القفطي (+ ٦٤٦) في « أخبار العلماء باخبار الحكماء »، و « الكامل في التاريخ » لابن الأثير (+ ١٢٣٤ م)، و « المختصر في أخبار البشر » لأبي الفداء (+ ١٢٧١ م)، و « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » لابن خلدون (+ ١٤٠٦ م)، و « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » للسيوطي (+ ١٥٠٥ م)... وغيرهم كثيرون.

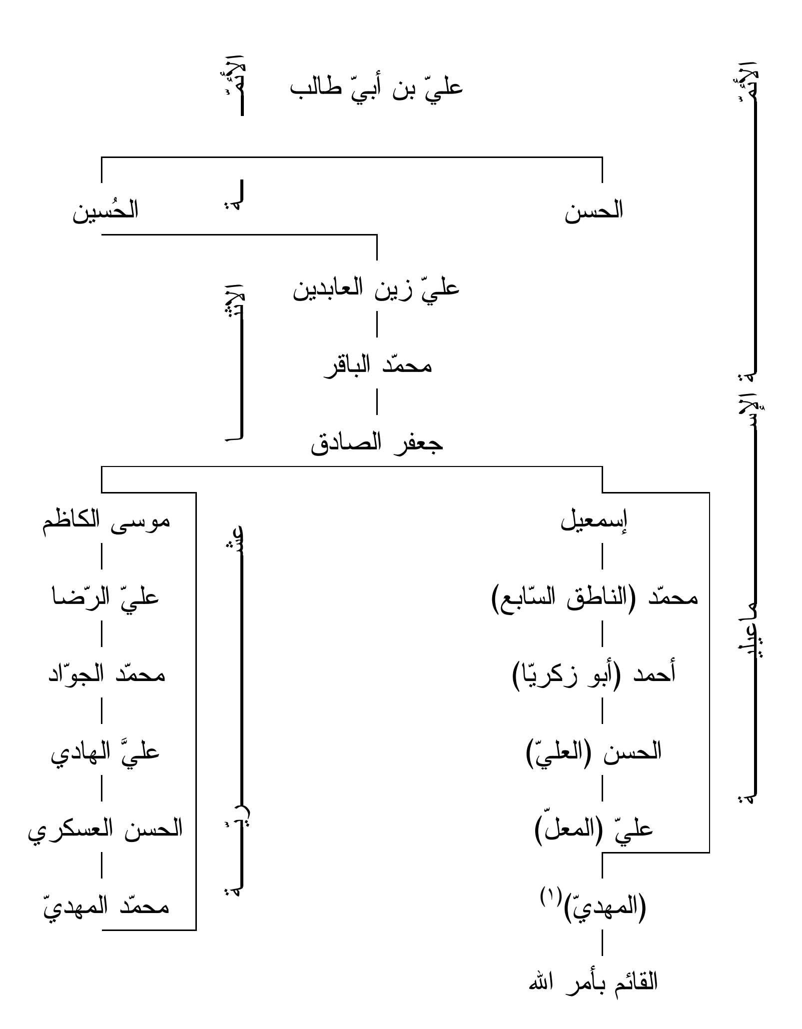
لم نعدّد هذه المراجع الاّ لنحيلك إليها لتتأكّد من اهتمام المؤرّخين بعصر الحاكم، ولتكون لك الأدلّة على ذلك « الروع » وتلك « الدهشة المثيرة » و « الأحداث العجيبة والنوادر الشائقة... والنزعات والأهواء المروعة »[٦] التي سوف تقف عند قراءتها مذعوراً، وسوف تسأل نفسك، لا محالة، إن كنت تقرأ تاريخ البشر أم تاريخاً لغير البشر!!!

*****

(٦) محمّد عنان، الحاكم بأمر الله...، ص ٩.

ثانياً ــ نسبَة الحَاكم

ينتسب الحاكم بأمر الله، أبو عليّ، المنصور بن العزيز بالله، الخليفة والإمام الفــاطمي السادس ــ أو الخامس بنظر الدروز ــ إلى البيت العلويّ، عبر الشيعة الإسماعيليّة، كما ترى:



(١) يخرج المهدي، بنظر الدروز، من أن يكون إماماً « مستقرّاً »، بل « مستودعاً ».

الخلفاء الفاطميّون

عبيد الله المهدى	حكم	٢٩٧ ــ ٣٢٢ هــ / ٩٠٩ ــ ٩٣٤ م
القائم بأمر الله	حكم	٣٢٢ ــ ٣٣٤ هــ / ٩٣٤ ــ ٩٤٥ م
المنصور بالله	حكم	٣٣٤ ــ ٣٤١ هــ / ٩٤٥ ــ ٩٥٢ م
المعزّ لدين الله	حكم	٣٤١ ــ ٣٦٥ هــ / ٩٥٢ ــ ٩٧٥ م
العزيز بالله	حكم	٣٦٥ ــ ٣٨٦ هــ / ٩٧٥ ــ ٩٩٦ م
الحاكم بأمر الله	حكم	٣٨٦ ــ ٤١١ هــ / ٩٩٦ ــ ١٠٢١ م
الظاهر لأعزاز دين الله	حكم	٤١١ ــ ٤٢٧ هــ / ١٠٢١ ــ ١٠٣٥ م.

يتبيّن من هذه السلسلة ما يلي:

١ً ــ إن الإِمامة مستمرّة من عليّ بن أبي طالب، مروراً بإسمعيل، حتى الحاكم بأمر الله. إلاّ أنّ التاريخ الشيعي يختلف في عدد أئمّة الستر، بين إسمعيل وعبيد الله المهدى، وذلك نظراً للكتمان الذي فرض على الأئمّة اتّقاء خطر العباسيّين. أمّا الدروز فيأخذون بهذا التسلسل، ما عدا عبيد الله المهدى ــ لعنه الله ــ فإنّه كان وصيّاً للقائم، واعتبر نفسه حاكماً أصيلاً وإِماماً « مستقراً »، في حين أنّه إِمام « مستودع »، كان عليه أن يؤدّي الحكم لصاحبه.

٢ً ــ إن عبيد الله المهدى، واسمه الحقيقي سعيد الخيّر، ينتسب، بحسب الدروز، إلى عبيد الله بن ميمون القداح، واضع أسس الدعوة الباطنية، ومنظّم الحركة القرمطيّة، التي كادت تقضي على الدولة العباسيّة والدولة الفاطميّة معاً. استولت على الاحساء والبحرين، وأسّست فيهما دولة قويّة نشيطة، واقتلعت الحجر الأسود من مكّة، وذهبت به

إلى البحرين حيث بقي فيها اثنتين وعشرين سنة، من ٣١٧ هـ حتى ٣٣٩.

٣ً ـ يختلف التاريخ أيضاً في عدد الأحقاب بين المهدى والقدّاح، كما يختلف الذين ينسبونه إلى السلسلة العلويّة. وتبقى مسألة نسبه « من أعقد مسائل تاريخ الشرق وأكثرها غموضاً وابهاماً، لتشعّب آراء الكتّاب المعاصرين من العرب على اختلافهم، لأنّهم كتبوا متأثّرين بسطوة الخلفاء من العبّاسيين أو من الفاطميين »(٢).

٤ً ـ أمّا الدروز فيقولون بأنّ سعيد الخير هذا ـ المهدى ـ استقرّ بسلميّة من أعمال حمص، واستمرّ في نشر الدعوة « القدّاحيّة، وبثّ الدعاة، حتى عظم أمره وأمر دعوته. وحاول الخليفة العبّاسي المكتفي بالله أن يقبض عليه، وأن يخمد دعوته، ففرّ إلى المغرب، وتغلّب على المغاربة، وأسس دولة العبيديين (نسبة إلى عبيد الله المهدى) وتسمّت فيما بعد بالدولة الفاطميّة.

٥ً ـ كان في « سلميّة » آنذاك محمّد القائم بأمر الله ولداً صغيراً، لم يستطع بعد القيام بأعباء الإمامة الموروثة عن أبيه، فتكفّله سعيد الخير، وكان عليه وصيّاً، وفرّ، حين هربه إلى المغرب، بالإمام الصغير. وعندما أصبح بإمكان الإمام القيام بمهامّه، منعه عن ذلك، وانتحل الإمامة لنفسه. وحدثت بينهما معارك، استعاد فيها محمّد حقّه المسلوب، وأصبح حاكم الدولة الفاطميّة بلقب « القائم بأمر الله »(٣).

٦ً ـ واستمرّت الإمامة والخلافة في أعقاب القائم حتى الحاكم.

---

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٦٦.
(٣) يعتبر الدروز، كما سنرى، الأئمة من القائم حتى الحاكم « مقامات إلهيّة ».

ثالثاً ــ الحَاكمُ تَحتَ الوصَايَة: ٣٨٦ ــ ٣٩٠ هــ.

ولد الحاكم بأمر الله، أبو علي، المنصور بن العزيز بالله، يوم الخميس في ٢٣ ربيــع الأوّل سنة ٣٧٥ هــ، الموافق ١٣ آب سنة ٩٨٥ م. وبويع بالخلافة يوم توفّي أبوه ببلبــيس، عندما خرج لحرب القرامطة، وذلك يوم الخميس في ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هــ؛ وكان عمره يومذاك إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر. وكان له أخت وحيدة تدعى « ست الملك »، تكبــره بنحو خمسة عشر عاماً، « قويّة العزم بصيرة بالأمور »(١).

تولّى الوصايةَ عليه، أوّلَ الأمر، الحسنُ بن عمّار، زعــيم كتامـــة، أقــوى القبائـــل المغربيّة، وعماد الدولة الفاطميّة منذ نشأتها. وراح ابن عمّار يغدق الأموال والأعطية علـــى الكتاميين، ويقطع الأرزاق عن الأتراك والمشارقة، كما راح يولي على شؤون الدولة ووظائفها رجالاً من كتامة وزعماء من المغاربة، ويضطهد الأتراك، ويقتل منهم من يقف بوجه حكمه، حتى « استولى الكتاميّون على الدولة استيلاءً تامّاً »(٢).

إلاّ أنّ المشارقة، بعد سنة ضيق، استقووا على الكتاميين، وقاتلوهم، وانتصروا عليهم، ونهبوا دار ابن عمّار ودُوْرَ جماعته. وخاف

---

(١) انظر نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٦١، النجوم الزاهرة ٤ / ١٩٥.
(٢) تاريخ الأنطاكيّ، ص ١٨١.

ابن عمّار على نفسه واستخفى مدّة خارج المدينة. فولّى الحاكم « الأمورَ إلى برجوان الخادم، زعيم الأتراك والمشارقة، فقبض برجوان على زمام الحكم، واستأثر بكل السلطة، واضطهد المغاربة، وعوّل على كاتبه. أبي العلاء فهد بن ابراهيم النصراني في النيابة عنه، واستبدّ بكل أمر في الدولة زهاء عامين ونصف.

في عهد وصاية برجوان قام رجل خارجي بِصُوْر يُعرف بـ« علاّقة » بثورة عارمة، وجَمَع إليه الأحداثَ والرعاع، وضرب السكّة باسمه، ونقش عليها: « عزّا بعد فاقة للأمير علاّقة »، واستنجد بباسيل ملك الروم، وضمن له تسليم البلد إليه إن نصره؛ فاستجاب باسيل، وسيّر إليه بنجدة في البحر... وثار بالرملة، في نفس الوقت، زعيمّها المفرّج بن دغفل الجرّاح، فسيّر برجوان إليه جيشَه وأخضع ثورته، ثم أكمل طريقه إلى صور، فحاصر الفاطميّون صُورَ برّاً وبحراً، ونشبت بين الفريقين معاركُ شديدة، هزم فيها علاّقة، وأُسِر، وأُرسِل إلى القاهرة، فأُعدم، وصلب، ومثّل به[٣].

وجرت أيضاً معارك بين الروم والفاطميين، وفي شوال ٣٨٩، سار « جيش بن صمصام » قائد الجيوش الفاطمية على أنطاكيَة وضمّها إلى الحكم الفاطمي. وبعد عودته منها بأربعة أيّام عاد الروم واستولوا عليها، وفتحوا كل البلاد الواقعة بين أنطاكيَة وحمص، وتقدّموا نحو بعلبك، ووصل إلى أبواب الشام « فأجمع عليه بدمشق من العساكر، ما أظنّ أنه لم يجتمع قط فيها للإسلام »... ورجع الروم على طريق الساحل وأحرقوا عرقة، ونزلوا على طرابلس وطرسوس... ولكنّ برجوان قرّر إقامة الهدنة بينه وبينهم، وانتدب لها بطريرك بيت المقدس، فكانت عشر سنين.

---

(٣) الأنطاكيّ ٨١ ـ ١٨٢، ابن الأثير ٩ / ٤١، ابن خلدون ٤ / ٥٧.

رابعاً ــ الحَاكمُ يَسْتَقلّ بالسُلطة: ٣٩٠ ــ ٣٩٥

ذات يوم، شعر الحاكم أنّ سلطته أصبحت، مع برجوان، مسلوبة. فاستدعاه يوماً إلى حديقة داره، ودبّر له مَن يقتله، فكان القاتل ريدان الصقلبي حاملَ المظلّة وخصمَ برجوان العنيد، فقتله في ١٦ ربيع الثاني سنة ٣٩٠ / نيسان سنة ١٠٠٠ م. ثم أقبل الحاكم بنفسه على الجثّة، وطعنها برمحه[١]. وانتقلت السلطة كاملة إليه، وبدأ بتعيين معاونيه، فأقرّ كاتبه فهد بن إبراهيم النصراني، ولقّبه بالرئيس، ونصب معه الحسين بن جوهر[٢]، ولقبه بقائد القوّاد، وقدّم إليه عبد العزيز بن محمّد بن النعمان[٣] الذي أصبح قاضي القضاة في مصر كلّها.

بعد ستة أشهر من مقتل برجوان، قتل الحاكم ابنَ عمّار، وكان ذلك في ١٤ شوال / تشرين الأوّل، بعد أن حماه سابقاً من نقمة الأتراك، الذين نفّذوا قتله، وحملوا رأسه إلى الحاكم[٤].

يعترف حمزة نفسه في « السيرة المستقيمة » بهذا القتل، فيقول: « فأمر مولانا سبحانه بقتلهم، فقتلوا قتل الكلاب. ولم يخشَ من تشويش

---

(١) المقريزي: الخطط ٢ / ١ ـ ٥، اتّعاظ، ورقة ٥٤ ب، نهاية الارب ٥٢.
(٢) كان جوهر الصقلبي أشهر قوّاد المعزّ، وهو الذي فتح مصر وبنى القاهرة.
(٣) عائلة « النعمان » استلمت رئاسة القضاة مدة طويلة في الدولة الفاطميّة.
(٤) خطط المقريزي ٣ / ٥٨، اتعاظ الحنفاء ٥٦ أ.

« العساكر والاضطراب... ثم أمر بقتل ملوك كتامة وجبابرتها بلا خوف من « نسلهم وأصحابهم ». ثم يعلّق حمزة قائلاً: « إن هذا القتل لا يتجرّأ « أحد من ملوك الأرض على فعله ». وأيضاً: « وأمّا أمر ملوكِ الأرض فما « يستجرئ أحد منهم على مثل ذلك »[٥].

١ً ــ شغف الحاكم بالليل:

واصل الحاكم، طوال أربع سنين (٣٩٠ ــ ٣٩٤) النزول إلى مصر متنكّراً. وكان شغفه بالليل من أظهر خواص هذه المرحلة. فكان يعقد مجالسه ليلاً، ويواصل الركوب كل ليلة، وينفق شطراً من الليل في جوب الشوارع والأزقّة، مع نفر يسير من خواصّه. وكان يصدر الأوامر بتعليق المصابيح ليلاً على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحالّ المختلفة في جميع طرقات القاهرة والفسطاط. « فصارت الشوارع والأسواق في الليل بمنزلة النهار ».

وكان الحاكم، على ما يقول حمزة « يمشي أنصاف الليالي في « أوساط ذراريهم بلا سيف ولا سكين... »[٦].

وكان يأمر « بكنس الشوارع والأزقّة وأمام أبواب الدُورِ في كل مكان. فكانت المدينة تبدو في هذه الفترات بالليل كأنّها شعلة مضيئة... وكان يزور كل ليلة حيّاً معيّناً، ويشقّ طائفة من الشوارع والدروب، ويقيم الحسبة بنفسه أحياناً، ويستطلع أحوالَ الشعب وأخبارَه. وكان يركب

(٥) رسائل الحكمة ١٢ / ١٢٦. سنثبت كلّما استطعنا أقوال المؤرّخين برسائل الحكمة. ونلتزم للدلالة عليها بمزدوجات في بداية كل سطر.
(٦) نفس المرجع.

إلى موضع موضع، وإلى شارع شارع، وإلى زقاق زقاق. وأصبحت جميع الأعمال والمعاملات تجري بالليل، وتزدهر مواطن السمر، وتختلط حياة الجدّ بحياة اللهو والقصف... وتغصّ بصنوف اللهو والمرح، وتنفق الأموال الوفيرة في المآكل والمشارب والسماع... وظهرت النساء في المجتمعات بكثرة، واشتدّ تيّار المجون والغواية »(٧).

وتنقل بعض الروايات أنّ الحاكم كان أحياناً يلهو، أثناء طوافه، برؤية بعض المناظر المثيرة: « كان الرعايا والرعاع يجتمعون في الأسواق بين يدي الحاكم، فيتصارعون ويتدافعون ويتلاكمون. فاقتضى ذلك وقوع حرب شديد بين أحداث مصر وأحداث القاهرة. وقد حملوا السلاح وأعدّوا آلات الحرب واقتتلوا قتالاً شديداً. وقُتل من الفريقين جماعة كثيرة، وانهزم أهل مصر، وتبعهم أهل القاهرة، وأخذوا ثياب النظّارة، ونهبوا القرافة والمعاقر »(٨).

ويؤكّد لنا حمزة هذه الروايات بقوله: إن الحاكم كان يأمر « الركابيّة باللعب بالعصي والمقارع... وبالصراع »، وبالكشف عن « الفروج، والأحاليل ». ويأمرهم أن « يحرقوا فروج بعضهم بعضاً بالنار »، ويقول « للواحد منهم: « أورني قَمَرَك، يعني اكشف عن أساسِك، وهو موضع « يخرج منه القذر... فإذا كشف عن أساسه وأخرج قبله... نجا »(٩).

ولكنّ، لمّا خرج الناس في ذلك عن الحدّ، وبالغوا في اللهو والإسراف والزينة والمجون، منع الحاكمُ النساءَ من الخروج ليلاً، وعوقب

---

(٧) المقريزى: خطط مصر ٣ / ١٧٦، اتّعاظ الحنفاء، ورقة ٥٦ ب...
(٨) تاريخ الأنطاكيّ، ص ١٨٥.
(٩) رسالة « كتاب فيه حقائق ما يظهر... » رقم ١١ ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

المخالفات بشدّة. ثم منع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهي، وأبطلت بعد ذلك جميع الأعمال والمعاملات ليلاً. وعاد الظلام يخيم على القاهرة بالليل. وشغف الحاكم بالليل وظلماته، حتى لبث مدى حين يؤثر الجلوس في الظلام[١٠]. « وخلت الطرقات من المارّة وأقفرت الشوارع والميادين بالليل، وغدت القاهرة كالمدينة المحصورة »[١١].

٢ ـ كنائس النصارى:

في هذه المرحلة قبض الحاكم على كتّاب الدواوين من النصارى. واعتقلوا. ثم أطلقوا بعد أسبوع، بشفاعة طبيبه أبي الفتح سهل بن مقشّر النصراني... وكان النصارى قد شرعوا في تجديد كنيسة قديمة مندرسة بظاهر مصر في الموضع المعروف براشدة، فثار قوم من المسلمين فهدموها، وأنشأ الحاكم مكانها مسجداً عظيماً. وهدموا أيضاً كنيستين كانتا في جواره... وبناهما مسجدين آخرين... وكان للنصارى حارة بالقاهرة يسكنون بها، فأخرجوا منها، وهدم ما كان لهم فيها من المنازل مع كنيستين كانتا بها. وعملت جميع الحارة مسجداً واحداً، وسمّاه الأزهر...

ونهى الحاكم عن بيع النبيذ، وأنْ لا يظهر شيء منه، وكسر جميع ما كان للخمّارين وأصحاب المواخير... وحظّر على النساء كشف

---

(١٠) مرآة الزمان ٣ / ٤٠١، النجوم الزاهرة ٤ / ١٧٦.

(١١) انظر النجوم الزاهرة ٤ م ١٧٦: « وأقام الحاكم سنين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً. ثمّ عنّ له أن يجلس في الظلمة، فجلس فيها مدّة ».

وجوههنّ وراء الجنائز، ومنع من البكاء والعويل، وخروج النوائح بالطبل والزّمر على الميت »(١٢).

٣ ــ القتل بالجملة:

يعترف حمزة إنّه ما من « قبيلة إلاّ وقد قتل ساداتهم، والرعيّة « كلّها أعداؤه في الدين »، ويقول: « قد قتل جبابرة الأرض وملوكها... « وهذه الأفعال ليس هو فعل أحد من البشر »(١٣).

لقد افتتح الحاكم عهده بقتل برجوان وابن عمّار، كما رأينا. وفي أواخر سنة ٣٩١ قتل مؤدّبه أبا التميم سعيد بن سعد الفارقي فيما كان يسامره في مجلسه. وفي المحرم من ٣٩٢ قتل ابن أبي نجدة متولّي الحسبة بعد أن اعتقله وقطع يده ولسانه ثم ضرب عنقه. وفي المحرم ٣٩٣ قتل أبا علي الحسن بن عسلوج وأحرقه، وكان متولّياً شؤون المال. وفي جمادى الأول من نفس العام قتل وزيره فهد بن إبراهيم النصراني الذي تولّى الرئاسة بعد برجوان. وبعد مدّة قتل أخاه أبا غالب وأحرقه بالنار. وأقام مكانه أبا الحسن بن عمر العداس، وبعد أشهر قتله وأحرقه بالنار. وقبل ذلك في شهر رجب قتل أبا طاهر ابن النحوى متولّي أعمال الشام. وفي أواخر ذى الحجة قتل ريدان صاحب المظلّة.

وفي سنة ٣٩٤ قتل أكثر الأعيان ورجال الدولة. وقد ذكر لنا المقريزى ثبتاً طويلاً ممّن قتلهم، فكان منهم: العسكري منجّمه، وأبو

(١٢) تاريخ الأنطاكيّ ١٨٥ ـ ١٨٦.
(١٣) رسالة السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٨.

عليّ عسلوج الديباجي، وعلي بن المندوفي الشاعر الأعمى، وإسمعيل بن سوار، وابن أبي خريطة، وابن المغازني المنجّم، وسهل بن كلس أخو يعقوب الوزير، والقائد أبو عبد الله الحسين البازيار... وقتل عدّة من زعماء كتامة، كالمقداد بن جعفر، وعلي بن سليمان، وأخيه يحيى، وخلف بن عبد الله، وابن سمود، ومحمد بن علي بن فلاح. وغيرهم... وقتل أيضاً عدداً كبيراً من الغلمان والخاصّة والجند والرعيّة.

وفي شعبان من سنة ٣٩٤ عزل الحسين بن النعمان عن منصب قاضي القضاة وداعي الدعاة، وندب مكانه عبد العزيز بن النعمان. ولم تمضِ أشهر حتى أدركته نقمة الحاكم. وعقب ذلك قتل الحاكم جماعة من الأعيان والعامّة يربى عددهم على المائة، وكان بينهم عبد الأعلى بن هاشم من قرابته[١٤].

ويذكر لنا حمزة هواية القتل عند الحاكم فيعدد لنا أسماء أمثال « سويد والحمام » اللذين كانا من جملة « الركابيّة »، وكان قتلهما « عبرة لمن اعتبر »[١٥]، وأمثال « مفرّج بن دغفل بن الجرّاح »، وكانت ملوك الأرض « عاجزة عنه »[١٦]، وغيرهم. حتى أنّ « قلوب العساكر تجزع في مضاجعهم ممّا رأوه من كسر الجيوش وقتل الرجال »[١٧].

*****

(١٤) خطط المقريزي ٣ / ٣٢، ٤ / ٧٠، النجوم الزاهرة ٤ / ٢١٢.
(١٥) كتاب فيه حقائق ما يظهر قدّام مولانا جلّ ذكره من الهزل ١١ / ١٠٩.
(١٦) رسالة السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٧.
(١٧) رسالة السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٦.

خامساً ــ غَرابَة الأحكام وَسجلاّت الأمان: ٣٩٥ ــ ٣٩٨

اتّصفت هذه الفترة من حكم الحاكم بإصدار الأحكام الغريبـــة المدهشـــة، وبإصـــدار سجلاّت أمان لمن روّعهم القتل والطغيان، وبثورة أبي ركوة التي قضّـــت مضـــاجع الدولـــة الفاطميّة.

١ً ــ غرابة الأحكام:

في ١٣ المحرم سنة ٣٩٥ أمر الحاكم أن يلبس النصـــارى واليهـــود الزنـــانير فـــي أوساطهم والعمائم السود على رؤوسهم...

وأمر أيضاً أن يكتب على الجوامع والمساجد والحيطان والدروب لعن أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية وغيرهم من الصحابة وسائر الخلفاء العبّاسيين. وعظم ذلك على المســـلمين المنتسبين إلى مذهب السنّة.

ومنع شرب الفقاع[١] وأكل البقلة الملوخيّة والبقلة المعروفة بالجرجير، وأكل الطلنيس وسائر السمك العديم القشر. وكان متى وجد أحد قد تعرّض لبيع شيء من ذلـــك أو لابتياعـــه عوقب وشهّر. وقلّ من نجا منهم من القتل... وحرّم ذبح الأبقار السليمة. ولا يذبح إلاّ ما كان ذا عاهة، أو ما لا يصلح

(١) الفقّاع: شراب يتّخذ من الشعير، شبيه بـ« البيرة ».

للحرث. وقتل سائر ما في مصر من الكلاب، إلاّ كلاب الصيد؛ فطوردت في كل مكان حتى خلت منها جميع الطرق والدور[٢]. وتكرّرت الحملة ضدّ الكلاب في سجلات كثيرة. وقيل في سبب قتلها إن الحاكم كان يسير في ركبه ذات يوم فاعترض مطيّته كلب فوثب عليه وكاد يلقيه على الأرض. وقيل أيضاً إنّها تكثر النباح بالليل وتزعجه في طوافه فأمر بتطهير الطرقات منها[٣]. وأمر أيضاً بقتل الخنازير...

وحرّم دخول الحمّام بلا مئزر، وهوجمت الحمامات تباعاً، وقبض على المخالفين فأدّبوا وشهّروا. وشدّد على النخّاسين وتجّار الرقيق، في المنع من بيع العبيد والإماء لأهل الذمّة. ثم أمر بعد ذلك ألاّ يدخل سوقَ الرقيق أحدٌ إلاّ أن يكون بائعاً أو مشترياً، وأن يفرز الجوارى من الغلمان، وأن يُجعَل لكل منهم يومٌ خاص. وحرّم على النساء التزيّن والتبرّج، كما حرّم عليهنّ مجدّداً البكاء والعويل والصياح وراء الموتى... وشدّد الحاكم في تنفيذ هذه الأوامر، وعوقب كثيرون بالجلد والأعدام[٤].

ولازمت هواية القتل هذه المرحلة أيضاً، « فقتل جميع من في الحبوس، وبقيت مدّة خالية ». و « كان متى وقع أحد في تهمة، صغرت أم كبرت، قتله وأحرقه. واستمرّ على هذا الفعل مدّة »[٥].

---

(٢) ابن خلّكان في وفيّات الاعيان ٢ / ١٦٦، خطط مصر للمقريزى ٤ / ٦٩ ـ ٧٠، تاريخ الأنطاكيّ، ص ١٨٧.
(٣) مخطوط « سير البيعة المقدّسة ».
(٤) اتّعاظ الحنفاء، ورقة ٥٩ أ.
(٥) تاريخ الأنطاكيّ، ص ١٨٧.

٢ ـــ سجلاّت الأمان:

يروى لنا المسبّحي، صديق الحاكم ومؤرّخه فيما بعد، أن الحاكم أمر في سنة ٣٩٥ بعمل شونة كبيرة[٦]... فارتاع الناس، وظنّ كل من له صلة بخدمة الحاكم من رجال القصر والدواوين أنّها أعدّت لأعدامه؛ وسرت في ذلك اشاعات مخيفة، فاجتمع سائر الكتّاب وأصحاب الدواوين والمتنفّذين من المسلمين والنصارى، في أحد ميادين القاهرة، وما زالوا يقبّلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر، فوقفوا على بابه يضجّون ويتضرّعون ويسألون العفو عنهم، حتى دخلوا القصر ورفعوا إليه، عن يد قائد القوّاد الحسين بن جوهر، رقعة[٧] يلتمسون فيها العفو والأمان...

فأجابهم الحاكم على لسان الحسين إلى ما طلبوا، وأُمروا بالانصراف، وبالمجيء باكراً لتلقّي سجل العفو. وفي اليوم التالي صدر سجل كتبت منه نسخة للمسلمين، وأخرى للنصارى، وثالثة لليهود، بالأمان والعفو عنهم[٨]... ثم اشتدّ الذعر بالغلمان والخاصّة على اختلاف طوائفهم، فضجّوا واستغاثوا وطلبوا العفو والأمان، فأجيبوا إلى ما طلبوا... وتبعهم بالاستغاثة التجّار وأرباب المهن والحرف...

وتوالت الأمانات لمختلف الطوائف. فصدر أمان للغلمان الأتراك، وصبيان الخاص، والعرفاء، وصبيان الدار، وأصحاب الاقطاعات والمرتزقة، والغلمان الحاكمية. وصدر أمان لخَدَم القصر، بعدما اجتمعوا وهرعوا إلى قبر العزيز وضجّوا بالبكاء والاستغاثة... وكتبت عدّة أمانات للديلم والغلمان

---

(٦) الشونة: مخزن للغلّة، فتح الحاكم أبوابه ليمتحن الناس.
(٧) الرقعة جمعها رقاع تعني كتاباً أو رسالة ترفع إلى مقام عال.
(٨) اتّعاظ الحنفاء للمقريزي، مخطوط، ورقة ٥٩ ب.

والنقباء والروم المرتزقة، وصدرت أمانات لسكّان الأحياء المختلفة ولسائر الطوائف. وقرئت هذه الأمانات ووزّعت على أهلها.

وقد أورد المسبّحي أحد هذه الأمانات، هذا نصّه:

« هذا كتاب من عبد الله، ووليّه المنصور أبي عليّ، الحاكم بأمر الله، أمير المؤمنين، لأهل مسجد عبد الله: إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان جدّنا خاتم النبيين، وأبينا عليّ خير الوصيين، وآبائنا الذريّة النبويّة المهديين، صلى الله على الرسول ووصيّه وعليهم أجمعين. وأمان أمير المؤمنين على النفس والأهل والدم والمال. لا خوف عليكم، ولا تمدّ يد بسوء إليكم، إلاّ في حدّ يقام بواجبه، وحقّ يؤخذ لمستوجبه. فيوثق بذلك، وليعوّل عليه، إن شاء الله تعالى. وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة. والحمد لله وصلّى على محمّد سيّد المرسلين وعلي خير الوصيين، وعلى الأئمّة المهديين، ذرّيّة النبوّة، وسلّم تسليماً »[٩].

في « رسائل الحكمة » نموذج آخر عن هذه السجلاّت، وهي الكتب الأربعة الأولى منها: « السجل الذي وجد معلّقاً على المشاهد... »، رقم ١؛ « والسجّل المنهي فيه عن الخمر »، رقم ٢؛ و « خبر اليهود والنصارى »، رقم ٣؛ وكتاب الحاكم إلى القرمطي، رقم ٤... هذه السجلاّت هي الكتب الوحيدة في مجموعة الرسائل من وضع الحاكم وزمانه، وقد أضافها الأمير السيّد لغاية خفيّة جليلة. وهي، بالتالي، لا تمّت إلى عقيدة الموحّدين الدروز بصلة... ... ...

---

(٩) خطط المقريزي ٣ / ٣٢ ـ ٣٣، اتّعاظ الحنفاء، ورقة ٦٠ أ.

٣ ــ ظاهرة « أبي ركوة »:

في سنة ٣٩٥ ظهر ببرقة رجل أندلسي يعرف بالوليد بن هاشم، وذكر أنّه من ولد عثمان بن عفّان. نزل في بيوت البربر وكانوا يعتقدون مذهب السنّة، وصار معلّماً لأولادهم، كما صار يرغّبهم في مساعدته على الحرب لنصرة الإسلام والامتعاض من السبّ واللعنة لأصحاب صاحب الشريعة الذين بهم قامت مملكة الإسلام... واجتذب إليه قبيلة بني قرّة... وبدأ بقتال عسكر الحاكم، فقتل منهم جماعة كثيرة، ثم ذهب إلى حصار برقة ومنع عن أهلها الأقوات فمات منهم جماعة، واستولى على أسلحة كثيرة.

وجرّد الحاكم للقائه جيشاً كبيراً مع غلام تركي يُسمّى نبال الطويل، فسار للقاء أبي ركوة، وتحاربا قرب أعمال برقة، فقتل من عسكر الحاكم العديد وأسر نبال وقتل... فهرب أهل برقة وهرب الوالي صندل، وتوجّه بعضهم إلى مصر وبعضهم إلى طرابلس الغرب، ودخل أبو ركوة المدينة في ٣ ذى الحجة سنة ٣٩٥، وأظهر فيها مذهبه السنّي، وسمّي بأمير المؤمنين، الناصر لدين الله، وضرب ذلك على سكّته.

وفي السنة التالية سار أبو ركوة من برقة إلى الاسكندريّة، وسيّر الحاكم إليه عسكره بقيادة « قابل الأرمني ». فقُتل قابل وكثير من أصحابه، ودخل أبو ركوة المدينة وقاتل فيها... فاستحضر الحاكم الجيوش من العرب من برارى الشام ومن جميع أصقاع الملكة بقيادة « الفضل بن صالح ». والتقى العسكران قرب الاسكندرية، ونشبت الحرب، فنفذت جيوش أبي ركوة إلى الفيوم وأعمالها، فاضطرب أهل مصر والقاهرة، وخافوا خوفاً شديداً. وجهّز الحاكم جيشاً كبيرة إلى الجيزة بقيادة « علي بن فلاح »، وكانت هزيمة أبي ركوة وتراجعه ووقوع الوباء في عسكره... ثم قبض عليه وأحضر إلى مصر

أسيراً، وشهّر به، وقتل في موضع يُعرف بــ« مسجد تبر »، وصلب فيه وأحــرق بالنــار. وكانت مدّة ثورته سنتين[١٠].

يعترف حمزة بذلك ويذكّر الناس بما شاهدوه من صنيع الحاكم « بأبي ركوة: « وقــد شاهدتموه (أي شاهدتم الحاكم) في وقت أبي ركوة « الوليد بن هشام الملعون، وقد أضرم ناره، وكانت قلوب العساكر تجزع « في مضاجعهم لما رأوه من كسر الجيوش وقتل الرجال »[١١].

٤ ـــ قصّة الخمرة:

في هذه المرحلة تراجع الحاكم عن منع بيع الفقّاع والملوخيّة وأكل الطلنيس وســائر الأسماك التي بلا قشر، وجميع ما كان نهى عنه سابقاً... وتراجع عن سبّ الخلفاء... وأغضى عن شرب النبيذ، وكان طبيبه أبو يعقوب إسحق بن ابراهيم بن أنسطاس أشار إليــه بشــربه. واستدعى الحاكم جماعة من المغنّين وأصحاب الملاهي إلى مجلسه وشرب على غنائهم وخلع العذار معهم وأحسن إليهم. ورجع الحال بالناس إلى ما كانوا عليه في السالف.

وبعد مدّة مات أبو يعقوب الطبيب، فرجع الحاكم ومنع شرب النبيذ أشدّ منع، وتشــدّد فيه، حتى أنّه منع بيع الزبيب والعسل ومن حملهما. وأحرق منهما، وغرّق في النيــل شــيئاً كثيراً للتجّار بمال عظيم، وكسرت الظروف (الأواني) التي يوعى فيها النبيــذ، ومنــع مــن عملها[١٢].

---

(١٠) تاريخ الأنطاكيّ ص ١٩٠ ـ ١٩٢.
(١١) رسالة السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٦.
(١٢) تاريخ الأنطاكيّ، ص ١٩٢.

سادساً ــ ذُروَة الشُذُوذ: ٣٩٨ ــ ٤٠٨

مرحلة مثيرة، مليئة بالأحداث المروعة وتصرّفات الحاكم الغريبة، من قتــل وحــرق ومنع ومراسيم ومغامرات ومن زهد وانقطاع إلى الله...

١ً ــ قصّة قائد القوّاد وقاضي القضاة:

في شعبان سنة ٣٩٨ هــ / ١٠٠٩ م عزل الحاكم قائد القوّاد الحسين بــن جــوهر، وعيّن مكانه صالح بن عليّ الروذبارى. ولم تمض أسابيع حتى أمره، وصهرَه عبد العزيز بن النعمان، قاضي القضاة، بلزوم دارهما. ثم عفا عنهما... وبعد أشهر صدر الأمــر بــالقبض عليهما. فاضطربت القاهرة، وأغلقت الأسواق. فأفرج عنهما، وفرّا خارج المدينة. فصدر أمر بالعفو عنهما. وتوالت عليهما كتب الحاكم بالأمان والعودة. وبعد أن استوثقا من الخليفة بالعفو رجعا ودخلا القاهرة في موكب حافل، ومثلا أمام الحاكم، وقرئ سجل أمانهما علناً...

وفي ذات يوم استبقيا بالقصر « لأمر تريده الحضرة »، فجلسا وانصرف الناس. ثــم قتلا فجأة، وذلك في ١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٠١ هــ. ثم عاد الحاكم بعد ذلــك واســتدعى أولاد القتيلين، ووعدهم بالجميل،

وخلع عليهم... لكنّهم فرّوا إلى الشام واستغاثوا بحاكم أنطاكيَة البيزنطي، فسيّر الحاكم إلى والي الشام بوجوب القبض عليهم، فأخذوا بالحيلة، وقتلوا، وأرسلت رؤوسهم إلى القاهرة، سنة ٤٠٣ هـ[١].

ً٢ ــ قصص الحاكم مع النصارى:

وفي ليلة عيد الشعانين من سنة ٣٩٨، منع النصارى من تزيين كنائسهم، وقبض على جماعة منهم بسبب ذلك. وفي رجب من العام نفسه، صدر سجل بمصادرة الأوقاف وأملاك الكنائس وضمّها إلى الديوان السلطاني. وأحرقت صلبان كثيرة على أبواب الجوامع وفي دار الشرطة[٢].

وعاقب الحاكم النصارى، وعلّق جماعة منهم بأيديهم، وأخذ جميع ما كان لهم، ولبثوا أيّاماً معلّقين في برد الهواء وحرّ الشمس واهطال المطر، إلى أن مات عدّة منهم تحت العذاب، ثم أسلم نفر. ثمّ أُطلِقوا وعفي عن باقيهم.

وفي سنة ٣٩٩ أمر الحاكم أن يتميّز النصارى في الحمامات من المسلمين بصليب يعلّقونه في رقابهم، وأن يتميّز اليهود بجلجل مكان الصليب. فلبثوا بذلك مدّة ثم زال. وأمر بهدم الكنائس وسلب محتوياتها وقلع آثارها. وأمر بهدم كنيسة القمامة (أي القمامة)، وجاء في الأمر ما يلي: « خرج أمر الإمامة ايصال بهدم القمامة. فاجعل سماءها أرضاً، وطولها عرضاً »[٣]. ثم حرّم ضرب النواقيس، وأمر بنزع الصلبان الظاهرة

(١) الخطط ٣ / ٢٣ و٢٤، اتعاظ ٦٢ ب ـ ٦٤ ب، الأنطاكيّ ص ١٩٩.
(٢) الخطط ٤ / ٤١٨، اتعاظ ٦٢ أ.
(٣) مخطوط « سير البيعة المقدسة »، انظر الأنطاكيّ ص ١٩٦.

في أبراج الكنائس، وان يمحي النصارى الصليب عن أيديهم وسواعدهم.

وفي سنة ٤٠٠ أمر بهدم دير القصير في الجبل المقطم مقرّ البطريركية، ونهبِ جميع ما فيه، وفتحِ المقابر، ونبشِ من كان فيها، وأخذِ أيضاً توابيتِها وطَرْح أعضائِهم... ثم عاد وأمر بالكفّ عن فتح القبور، وترك التعرّض للموتى... ثم عاد وأرسل إلى دمياط بهدم كنيسة مرتمريم... وقتل أرسانيوس البطريرك سرّاً عشيّة ٢٢ ذى القعدة سنة ٤٠٠[٤].

وأمر في المحرم سنة ٤٠١ أن تؤخذ الذمّة من النصارى واليهود بتغيير الزنانير الملوّنة التي يلبسونها، والاقتصار على لبس الزنانير السود والعمائم السود. وفي رمضان جدّد التحذير من عمل النبيذ ومن شربه سرّاً وجهراً. وكسر ما عند الناس منه من الجرار والظروف. وحذّر من استبقاء شيء منه، والتعرّض لعمله والعمل به، وتواعد فيه بشديد العقاب. وكُسر في الطرقات شيءٌ كثير منه. وأحرقت آلات الموسيقى، وأغلقت الملاهي. وحظّر على النصارى تقديم النبيذ في قرابينهم، وصاروا يقرّبون عوضاً عن الخمر ماء قد نقع فيه زبيب أو عود الكرم...

وفي سنة ٤٠٢ أمر بنفي سائر المغنيّن وأصحاب الملاهي، فاجتمعوا واستغاثوا إليه وسألوه عفوه. ومنع النساء من الاستحمام في الحمامات العامّة ومنع ركوبهنّ مع الرجال وخروجهنّ إلى مواضع الفرجة[٥].

وفي سنة ٤٠٣ أجبر النصارى أن يعلّقوا في أعناقهم صلباناً من خشب وألاّ يركبوا الخيل، ولا يستخدموا مسلماً... واستبدل في دواوينه النصارى

---

(٤) مخطوط « سير البيعة المقدسة »، الأنطاكيّ ص ٢٠٢.
(٥) الخطط ٤ / ٧٢، اتّعاظ ٦٣ أ، ٦٥ أ ب، ابن خلّكان ٢ / ١٦٦.

بالمسلمين، وكان سائر كتّابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته نصارى. وكثــرت الشــناعات السيّئة فيهم والأراجيف المفزعة، فاجتمع سائر من بمصر من الكتّــاب والعمّــال والأطبــاء وغيرهم مع أساقفتهم وكهنتهم، وتوجّهوا إلى قصره في ١٢ ربيع الآخر، وكشفوا عن رؤوسهم من باب القاهرة، ومشوا حفاة باكين مستغيثين إليه، يسألونه العفو والصفح، ولم يزالــوا فــي طريقهم يقبّلون التراب إلى أن وصلوا إلى قصره وهم على تلك الحــال... فــردّ علــيهم ردّاً جميلاً... وأخذوا يعلّلون أنفسهم بمنشور يقرأ عليهم لطمأنينتهم، ولكن، لما كان يوم الأحد في ١٥ الشهر، جاءهم أمر بتعظيم الصلبان في أعناقهم، وأن يجعل طولها ذراع وعرضها ذراع، وأن يكون فتحها ثلثي شبر وسمكها إصبع. وقصد بذلك أضجارهم لا سيّما خواصّه من كتّاب دواوينه ومن المتصرفين في خدمته الذين لم يكن يجد منهم بدلاً.

ونودي إلى اليهود أن يعلّقوا في رقابهم أيضاً أكر خشب من خمسة أرطال إشارة إلى رأس العجل الذي عبدوه سالفاً... فأسلم كثير منهم ومن النصارى. ومن لم يسلم أمــر بقطــع أعضائهم وأباح للعبيد ماله وعياله... ولم تزل الطرقات أيّاماً عدّة لم يُرَ فيها نصراني... وهدّم كل ما تبقّى من كنائس، وأخرج عظام الموتى، ووقد بها الحمّامات، وأحرقت الكتب المقدســة وحرّم على المكارية المسلمين أن يحملوا على دوابّهم ذميّاً، كما حظّر على الملاّحين المسلمين أن يحملوا في سفنهم ذمّيّاً... ورسم بأنْ يحملوا في أعناقهم الأجراس عند دخولهم الحمامــات تمييزاً لهم من المسلمين. ثم أفردت لهم حمامات خاصّة، وعلّقت الصلبان عليها كمــا علّقــت قرامي الخشب على حمامات اليهود... فأسلم من أسلم وهجر منهم إلى بلاد الروم الكثير[٦].

---

(٦) الأنطاكيّ ١٩٥ ـ ٢٠٢، اتّعاظ ٦٥ ـ ٦٦، الخطط ٤ / ٧١ ـ ٧٣... نهاية الارب ٢٦ / ٥٦... النجوم الزاهرة ٤ / ١٧٧ ـ ١٧٨... وغيرها.

وانتهى إلى الحاكم أن جماعة من النصارى يتسلّلون إلى بلاد الروم ويبذلون لأصحاب المراكز والطرقات مالاً حتى يطلقوهم، فأذن لجماعة منهم بسجّل قرئ بالتوجه إلى بلد الـروم بأهلهم وأموالهم وما تحويه أيديهم والتصرّف في ذلك على حسب اختيارهم آمنين مطمـأنّين، احساناً إليهم ورفقاً بهم...[٧].

٣ ــ شهوة القتل:

في هذه المرحلة من التاريخ تزايد الحاكم في القتل لسائر من في دولته، وبـذل فـي رقابهم السيف، وأفرط في ذلك، فاختلّت بلاده، وفني رؤساء رجاله، « ولم يكـن بقـي مـن رؤساء دولته من له ذكر ونباهة. وكان أمراً فظيعـاً لم يُشاهد مثله، ولا جرى فـي السـالف مثله »[٨]. وأيقن الجميع بالهلكة... ولكن لمّا علم بتلك المخاوف كتب لكل طائفة أماناً...

أمّا في العام ٤٠٠ فقد وقعت مقتلة بين الغلمان والخدم رهيبة، وقُتل جماعة من العلماء السنّيين، وقتل أسامة بن محمد اللغوى، والحسين بن سليمان الأنطاكيّ النحوي، وقتل رجاء بن أبي الحسين لأنّه صلّى صلاة التراويح في رمضان، وقتل الرواة وأصـحاب الأخبـار عـن آخرهم.

وفي عام ٤٠١ عزل الكافي منصور بن عبدون عن النظر في أمور الدولة، وقتله بعد مدّة يسيرة من عزله. وردّ الأمور إلى أحمد بن القصورى في ٤ من شهر المحرّم وقتله بعـد خمسة أيّام. ونصب مكانه زرعة بن عيسى بن نسطورس

---

(٧) انظر تاريخ الأنطاكيّ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٨) تاريخ الأنطاكيّ ١٩٤ ـ ١٩٧.

النصراني الذي استمرّ في منصبه عامين ثم مرض وتوفي. وكان من الرجال القلائل الذين عصمهم الموت من بطش الحاكم. ويقول لنا المقريزى: « إنّ الحاكم تأسّف على موته من غير قتل، وقال: ما أسفت على شيء قط أسفي على خلاص ابن نسطورس من سيفي. وكنت أودّ لو ضربت عنقه »[٩].

ويذكر التاريخ قصة دموية مروعة للحاكم مع خادمه غين. كان غين من الخَدَم السُود الذين يُؤثرهم الحاكم بعطفه وثقته، فعيّنه في ربيع الأول سنة ٤٠٢ رئيساً للشرطة والحسبة بمصر والقاهرة والجزيرة والنظر في جميع الأموال والأحوال. وعهد إليه بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعيّة مثل مطاردة المسكرات ومنع بيع العسل والفقّاع والملوخيّة، ومنع الملاهي واجتماع الناس في المآتم والسير خلف الجنائز وغيرها... وقرّبه إليه وأحبّه حتى إنه لمّا مرض ركب الحاكم لعيادته، وسيّر إليه خمسة آلاف دينار. وخمسة وعشرين فرساً...

غير أن هذه المظاهر البراقة لم تَحُلْ دون نكبته. وكان الحاكم قد سخط عليه وأمر بقطع يده، وبعد مدّة أمر بقطع يده الثانية، فقطعت وحملت إلى الحاكم في طبق، وبعث إليه الأطباء للعناية به، ووصله بمال وتحف كثيرة. ولم تمض أيّام حتى أمر بقطع لسانه، فقطع، وحمل إلى الحاكم ومات غين بعد قليل من جراحه، وكان ذلك في سنة ٤٠٤. وشملت النقمة أبا القاسم الجرجاني كاتب غين، فقد أمر الحاكم بقطع يديه، وأبقاه على حياته، فعاش أقطع اليدين[١٠].

وفي ربيع الآخر سنة ٤٠٥ / ١٠١٤ م قتل قاضي القضاة مالك بن سعيد

(٩) اتّعاظ الحنفاء للمقريزى، ورقة ٦٥ ب ـ ٦٦ أ.
(١٠) اتّعاظ ٦٧ أ ب، انظر النجوم الزاهرة ٤ / ٢٢٣.

وذلك عندما كان راكباً مع الحاكم ليلاً كعادته، وفي ركبه عدد من الناس. ولم يمض شهر على مقتله حتى قتل الحاكم وزيره الحسن بن طاهر الوزان، وذلك عندما كان راكباً في موكبه، ولمّا انتهى إلى حارة كتامة خارج القاهرة أمر به فضربت عنقه. وفي نفس الوقت قتل عبد الرحيم بن أبي السيّد الكاتب، متولّي ديوان النفقات، وأخاه الحسين متولّي السفارة والوساطة، ولم يمض على تعيينهما أكثر من شهرين. ثم تسلّم الوساطة أبو العباس بن الفرات، ثم قتل لأيام قلائل من تعيينه[١١].

وأحياناً كان القتل يبدو، في نظر الحاكم، ضرباً من ضروب اللهو والرياضة. فقد نقل المقريزى من أن الحاكم قتل ذات يوم ركابيّا بحربة في يده على باب جامع عمرو، وتولّى شقّ بطنه بيده. ونقل إلينا أيضاً أنّه كان يقف عادة عند حانوت ابن الأزرق ويحادث صاحبه ويبدي عطفه عليه. وفي ذات يوم أوقفه بين اثنين من الركابيّة ورماه برمح، ثم أضجعه واستدعى سكيناً فذبحه بيده، ثم استدعى ساطوراً فقذف به رأسه وجسده، ثمّ استدعى ماء فغسل يده، ثم أمر بعد ذلك بغسله ودفنه، وأن تعمل له جنازة حافلة، وصلّى عليه قاضي القضاة[١٢].

وعرض للحاكم يوماً دمّل وتألّم منه، وحضر بعض عوام الأطباء والجرّاحين يتولّى علاجه، ثم قتله، وقتل معه غيره ممّن كان يخدمه في الوقت من الأطبّاء.

وفي أحيان أخرى كان الحاكم يطرب لمناظر المغامرات المميتة. فيروي لنا المقريزي أنّه رسم لجماعة من الأحداث أن يتبارزوا في القفز

---

(١١) المقريزى، مخطوط اتّعاظ الحنفاء، ورقة ٦٦ أ؛ ٦٨ ب، ٦٩ أ.
(١٢) نفس المرجع، ص ٧٠ ب ـ ٧١ أ.

من موضع عال بالقصر، فمات منهم ثلاثون إنساناً... ودفع لمن نجا منهم مالاً[١٣]. ويروي لنا أيضاً: « أن القائد فضل بن صالح دخل يوماً على الحاكم بالقصر، فرآه بين يديه صبي مليح ابتاعه بمائة دينار، وقد ذبحه بسكّين في يده، واستخرج أحشاءه وأخذ يقطّعها، فارتدّ الفضل إلى منزله مذعوراً. ولم تمض ساعة حتى أنفذ إليه من يقتله »[١٤].

وفي الرواية أيضاً أن الحاكم لقي ذات مساء عشرة من الناس سألوه الاحسان، فأمر أن ينقسموا إلى فريقين يتقاتلان حتى يغلب أحدهما فينعم عليه، فتقاتلا حتى فني منهم تسعة، وبقي واحد، فألقى إليه الدنانير. فلمّا انحنى ليأخذها عاجله بالقتل[١٥].

وهكذا استمرّ الحاكم بالفتك بالزعماء ورجال الدولة من الوزراء والكتّاب والموقّعين والعلماء ورجال القصر من الأساتذة والخَدَم ومَن إليهم من الحشم حتى أباد معظمهم. هذا عدا من قتل من التجّار والصنّاع والكافّة، خلال هذه الأعوام الرهيبة وهم ألوف عديدة[١٦]. وتقدّر الرواية المعاصرة ضحايا الحاكم بثمانية عشر ألف شخص، من مختلف الطبقات[١٧].

*****

---

(١٣) اتّعاظ الحنفاء للمقريزى، ورقة ٥٩ ب.
(١٤) مخطوط « سير البيعة المقدسة »، اتّعاظ الحنفاء للمقريزى ٦٠ ب.
(١٥) مخطوط « سير البيعة المقدّسة »، انظر الخطط واتّعاظ الحنفاء.
(١٦) نهاية الارب ٢٦ / ٥٢، ٥٣، تاريخ الأنطاكيّ ص ٢٠١.
(١٧) المخطوط الكنسي: « سير البيعة المقدسة ».

٤ ـ الحجر على النساء:

في هذه الحقبة من تاريخ الحاكم صدر أمر بأن يَلزمَ النساء منازلهنّ. فمنع من خروج الحرائر منهنّ والإماء من الشباب والعجائز إلى الطريق والظهور بوجه من الوجوه. وحـذّر عليهنّ في ذلك أشد تحذيراً. وإذا دعت الضرورة إلى حضور غاسلة أو قابلة لمن تمـوت أو لمن تلد أو غيرها ممّن تسافر وتضطرّ الخروج من منزلها استؤذن في ذلك برقعة ترفع إليه، فيوقّع على ظهرها بخطّه إلى متولّي الشرطة فيندب مَن يثـق بـه إلـى أن تخـرج المـرأة المستطلعة من موضعها إلى حيث مقصدها.

وأصدر أمرا للاساكفة بمنعهم من عمل أخفاف للنساء. وحاول النساء التظلّم من هـذا القرار، وذهب الكثيرات منهنّ إلى القصر متظلّمات، فلم يفزن بطائـل. وعوقـب كثيـرات بالضرب والحبس والموت.

وفي عام ٤٠٥ شدّد عليهنّ أكثر فأكثر. فمُنِعْنَ من التطلّع من النوافذ والطيقان. وأمر الباعة أن يحملوا السلع والأطعمة ويبيعونها لهنّ في المنازل، وأن يحمل الباعة أداةً، كالمغرفة، لها ساق طويل يُمَدّ إلى المرأة وهي من وراء الباب، وفيه ما تشتريه، فتتناوله وتضع مكانـه الثمن. ولا يسمح مطلقاً أن تبدو من وراء الباب[١٨].

وقد كان من قبل ذلك أَخرج من قصره جماعةً من حظاياه وأمّهات أولاده مع كثـرة شغفه بالجماع، وغرّق بعضهنّ في صناديق اتّخذها لهنّ وسمّرت عليهنّ وثقّلـت بالحجـارة وألقيت في النيل. وأخذت السيّدة

(١٨) انظر: الأنطاكيّ، ص ٢٠٨، ابن خلّكان ٢ / ١٦٧، الخطط ٣ / ٧٣، اتّعاظ الحنفاء، ورقة ٦٥ و٦٧ ب و٦٨ أ، ابن الأثير، ٩ / ١٠٩...

« ستّ الملك »، أخت الحاكم، أمّ ولده عليّ (الظاهر) خوفاً عليهما منه. وبقيا في قصرها بعيدين عنه إلى حين فقده.

وعانى النساء هذه الشدّة سبعة أعوام حتى وفاة الحاكم. وزاد في صرامتها الشدّةُ في تنفيذها وروعة العقابات التي سنّت لمخالفيها.

٥ ـ زهد الحاكم وتصوّفه:

في هذه الفترة لم ينقطع الحاكم عن مواصلة الركوب ليلاً ونهاراً. واقتصر في ركوبه على نفر يسير من خاصّته. وكان يقصد جبل المقطّم وصحراء الجبّ، ويختلي للعبادة... وربّى شعره إلى أن طال ونزل على أكتافه، وامتنع من تقصيصه ومن تقليم أظافره. وغيّر الثياب الصوف البيضاء بثياب سوداء، وكذلك العمامة. وصار يلبس الكسوة الواحدة المدّة الطويلة إلى أن تتلبّد وتتلكّد بما ينالها ويتداولها من العرق الدائم، ويعلوها من الغبار المتّصل، « وقد يرتدي أحياناً جبّة مرقّعة من سائر الألوان »[١٩].

وواصل تدوير الصحارى والفيافي والانفراد بنفسه والتمادي في السير وحده والانفراد بنفسه يتغوّث إلى الله أن يناجيه ويوحي إليه كما ناجى موسى وأوحى إليه.

وزادت أظافيره فشبّهت مخاليب العقاب، وطال شعره كالأسد. وقيل أيضاً أنه أضرب عن دخول الحمام مبالغة في الخشونة والتقشّف »[٢٠].

---

(١٩) « سير البيعة المقدسة »، الأنطاكيّ ٢٠٥، ٢١٧، ٢١٨.
(٢٠) الأنطاكيّ ١٩٢، ٢٠٧، مرآة الزمان ٤٠١، النجوم الزاهرة ٤ / ١٧٦.

٦ ــ زهد الحاكم وفحشه:

وقيل أيضاً إنّه « كان يلبس جبّة الصوف ويركب على حمار أشهب، يُسمّى القمر، ويطوف في أسواق مصر (أي الفسطاط المعروف الآن بمصر القديمة) والقاهرة، ويباشر حسبة البلد. وكان معه عبد أسود طويل عريض يمشي في ركابه، يُقال له « مسعود، بأن يفعل به الفاحشة العظمى، وهي اللّواط، فيفعل به على دكّانه، والناس ينظرون إليه حتى يفرغ من ذلك والحاكم واقف على رأسه »[٢١].

وفي إحدى جولاته في شوارع القاهرة ليلاً « عَنّ له رأيٌ من السخف ينافر ما تظاهر به من الزهد، وهو أن يقصد أحد أسواق مصر في الليل، ويتقدّم إليه شيخ خليع يعرف بالرجّاج من السفساف، فيقول له الحاكم: « أَرِني قَمَرَك »، فيكشف عن فَقْحَتِهِ. ويرسم الحاكم لبعض ركابيته من السودان أن يُبرِزَ إحْلِيلَه ويأتيه بمشهد منه ومن الجمع الحاضر... فيصرخ الشيخ من الألم ويطلب من الحاكم الرفق به، فيضحك الحاكم من ضجيجه، ويطرب له. ولبث على هذا الحال مدّة »[٢٢].

« واعتلّ الحاكم وضعف عن الركوب فاتّخذ له محفّة يجلس فيها ويستلقي عليها، ويحملها أربعة من الركابيّة الذين اصطنعهم، ويدور الليل والنهار. فلمّا تماثل من مرضه وتراجعت قوّته، عاد... »[٢٣].

(٢١) ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ١ / ٥٣، بولاق ١٣١١ هـ.
(٢٢) تاريخ الأنطاكيّ، ص ٢١٧.
(٢٣) تاريخ الأنطاكيّ، ص ٢١٧.

٧ ــ شهادة حمزة:

هذه التصرّفات الغريبة المدهشة لم تغب عن حمزة، بل عرفها، ودوّنها، واعترف بها. لكنّه يرى لها تعليلاً توحيديّاً إلهيّاً بعيد المعنى.

فهو يقرّ بغرابتها: « ... يشاهدون منه (من الحاكم) ما لا يجوز أن يكون من أفعال أحد من البشر، ولا سمع به في التواريخ والسير »، ويردد اعترافه بغرابتها مرّات عديدة[٢٤]. وهو يرى فيها « حكمة بالغة »[٢٥]، ويلوم الناس لأنّهم « لم يعرفوا بأنّ أفعال مولانا « جلّ ذكره كلّها حكمة بالغة، جِدّاً كان أم هزلاً »[٢٦]؛ و « لو نظروا (الناس) إلى أفعال مولانا جل ذكره بالعين الحقيقية وتدبّروا اشاراته بالنور الشعشعاني، لبانت لهم الألوهيّة والقدرة الأزليّة... وعلموا الحقيقة المحض في جدّه وهزله »[٢٧].

ويعترف بكلّ ما جاء في التواريخ من أخبار الحاكم، فيقول: « كان المولى جلّت قدرته يخرج أنصاف الليالي إلى صحراء الجب، وليس معه غير الركابيّة... وكان المولى جلّ ذكره يركب كل يوم وليلة، ويخرج العتمة من القاهرة، ويدخل صحراء الجب ناحية الجبل... ومن رسوم مولانا جلّ ذكره الركوب في الهاجرة والمسير في الرمضاء وفي الشتاء... »[٢٨].

ويعترف بمرض الحاكم وعلّته وينكره بنفس الوقت[٢٩]، كما يقرّ

---

(٢٤) رسالة السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩...
(٢٥) كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل ١١ / ٩٨.
(٢٦) نفس المرجع.
(٢٧) نفس المرجع ١١ / ٩٨ ـ ٩٩.
(٢٨) رسالة ١٢ / ١٢٧.
(٢٩) نفس المرجع ١٢ / ١٢٨.

« بتربية الحاكم شعرَه ولباس الصوف وركوب الحمار بسروج غير محـــلاّت، لا ذهــب ولا فضّة »[٣٠]، ويعترف بأنّ الناس كانوا يرونه في « وقوفه في الصوفيّة واســتماعه لأغــانيهم والنظر إلى رقصهم »، وأنه كان يراه ينظر « إلى لعب الركابية بالعصي والمقارع »، ويقصّ علينا « ما ذكره الركابيّة من ذكر الفروج والأحاليل... وقوله (لأحدهم): أرني قَمَرَك »[٣١].

ويرى بهاء الدين المقتنى، واضعُ قسمٍ كبير من « رسائل الحكمة »، مثلما رأى حمزة وفسّر كما فسّر، فاعترف هو الآخر بأن الحاكم، قبل غيبته، « تظاهر بلبــاس الســواد ســبع سنين، وتربيته الشعر سبع سنين، وسجن النساء سبع سنين، وركوب الأتان سبع سنين »[٣٢].

هذه كلها غرابات دوّنها حمزة « لتعتبروا وتفتكروا... (وهي) فعــل « قــادر علـــى الأشياء كلّها، وخالقها، العالم بما خفي ». « ما هو شيء يستعظم للمولى سبحانه »[٣٣].

*****

(٣٠) كتاب فيه حقائق... ١١ / ٩٩ ـ ١٠١...
(٣١) نفس المرجع ١١ / ١٠٩.
(٣٢) رسالة الجزء الأول من السبعة أجزاء ٤١ / ٣١٩.
(٣٣) السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٨.

سابعاً ــ نَشأةُ الدّرزيَّة: ٤٠٨ ــ ٤١١

في أوائل سنة ٤٠٨ هــ / ١٠١٧ م، ظهر بمدينة القاهرة ثلاثة رجال أعاجم، وتبعهم آخرون، عرفوا نفسيّة الحاكم وشخصيّته وطموحاته البعيدة واضطراباته المرضيّة، وشعروا عنده ميلاً عميقاً إلى اعتبار نفسه فوق مستوى البشر، ورأوا فيه دعوى آبائه وأجداده إلى الألوهة، « وهو إنّهم آلهة، حلّوا على الأرض في أشباح بشريّة؛ ومن العليّ لهم نور لاهوتيّ حالّ فيهم، ويظهر في كل عصر وزمان في صورة شخص من الأشخاص البشريّة، وإنّ الدنيا وملوكها كلاّ عليهم، وانّهم بين العالم لا يستأهلهم »[١].

واعتبروا تصرّفاته الشاذّة « وشدّة سطوته وتسرّعه إلى سفك الدماء، وأنّه لا يبقي على من صغر ذنبه وقلّ فضلاً عمّن عظم جرمه وجلّ »[٢] ورأوا أحكامه المدهشة والمتناقضة، مثل « إقامة العدل واسقاط المكوس والرسوم الجائرة والهبات والعطايا الجزيلة »[٣] من جهة، ومن أخرى: تسرّعه بسفك الدماء ولعنه الصحابة ونبشه لقبورهم وتهديم الكنائس وحجره على النساء... أدلّة على كونه من غير أصناف البشر.

(١) تاريخ الأنطاكيّ، ص ٢٢٠.
(٢) نفس المرجع، ص ٢٢١.
(٣) نفس المرجع، ص ٢٢٢.

ولمس هؤلاء الدعاة أنّ كثيرين من عامّة الناس « انخدعوا له، وانحرفوا إلى متابعته، وتنافسوا في موالاته، ونسبوا كل قبيحة يأتيها من القتل والسخف وغيرها من الأعمال الذميمة إلى أجمل وجوهها، وتأوّلوا فيه ضروباً من جنس التأويل، واحتجّوا بأنّ جميع ما فعله أسرار خفيّة وأغراض غامضة، لم يجعل للبشر الوقوف عليها، ولا الوصول إلى معرفة أسبابها »[٤].

هذه المشاهدات الغريبة والخطيرة حدت بهؤلاء الرجال إلى استغلال الأمر على أحسن ما يمكن، فاتّفقوا جميعاً، وهم حمزة بن عليّ بن أحمد الزوزني المعروف باللّباد، وحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم، ومحمّد بن إسمعيل الدّرزى المعروف بنشتكين، على الدعوة إلى ألوهيّة الحاكم... ولم ينكر الحاكم دعواهم، و « استجاب كثير من الرعاع »[٥] إليهم، وأوهم الحاكم أنّ كثيراً من أهل المسكونة يعتقدون فيه اعتقادهم...[٦].

وكان الدرزى، على ما يبدو، أسبق الدعاة إلى نشر الدعوة الجديدة، حتى انتسبت إليه، وتسمّت باسمه[٧]. « وتزايد أمر الدرزية إلى أن لعنوا آدم ونوح وجميع الأنبياء ومحمّداً وعليّاً، وتغوّطوا في المساجد، ولطّخوا القبلة بالقذر، وبَالوا على مصاحف القرآن »[٨]. وكان الحاكم قد قطع الصلاة والخطبة في الجوامع، وعطّل الحجّ إلى مكّة، وقطع

(٤) تاريخ الأنطاكيّ، ص ٢٢٢.
(٥) نفس المرجع، ص ٢٢٣.
(٦) سيأتي الكلام على هؤلاء الدعاة بالتفصيل.
(٧) يختلف المؤرّخون فيمن من هؤلاء الدعاة كان أوّل من بدأ بالدعوة.
(٨) تاريخ الأنطاكيّ، ص ٢٢٤.

عن الكعبة كسوتها... ممّا أثار حفيظة المسلمين الذين « عملوا أشعاراً يكفّرونه فيها. وترنّموا بأغاني تتضمّن شتيمة له، وألفاظاً قبيحة يشيرون بها إليه... فازداد غضباً عليهم »[٩].

وراح في شهر ذي القعدة سنة ٤١٠ يفرّق على العبيد السودان من العسكرية سلاحاً، وأوعز إليهم بالنزول إلى مصر، وان يتعمّدوا حرقها وسبي حريم أهلها وأولادهم ونهب أموالهم، فبدأوا في طرح النار في طرف مصر، ونهبوا. واعتدوا على أهراء القمح والحوانيت، وأسروا خلقاً من النسوان وافترسوهنّ. وهرب جماعة منهنّ إلى الجامع تحرّماً به، فلم يحمهم. ونهبوا مواضع كثيرة من مصر، وأحرقت النار شطراً كبيراً من البلد، ولم يتجاسر المصريون على اطفائها، خوفاً من أن يجرى عليهم ما هو أشدّ وأعظم.

وانتهى إلى الحاكم عظم الحادثة بمصر من الحريق والنهب والأسر، فأمر « عادى » الخادم الصقلبي بالنزول إلى مصر في جماعة من الجند ليسكّن الفتنة، فنزل وشاهد أمراً فظيعاً وحالةً قبيحةً، فعاد إلى الحاكم، وشرح له قبح النازلة وعظم الحادثة، وقال له في جملة كلامه: لو أنّ باسيل ملك الروم دخل مصر لما استجاز أن يفعل بها مثل هذا. فنقم عليه الحاكم وقتله. فاستغاث المصريون إليه في العفو والتقدّم باطفاء النار لئلا تهلكهم...[١٠] فلم يلقوا عنده أذناً صاغية... ولم تخمد نار الفتنة.

وراح الحاكم، لكي يخفّف عنه وعن دعاته سخط المسلمين، يتقرّب من النصارى، فيأمر ببناء ما تهدّم من الكنائس والأديرة، ويكتب إليهم

(٩) تاريخ الأنطاكيّ، ص ٢٢٥.
(١٠) نفس المرجع، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨.

الأمان تلو الأمان. وفي السنة التالية « لقيه أنبا سلمون، رئيس دير طورسينا، وشكا إليه سوء حالة الرهبان وما هم عليه من الضرّ والفاقة، وتوسّل إليه في إطلاق الأوقاف... فأجابه إلى ذلك... ثم استأذنه بتجديد عمارة دير القصير، وعودة الرهبان إليه، واجتماع النصارى فيه، للصلاة، فأذن له بذلك، وخصّص ما يجب له من نفقات من بيت المال، وكتب الحاكم بذلك للأنبا سجلاً »(١١)... وتبعه سجلاّت كثيرة، جاء في أحدها:

« بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبد الله ووليّه المنصور أبي عليّ الإمام الحاكم بأمر الله، أمير المؤمنين، ابن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين، لجماعة النصارى بمصر، عندما أنهوا إليه الخوف الذي لحقهم والجزع الذي هالهم فأقلقهم... فإنّتم جميعا آمنون بأمان الله عزّ وجلّ وأمان نبيّه محمّد خاتم النبيين وسيّد المرسلين صلعم وعلى آله الطاهرين، وأمان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب سلام الله عليه، وأمان الأئمة من أباء أمير المؤمنين سلام الله عليهم هذا علي نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم وما تحويه أيديكم أماناً صريحاً ثابتاً وعقداً صحيحاً باقياً، فثقوا به، واسكنوا إليه... »(١٢).

*****

إلاّ أنّ لجوءَ الحاكم إلى استعطاف النصارى زاد الطينَ بلّة فازداد المسلمون غيظاً وسخطاً، ولاحقوه حيثما رحل، ولاحقوا دعائه

(١١) تاريخ الأنطاكيّ، ص ٢٢٨.
(١٢) نفس المرجع، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

وشنّعوا عليه ميله إلى النصارى ومشاركته رهبانهم بلبس الصوف وسخاشه عليهم ببذل المال من بيت مال الدولة وتردّده الكثير إلى دير القصير. ولكثرة ميله إليهم « كان، في كثير من الأيام، في نفوذه إلى البرّيّة، يقصد دير القصير، ويشاهد عمارته، ويستحثّ الصنّاع على الفراغ منه. وأطلق له دنانير تصرف في النفقة عليه. ودفع أيضاً إلى الرهبان المقيمين فيه دنانير. ورسم لهم مساعدة البنّائين لتروج عمارته. وكان يعدل أيضاً إلى ديارات جدّدها اليعاقبة في ناحية القرافة. وإذا أراد الدخول إلى الجبل والطلوع إلى دير القصير، أو غيره من الأديرة، تتأخر الركابيّة عنه... ويمضي وحده »[١٣] إلى أن اختفى...

*****

(١٣) تاريخ الأنطاكيّ، ص ٣٣٣.

ثامناً ــ نهَايَة الحَاكم: ٤١١ هــ

« كان مصرع الحاكم بأمر الله، أو بالحرى، كان اختفاؤه، من أعجب مآسي التاريخ وأشدّها غموضاً... وكان اختفاء الحاكم، كحياته، لغزاً مدهشاً، بل كان ذروة الخفاء والروع. وما زالت قصّة هذا الاختفاء وظروفه، وحقيقة عوامله، مثار الريب والجدل »[١]. على هذا الخفاء، تضاربت الروايات، واختلفت أشدّ خلاف:

اً ــ مؤامرة سياسيّة:

فمنها من يعتقد بأنّ الحاكم ذهب ضحيّة مؤامرة سياسية، ولكنّ من دبّر هذه المؤامرة؟ ومن قام بتنفيذها؟ وكيف نُفّذت؟ وأين ذهبت جثّة الحاكم؟؟؟ هذه أمور يحيط بها الخفاء والريب »[٢].

وحجّة هذا الرأي إن « ستّ الملك »، أخت الحاكم، التي كانت تخشى أن تضطرم الثورة فتدكّ « عرش الحاكم، ومستقبل الأسرة كلّها، وينتهي عصر المجد والسؤدد في غمر الدماء والشقاء والذلّة، وكان الحاكم

(١) محمّد عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ص ٢١١.
(٢) نفس المرجع، ص ٢١٢.

من جانبه يحقد على ستّ الملك... وكان يشدّد عليها الحجر والمراقبة، وينعى عليهـا سـوء مسلكها وفضائحها الغراميّة، ويتّهمها بتنَاوب العشّاق عليها، وأنّه هدّدها بانفاذ القوابـل إليهـا لاستبرائها، فكانت لذلك تخشى بطشه وفتكه »[٣].

أمّا من نفّذ الجريمة فتقول بعض الروايات بأنّ ستّ الملك اختـارت سـيفَ الدولـة الحسين بن دوّاس زعيمَ كتامة أشدَّ الناقمين على تصرّفات الحاكم، وفاوضته بـالأمر، فلبّـى نداءها، وتعهّد بالتنفيذ. وعهد ابنُ دوّاس بالتنفيذ إلى عَبدَين من أخلص عبيده، وزوّدتهما سـتّ الملك بسكّينتين ماضيين، ووهبتهما مالاً وخيلاً... وقصد العبدان « صحراء الجـبّ »، عنـد جبل المقطّم، حيث كان الحاكم، بحسب عادته، يقصد الخلوة فيه.

وفي ليلة الاثنين ٢٧ شوّال سنة ٤١١ الموافق ١٣ شباط سنة ١٠٢١م، انقضّ العبدان عليه، وطرحاه أرضاً، وقتلاه، وقطّعا ذراعيه، وشقّا جوفَه واستخرجا أمعاءه، وقطّعـا قـوائم الحمار، وحملا أشلاءه إلى ابن دوّاس... فرافقهما ابنُ دوّاس في الحال إلى ستّ الملك وسلّهما الجثّة... ودعت حالاً كبير الوزراء « خطير الملك أبا الحسين عمّار بـن محمّـد » وأمرتـه بالكتمان والطاعة، وباستدعاء وليّ العهد « عبد الرحيم بن الياس »[٤] من الشام، الذي دبّـرت له، هو الآخر، مهلكة في طريقه، لكي لا يكون على الخلافة الاّ عليّ ابن الحاكم. فتمّت البيعة فعلاً لأبي الحسن عليّ، وأُعلِن خليفة مكان أبيه باسم « الظاهر ». وذلك في اليوم

(٣) ابن خلدون ٤ / ٦١، اتّعاظ الحنفاء، ورقة ٦٩ ب، عنان ص ٢١٣.
(٤) كان قد عيّنه الحاكم وليّاً للعهد سنة ٤٠٤ هـ. يستحق لعنة الدروز.

العـــاشر من شهر ذى الحجّة، أى بعد أحد وأربعين يومـــاً من اختفـــاء الحـــاكم. وكان عمر « الظاهر » سبع عشرة سنة.

واستدعت « ستّ الملك » ابن دوّاسْ، وكان يُعتقد أنّه غدا أعظم رجل فـــي الدولـــة، ولكنّه لم يحظ المسكين إلاّ بقطع رأسه فقط. وكذلك كان حظّ العبدين، والـــــوزير « خطيـــر الملك »، وكل من له علم بسرّ الجريمة. وخلا الجوّ لها ولابن أخيها الخليفة الظاهر(٥)، الـــذي أقام الأرض وأقعدها على الدروز. وهم يلعنونه إلى الأبد، وينكرون عليه انتسابه إلى الحاكم، جلّ ذكره، ويدعونه بـــ« دجّال العرب » وبـــ« الدجّال الأعظم »، وبـــ« دجّال الدجاجلة »...

٢ ـــ ثأر شخصي:

ومن الروايات من يجهد في تبرئة « ستّ الملك »، وتعمل فـــي نفـــي تهمـــة تـــدبير الجريمة عنها. فالمقريزي، أعظم مؤرّخي مصر الإسلامية، وعنه أخذنا كثيراً، بالرغم من أنّه ينسب التهمة إليها في اتّعاظ الحنفاء(٦)، يعود فينفي الاتّهام. فهو ينقل عن المســـبّحي، مـــؤرّخ الدولة الفاطميّة، ووزير الحاكم وصديقه، ويقول: « في المحرّم سنة ٤١٥ / ١٠٢٤ قبض على رجل من بني حسين، ثار بالصعيد الأعلى، فأقرّ بأنّه قتل الحاكم بأمر

(٥) انظر: النجوم الزاهرة ٤ / ١٨٥، عيون المعارف للقضاعي ١٨١ ـ ٢، والذهبي في وفيات سنة ٤١١ ص ٢٢، ومرآة الزمان ٤٠٥ ـ ٤٠٨، ابن خلّكان ٢ / ١٦٧، ابن الأثير ٨ / ١٠٨، اتعاظ الحنفاء ٦٩ ب ـ ٧٠ أ، أخبار الدول المنقطعة ٢٥٨، نهاية الارب ٢٦ / ٥٨... وغيرهم.
(٦) اتّعاظ الحنفاء، ورقة ٦٩ ب و٧٠ أ.

الله في جملة أربعة أنفس تفرّقوا في البلاد، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم، وقطعة من الفوطة التي كانت عليه! فقيل له: لم قتلته؟ فقال: غيرة لله وللإسلام. فقيل له: كيف قتلته؟ فأخرج سكّيناً ضرب بها فؤاده فقتل نفسه، وهو يقول: هكذا قتلته. فقطع رأسه وأنفذ به إلى الحضرة مع ما وجد معه. وهذا هو الصحيح في خبر قتل الحاكم، لا ما تحكيه المشارقة في كتبهم من أنّ أخته قتلته »[٧].

٣ً ــ رواية الاختفاء المقصود:

ومن الروايات من يأخذ بفكرة اختفاء الحاكم عمداً. وهو رأي كتاب « سَيَر البيعة المقدسة »، المخطوط الكنسي في ترجمة « الأنبا زخاريا »، البطريرك القبطي المعاصر للحاكم. تقول الرواية: « إن الحاكم خرج إلى الجبل ذات ليلة، وسار في الجبل، ومع ركابيّ واحد، إلى أن بلغ « حلوان ». ثم نزل عن حماره، وأمر الركابي أن يُعَرْقِبَه، ففعل. ثم أمره بالانصراف إلى القصر، وتركه بمفرده. فعاد الركابي كما أمر. فلمّا لم يعد إلى القصر في اليوم التالي، سأل رجالُ القصر هذا الركابي عن سيّده، فأجابهم بأنّه تركه في حلوان، وعاد وحده نزولاً على رغبته. فمضوا في طلبه، فوجدوا الحمار معرقباً، وبحثوا عن الحاكم في كل موضع فلم يجدوه، ولم يقفوا له على خبر أو أثر ».

(٧) خطط مصر للمقريزى، ج ٤ ص ٧٤.

٤ً ــ رواية الهجرة الأبديّة:

أمّا رواية « أبي صالح الأرمني في كتاب « تاريخ الكنائس » المنسوب إليـه فهـي شبيهة بالرواية السابقة من حيث سياقها. يقول: « وبهذه الناحية (أي حلوان) نزل الإمام الحاكم عن الحمار الذي كان راكبه، وتقدّم إلى الركابي الذي كان يصحبه إلى حيث يذهب بأن يعرقب الحمار، وذهب هو وحده إلى داخل البريّة، ولم يرجع يعود، ولا عُرف أين توجّه إلى يومنا هذا (أي إلى نهاية القرن السادس الهجرى) وكان ذلك سنة إحدى عشر وأربعمائة »[٨].

٥ً ــ ترهّب الحاكم:

ومن الروايات أيضاً من يقول: « إن كثيراً من الناس اعتقدوا، حين اختفاء الحـاكم، بأنّه لجأ إلى مكان بالصحراء، واعتنق النصرانيّة. ثمّ ترهّب، وقضى أيّامه هناك ». ويضيف « ابن العبرى »، صاحب هذه الرواية، بأنّه، حينما كان بدمشق، سمع بعض كتّـاب الأقبـاط يقولون: إن الحاكم، حينما اشتدّ في مطاردة النصارى، ظهر له المسيح، كمـا ظهـر لبـولس الرسول، فآمن به، وتوارى سرّاً في الصحراء حتى توفّي »[٩].

---

(٨) تاريخ الكنائس المنسوب إلى أبي صالح الأرمني، ص ٥٢ ب.
(٩) تاريخ ابن العبري السرياني؛ انظر « سلفستر دو ساسي » الجزء الأول ص ٤١٧ من كتابه « عرض ديانة الدروز » (بالفرنسية).

٦ ــ العقيدة الدرزيّة في « غيبة الحاكم »:

يقول حمزة بـ« غيبة » الحاكم، وبفقده، واختفائه، وبأنّه لم يمت ولم يُقتل، بل أراد امتحان دعاته والمنتمين إلى دعوته، فارتفع عنهم إلى السماء، وسيعود يوماً ليملأ الأرض عدلاً وقسطاً، ويدين البشر كافّة... ولنا عودة إلى هذه العقيدة في كلامنا على اليوم الأخير، يوم الدين والحساب، لأنّها من أصول الدرزيّة الرئيسة.

ولكن، هل يكون حمزة وأعوانه من الدعاة، هم الذين دبّروا فكرة الغيبة؟ ويكونون، بالتالي، هم الذين قتلوه! أو اشتركوا في قتله؟ أو أقنعوا الحاكم بأن يختفي؟ أو أجبروه على ذلك؟ بحجّة أن يتمكّنوا من تقوية دعوتهم ومن التدليل على ألوهيّته؟

هذه أسئلة تخطر على البال. وقد لا تكون بعيدة كل البعد عن الحقيقة، وعن جرأة حمزة وأصحابه، الذين كانوا أهلاً لكل اجتراء، وهم الذين اجترأوا على تأليهه، وعلى سفك الدماء البريئة، وعلى سبّ الأنبياء، وعلى نبش قبور الأولياء، وعلى نقض دعائم الأديان...

*****

مهما تكن أسباب اختفاء الحاكم أو نهايته، فإنّنا، ونحن نتتبّع العقيدة الدرزيّة وايمانها، لا نستطيع إلاّ الأخذ بفكرة « الغيبة »، على ما هي في « رسائل الحكمة ». لقد غاب الحاكم وسيعود في نهاية الدهر.

خَاتمَة الفَصْل

تاريخ الحاكم بأمر الله من أدهش تواريخ البشر. وقد تصعب، بالحقيقة، قراءته، لأنّه يفوق معطيات عقلنا الطبيعي في تصديق ما جاء فيه. وعلى الذين يستطيعون تتبّع أحداثه، بدعم من نعمة إلهيّة خاصّة، أن يعيدوا فيه النظر، لأنّنا اكتفينا منه بالنذر اليسير. والذين ذهلوا، مثلنا، بأحداثه المثيرة، لا بدّ لهم من اتّخاذ أحد الموقفين:

أمّا موقف « سلفستر دو ساسي » الذي يقول، بعد أربعين سنة من البحث والتنقيب « انّني بتّ لا أفهم كيف تسمح العناية الإلهيّة للعقل البشري أن يهوى بمثل ما هوى إلى هكذا شذوذ![١] ... وأمّا موقف « الشيخ محمّد مالك الأشرفاني » في كتابه « عمدة العارفين »، الذي استقصى أخبار الحاكم وغراباته، ونقلها سنة فسنة، كما نقلنا نحن، وعرف كل ما يمكن أن يعرف عن أبعادها ومتاهاتها... ومع ذلك يرى لها تفسيراً روحانيّاً وشرحاً ضويّاً، يدلاّن « على الوجود والتنزيه والتوحيد والتأليه واللاهوت والقدرة والجبروت... »[٢]. وقد قيل في هذا الكتاب بأنّه « لا يَبلغُ العَالِمُ من علماء بني معروف رتبةَ العلم إذا لم يكن

---

(١) الصفحة ٢ من « توطئة » كتاب « دو ساسي » (بالفرنسية).
(٢) عمدة العارفين، مخطوط، جزء ٣، ص ٤١.

متقناً الوقوف على عمدة العارفين »[٣]، وبأنّه: « اشتهر عند بني معروف اشتهاراً واسعاً، لم ينل مثله كتاب آخر إلاّ كتب الأمير السيّد »[٤] ، وأيضاً: « لعل هذا الكتاب هو آخر ما ألّف على هذا المستوى في بابه في المجتمع المعروفي في لبنان وديار الشام حتى اليوم »[٥].

أمّا موقف حمزة وسائر الدعاة الأوّلين فهو أنّ جميع أفعال « مولانا، هي رموزات وإشارات لبطلان النواميس، وهلاك الجواميس، وتمييّز الطواويس »[٦]، أي أنّ غرابات الحاكم هي لـ« حكمة لاهوتيّة »، المقصود منها التبرّؤ « من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلّها »[٧]، وتكذيب « الجواميس » أي الأنبياء كافّة من آدم حتى محمّد مروراً بنوح وابراهيم وموسى وعيسى، واتّباع الدعوة التوحيدية و « الافادة من جميع الحدود »[٨] أي « الطواويس ».

وإذا كان لا بدّ لنا من موقف فإنّنا سنقفه بعد الكلام على عقيدة التجلّي الإلهي محور الدين الدرزي وقلبه، وذلك لأنّ الله الذي ظهر في الناسوت رحمة بالإنسان وطمأنينة له قد جعل ذاته قدوة للإنسان ومثالاً. ويتوجّب على الإنسان إذن أن يقتدي ويتشبّه بصورة الله الناسوتيّة، وإلاّ لا يكون للظهورات الإلهيّة عبر التاريخ أيّة فائدة ترجى... ... ...

---

(٣) عجاج نهويض، الأمير السيّد عبد الله التنوخي، ص ٢٤١.
(٤) نفس المرجع، ص ٢٣٩.
(٥) نفس المرجع، ص ٢٤١.
(٦) كتاب فيه حقائق... ١١ / ٩٨.
(٧) ميثاق ولي الزمان ٥ / ٤٧.
(٨) نفس المرجع.

الفصل الثاني

أُلوهيَّةُ الحَاكمْ

أوّلاً ـــ نزعة التأليه في التاريخ

ثانياً ـــ معجزات الحاكم الإلهيّة

ثالثاً ـــ التوحيد

أوّلاً ــ نَزعَة التَأليه في التَاريخ

هذا التاريخ البشري لجنون الحاكم بأمر الله لم يستطع أن يخفي جنون الحكمة الإلهيّة، التي تحسب، عند الناس الهالكين، جهالة، لكأنّ « الحماقة من الله أكثر حكمة من الناس... وما كان في العالم من حماقة فذاك ما اختاره الله ليخزى الحكماء... إنّها حكمة لم يعرفها أحد من رؤساء هذه الدنيا »[1]. وقد ورد في الكتاب: « سأبيد حكمة الحكماء وأزيل ذكاء الأذكياء »[2].

هذا الكلام ليس لحمزة بن عليّ مؤسّس دعوة التوحيد، بل هو للقديس بولس. ولكنّ حمزة، أمام جنون الحاكم، كالقديس بولس، أمام جهالة الصليب. مثله، يأخذ على الناس الذين « يطلقون ألسنتهم بما يشاكل أفعالهم الرديّة، وما تميل إليه أديانهم الدنيّة... ولم يعرفوا بأنّ أفعال مولانا، جلّ ذكره، كلّها حكمة بالغة، جِدّاً كان أم هَزلاً. يُخرج حكمتَه ويُظهرها بعد حين... ولو نظروا إلى أفعال مولانا، جُلّت قدرته، بالعين الحقيقيّة، وتدبّروا أشاراتِه بالنور الشعشعاني، لبانت لهم الألوهيّة والقدرة الأزليّة والسلطان الأبدية... »[3].

---

(١) الرسالة الأولى إلى أهل كورنتس ١ / ٢٥، ٢٧، ٢ / ٨.
(٢) سفر المزامير ٣٣ / ١٠، ١ كورنتس ١ / ١٩.
(٣) كتاب فيه حقائق... ١١ / ٩٨ ـ ٩٩.

فدعوة حمزة إلى تأليه الحاكم لم يكن أمرا مستحدثاً في التاريخ البشريّ العامّ، ولا في التاريخ الإسلامي. ولم يكن حمزة ليتجرّأ عليها لو لم يكن له في العصور السالفة مثيلٌ ارتضت بهم البشريّة كلّ الرضى.....

هذه الظاهرة عاشتها مصر الفرعونيّة، قبل حمزة بآلاف السنين، ورأت في ملوكها « ظلّ الله على الأرض »، فبنت لهم الصروح الضخمة والمقابر الفخمة، فكرّمهم الناس، وسجدوا لهم، وأودت بهم الخشية حتى العبادة... واستمرّت هذه الظاهرة في خبايا الذهن وعُصَيّات الدماء. واعتقد المصريّون « أنّ الإله المحلّي يظهر لعباده في شكل واضح جليّ. فكما أنّ روح الإنسان تأوي جسده الظاهر، كذلك يتّخذ الإله له مأوى خاصّاً يكون فيه مَظهراً له... وادّعى الفراعنة أنّهم خلفاء الآلهة على الأرض، وزعموا أنّهم تقمّصوا أرواحهم »(٤)... وتسمّى أحد الملوك باسم أخناتون الذي « ادّعى الألوهة »(٥) ... وفي عهد الأغريق دخلت مصرَ عبادةُ الأبطال، وكان لحكماء المصريين قبورٌ يحجّ إليها العابدون، ويقدّسونها. فدخل هؤلاء الحكماء في زمرة الآلهة، فكان منهم أمحوتب(٦).

وكانت النزعة التأليهيّة نفسها في بلاد فارس شديدةَ المراس. بل أصبحت أبّان العهد الساساني (٢٢٤ ــ ٦٥١ م) على أشدّها. « ولقد لقيتْ نظريّةُ الحقّ المَلَكَي المقدس قَبولاً عند الخلفاء الفاطميين، وأصبح

(٤) ذيل « الملل والنحل » للشهرستاني، تأليف محمّد سيّد كيلاني، دار المعارف بمصر ١٩٢٢ م، ص ٣ ـ ٤.
(٥) نفس المرجع، ص ٦ و٨.
(٦) نظر عبّاس محمود العقاد، الله، دار المعارف بمصر ١٩٦٤، ص ٦٥ ـ ٧٤. E. Drioton, La Religion Egyptienne, in « Les Rel. de l'O. – A. », Lib. Fayard 1957, p. 9-53.

الإمام في نظر الناس ظلّ الله في الأرض، كما أصبح شخصاً مقدّساً. وقد استمرّت فكرة تقديس الخلفاء الفاطميين رائجة في مصر »[٧].

ولكن، قبل الفاطميين، في بدء الدعوة الإسلامية، قام من يقول بتقديس « عليّ بن أبي طالب »، وباعتباره أعظم مقاماً من النبيّ محمّد، وبالقول إنّ فيه جزءاً إلهيّا انتقل من صلبه إلى أولاده فأحفاده...

فكان أوّل من دعا إلى ذلك « عبد الله بن سبأ » الذي قال في عليّ « إنّه لم يمت في الحقيقة، وإنّما شبّه للناس، وإنه سيرجع من السحاب ». وقال في موته: « لو جئتمونا بدماغه في مائة صرّة لعلمنا أنّه لا يموت حتى يذودكم بعصاه »[٨]. وغلا ابن سبأ وأصحابه في الكلام فقالوا يوماً لعليّ: « أنت هو »، أي أنت الله. فغضب عليّ، وأمر مولاه قنبراً بأن يلقهم في النار. فجعلوا يقولون، وهم يُلقَون في النار: « الآن صحّ عندنا أنّه الله، لأنه لا يعذّب بالنار إلاّ الله ». ثم أمر عليّ بنفي ابن سبأ إلى المدائن. بيد أن هذا لم يكن ليثني ابن سبأ عن مواصلة الدعوة لعلي، وبالقول برجعة عليّ وانتظار رجوعه، وبحلول الجزء الإلهي فيه. وقد ذهب أيضاً إلى القول بأنّه يجيء في السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه، وأنّه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلاً بعد أن ملئت جوراً »[٩].

وقامت أيضاً فرقة الجناحيّة وزعمت « أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب حيّ لم يمت، وأنه في جبل أصبهان، وهو مهديّ هذه الأمّة الذي بشّر به النبي وأخبر أنّه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، وأنه لا يموت حتى يجيء

(٧) الدكتور حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٦٦.
(٨) الجاحظ، البيان والتبيين، القاهرة ١٣١٣ هـ، ج ٢ ص ٧٣.
(٩) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٢ ص ١١.

ما بين مشرق الشمس ومغربها، ويقــود الخيل بنواصيهــا، وتتّفق عليه الأمّة، ويدين بدينــه أهل الملل. وقــالوا بأنّ روح القدس انتقلت من النبي إلى علي إلى الحسن فالحسين ثــم إلــى محمّد »[١٠]. وفي كتاب الفرق للبغدادي أن عبد الله بن محمّد « زعم أنّه ربّ، وأن العلم ينبت في قلبه كما تنبت الكمأة والعشب »[١١].

ثم جاءت فرقة الخطابية، المسمّاة بالمخمّسة « لأنهم زعموا أن الله هو محمّد، وأنــه ظهر في خمسة أشباح وخمس صور مختلفة: ظهر في صــورة محمّــد، وعلــيّ، وفاطمــة، والحسن، والحسين... وزعموا أن محمّداً أوّل شخص ظهر، وأوّل ناطق[١٢]، لم يزل بين خلقه موجوداً بذاته، يتكوّن في أيّ صورة شاء... وإنّما أظهر نفسه بالإنسانيّة والبشرانيّة لكي يكون لخلقه به أنس، ولا يستوحشوا ربّهم... وزعموا أنّ محمّدا كان آدم ونوح وابــراهيم وموســى وعيسى... وأنه كان يظهر نفسه لخلقه في كل الأدوار والدهور »[١٣].

ثم ظهرت فرقة الكيسانيّة فزعم أصحابها « أن محمّد ابن الحنفية (ابن عليّ من أبــي طالب) حيّ لم يمت، وأنه في جبل رضوى، وعنده عين من الماء وعين من العســل، يأخــذ منهما رزقه، وعن يمينه أسد، وعن يساره نمر، يحفظانه من أعدائه إلى وقت خروجه، وهــو المهدى »[١٤].

---

(١٠) الشهرستاني، الملل والنحل، ٢ / ٣٧ ـ ٣٩.
(١١) البغدادي، كتاب الفرق بين الفرق، ص ١٥.
(١٢) الناطق هو كل نبي جاء أو « نطق » بشريعة.
(١٣) القمّي، المقالات والفرق، ص ٥٦ ـ ٥٩.
(١٤) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٤٧.

ولمّا قامت الدولة الفاطميّة الاسماعيلية شاعت فكرة تقديس الأئمّة وعصمتهم وتأليههم بين الناس. فخاطب أحد شعراء المغاربة الخليفة عبيد الله المهدي بهذه الأبيات:

حــلَّ برقــادةَ المســيحُ حــلّ بهــا آدمٌ ونــوحُ،
حــلَّ بها أحمدُ المصفى حــلّ بها الكبشُ والذبيــحُ
حــلَّ بها اللهُ ذو المعالي وكلُ شيءٍ سواه ريحُ...(١٥)

وغلا ابن هانئ الأندلسي في مديح الخليفة المعزّ، ونسب إليه بعض صفات الألوهيّة، وأنشد في « حضرته » هذه الأبيات:

هو علّة الــدنيا ومَن خُلِقَتْ له ولعلــّةٍ مــا كانت الأشــياءُ...
لا تسألنّ عن الــزمان فإنــّه في راحَتَيكَ يدور حيث تشــاءُ
ندعــوه منتقمــاً عزيزاً قادراً غفّار موبقةِ الذنوب صَفوحَاً...
ما شئتَ، لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحكمْ، فأنتَ الــواحدُ القهّارُ...
فقد شهدت له بالمعجزات كما شهدت لله بالتوحيد والأزل(١٦)

ونظرة الناس التأليهيّة هذه لخلفائهم جعلتهم يعتقدون في أنفسهم أنّهم كذلك، أعلى مــن سائر البشر، وأنّهم لم يختصّوا ببعض الحقوق الإلهيّة فحسب بل بصفات الله أيضاً؛ من ذلك ما كان يدّعيه المعزّ لنفسه، وقد ظهر في عباراته: « أنّا كلمات الله الأزليّات، وأسماؤه التامّــات، وأنواره الشعشعانيّات، وأعلامه النيّرات، ومصابيحه النافذات، لا يخرج منّا أمر، ولا يخلو منّا عصر... »(١٧).

ووصلت هذه الظاهرة التأليهيّة إلى الحاكم بأمر الله على أشدّها. فقد أمعن في ادّعائــه الألوهة، وأمعن الدعاة في الدعوة إليها.

---

(١٥) ديوان ابن هانئ، ص ٩٦.
(١٦) ديوان ابن هانئ، ص ٧ ـ ١١، ٣٤ ـ ٣٦، ٩٦، ١٦٤.
(١٧) رسالة المعزّ إلى الحسن الاعصم القرمطي يعلمه بمقامه الجليل...

ثانياً ــ مُعجزاتُ الحَاكم الإلهيَّة

يقول الدروز إنّ الحاكم بأمر الله مرّ بمرحلتيْن: مرحلة الإمامة ومرحلة التجرّد. كانت الأولى منذ « وجوده » سنة ٢٧٥ هــ حتى نهاية السنة ٣٠٧ هــ. وكانت الثانية مــن ســنة ٣٠٨ حتى سنة ٤١١، ما عدا سنة ٤٠٩ التي غاب فيها وتوقّفت الدعوة، لذلك فهي تخرج من تــاريخ الموحّدين. وتسمّى مرحلة الإمامة بــ« دور الستر »، ومرحلة التجــرّد بــــ« دور الكشف ». وفي الدورين حدثت له معجزات تدلّ على ألوهيّته:

في دور الإمامة كان « الإمام الحاكم » انساناً كاملاً « يتجلّى فيه الروح الإلهي، يرى ويتكلّم ويلمس، وله ظلّ، إنّما أرادتُه نافذة وأمره مطاع. هو، شكلاً، كالخلق، وعالٍ، معنــى، عن الخلق؛ يُجري الأقدارَ ولا تَجري عليه... فهو إلهيّ الذات والصفات، وهو الحادّ لكل حدّ، وغير محدود »[1]. أمّا في دور التجرّد فقد « ظهر » الحاكم إلهاً بصــورة ناســوتيّة، غيــر ملموسة ولا محسوسة، لا يأكل ولا يشرب، ولا تأخذه سنة، يُظهر معجزاته للخلق، لا يُعرَف ولا يُوصَف، يبرز للعيان متى شاء، ويختفي متى شاء، لا ظلّ له ولا كيفيّة مرئيّة. إنّه إله حقّاً شفق بالبشر فظهر لهم بالناسوت وباشرهم حيث هم.

---

(١) توفيق سليمان، أضواء على تاريخ مذهب الدروز، ص ٩ ـ ١٠.

« أمّا معجزات الحاكم تعالى، في دور الإمامة، فهي أكثر من أن تحصى. فمن جملة معجزاته الدالّة على ألوهيّته وقدرته ما ذكره في السيرة المستقيمة[٢]، من قهر الملوك، وقتل الجبابرة، وظهوره وحده بين الأعداء أنصاف الليالي بلا سيف ولا سكين، ويمشي في أوساط ذراريهم وأولادهم، ويعرّفهم بحقيقته، فيضطربون جميعاً لهيبته، ويذلّون ويخافون سطوته، ويخضعون لعزّته وقدرته وظهوره أيضاً إلى الأماكن الخطرة، وليس معه غير الركابيّة والمؤذّنين. هذا، والملوك والأعداء مجتمعة حول القاهرة لأجل ملاحقته ومحاربته، ويخرج إلى بين الأعداء في مَحَفَّةٍ تحملها أربعةٌ من الأضداد المشركين، وتَشُقّ به في أوساط المارقين الناكثين والمنافقين، وما من العساكر قبيلة إلاّ وقد قتَّل ساداتهم، والرعيّة كلّهم أعداؤه في الدين، وأعجب من هذا، أن المَحَفّة تمشي وحدَها بلا حاملٍ يَحملها وريحٍ يَسوقها، بل يكون سيرُها بنفسِها وقتَ الهاجرة العظمى »[٣].

« ومن معجزاته الدالّة على تنزيهه، لمّا كان يظهر في الحرّ الشديد وقت الرمضاء والهاجرة العظمى، وتسودّ وجوهُ العساكر التي معه، وتتغيّر هيئاتُهم وصفاتهم ممّا يكابدونه من التعب الشديد والحرّ العظيم، وهو سبحانه على حالته التي خَرج بها من الحَرَم المقدّس الذي هو القصر، ولم تؤثّر الشمسُ فيه »[٤].

« ومن معجزاته الدّالّة على تنزيهه كونه يُوري الخلائقَ ناسوتَه صورةً

(٢) رسالة السيرة المستقيمة من « رسائل الحكمة »، رقم ١٢ ص ١١١ ـ ١٢٩.
(٣) مختصر البيان في مجرى الزمان، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٤٤١، ورقة ٦٥ أ ـ ب.
(٤) نفس المرجع، ورقة ٦٥ ب ـ ٦٦ أ.

بشريّة، لا تأكل ولا تشرب ولا تلمس، ولا ظلّ لها في الشمس، ولا خيالاً في الماء، ولا مثيلاً في المرآة؛ ومع هذا يرونه الخلائق في دور الإمامة هيئةً بشريّة وصورة إنسانيّة ظاهرة بالنطق والخطاب... وكان إذا ظهر وهو راكب الأتان في الشمس ولا يرون للراكب ظلاًّ. ولمّا كان يسير في الرمضاء والشتاء قصداً لبيان المعجز، فلا يسودُ له وجه، ولا تؤثّر الشمس فيه، كما تفعل في وجوه العساكر التي في خدمته. ولمّا يسير في الشتاء عند نزول المطر الشديد فتتغرّق العساكر وأثوابهم ببلِّ الأمطار وهو سبحانه يرجع على حالته التي خرج بها من الحرم المقدس، ولم يلحقه شيء من ذلك. وكان إذا ظهر في وقت الريح الهبوب والغبار العظيم فتسودّ وجوه العساكر وتدمع أعينُهم ويصيبهم ذلك الغبار، وهو سبحانه لم يلحقه شيء من ذلك. وكان إذا مرّ وهو راكب الأتان عنه الحوض الملاصق لبستان المختصّ[٥] فيشرب الأتان من ذلك الحوض، فيرون العالَمُ خيالَ الأتان في الماء، ولا يرون للراكب خيالاً. وكان إذا مرّ أيضاً قبال مرآةٍ صقيلة منصوبة في مكان، فيرون الناسُ خيالَ الأتان في المرآة، ولا يرون للراكب خيالاً، وكان إذا ظهر ليلاً ونهاراً في ضوّ الشمس أو القمر فلا يُرى له ظلّ، وكان إذا رُفِعتْ إليه الرقاع التي هي أوراق جسمانية، فيتناولها بيديه في ظاهر الأمر ويقرأها بألفاظ جسمانيّة تسمعها الحاضرون ويشاهدون ذلك ويرون ظلّ الرقعة ولا يرون ظلاً ليديه.

فجميع هذه معجزات دالّة على تنزيهه عن البشريّة »[٦].

---

(٥) « بستان المختصّ » مكان فيه اليوم جامع المقسّي وهو يطلّ على الخليج الناصرى (انظر المقريزى، الخطط ٣ / ١٩٦ ـ ٢٠٢).

(٦) « مختصر البيان في مجرى الزمان »، مخطوط، ورقة ٦٦ أ ـ ٦٧ أ.

وبهذا الأسلوب يكمّل صاحب « مختصر البيان في مجرى الزمان » ذكر معجزات الحاكم في « دور الستر »، فيظهر علم الحاكم للغيب عندما كان بعض الناس يعملون ما قد نهى عنه خفية « ويعتقدون أنّه لا يعلم بذلك، فيطلبهم الحاكم تعالى ويعرّفهم أفعالهم ويعاقبهم »[٧]. « ومن جملة ما كان يأمر به هو أنّه تعالى أمر عند ذكره في الضمائر بالترجّل من ظهور الدواب. وبرز الأمر العالي بأنّ مَن ذكرَ الحاكمَ في ضميره وهو راكب، فليترجّل. فالمُشكِكُ فيه يُغالِط في ذلك فيطلبُه الحاكمُ جلّت قدرته ويعاقبه، ويقول له: أنت ذكرتني في المكان الفلاني، وما ترجّلت. واشتهر ذلك عند الخاصّ والعام بأنّه يعلم المغيبات ويظهر المعجزات »[٨].

لم يكن يذهب عن خاطر الحاكم ما يجول في ذهن أصحاب دعوته، ولم يكن هو ليمنعهم عمّا يجول في خاطرهم. فالتاريخ العامّ يثبت، بدوره، ما جال في الخاطِرَين. فقصّ علينا المؤرّخون جملة أحداث تشير إلى ادّعاء الحاكم الألوهة ومعرفته الغيب.

يخبرنا ابن زولاق (+ ٣٨٧)[٩] أنّ الحاكم « نادى في الناس ألاّ يغلق أحد بابه ولا حانوته... وأصبح الناس يستغيثون، فأحضر صنماً كان عنده، يسمّى أبا الهول، فكان كل من أضاع شيئاً يجلس بين يديه، ويقول له: يا أبا الهول! ضاع كذا وكذا، فيقول له شخص داخل الصنم: ما ضاع منك أخذه فلانٌ ووضعَه في المكان الذي يقول عليه الصنم،

---

(٧) نفس المرجع، ص ٦٧ أ.
(٨) نفس المرجع، ص ٦٧ أ ـ ب.
(٩) مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٨١٧: فضائل مصر، ورقة ٥٣ أ وما يليها. يلاحظ أنّ المخطوط منسوب لابن زولاق، لأن ابن زولاق توفّي قبل هذه الحادثة، أو أن جزءاً منه يكمّله مؤرخ آخر مجهول...

فيحضر لصاحبه، ثم ما زال على ذلك حتى قرّر جميع ما ضاع لأربابه. ثمّ صلب اللصوص وعادت الناس في أمان ينامون في بيوتهم وأبوابهم مفتوحة، وحوانيتهم كذلك، لم يسرق لهم شيء، حتى إذا وقع من أحد درهم يبقى في مكانه لا يجسر أن يأخذه أحد، حتى يأتي إليه صاحبه فيأخذه، ثم ينادي: رحم الله من اعتبر بغيره ».

وذكر نفس المؤرّخ حكاية أخرى يقول فيها: « إنه وقع من شخص كيس فيه ألف دينار عند باب جامع ابن طولون، واستمرّ في مكانه أسبوعاً كاملاً لم يجسر أحد على أخذه، حتى مرّ به صاحبه، وأقام الدليل على ملكه له »(١٠).

وفي المخطوط نفسه: إن الحاكم اتّخذ لنفسه جواسيسَ من النساء يندسِسْنَ في دُور بعض الناس مخصوصين، وكان من واجبهنّ أن يكشِفْنَ ما يحدث فيها، ثم يقدِّمنَ تقاريرَهنّ عن ذلك إليه في اليوم التالي. فإذا ما أصبح الخليفةُ استدعى هؤلاء الناس للمثول بحضرته، فيخبرهم بتفصيل كل ما حدث في دُورهم. ولم ينسَ أيضاً أن يتّخذ جواسيسَ آخرين، مهمّتهم أن يقدّموا له تقارير بكل ما يَحدث في الطرقات. وكانت نتيجة هذا وذاك أن أصبح بعض الناس يعتقدون أنّه يعلم الغيب »(١١).

*****

أمّا معجزات الحاكم في « دور الكشف » فلا تحصى؛ وهذه، طبعاً، من اختصاص أصحاب الدعوة، لأنّهم وحدهم استطاعوا النفوذ إليها

---

(١٠) نفس المرجع، ورقة ٥٤ ب.
(١١) نفس المرجع، ورقة ٥٦ ب. انظر أيضاً مخطوط بودليان ٣٧٠.

والإيمان بها. وهي براهين ساطعة على ألوهيّة الحاكم وقدرته العظيمة.

يخبرنا صاحب « مختصر البيان »، نقلاً عن رسالة « الغاية والنصيحة » لقائم الزمان حمزة بن علي[١٢] فيقول: « ومن البراهين الدّالة على قدرته تعالى، لمّا كنت العساكر مجتمعة للمحاربة، وهم زائد عن عشرين ألف رجل، حائطة بمسجد ريدان[١٣]، وهم في آخر يوم في التاسعة وأربعمائة للهجرة، فبينما هم في أشدّ قتال، عند غروب الشمس، فإذا بالحاكم تعالى قد تجلّى بالوحدانيّة وكشفَ لهم ذاتَه على شرائف القصر المشرف على مسجد ريدان، فلمّا شاهدوه العساكرُ المذكورة، صعقوا جميعاً لهيبتِه، ووقعوا إلى الأرض مغشيّاً عليهم. فهذه معجزة عظيمة.

« ومن البراهين الدالة على وحدانيته كونه في زمان التجريد، يوري ذاتَه للناظر الموحِّدِ كهيئةِ صُورتِه، وإذا نظر إلى ناسوت الباري، سبحانه، فَيُرِهِ صورةَ نفسِه لا غير وهيئةَ ذاتِه، كما يَنظر في المرآة، كما قال[١٤]: وإنّما ينظر الناظر إلى صورة نفسه إذا توهّم أنّه ينظر إلى المشار إليه كالناظر إلى جوهر حديد المرآة، كلّما جدّد النظر إليه لم يجد إلاّ صورة نفسه، ويرجع بصره خاسئاً حسيراً إليه »[١٥].

« ومن عجائب القدرة الربّانيّة أنّه إذا كانوا جماعة من الموحّدين ينظرون إليه في ساعة واحدة، وهم رجال ونساء وشيوخ وشباب فكلٌّ

---

(١٢) انظر « رسائل الحكمة » رقم ١٠، ص ٨٣ ـ ٩٦.
(١٣) مسجد خارج القاهرة، أخذه حمزة قاعدة لنشر الدعوة.
(١٤) القول لقائم الزمان حمزة.
(١٥) مخطوط « مختصر البيان في مجرى الزمان »، ورقة ٦٧ أ ـ ٦٨ ب. فيه شهادات وافية من رسائل الحكمة، وهو يعتمد عليها في وضع براهينه على ألوهيّة الحاكم ووحدانيّته.

منهم يرى نظير صورته لا غير، ولم ينظر نظير صورة غيره، وكلّ منهم يعرف الآخر بما رأى. وهذا النظر للموحّدين خاصّة، لا لغيرهم. وامّا المشركين فيردّوه بشراً على حالة الإمامة. والنظر إلى الصورة الناسوتيّة بهيئة المرآة، تبعاً لليقين والإيمان... »[١٦].

*****

يكفينا هذا القدر من شهادات كتب التاريخ ورسائل الحكمة والشروحات الدرزيّة لها. وكلّها تحمّل تصرّفات الحاكم البشريّة معنى إلهيّاً، وتعتبرها معجزات خارقة لقدرته العليّة، وبراهين على وحدانيته. ويبدو أنّ الحاكم نفسه كان معدّاً لأن يتقبّل مثل هذه الترجمات الروحيّة لتصرّفاته المادّيّة، بدليل ما ذكره المؤرّخون المعاصرون له.

لكنّ « رسائل الحكمة » لا تكتفي بهذا وحسب، بل راحت تطلق عليه أوصافاً وأسماءً لا تجوز إلاّ على الله. وقد نعجز عن ذكرها كلّها، لأنّ جميع صفحاتها تزخر بالكلام عليها. لهذا، سنقتصر على القليل منها، مع بعض المراجع المستطاعة إليها. ففي « ميثاق وليّ الزمان » الذي يكتبه الدرزيّ على نفسه اقرار صريح ودليل لنا:

« توكّلت على مولانا الحاكم الأحد، الفرد الصمد، المنزّه عن الأزواج والعدد ». ويختم يقوله: « من أقرّ أن ليس له في السماء إله معبود، ولا في الأرض إمام موجود، إلاّ مولانا الحاكم، جلّ ذكره، كان من الموحّدين الفائزين » (٥ / ٤٧ ـ ٤٨).

(١٦) « مختصر البيان... »، ورقة ٦٨ ب ـ ٦٩ أ.

ثالثاً ــ التَّوْحيد

إذا كان أفلاطون استطاع أن يركّز جميع صفات الله على محور صــفة « الخيــر »، حتى أصبح الله، عنده، هو « الخير المطلق »، الذي عنه تصدر الموجودات جميعهــا... وإذا كان أرسطو وصف الله بــ« الكائن » الذي عنه تصدر الكائنات بجميع صفاتها وأحوالهــا... فإنّ حمزة بن علي اعتبر صفة « التوحيد » ذلك المحور الذي تدور عليه وتخرج منه وتعتمد على مفهومه جميع الصفات.

« بالتوحيد عُرِفتْ جميع الأشياء، لا بالأشياء يُعرف التوحيد »[١]، و « بمعرفة تجريد التوحيد يتمّ الرشد والتأييد »[٢]، وأنّ « علم الحقيقة هو توحيد مولانا جل ذكــره »[٣]، و « أنّ التوحيد هبة من الواحد للموحّدين »[٤] ... هذه هي القواعد التي أقامها أصحاب الرسائل، نقلاً عن الحاكم جلّ ذكره، الذي، على حدّ قول حمزة « أقام قواعد توحيده التي هي تمام البناء في وقتنا هذا بمشيئته »[٥].

---

(١) الشافية لنفوس الموحدين ٥٨ / ٤٥٩، إيضاً التوحيد ٧٤ / ٦٥٦.
(٢) أيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٥٦.
(٣) ميثاق النساء ٨ / ٧٠.
(٤) الشافية لنفوس الموحدين ٥٨ / ٤٥٩.
(٥) السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٣.

وفي شرف التوحيد قال بهاء الدين: « أمّا بعد فإنّ التوحيد للمولى جلّت آلاؤه أعظم المطلوبات، وأنفس المدّخرات، وأشرف المكتسبات، لأنه ثمرة ما سلف في العصور الخالية من المتعبّدات، وميزان القسط الذي به قامت الأرض والسموات. فبصحة التوحيد تصل الأنفس الطاهرة إلى الثواب الأبدي والكمال الأخير. وبالقصور عنه تُخَلَّد الأنفس الخبيثة في العقاب والخزى وبئس المصير.

« فالتوحيد للمولى جلّت آلاؤه أوّل المفترضات، وحقيقيّة الديانات كما قال **(حمزة)**، من أشار إلى توحيده ونزّهه عن صفات خلقه وعبيده: أوّل الديانة بالله معرفته، وكمال معرفته نظام توحيده، ونظام توحيده نفي صفات المخلوقين عنه »(٦).

بهذا السبب سُمّي أتباع حمزة بـ« الموحدين »، ودينهم هو دين التوحيد، ودعوتهم هي « دعوة التوحيد »، وهم « أهل التوحيد »(٧). وبهذا يتميّزون عن سائر الديانات وأهلها، فسارعوا، في دور الكشف، إلى الدخول فيه والاقرار به. وقد أعلن حمزة، عند ظهوره، نهاية الشرائع كلّها، وإبطال الأنبياء والأوصياء جميعهم، لأنّ نور التوحيد قد بان: « والآن **(في دور الكشف)** فقد بلغ الباطل نهايته، وآن خموده، وتبطيل دعائمه، وكسر عموده، ويكون التوحيد ظاهراً أبداً على جميع الأديان، وعبادة مولانا جل ذكره في السرّ والإعلان »(٨).

---

(٦) الشافية لنفوس الموحدين ٥٨ / ٤٥٣ ـ ٤٥٤.
(٧) « الموحدون »: انظر: ٦ / ٦٠، ٦١، ٥ / ٤٨، ٩ / ٧٥، ٥٨ / ٤٦، ٦٩ / ٥٩٤، الخ... « دعوة التوحيد » انظر: ١٠ / ٨٦، ٤٦ / ٣٥٠، ٤٧ / ٣٥٤، ٧٣ / ٦٤٠، ٧٤ / ٦٥٦، ٦٦٠، الخ... « أهل التوحيد » انظر: ٦ / ٦١، ١٢ / ١١٤، الخ...
(٨) البلاغ والنهاية، ٩ / ٧٤.

جميع دعائم الإسلام لا معنى لها إنْ لم تُفِدْ حقيقة التوحيد وتُشِر إليه: فـ« الصلاة التي هي لازمة في خمسة أوقات... هي صلة قلوبكم بتوحيد مولانا... على يد خمسة حدود »[٩]، « والزكاة... في الحقيقة توحيد مولانا جلّ ذكره وتزكية قلوبكم وتطهيرها »[١٠]، « والصوم هو بالحقيقة... صيانة قلوبكم بتوحيد مولانا جل ذكره »[١١]، « والبيت (أي الحجّ إلى مكة، والبيت هو الكعبة) هو توحيد مولانا جلّ ذكره... والموحدون أولياء مولانا جل ذكره، سكنت أرواحهم فيه. وربّ البيت هو مولانا جلّ ذكره في كل عصر وزمان »[١٢]، و « الجهاد الحقيقي هو الطلبة والجهد في توحيد مولانا جلّ ذكره ومعرفته »[١٣]...

وجميع تعاليم القرآن والحقائق الإسلاميّة لا معنى لها إِنْ لم تدلّ على التوحيد: فـ« البرّ هو توحيد مولانا جل ذكره »[١٤] في آية تقول: « ولن تنالوا البرّ (أي التوحيد) حتى تنفقوا ما تحبّون »، و « العرش علم التوحيد لمولانا »[١٥]، و « دار السلام » في سورة يونس ١٠ / ٢٥ تعني توحيد الإمام: « السلام هو الإِمام، وداره توحيد مولانا »[١٦]، « وجنّة النعيم » في سورة الواقعة ٥٦ / ٨٨ تعني دعوة التوحيد، إذ كان توحيد مولانا جلّ ذكره هو النعيم السرمد »[١٧]. « أمّا من كان من المكذّبين (آية)

(٩) النقض الخفي ٦ / ٥٦، انظر كتاب فيه حقائق ١١ / ٩٩ ـ ١٠٠.
(١٠) النقض الخفي ٦ / ٥٧.
(١١) النقض الخفي ٦ / ٥٨.
(١٢) النقض الخفي ٦ / ٦٠ ـ ٦١.
(١٣) النقض الخفي ٦ / ٦١.
(١٤) النقض الخفي ٦ / ٥٧.
(١٥) ميثاق النساء ٨ / ٧٠.
(١٦) البلاغ والنهاية ٩ / ٧٩.
(١٧) الغاية والنصيحة ١٠ / ٨٦.

بالتوحيد، « الضالين » (آية) عن حقائق الدين « فنزل من حميم » (آية) يعني دعوة الظاهر، و « تصلية الجحيم » (آية) يعني انجحام قلبه بالكفر والشرك »[١٨].

هذا التوحيد يقوم على « نفي التشبيه عنه (عن المولى) من جميع المعاني والجهـــات. (وهذا لا يكون) إلاّ بنفي البنوّة والأبوّة، ونفي الأزواج والأولاد والأمّهات، التي ظهر بها في دور الستر... تعالى عن التشبيه والتحديد وجميع الصفات. فحقائق التوحيد والتنزيه والتأليه هو الذي تفرّد به المولى إله الأرض والسموات »[١٩].

*****

من مفاهيم « التوحيد » إذن ألاّ يكون للحاكم أيّة نسبة إلى أحد من البشر: لا أب لـــه، ولا ابن، و لا عمّ، ولا خال... « الحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأنّ مولانا جلّ ذكره ابـــن العزيز، أو أبو عليّ، لأن مولانا سبحانه هو هو في كل عصر وزمان، يظهر فـــي صـــورة بشريّة وصفة مرئيّة، كيف يشاء وحيث يشاء... وأمّا من قال واعتقد بأن مولانا جلّ ذكره سلّم قدرته ونقل عظمته إلى الأمير عليّ، وأشار إليه بالمعنوية فقد أشرك بمولانا سبحانه غيره... فمن كان منكم يعتقد هذا القول فليرجع عنه ويستقيل منه ويستغفر المولى جلّ ذكره ويقـــدّس اسمه »[٢٠].

---

(١٨) الغاية والنصيحة ١٠ / ٨٦ ـ ٨٧.
(١٩) أيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٥٦.
(٢٠) البلاغ والنهاية ٩ / ٧٧ ـ ٧٨، انظر أيضاً: رسالة إلى ولي العهد ٢٦ / ٢٢٣ ـ ٢٢٤، وإليه أيضاً باسم « خمّار بن جيش » ٢٧ / ٢٢٥ ـ ٢٢٦، ورسالة إلى بني أبي حمار ٤٤ / ٣٤٠...

والتوحيد يعني أيضاً أن ليس للحاكم صفات بشريّة مادّيّة، كالأكل والشرب والتعب والنوم، أو أن يكون له حاجات جسديّة كالبول والغوط والعرق وغير ذلك: « لا يقدر أحد منهم يقول بأنّه شرب ماء، ولا أكل طعاماً، ولا رآه أحد عند بول ولا غائط. حاشاه وسبحانه من ذلك... ولا أحد يقول... إنه شاهده يفعل شيئاً ممّا ذكرناه من تعب أو أكل أو شرب، حاشاه سبحانه من ذلك وتعالى... »[٢١]، و « حاشاه من الوقوف والسير والجلوس والنوم واليقظة »[٢٢].

والتوحيد يعني أيضاً أن الحاكم لا يدخل في نطاق المخلوقين، نبيّاً كان أم وصيّاً أم إماماً أم وليّاً أم أي شخص مخلوق آخر. فهو قد « تنزّه عن جميع النطقاء (الأنبياء) والأسس (الأوصياء) والأئمة الهاديين »[٢٣]. و « كل ما يُقال فيه من الأسماء، مثل الإمام، وصاحب الزمان، وأمير المؤمنين ومولانا... كلّها لعبيده، وهو أعلى وأجلّ ممّا يقاس أو يحدّ أو يوصف »[٢٤].

والتوحيد يعني أن ليس لمولانا ضدّ أو شبه أو ند أو نظير أو كفؤ أو غير ذلك. يقول حمزة: « إيّاكم أن تظنّوا بأنّ الضدّية لمولانا سبحانه، لأنه بلا شبه ولا ندّ ولا نظير. والضد لا يكون إلاّ للشكل والمثل. ومولانا... ليس له شبه في الجسمانيين، ولا ضد في الجرمانيين، ولا كفؤ في الروحانيين، ولا نظير في النفسانيين، ولا مقام له في النورانيين... »[٢٥].

---

(٢١) السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٨.
(٢٢) كتاب فيه حقائق ١١ / ١٠٥.
(٢٣) الغاية والنصيحة ١٠ / ٢٨٣، وأيضاً: كشف الحقائق ١٣/ ١٣٠.
(٢٤) النقض الخفي ٦ / ٦٢، ٦٣.
(٢٥) البلاغ والنهاية ٩ / ٧٥. إن المقصود من « الجسمانيين والـ... »، خمس مراتب من الخلائق المتدرجة في السموّ.

وفي ذروة التوحيد أن يتنزّه الحاكم عن الصفات والأسماء والأوهـام والخـواطر... وجميع صفات المخلوقين، فهو « يجلّ عن وصف الواصـفين وإدراك الانـام »[٢٦]، و « لا يدخل في الخواطر والأوهام »[٢٧]، « ولا تقدر على وصفه اللغات ولا يدخل تحت الأسـماء والصفات »[٢٨]، وهو « يتعالى عن مقالات السفل »[٢٩]، و « أعلى وأجلّ ممّا يقاس أو يحـدّ أو يوصف »[٣٠]، وهو « جلّ ذكره أعظم من أن يوصف أو يدرك »[٣١].

ولكن إنْ أطلقنا على الحاكم بعض الصفات والكمالات فإنّ ذلك ممّا جرت عليه ألسنة الناس واعتادوا عليه لكي يدركوا بعض معانيه. يقول حمزة: « نقول: أمير المؤمنين جلّ ذكره من حيث جرت الرسوم والتراتيب على ألسنة الخاصّ والعام. ولو قلنا غير هذا لم يعرفوا لمن المعنى والمراد، فتعمى قلوبهم عنه، وهو سبحانه ليس كمثله شيء، وهو العليّ العظيم »[٣٢].

من هذه الصفات الإلهيّة ما لا نستطيع حصره، لأنّ صفحات الرسائل تزخر بها بما لا يحدّ. يقول بهاء الدين: « أمّا بعد، فالقدرة والجلال والتنزيه والاعظام والتقديس والتأليه للإلـه الحاكم المنفرد بالابداع المتعالي عن سمة ما يدخل تحت تفكّر الأشخاص والأنواع، القاصـرة عن توهّمه الخواطر والأفكار، العاجزة حصوراً عن تصوّره الألباب والأبصار، الذي تفـرّد بجلال الملكوتيّة وعظم الجبروت، وتوحّد بكمال القدسيّة ونزاهة اللاّهوت...[٣٣].

---

(٢٦) ٧ / ٦٤، ١١ / ٩٧، ١٢ / ١١١، ١٤ / ١٤٦، ١٧ / ١٨٥... الخ.
(٢٧) ٦ / ٤٩، ٧ / ٦٤، ١١ / ٩٧، ١٢ / ١١١، ١٣ / ١٣٠، ٢١ / ٢٠٨ الخ.
(٢٨) ٦ / ٦٢، ٩ / ٧٧، ١٣ / ١٤١، ١٤ / ١٤٧... الخ.
(٢٩) ٩ / ٧٣...
(٣٠) ٦ / ٦٢...
(٣١) ١٤ / ١٥٣...
(٣٢) النقض الخفي ٦ / ٦٣.
(٣٣) تقليد سكين ٤٦ / ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

ويقول أيضاً: « ... التوحيد والإعظام والإجلال والإكبار والتسليم والتقديس والتنزيه والاقرار... إلى المولى الإله الحاكم الجبّار، المتعالي عن مختلجات الهواجس والأفكار، والمنزه في توحيده عن دقائق الألفاظ، المقدّس في الإشارة إلى جبروته عن اكتناه النواظر والالحاظ »[٣٤]...

*****

إلاّ أنّ مفهوم التوحيد عند الدروز يقوم على نفي « التشبيه »، كالمعتزلة، وعلى نفي « التعطيل »، على غير ما تقول المعتزلة. ونعلم أن المعتزلة كانوا أشدّ من نفى الصفات عن الله، ولكنّهم، بنظر الدروز، أخطأوا في اعتبارها نفس الذات الإلهيّة؛ بهذا منعوا عن الانسان امكانيّة معرفة الله؛ لأنّ « تعطيل » الصفات، باعتبارها عين الذات، جعل الله بعيداً كلّي البعد، و « أيّ عدل يقتضي أن يكون (الله) فوق سبع سموات على كرسيّ فوق السماء السابعة... وقد كلّفنا مع هذا عبادته ومعرفته؟ »[٣٥]. لأجل هذا قرّر حمزة اثبات التوحيد بهذا الأسلوب:

(٣٤) اقرأ في الرسائل: الجميهيريّة ٥٠ / ٣٦٦، التعنيف والتهجين ٥١ / ٣٧٢، رسالة الوادي ٥٢ / ٣٧٧، القسطنطينية ٥٣ / ٣٨٢ ـ ٣٨٣، التعقّب والافتقاد ٥٥ / ٤١٨ وما يلي، الايقاظ ٥٦ / ٤٣٥، الموسومة بالحقائق ٥٧ / ٤٤٢ ـ ٤٤٣، رسالة العرب ٥٩ / ٤٦٤، رسالة اليمن ٦٠ / ٤٦٩، رسالة الهند ٦١ / ٤٧٤، التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٠، السفر إلى السادة ٦٨ / ٥٣٩، التحذير والتنبيه ٣٣ / ٢٤٢، الزناد ٣٧ / ٢٧١، الرشد والهداية ٣٩ / ٢٨٢... المناجاة ٢٩ / ٢٢٩... الدعاء المستجاب ٣٠ / ٢٣٤ وما يلي، التقديس دعاء السادقين ٣١ / ٢٣٨ الخ...

(٣٥) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٢٩.

« لا أقول بأنّه (الله) له مكان معروف، فيكون محصوراً فيه وتخلوا بقيّة الأمكنة منه، ولا يخلو منه مكان فيكون عاجز القدرة... ولا أقول إنّه شيء فيقع به الهلاك، ولا أقول إنه لا شيء فيكون معدوماً مفقوداً، ولا هو على شيء فيكون محمولاً عليه، ولا هو في شيء فيكون محاطاً به، ولا متعلّق بشيء فيكون قد التجأ إليه...

« بل أقول، ضرورة لا حقيقة، بأنّه سبحانه بارى كل شيء ومكوّن كل شيء ومصوّرهم من نوره... »[٣٦]، أي إنّ ضرورة معرفته أجبرت حمزة على « قول » بعض الصفات، لكنّ الحقيقة تقضي بأن نقول بأنّ الله « منزّه عن جميع الأسماء والصفات والأجناس واللغات والأشياء كلّها »[٣٧]. هذا هو مفهوم « التوحيد »: تنزيه لا تعطيل. وبهذا يبتعد دين الدرزيّة عن الإسلام وسائر الأديان الذين قالوا بالتوحيد ولكنّهم لم يتجرّأوا على تنزيهه لئلا يقعوا في التعطيل، والذين وقعوا في التعطيل باتوا لا يعرفون الله أبداً. لذلك سمّي الدروز بـ« بني معروف » أي الذين عرفوا الله، لأن « المعرفة ــ عندهم ــ هي لما شوهدُ وعوين »[٣٨].

بهذه المعرفة العيانيّة ندخل إلى عقيدة هي من صلب دعوة التوحيد: التجلّي الإلهي عبر الدهور.

---

(٣٦) رسالة كشف الحقائق ١٣ / ١٤١. اقرأ مجمل هذه الصفحة وما يلي.
(٣٧) نفس المرجع.
(٣٨) الشافية لنفوس الموحدين ٥٨ / ٤٥٤، أيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٥٦.

الفصل الثالث

التَجَلّي الإلَهي

أوّلاً ــ مبادئ التجلّي

ثانياً ــ كيفيّة التجلّي

ثالثاً ــ غاية التجلّي

أوّلاً ــ مَبَادئ التَجَلّي

عقيدة التجلّي الإلهي، في الدرزيّة، هي، بالحقيقة، أجلّ العقائد وأشرفها. تعتمد على مبادئ لاهوتيّة رزينة، وفلسفية صريحة، وروحانيّة عميقة. إنّها نقطة الدائرة في دعوة التوحيد، ومحور جميع العقائد، على الإطلاق. عليها تركّز « الرسائل » وكدها، وإليها توجّه همّها، ومنها تستقي روحها، وفيها تغمس حبرها، حتى أصبحت، بالنسبة إليها، « حكمة »، بالفعل. « موضوع التجلّي، على حدّ قول أحد الدروز المستنيرين، هو موضوع يحتلّ في عقيدة التوحيد مركزاً مهمّاً، إنْ لم نقل المركز الأهمّ »[١].

يحقّ لـ« بني معروف » أن يفتخروا بلقبهم هذا، لأنّهم فازوا بـ« معرفة » اللاهوت في صورة الناسوت. « والجهل، بالحقيقة، هو انكار تجلّي الربّ في الناسوت »[٢]. و « التجلّي اطلالة بارقة من الحواسّ الروحية العميقة في النفس إلى الحواسّ الظاهرة قابلة الخداع والتمويه. بهذا يغدو الخالق قريباً من حواسّهم الظاهرة القاصرة، ويبطل كلّ تضليل، وتنتفي عبادة العدم إلى الأبد »[٣].

---

(١) الدكتور سامي مكارم، أضواء على مسلك التوحيد، ص ١٢٧.
(٢) مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٤٣٦، ورقة ٣٦ أ ب.
(٣) سامي أبو شقرا، مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ، ص ١٤.

على الإيمـــان بهذه العقيدة الشريفة يقوم الـــدين، وعلى الاقرار بهـــا يكون في الدنيا « موحّدون » « عارفون » فائزون بمعرفة الله وبالسعادة. ومن أنكرها أنكر على الإنسان حظَّ معرفةِ الله والفوزَ بالنصر الأخير، بل هو يؤمن بالعدم. ونصوص « الحكمة » عليها لا تعـدّ ولا تحصى. وقد يكون أجمل أسلوب فيها عند الكلام عليها. وقد لا تفهم ســائر عقائــدها إلاّ بالنسبة إليها. وإنّنا لنعجب حقّاً من التعتيم عليها.

تقوم عقيدة التجلّي هذه على مبادئ، يجمل بنـــا استخلاصـــها مـــن ألغـــاز الحكمـــة وأسرارها:

١ً ــ إن تجلّي الله في صورة الإنسان هو مبادرة إلهيّة، باشرها الله بنفســه، ولـــيس للإنسان في الكشف عنها أيُّ فضلٍ، كما ليس من حقّه أن يقبَلَها أو أن يرفضَها، لأنّ ما قام به الله ودعا إليه لا يحقّ لأيٍّ الاعتراض عليه. وفي ذلك تصرّح الحكمة:

« والذي أظهر المولى جلّ اسمه نفسه منه (أي من الحجاب الذي هو الإنسان) كيــف يشاء، بلا اعتراض عليه... وبه (أي بهذا الحجاب) دعا الخلقَ بنفسِه إلى نفسِه، وباشرَ العبيدَ بالصورةِ المرئيةِ ومخاطبةِ البشريّة »(٤).

٢ً ــ إن العالم الروحاني يستحيل الإيمانُ به إنْ لم يدلّ عليه العالَمُ المحسوس. « فأيُّ صورة تتحقّق لمن يعتقد هذا الاعتقاد الفاسد؟ »، أي أيّة حقيقة يدركها الإنسان إنْ لم يجد لهـــا في عالَمِهِ

---

(٤) رسالة الردّ على النصيري ١٥ / ١٧٣.

الحسّيّ دلالة عليها؟ « فما لا يصحّ (أي ما لا يعرف بالحواس هو) موهوم معـــدوم »[٥]. وإذا كان « العالم الروحاني أفضل الأشياء كلّها، فيا ليت شعري ما نفعهم من تفضيلهم (له)، وهو، كما يزعمون، جواهر معدومة لا حقيقية لها (أي غيـــر معروفـــة)، وإنّمـــا تصـــحّ الأشـــياء (الروحانيّة) بحقيقتها إذا ظهرت »[٦].

معنى ذلك أنّه إذا ما لم يكن للإنسان دليل من عالمه المحسوس على العالم الروحـــاني فلن يكون باستطاعته معرفة شيء منه. لهذا يقتضي على الله الروحانيّ، لكي يعرف، أن يخلق لنا دليلاً عليه من عالمنا، وأصحّ دليل أن يظهر لنا لنتراه عيوننا وتلمسه أيدينا.

٣ً ــ إذا كان الله عادلاً فيقضِي عليه عدلُه أن يعرّفنا بذاته لكي يكلّفنا فيما بعد بعبادته. ولئن كان باستطاعة الله أن يبعثَ لنا برسلٍ وأنبياء فإنّ لهؤلاء مواقف بشريّة قد تحجب عنّـــا المعرفة الحقيقية لله، فخير معرفة لله أن يتجلّى بنفسه: « والخلق مجتمعون أن البارى جلّـــت قدرته عادل. (ولكن) أي عدل يقتضي أن يكون العالم الروحاني، كمـــا يزعمـــون، جـــواهر بسيطة، لا محدودة ولا مدروكة، ثم يكلّفُ العبادَ معرفتَها؟! وما في وسع أحد من العالم يفهـــم ولا يبصر ولا يتعلّم إلاّ من صورة حسّيّة ناطقة مميّزة »[٧].

في هذا المعنى يقول أيضاً: « لمّا وجدنا العالم مولودون جهّال لا يعلمون... ولم يكن لهم وصول أن يعلموا المعقولات على ما هي إلاّ

---

(٥) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٢٦.
(٦) نفس المرجع، ٦٧ / ٥٢٧.
(٧) نفس المرجع، ٦٧ / ٥٢٧.

بالمحسوسات، أوجبت الحكمة أن يظهر لهم صورة من حيث هم. فأنست الصورة لصـــورهم من حيث الجنسيّة »[٨].

٤ ـــ ومن العدل أيضاً أن يترك الله عرشه وسماءه السابعة، ويتقرّب من عباده ليكون بوسَعه تكليفَهم بمعرفتِه، لأن العبادَ يَعجزون عن معرفة ما خَلْفَ الجدارِ القريبِ منهم فكيــف حالُهم مع ساكنِ السماءِ العليا؟

أيّ عدل يقتضي أن يكون فوق سبع سموات على كرسيّ فوق السماء الســابعة كمــا يزعمونَ المشركون، وقد كلّفنا مع هذا عبادتَه ومعرفته. فهل في وسع أحد من العالم أن يعرف ما خلف الجدار الذي هو أقرب إليه من كل قريب إنْ لم يكشف عنه وينظره بعينه ويصـــحّحه بقلبه وإلاّ فلا يعرفه. فنعوذ بالمولى إلى أن ننسبه أنّه احتجب بهذه الحجبة ثم كلّفنا مــع ذلــك عبادته ومعرفته. بل قد ظهر تعالى بهذه الصورة الناسوتيّة التي تشــاكلنا. هــذا مــن حيــث المجانسة والمقابلة. فهذا نفس العدل »[٩].

٥ ـــ إن الإيمان بتجلّي الله يتيح للإنسان مجالَ طاعته لأوامر الله، إذ « كيف تجــوز الطاعة لمن لم يَظهَرْ إلى العالَم فَيُعْرَف ويُعَيَّن عليهِ باسمه ونعته. فَيُوصَف، وتَخرقُ أســماعَ العوالمِ أوامرُه ونواهيه، وينتشر في الآفاق مذهبُه، ويُفصَحُ به للعوالم، ويقيم به الحجةَ علــى الأمم حُججِهِ ودواعِيه. فعند ذلك تقوم حجّته على الأمم، إذا عُرِفَتْ أوامرُه وزواجرُه، وشاعت في العَرَبِ والعَجَم... فبهذه الدلالات المحقّة بالبرهان يَنفسدُ قولُ جميعِ الطوائفِ ممّن ادَّعــى طاعةَ قائمٍ أو هادٍ أو مُنتَظرٍ لم يَظهرْ إلى العالَم ويثبّتْ عِلمَه ودعوتَه فيهم بواضـــحِ البيــان، وتقومُ حجّتُه باشهارِ دعوتِه

(٨) رسالة بني أبي حمار ٤٤ / ٣٤٠.
(٩) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٢٩.

بأمره ونهيه على جميع أهل النحل والأديان »[١٠].

٦ً ــ ثم إن الله، إذا لم يظهر لعباده، تسقط عنهم الحجّة، ويُعذَرون في تــوقّفهم عــن طلب الحق: « إن كان (الله) معدوماً (أي غير ظاهر العيان) فقد سقطتِ الحجةُ عــن الخلــق، وكان الكلّ معذورين في توقّفهم عن طلب الحقّ »[١١]. لذلك فهو « ليس بمعدوم، (وذلك) لتقوم الحجة بوجوده (بظهوره) على كافّة بريّته »[١٢].

ثم إنّ المعدومَ غيرَ الظاهر للعيانُ مُختلفٌ فيه، « لأن المعدومَ تقع في أخباره الزيــادةُ والنقصان، والموجودُ (الظاهر) أنت تشاهدُه بالعقل والبرهان بالعيان، وتقف على تبطيل العدم، وتَنفي عن مولانا جلّ ذكره جميعَ الأباطيل والتّهم »[١٣]. لهذا فــ« العاقل اللبيــب لا يطلــب العدم ويترك الموجود »[١٤].

٧ً ــ إذا كان العالم يشكّون بوجود الله فسببه واضح « لأنّهم يعبدون مَن لا يسمع ولا يسمع ولا يَضرّ ولا يَنفع. ولا يَدرون هل عبادتهم (هي) مرادُه، أو أراد منهم شيئاً ممّا أجازته عقولُهم ولم توعِه لعلّتِها افهامُهم. وهذا نفسُ الشكّ »[١٥]. فالذين يشكّون بالله ويكفرون به، هم الذين لم يروه لِيَعْرفوه، ولم يَسمَعوه لينالوا منه الحقيقة، ولم يُشاهدوه لينتفعوا من وجوده، ولم يشعروا برأفته بهم ليطمئنّوا إليه:

---

(١٠) رسالة السفر إلى السادة ٦٨ / ٥٤٥.
(١١) الشافية لنفوس الموحدين ٥٨ / ٤٥٥.
(١٢) القسطنطينية ٥٣ / ٣٨٦.
(١٣) رسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين ١٧ / ١٨٩.
(١٤) نفس المرجع.
(١٥) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٢٨ ـ ٥٢٩.

« غلط الخلق عن ضياء نورك بك، فاستوحشوا من جهة ما ظهـر لهـم مـن شـبه مجانستهم، فشكّوا فبقوا حيارى بما تراءى لهم سكارى، عاجزين شاكّين جاحدين. وآنَسَ بـك الموقنون بعهدك، والمؤمنون بميثاقك وعقدك... فظاهرُك قبلةُ العارفين، وباطنُكَ سرُّ العابدين، عبدوك منه لمّا عرّفتهم بنفسك كهم... »(١٦).

٨ً ــ إنّ التفاضل بين الأديان يكون بالنسبة إلى التجلّي: إلى التقرّب منه والإيمان به. يكون الدين صحيحاً بقدر ما يقترب من هذه الحقيقة. بالإيمان بالتجلّي الإلهي يُصـبح أوليـاءُ الدين « رجالَ أعرافٍ وساداتِ الأمم »، ويكون الثواب والعقاب:

« إنّي أقول: إنّ البارئ، جلّت قدرته، لو كان معدوماً (أي غير ظاهر فـي الكـون) لتساوت الفِرَقُ كلُّها في التنزيه والتجريد، وارتفعَ التفاوتُ والتفاضلُ المؤدّيـان إلـى الثـوابِ والعقابِ بحقيقيّة التوحيد.

« وكذلك أيضاً أقول: إن البارئ، جلّت قدرته، لو كان موجوداً على صورة مخالفـة لبريّته، أو ظهر إليهم بمعنى يليق لعظمة ألوهيّته، لم يشكّ فيه أحد من البريّة، وارتفع التفاوت والتفاضل، وسقط الثواب والعقاب... بالكلّيّة. بل هو موجود لأوليائه العارفين، معـدوم عنـد أضدادهم السهوة المخالفين... »(١٧).

٩ً ــ لا بدّ في المرتكز الثابت لعقيدة كل دين أن يقوم عليها البرهان. وعقيدة كل دين تكون صحيحة بالنسبة إلى إيمانها بــ« تحرّك »

---

(١٦) المناجاة مناجاة وليّ الحق ٢٩/ ٢٣٢.
(١٧) معراج نجاة الموحدين ٦٩ / ٥٨٧.

الله صوب الإنسان، أي بمجيء الله إلى الإنسان مراراً وتكراراً عبر الأدوار البشريّة، وبغيابه أيضاً مراراً وتكراراً عبر الأكوار، أي بتعاقب أدوار « الكشف » وأكوار « الستر ». وفي هذا التعاقب حكمة إلهية بالغة، إنْ من جهة الله، وإنْ من جهة الإنسان: فمن جهة الله، يكونُ اللهُ غيرَ عادل إنْ غابَ إلى الأبد أو إنْ استمرّ ظاهراً إلى الأبد، ومن جهة الإنسان يكون ثوابه حقيقيّاً إذا ما امتُحِنَ في إيمانه بظهور الله وغيابه:

« إن العالَمَ كلَّه ما اختلفوا في أنّ البارى قادر. فأين قدرته لو غاب الدهرَ كلَّه لا يَظهر؟ أليس يكون قد عَجزَ عن الظهور؟ وأيضاً فلو ظهر الدهرَ كلّه ثم لم يَغِبْ لَعَجَزَ عن الغيبة!

« ولو ظهر في كل الظهورات بصورةٍ واحدةٍ وعلى حالةٍ واحدة لكان ذلك عجزاً. فأيّ إله لمن يدّعي أنّ له إلهاً غائباً عاجزاً عن الظهور. وليس من صفة القادر العجز. فالمولى جلّ ذكره إلهُ الأوّلين والآخرين، قادر في جميع الأحوال: غاب وظهر، بظهورات مختلفات الصور، لأنّه جلّ ثناؤه في ظاهر الأمر ظهر في حدّ الطفوليّة ثم الكمال. ثم إنّه جلّت قدرته اعتلّ جسمه في ظاهر الأمر لئلا يكون عاجزاً عن ذلك[١٨]. فمن هذه الجهة صحّ إنْ العجز من القادر قدرة.

« وأيضاً فلو غاب ولم يظهر لما تحقّق المعبود، ولا صحّ ما أشارت إليه الحدود[١٩]. ولو ظهر ثم لم يغب لكانت العبادة جبراً وقسراً، ولتساوى في ذلك أهل الأرض حتى لم يختلف فيه اثنان، ولكان ذلك عجزاً منه، في الخلقة، إذا كان العالَمُ كلُّهم علماءَ ليس فيهم جاهلٌ،

---

(١٨) الكلام هنا عن الحاكم بأمر الله الذي انتابه مرض عضال أقعده...
(١٩) « الحدود » هم الدعاة الخمسة الذين أظهروا دين التوحيد...

وكلّهم موحّدون ليس فيهم مشرك، ولكان العالَمُ مُجبراً لا مثاب ولا معاقب، لأنّ المجبر لا مثاب ولا معاقب. وهذا نفس العجز إذ لم يقدر على اظهار العالِم والجاهل، والناقص والفاضل، والشيء وضدّه لتكمل القدرة وتتمّ الحكمة، ويتحقّق المعبود، وتظهر جميع الحدود، أهل التوفيق والتسديد.

« وفي ذلك يقول العالم:

« ظهر الإله لِخَلْقِهِ بالصورةِ المرئيّةِ   عَـدلاً ومَنّـاً ليس فيه خَفِيَّهْ »[٢٠].

فمن أجل امتحان الإنسان واختباره، واستحقاقه الثواب أو العقاب ظهر الله ثم غاب، ثم ظهر ثم غاب، حتى الظهور الأخير بـ« الحاكم »:

« ظَهَرَ لِخَلقِهِ كَخَلْقِهِ، امتحاناً وامتناناً واختباراً. فكان امتحانُه لأوليائِه واختبارُه لهم هدايَتَهم إلى معرفتِه وتوحيدِه »[٢١].

١٠ ً ــ إنّ التجلّي الإلهي ضرورةٌ ماسّة للإنسان، وذلك لكي يكون لـه، بظهور الله فيه، مثالٌ يتمثّله، وهدايةٌ يَهتدي بها، وقِدوةٌ له في حياتِه وعمله. فلولا التجلّي لما عَرفَ الإنسانُ عن الله شيئاً، تماماً كالذي لم يسمع كلمةً فكيف يمكنه الكلام؟ أو كالذي يريد عملاً ولم يرَ أحداً يَعملُه قبلَه ليقتديَ به! فالإنسان لا يستطيعُ إحداثَ شيءٍ من ذاتِه إنْ لم يتمثّل أَمامَه مَنْ يَعملُ مِثْلَه. وبتعبير فلسفي: إنَّ كلَ معلولٍ يأخذُ وجودَه وعمَلَه من علّتِهِ، والعلّةُ الأخيرةُ هي الله. تقول الحكمة:

« قد صحّ عند كل ذي عقل ومعرفة بالحقيقة وفضل، إن المولود

---

(٢٠) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٢٩ ـ ٥٣٠.
(٢١) رسالة الزناد ٣٧ / ٢٧١.

لو كان أبواه أخرسان (أخرسين) لا ينطقان، ثم لم يسمع من غيرهما كلاماً كـان أخـرس لا ينطق. وإذا كان أبواه ناطقين كان ناطقاً. فإذا اطّردنا المعلول في العلّة لا بدّ من معلّ لجميـع الأشياء لا يتجاوز حدّه والصورة لا تقبل إلاّ من صورة. فصحّ إنّ المبدع جلّ ذكره ظهر في القدم بهـذه الصورة المرئيّة للمقابلة والمجانسة... والدليل على ذلك أن لـيس علـى وجـه الأرض أحدٌ يُحدِثُ صنعةً من ذاته إلاّ أنْ يكون قد سبق إليها غيـرُه أو إلـى مـا يجانسـها ويشاكلها... »[٢٢].

١١ ـ بقي مبدأ هام وهو ضرورة وجود « دليل » على هذا التجلّي، و « حمـزة » هو هذا الدليل، وهو « الواسطة » إليه، و « الوسيلة »، وهو « حجّة الكشـف » والبرهـان عليه. إن الإنسان، وحده، لا يستطيع معرفة اللاهوت في صورة الناسوت، إنْ لم يُكشَـف لـه ذلك. وخير كاشف أو دليل على ذلك هو « العقل الكلّي »، علّة العلل، وأصل كل الموجودات. هذا العقل هو الآخر، تجلّى في جميع التجلّيات الإلهيّة، في أشخاص معيّنين. وكان « حمزة بن علي » هو العقل في دور الحاكم. تقول الحكمة:

« وأدلّ دليل على إمامة قائم الزمان (حمزة) إنّه أتى بضد العالم (أي على غير ما هو متعارف عليه) لأنّ جميع النطقاء والأسس وأصحاب الأدوار والأكوار أشاروا إلى عدم موهوم وأبعدوه عن حواس العالم. وإنّ قائم الزمان... دعا إلى موجود ظاهر، وإله في جميع الأمور قادر قاهر... »[٢٣].

---

(٢٢) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٣١.
(٢٣) نفس المرجع، ص ٥٣١.

وتقول أيضاً في ضرورة الدليل: « إن قائم الحق، المهدى المنتظر، قد قام في أشرف المقامات، وأوجب الحجّة على العوالم بظهوره بالبراهين والدلالات... وأقام على الأمم حججّه وبيّناتِه، ونشر دعوةَ التوحيد في الآفاق... لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير... ثم غاب، سلام الله على ذكره، بعد ايجابِ الحجّة على العوالِم... اثباتاً لحججه على العــوالم، وتمييــزاً للطائع المظلوم من المرتدّ الشاك الظالم، وإقامةً للقسط والحقّ والعدل في يوم المعاد والقضاء الفصل... »(٢٤).

*****

هذه هي مبادئ التجلّي الإلهي الأحد عشر. وقد نستطيع ايجازها والتوقّف عند بعضها؛ لكنّنا آثرنا تفصيلها لإثبات أهمّيتها، واظهار حقّها. فعقيدة « الظهور » الإلهي في الكون ماسّة، لأنّ دين التوحيد يقوم عليها. وقد تسمّيها أيضاً « الكشف » الإلهي، وذلك نسبة إلى كشف الله نفسه للبشر رحمة بهم وطمأنينة لقلوبهم.

إنّك تستطيع أن تجهل أشياء كثيرة عن الدرزيّة، ولكنّك لن تكون درزيّاً حقيقياً إنْ لــم تعرف عقيدة التجلّي الإلهي. « هذا منطق التوحيد الدرزي في التجلّي، لفظاً ومعنــى. فهــل حوسب هؤلاء الفقهاء الدروز، ونودى بهم مارقين! »(٢٥)... إنّ إلهاً لم يَظهر فهو لا يُوجــد، ومَن لا يوجد فهو بحكم العدم. وأكثر ما يَخْشَى الدروزُ في دينِهم هذَا العدم.

(٢٤) السفر إلى السادة ٦٨ / ٥٤٦ ـ ٥٤٧، انظر ٢٩ / ٢٢٩... الخ.
(٢٥) سامي أبو شقرا، مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ، ص ١٥.

ثانياً ــ كَيفيّة التَجَلّي

إذا ثبت لدينا التجلّي الإلهي عند الدروز، يبقى السؤال الأهمّ: كيف تجلّى الله في العالم؟ أين تجلّى؟ في الإنسان أم في أي موجود آخر؟ وبتعبير درزيّ آخر: مَن هو « المُقام » الذي استحقّ أن يكون لله « حجاباً »؟ و « المُقــام » يعني: « صورةَ الناســوت... الــذي نــراه ونشاهده »[١]، و « الحجاب » أيضاً هو الناسوت[٢] و « المحجوب » هو اللاهوت...

أوّل ما تُثبتُ « الحكمةُ » أنَّ الله اختارَ صورةَ الإنسان « مُقاماً » للاهوتــه، لا كمــا تقول سائر الأديان، بأنّه ظهر في شجرة أو في جبل... قال حمزة بن علي:

« ... أظهر (الله) لنا حجابَه الذي هو محتجَب فيه، ومُقامَه الذي يَنطقُ منــه، ليُعْبَــد ظاهراً، رحمةً منه لهم، ورأفةً عليهم. والعبادةُ في كل عصر وزمان لذلك المقامِ الــذي نــراه ونشاهده، ونسمعُ كلامَه ونخاطبُه.

فإنّ قال قائل: كيف يجوز أن نسمعَ كلامَ البارى سبحانه مِن بَشَرٍ، أو نرى حقيقيّتَه في الصورِ؟

---

(١) كتاب الدرر المضيّة... (قاموس) ص ٦٠٩، يستشهد بـ١٣ / ١٤٢.
(٢) نفس المرجع، ص ٢٠ ـ ٢١.

قلنا له، بتوفيق مولانا جلّ ذكره وتأييده:

أنتم جميع المسلمين واليهود والنصارى تعتقدون بأنّ الله عزّ وجلّ خاطب موسى ابنَ عمران من شجرة يابسة، وخاطبه من جبل جامد أصمّ، وسمّيتوه كليمَ اللهِ لِمَا كان يسمعُ من الشجرة والجبل. ولم ينكرْ بعضُكم على بعض. وأنتم تقولون بأنّ مولانا جلّ ذكره مَلِكٌ من ملوك الأرض. ومَن وُلِّيَ على عددِ رجالٍ كان له عقلُ الكلِ. ومولانا جل ذكره يَملكُ أربابَ ألوفٍ كثيرة ما لا يُحصى ولا تُقاس فضيلتُه بفضيلةِ شجرةٍ أو حجرٍ. وهو أحق بأن يَنطِقَ الباري سبحانَه على لسانِه، ويُظهرَ للعالمين قدرتَه منه ويَحتجبَ عنهم فيه. فإذا سمعنا كلامَ مولانا جلّ ذكره، قلنا: قال البارى سبحانه كذا كذا. لا كما كان موسى يسمع من الشجرة هفيفاً، فيقول: سمعت من الله كذا كذا.

وهذه حجة عقلية لا يقدر أحدكم يُنكرها.

وقد اجتمع في القول بأنّ لمولانا جلّ ذكره عقولَ الأمّة، وأن الشجرةَ والحجر لا تُفهم وتعقل عن الله. ومَن يَفهم ويعقل عن الله أحقُ بكلام الله وفعلِهِ ممّن لا يَعقلُ عنه. وإن كانتِ الشجرةُ حجابَه فالذي يَعقل وَيفهم أحقُ أن يكونَ حجابَ الله ممّن لا يَعقلْ ولا يَفهمْ. وكيف يجوز للبارى سبحانه أن يَحتجبَ في شجرةٍ ويُخاطبَ كليمَه منها، ثم تُحرقُ الشجرةُ ويتلاشَا حجابُه. سبحان الإله المعبود... »[٣].

ويؤكّد بهاء الدين أيضاً بأنّ « المُقام » الإلهي هو الإنسان لا غيرُه، فيقول: « إن ابنَ آدم غرضُ البارى مِن جميعِ المخلوقات لأنّ جميعَ

(٣) كشف الحقائق ١٣ / ١٥٣ ـ ١٥٤، انظر أيضاً: ١٤ / ١٥٤.

العالَم العلوي والسفلي له ومِن أجلِه. فلمّا صحّ ذوي العِلمِ والمعرفةِ والفهمِ أنّ ابنَ آدم أفضلُ الأشياء كلِها وَجَبَ ان يَحتجبَ البارى جلّت قدرته في أجلِّ الأشياء، لأنّ ضدَ أجلِّ الأشياء أقلُّ الأشياء، وضدَّ العالِمِ الجاهلُ. فنعوذُ بالمولى مِن سوء اعتقادِ مَن يَعتقدُ أنّه في الأمواتِ. الجهّالِ التي لا تُبصر ولا تَسمع ولا تَضرّ ولا تَنفع »[٤].

إنّ ظهور الله في صورة الناسوت لم يُفقِرُهُ في شيء، لأنّه، مع ظهوره، يبقى باطناً محجوباً. وبكونه إلهاً لا تستطيعُ الصورةُ الإنسانيّة حصرَه، وعلى قربِه من الإنسانِ وظهورهِ فيه يَبقى بعيداً متعالياً، ورغم ظهوره يستطيعُ الغيبةَ آنَ يشاء. يقول قائم الزمان:

« ... الذي لم يزل باطناً في ظهوره، ظاهراً فيما بطن، يقوم بناسوته في كل عصر وزمن، وليس بمحصور في الناسوت فيغيب عنه علم الملكوت، لكنّه يتجلّى ويتدانى ولا يتدلّى. ظهوره من غير زوال ولا تنقّل، وغيبته من غير حركة ولا تقلقل، بل ظهوره بالشيء إقباله عليه، وغيبته به توفيةٌ منه إليه »[٥].

ثم إنّ الصورة الناسوتيّة التي تجلّى فيها الله، لا يمكنها أن تكون هي الله بكماله، لأنّ الله سبق وظهر في عدّة صور بشرية عبر الأدوار. ولكنّنا لا نستطيع القول بأنّ الله هو غير هذه الصورة لئلا يكون الإنسان مخدوعاً بتظاهر إلهي غير حقيقي. يقول التميمي:

« لا نقول: إن هذه الصورة المرئيّة (في مقام الحاكم) هي هو،

(٤) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٢٩.
(٥) المناجاة مناجاة وليّ الحقّ ٢٩ / ٢٣٠.

فنجعله محصوراً محدوداً... بل نقول: إن هو (الله) هي (الصورة) استتاراً وتقرّباً وتأنيساً بغير حدّ ولا شبه ولا مثل... هذه الصورة الظاهرة تراها بعين الطبيعة فتظنّها صورة كصـــورتك. فإذا دنوت منها بعين العلم لم تجدها صورة، ووجدتَ اللهَ عندها، كذلك لاهوت مولانــا هــو الأزليّ الأبدي الذي لا يُحَدّ ولا يُوصَف.

وأيضاً مثل هذه الصورة الظاهرة، إذا رأيتها كمثل الناظر في جوهر المرآة، فهو يرى نظيرَ صورته بغير لمس ولا إدراك كيفيّة، ولا تحديد ماهيّــة. فــإذا أردت تلمّسَــها لمســتَ صورَتك. وإذا غيّرت ما بصورتك تغيّرتْ في عينك، وذلك إذا كان نظرُك سالِماً من القــذى والرّمد وإنْ كان به عارِضُ أذيّةٍ لم تَنظر تحقيقَ صورتك. كذلك ناظر هذه الصورة المرئيّــة بمقدار علمه وتحقيقه يكون نظره لها... »[٦].

ويوضح حمزة كيفيّة ظهور الله وكيفيّة معرفتنا به بقوله: كما أنّنــا لا نــدرك العقــل اللطيف الروحاني، بل ما يظهر من العقل، هكذا فإنّنا لا ندرك حقيقة الله، بل ما يظهر من الله في صورة الناسوت. يقول:

نضرب لكم مثلاً... فمثله كمثل شخص ناطق جسماني، وله روح لطيف متعلّق بذلك الجسد الكثيف، وله عقل يدبّر الأشياء بذلك العقل وهو يعلم أين منتهى عقله. والناس لا يعلمون بعقله ولا بموضعه، ولا حقيقيّته، ولا يدركون من عقله إلاّ بمقدار ما يظهر من عقلــه... ولا يقدر أحد يقول إنّ العقل يظهر بلا جسم لأنّ الروح لا تدركه إلاّ بالجسم »[٧].

---

(٦) كتاب تقسيم العلوم... ٣٦ / ٢٥٨ ـ ٢٥٩.
(٧) البلاغ والنهاية ٩ / ٨٠.

هذه الصورة الإنسانية التي كانت « مقاماً » لله في دورنا هذا، حلّت أو « ظهــرت » في « الحاكم ». فهو « ناسوت الحجاب الذي احتجب (الله) عنّا فيه، والمقام الذي ينطق منـــه، وهــو ما نراه من صورة بشريّة »[٨]، وهــو « المُظِهرُ ناسوتَه للعــــالَمِ المُســمَّى مُقامُــه بالحاكم »[٩]، أو هــو « الصورة المرئيّة الظاهرة لخَلقِه بالبشريّة، المعــروف عنــد العــالَم بالحاكِم »[١٠].

*****

إنّ أسلوب « الحكمة » في الكلام على التجلّي رائع جدّاً، قلّما نجد له مثيلاً في اللغــة العربيّة. ويجدر بنا نقل بعضه للدلالة على أهمّيّة موضوع التجلّي وجدارة أهل التوحيد بســبر غوره. فوضوحُ الرؤيةِ فَرَضَ على أصحابِها وضوحَ التعبير. ووضوحُ التعبير دلَّ على معرفةٍ صحيحة.

تقول الحكمة: إنّ الله « ظهر لِخَلقِه بِخَلقِه مِن حيثُ خلقه »[١١]، و « هو المولى جــلّ ذكره الذي ظهر لِخلقه بِخلقه، ظاهراً مكشوفاً لعبيدهِ العارفين به »[١٢]، وهو « المتجلّي لِخلقِه بِخلقه من حيثُ خَلْق الخالق »[١٣]، و « المتجلّي لِخلقهِ كخَلقِه من حيث خَلقه »[١٤]، « واحتجب بما خَلَقَه مِن خَلْقِهِ »[١٥]...

(٨) رسالة سبب الأسباب ١٤ / ١٥٤.
(٩) رسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين ١٧ / ١٨٥.
(١٠) رسالة البلاغ والنهاية... ٩ / ٧٩.
(١١) الصبحة الكائنة ١٩ / ٢٠٣.
(١٢) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٢٨.
(١٣) تقليد الرضى وسفير القدرة ٢١ / ٢٠٩.
(١٤) بدء التوحيد لدعوة الحق ٧ / ٦٧.
(١٥) الرسالة الموسومة ببدء الخلق ٨٦ / ٧٥٨.

وبأسلوب آخر تعبّر « الحكمة » عن ظهور الله في البشر حيث هم، أي في مواقعهم، كما هم، في صورتهم، في صحّتهم ومرضهم، في غناهم وفقرهم، في ذلّهم وعزّهم... تقول الحكمة:

« إنّه يظهر لهم من حيث هم، كما أوجب، في صور كصورهم »[١٦]. وإنّه « أوجد ذاته لهم كما حكم... فهو الظاهر لتثبيت الحجّة على الناس، وهو الباطن الذي لا يدرك بالحواس... ظهر لهم كهُم ليقع الإيمان به حقّاً وسدقاً (صدقاً). ثمّ تأنّس إليهم، فثبّت الحجة عليهم... أحسن إلى الخلق فيما فعل، إذ قام فيهم ظاهراً موجوداً »[١٧].

إذا عجز الإنسان عن فهم بعض مظاهر الناسوت فكيف حالهم عندما يواجهون اللاهوت! « من لم تدركوا ناسوته الذي أظهره لكم من حيث أنتم، ولم تقفوا على كنه أفعاله البشرية، فكيف تدركون لاهوته بالكلّيّة، أو تحوطون بقدرته، أو توحّدونه بحقيقية أحدانيّته؟ سبحانه وتعالى... »[١٨].

أمّا كتاب « المصحف المنفرد بذاته » فهو يُضاهِي « رسائلَ الحكمة » من حيث كلامه على التجلّي الإلهي، ويكاد يكون كالقرآن في إعجازه ومتانة أسلوبه. وهو، كالحكمة، يركّز تعابيرَه في هذا المجال، يقول داعياً الله بشكل صلاة من القلب الخاشع:

---

(١٦) الموسومة بالإسرائيليّة ٧٢ / ٦٢٥ ـ ٦٢٦، انظر: ٥٣ / ٣٨٦.
(١٧) المناجاة مناجاة ولي الحقّ ٢٩ / ٢٢٩.
(١٨) رسالة البلاغ والنهاية... ٩ / ٧٥.

« مولاى الحاكم! سبحانك في تجلّيك هذا! ظهرتَ لنا، فرأيناك بأعيننا، وبقلوبنا، وبأفكارنا، وتوجّهنا إليك، فخاطبناك، واطمأنّت بك حالاتنا... »[١٩].

« مولاى سبحانك! لك الحمد على آلائك أن تسمّيتَ بأسمائنا، وظهرت بأشباحنا، وأفعالِنا، ثم تجرّدتَ عن جميع صفاتنا، ودعوتَنا إلى الحقيقة والمعرفة والوجود والتنزيه... »[٢٠].

« الهي! سبحانك! أنت الحاكم، الفرد، المتجلّي أمامنا، الظاهر لأعيننا وبصائرنا، أنت الذي نراك رؤيتنا أنفسنا »[٢١].

« تبارك الذي أدركه الواصلون في تجلّياته من حيث هم، لا من حيث هو... سبحان مَن فنيتْ ذواتُ محبّيه في مشاهدةِ ذاته، فتجلّتِ الذاتُ في كل شيء، ثم تجلّتِ الأشياءُ على ذاتها »[٢٢].

« لكي لا يكون للناس على الله حجة، ظهر لهم فيما بينهم »[٢٣]، فاتّخذ « ذاك الجمال الأزلي لنفسِه في كل مقام اسماً خاصّاً وهيكلاً مخصوصاً »[٢٤]، « فصار ظهورُ الخالق صورةً انسانيّة ليؤنَسَ بها... ولهذا... تجلّى ربّك للذين آمنوا، فرأوه في أنفسهم، وخاطبوه في ألسنتهم وقلوبهم، وجالسوه، وكنّا لمجلسِهم شاهدين، واحتجب عن أعين الذين كفروا »[٢٥].

---

(١٩) مصحف المنفرد بذاته، المنسوب لقائم الزمان، مخطوط، ص ١١٧.
(٢٠) نفس المرجع، ص ١٢٣.
(٢١) نفس المرجع، ص ١٢٠.
(٢٢) نفس المرجع، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩.
(٢٣) نفس المرجع، ص ١٣.
(٢٤) نفس المرجع، ص ١٨.
(٢٥) نفس المرجع، ص ٦٩ ـ ٧٠.

ثالثاً ــ غَايَة التَجلّي

الغاية من ظهور الله في صورة الإنسان مزدوجة: الأولى تقوم على ضرورة معرفة الله، إذ لو بقي الله بعيداً في سمائه السابعة لما عرفه إنسان؛ والثانية تقوم على شفقته بالإنسان ومحبّته له... والغايتان مبادرة إلهيّة، لا فضل للإنسان بها. وكلتاهما لخلاصه وسعادته، في حال قبوله لها. وقد تكون الأولى ضرورة إلهيّة لا مناصّ منها، تماماً كضرورة ظهور العلم من العالم ليعرف بعلمه، وإلاّ كان بمنزلة الجاهل. يقول الموحّدون:

« لمّا كان الباري[١] سبحانه موجوداً في محلّ وجوده السابق، بلا بداية ولا مكان، معنى لاهوتيّاً بغير صفة ولا زمان، وتوحيداً صمديّاً[٢] وعلماً محيطاً بغير نسيان، وقدساً ملكوتيّاً بغير نقصان، موجوداً من واحد، معبوداً قبل كل عابد... موجوداً في ذاته قبل وجود الواجدين، منزّه ذاته بذاته قبل تنزيه المنزّهين، معبوداً في ذاته بذاته قبل عبادة العابدين، موحّداً في ذاته بذاته قبل توحيد الموحّدين، فلمّا لم يكن سواه، ولا وجدان لعالم بمعناه، ولا عارفاً بمعجزات اقتداره

---

(١) ليس هو الاسم الحقيقي لله قبل ظهوره. الحقيقة أنّه لم يكن له اسم بعد.
(٢) التوحيد الصمدى هو غير المعروف، لأنّ الله لم يظهر ليعرف.

إلاّ إيّاه، فاقتضت إرادته الفعّالة وحكمته التامة إظهار المخلوقات والموصوفات المصنوعات لتكون برهاناً على توحيده، ويستدلّ بها على وجوده، كما قال: الموجِد للموجودات ليُوجَد...

« فلمّا كان من صفات الموجِد اظهارُ الموجودات، ومن صفات الصانع اظهارُ المصنوعات، ومن صفات القادر إظهارُ القدرة، ومن صفات العالِم اظهارُ العلم، ومن صفات الحكيم اظهارُ الحكمة. وكل موجودٍ لا يُظهِرُ موجوداتِه فهو مجهول، وصانعٍ لا يُظهِرُ مصنوعاتِه فهو مُهمل، ومن لم يقدر على اظهار قدرته فهو عاجز، وعالِمٍ لا يُظهِرْ علمَه فهو جاهل، وحكيمٍ لا يُظهِرْ حكمتَه فهو سفيه، وكان الباري سبحانَه هو القديم والصانع الجدير والقادر القدير والعالم الخبير والحكيم البصير... »[٣].

لقد اقتضت حكمة الله من الله إذن أن يظهر ويتجلّى لكي يعرف على حقيقته، ويوحّده الموحدون، ويعبده العابدون؛ ولكي يعرّف العالم ذاتَه بذاتِه. فكما « أن الروح لا تُدرَك إلا بالجسم، كذلك مولانا جلّ ذكره، بظاهرِ ناسوتِه، عرّفَنَا بلاهوته، ومِن حيثُ نحن. ومِن صُوَرِنَا خاطَبَنا، وإلاّ فما عَرفناه، ولا أدركْنَاه. فأظهرَ لنا صَوْرَتَه المرئيّةَ ومقامَه البشريّة »[٤].

ولو افترضنا أنّ الله لم يَظهر بالصورة الإنسانيّة، وأراد للإنسان أن يعرفه كما هو بلاهوته، لاستحالَ ذلك على الإنسان نفسِه، إذْ ليس بمقدورِ وعاءٍ صغيرٍ أن يَسَعَ أكبرَ منه، وليس بمقدورِ المخلوقِ أن يرتفعَ إلى مستوى الخالق، إنْ لم يمنّ عليه الخالق بما يناسب طبعَه.

---

(٣) مختصر البيان في مجرى الزمان، ورقة ٣ ب ـ ٤ ب.
(٤) رسالة البلاغ والنهاية... ٩ / ٨٠.

قالت الحكمة: « فبتقدير أحكامه امتنّ على خلقه بوجود صورته من جنس صُـورِهم، فخاطبتْهُمُ الصورةُ بالمألوف من أسمائهم، فأنستِ العقولُ إلى ظاهر صورتِه، واستدرجُهم إلى معرفته، بلطيفِ حكمتِه، امتناناً منه على خلقه. فبخفائه لعظيمِ قدرتِه تُثبتِ الصنعةُ واستقرّت. ولو انكشف لها معرفةُ مبدِعِها من غير تأنيسٍ ولا تدريجٍ لَصَعَقتْ لقدرته وخـرّت. فسـبحانَ مولانا الحاكم... »(٥).

بهذا أوجبتِ الحكمةُ الإلهية أن يتسمّى بأسماء البشر، ويتّخذُ صورتَهم، ويعملُ أعمالهم، ويتبنّى عجزَهم ومَرَضَهم وضعفَهم وفقرَهم. تقول الحكمة: « فلمّا كانتِ العبيدُ عاجزين عـن النظرِ إلى توحيدِ باريهم إلاّ مِن حيثُ هم، وفي صُوَرِهِم البشريّةِ، أوجبتِ الحكمةُ والعـدلُ أن يتسمّى بأسمائِهم حتى يدركونَ بعضَ حقائقِه... »(٦).

ثم يوجز « الأمير السيّد » إمكانيّةَ معرفة الله الناجمة من ظهوره الإلهيّ في الصورةِ البشريّة بأربعة، فيقول: « والشواهد على المشـافهة بهـذه الأربعـة: الهيئـة، والأسـماء، والمخاطبة، والأفعال »(٧). وهو يعني بذلك أنّ الله اتّخذ هيئة الإنسان، واسمه، وخاطبه بكـلام مسموع والتزم أفعاله؛ بهذه الأربعة استطاع الإنسان معرفةَ اللاهوت.

*****

(٥) رسالة الغيبة ٣٥ / ٢٥١.
(٦) السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٣.
(٧) الأمير السيّد التنوخي، تفسير رسالة كشف الحقائق، ص ٦٦٦.

أمّا الغاية الثانية فهي رحمة الله بالإنسان. فلولا ظهور الله في صورة البشر لما شعر الإنسان قط بمحبّة الله له وبرأفته به. « فكما أنّ تجلّيه أعظم الرحمة، فإنكاره وجحده أعظم السخط »[٨]. فلأجل هذه الرحمة الشاملة « أظهر (الله) لنا حجابه (بصورة الحاكم) الذي هو محتجب فيه، ومقامه الذي ينطق منه، ليعبد موجوداً ظاهراً، رحمة منه لهم، ورأفة عليهم »[٩].

هذه الرحمة الحاصلة من التجلّي هي مبادرة الهيّة، مجّانيّة، لا فضل للإنسان فيها، ولا استحقاق، بل أفاضها الله عليه دون أن يكون له عليه أيّ حقّ. لقد « أسبغ (الله) عليكم نعمته بغير استحقاق تستحقّونه عنده، ولا واجب لكم عليه، بل أنعم عليكم بلطفه، وقرّبكم منه برحمته، وباشركم في الصورة البشريّة، والمشافهة لكم بالوعيّة، لعلّكم تدركون بعض ناسوته الأنسيّة... »[١٠].

ثم تستفيض « الحكمة » في أشكال رحمة الله بتجلّيه الإلهيّ، ويتقرّبه من الإنسان. فهي لطف لا حدود له، ورفق بالبشر، وطمأنينة لقلوبهم، وأنس لعقولهم، وشفقة بهم بالغة، واستدراج لهم لتقبله أفهامهم... بهذا يصبح في طاقتهم مقابلة اللاهوت.

تقول « الحكمة »: « تقرّب إلينا بِنَا، وآنس عقولَنا بصُوَرِنَا، وظهرَ لنا بجميعِ أفعالِنا، لتقبلَه أفهامُنا »[١١]. وتقول أيضاً:

---

(٨) مخطوط « تفسير رسالة كشف الحقائق » للأمير السيّد، ص ٦٦٣.
(٩) رسالة كشف الحقائق ١٣ / ١٤١ - ١٤٢.
(١٠) رسالة البلاغ والنهاية... ٩ / ٧٥.
(١١) كتاب فيه تقسيم العلوم... ٣٦ / ٢٥٨.

« أظهر لنا الناسوتُ رِفقاً بِنَا، واطمأنيَّةً لقلوبنا، لأنّ ليسَ في طاقتنا مقابلــةُ اللاهــوت »[١٢]. وتقول أيضاً: « سبحانَ مَن أظهرَ حكمتَه، فأعجز بريّتَه، الظاهرُ لنا بِصُــوَرِنَا، تأنيســاً لنــا، واطمأنيَّةً لعقولِنا، فخاطَبَنَا بِنَا، حكمةً بالغةً، وآيةً معجزةً »[١٣]. وتقول أيضاً: « أظهــرَ لنــا ناسوتَ صُوْرَتِهِ تأنيساً للصُوَرِ، فحَارَ فيها الفكرُ حينَ أَفكر »[١٤]. وأيضاً: « أظهرَ لَنا فِينَــا... أنسيّةً لعقولِنا، وشفقةً منه علينا »[١٥]. وبالنتيجة، إنَّ الله هو « الظاهر لتأنيسِ الصُّوَرِ »[١٦].

*****

لقد تعمّدنا نقل هذه النصوص لأهمّيّة الموضوع، وللتأكيد على عقيدة هي أساس الديانة الدرزيّة. وقد وعاها الموحّدون، وتكلّموا عليها، وبحثوا فيها، وأقرّوا بأهمّيتها. ورغم الحيطــة المضروبة على الدرزيّة وعقائدها، نرى الدروز المعاصرين يكتبون عنها بصراحة ووضوح، فقال « سامي أبو شقرا » مثلاً: « إنّ الخالق الحقّ يتجلّى لعباده، تذكرة وتأنيســاً، مــن دور لدور... »[١٧]. ويستشهد بــ« رسائل الحكمة »، وهو من النوادر جدّاً في الكتــب الدرزيّــة الحديثة، فيقول: قالت الرسائل: « ثمرة الكمال مشاهدة البارئ »، وتقول: « لا حجة لكم على الله لأنّه عرّفكم ذاته »، ثم تعيد: « لقد ظهر لهم كهم ليقع الإيمان به حقّاً وصدقاً »... وأيضاً: « إن الله لا يحتجب عن خلقه، ولكن حجته عنهم أعمالهم »[١٨].

(١٢) رسالة النساء الكبيرة ١٨ / ١٩٦.
(١٣) نفس المرجع، ص ١٩٥.
(١٤) رسالة الغيبة ٣٥ / ٢٥٠.
(١٥) رسالة الانصناء ٢٤ / ٢١٩.
(١٦) رسالة الغيبة ٣٥ / ٢٥٠.
(١٧) مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ، ص ١١، انظر ص ١٥.
(١٨) نفس المرجع، ص ١٥.

ولكنّ مبدأ « التقيّة » والحذر يعود بأبي شقرا إلى الاحتراز ليفسّر هذا التجلّي تفسيراً روحيّاً. فالله، بنظره، يُرِي الإنسانَ « ذاته رؤيةً روحيّة لا مادّيّة »[١٩]. وينكر، بالتالي، علـــى تجلّي الله أيَّ نوعٍ مِن أنواع التجسّد المادّي، فيقول: « إنّ الله لم يتلبّسْ جَسَداً مادّيّاً، ولا أثيريّاً، ولا ظلاًّ لجسد، إنّما كل كنهه »[٢٠]... نعفي أنفسنا من التوقّف عند هذا الكلام لكثرة ما فيه من مغالطات عقائديّة؛ ولكنّنا نشير فقط: ما معنى « تلبّسَ جسداً؟ عِلما بأنّ هذا التعبير غريبٌ كل الغرابة عن أسلوب الحكمة. وما معنى « كل كهنة »؟ فهل يقصد كل حقيقية اللاهوت ظهرت في صورة الناسوت! الله أعلم.

وكذلك هو الأمر عند السيّد كمال جنبلاط، فهو يقول بـــ« بطلان الحلول والتجسّد »، ويفسّر: « أمّا الحلول أو التجسّد، فلا يمكن للأحد السرمدى القائم الثابت أن يحلّ أو أن يتجسّد في المتنوّع الذي من طبيعته وابداعه التبدّل والتغيّر والزوال. هذا من منطق المحال »؛ ولكنّه يعود ليقول بـــ« التنزّل والتجلّي »، ويفسّر ذلك بالنسبة إلى الإنســـان، لا بالنســـبة إلـــى الله، ويقول: « يحصل ذلك (التجلّي) عندما المتحقّق الحكيم يتخلّص من تلك الآدميّة، فتفيض عليه الصفات الربّانيّة وتتجلّى فيه الأنوار الإلهيّة »... وهذا لا يكون « إلاّ عندما تموت هذه النفس الأنانيّة الفرديّة في الإنسان »... الخ[٢١]. ثم يدعم نظريته بما استطاع من نصوص صـــوفيّة للمتصوّفين المسلمين دون ذكر نصّ من « الحكمة »[٢٢].

(١٩) نفس المرجع، ص ١٥.
(٢٠) نفس المرجع، ص ١٦.
(٢١) مقدمة كمال جنبلاط على كتاب « أضواء على مسلك التوحيد »، ص ٣٣.
(٢٢) نفس المرجع، انظر ٣٣ ـ ٣٦...

ويختلط علينا الكلام عند الدكتور سامي مكارم، فهو يقول ويعترف بأنّ موضوع التجلّي، وهو موضوع يحتلّ في عقيدة التوحيد مركزاً مهمّاً إنْ لم نقل المركز الأهمّ ». ويأخذ على السفير النجار معالجته له « في صفحتين » فقط، في حين أنّه يحتاج « إلى كثير من التقصّي العلمي والتعمّق في البحث ». ويحيلنا الدكتور إلى أقوال صوفيّة لا حصر لها، دون ذكر نصّ واحد من « الحكمة »[٢٣]. ثم يأخذ على السفير قوله « بتأليه الأشخاص أو بالتجسّد »، ويردّ عليه بنصوص « المسالك الصوفية العرفانيّة القديمة والحديثة »[٢٤].

ولكأنّ « فؤاد الأطرش » يردّ على الدكتور مكارم في قوله: « وقضيّة الألوهيّة هذه كقضيّة الإسراء والمعراج، لا يجدى بحثها ولا يضير من واقعها الاعتراف بها أو إنكارها... فالمنكرون لها كالمؤمنين بها، كلاهما صادق »[٢٥]. وهو ردّ ذكي، فيه الكثير من الدهاء، وخاصّة عندما ينبّهنا بقوله: « نكرر تأكيدنا أنّ ما نبحثه في موضوع الألوهية (ألوهيّة الحاكم، وهو عنوان الفصل) هو بحث عام لا يمثّل رأى المذهب، كما أنّنا غير مكلّفين لإجراء مثل هذا البحث »[٢٦]. ولكي يبرّر بحثه يسأل: « سؤال أخير في هذا الموضوع: هل يوجد في هذا العصر إله متجسّد على الأرض؟ نجيب: نعم يوجد... »[٢٧].

وهكذا وبهذا الأسلوب يعالج الدروز عقيدتهم الأساسيّة. وهي معالجة لا تستحقّ منّا أي اهتمام، لأنّها لا تعتمد النصوص إطلاقا.

---

(٢٣) أضواء على مسلك التوحيد... ص ١٢٧، ١٢٨، حتى ص ١٣٥.
(٢٤) نفس المرجع، ص ١٠٥ و١٠٦.
(٢٥) الدروز، مؤامرات وتاريخ وحقائق، ص ٢٢١.
(٢٦) نفس المرجع، ص ٢٢٧، ملاحظة ١ في ص ٢٢٦.
(٢٧) نفس المرجع، ص ٢٣٠.

الفصل الرابع

« سِفْرُ التَكْوين » الدرزي وَأدْوَاره

أوّلاً ــ دور العليّ الأعلى

ثانياً ــ دور البارّ

ثالثاً ــ أدوار الإعداد للكشف الحاكمي

أوّلاً ـــ دَوْرُ العَليّ الأعلى

« كان البارى ولم يكن معه أحد، بلا بداية، ولا مكان، معنى لاهوتيّاً، بغير صفة ولا زمان... موجوداً في ذاته، قبل وجود الواجدين، منزّه ذاته بذاته... معبوداً في ذاته... موحّـداً في ذاته بذاته »[١]. لم يكن له اسم ليعرف به، ولم يكن له أيّ ظهور في الكون ليتعيّن فيه. لقد كان بحكم المجهول، لأنّ « كل موجود لا يظهر موجوداته فهو مجهول، وصـانع لا يظهـر مصنوعاته فهو مهمل »[٢].

لهذا « دلّنا مذهب التوحيد دلالة صريحة صحيحة على أنّ التجلّي كان اثنين وسـبعين دوراً. ظهر الله فيها لخلقه بصورتهم، لابطال حجتهم، بقولهم: إنّنا لا نعبد إلهاً لم نـره قـط. وهذه الأدوار نعرف عشرة منها، بعضها بالمكان والزمان، وبعضها بالمكان دون الزمان. أمّا الباقي من الأدوار فلا نعرف عنه شيئاً »[٣]. وهكذا فـ« الكشفات جميعها، من العلـيّ إلـى الحاكم اثنين وسبعين لا غير »[٤].

---

(١) مختصر البيان في مجرى الزمان، مخطوط رقم ١٤٤١، ورقة ٣ ب ـ ٤ أ.
(٢) نفس المرجع، ورقة ٤ أ.
(٣) توفيق سليمان، أضواء على تاريخ مذهب التوحيد، ص ٥٣ ـ ٥٤.
(٤) مخطوط المكتبة الوطنية بباريس، رقم ١٤٣٦، ورقة ٧ أ.

كان أوّل ظهور إلهيّ في الكون باسم « العليّ الأعلى »، وهو أطـول أدوار الـدنيا، وقاعدة الأدوار جميعها، « تجلّى حيث هي القدس »[٥]. عن هذا الدور الغارق فـي الماضـي السحيق لا نعرف شيئاً كبيراً سوى إنّه كان « العقل » يحتلّ فيه منزلة « الإِمام » الذي يعود إليه فضل كشفه. وكان اسم الفرقة الناجية « الموحدين »، واسم الضـدّ « ابلـيس »، واسـم الميثاق « الجنّة »[٦].

وقد أشارت إليه « الحكمة » عابراً، فقال حمزة: « اعلموا، أيّدكم المولى بطاعته: إن آدم الصفا الكلّي فهو ذو معة[٧]، وقد خدم في دعوة التوحيد والعبادة لمولانا العليّ الخبير، في الأعصار الماضية، قبل هذا الدور (الدور اللاحق) الـذي لقّب فيه بآدم »[٨]. ومع هذا، ينكـر « دو ساسي »، خطأ، وجود هذا الدور[٩].

واستمرّ دور العليّ مدّة تقدّر بـ٣٤٣ مليون سنة، على حدّ قول حمـزة: « ... مـن وقت ابداعه العقل الكلّي إلى حين ظهور آدم الصفا وسجود الملائكة له، وهو تمـام سـبعين دوراً، بين كل دور ودور سبعون أسبوعاً، بين كل أسبوع وأسبوع سبعون عاماً؛ والعام ألـف سنة ممّا تعدّون »[١٠].

ومع ظهور الله في « العليّ » ظهرت « حدوده » وسائر العوالم كافّة.

---

(٥) توفيق سليمان، نفس المرجع السابق، ص ٥٤.
(٦) كتاب الدرر المضيّة واللمع النوارنيّة... فصل « ع » باب « ل »...
(٧) سيأتي الكلام على هذه الألفاظ.
(٨) السيرة المستقيمة ١٢ / ١١٣.
(٩) انظر كتاب « سلفستر دو ساسي » المذكور (بالفرنسية) ج ١ ص ١٩.
(١٠) السيرة المستقيمة ١٢ / ١٣٤، كشف الحقائق ١٣ / ١٥١.

ً١ ــ العقل الكلّي:

« وجد » العقل على الشكل الآتي: « لمّا كان « البارى » منفرداً بذاته، غنيّـاً عـن مخلوقاته، منزهاً عن صفات مصنوعاته، جعل للموجودات جميعها علّة وسبباً، يتنزّه به البارى عن مباشرة الابداع بذاته المقدسة. هذه العلّة هو العقل الكلّي »[١١].

« جعله البارى غاية المبدعات، وعلّة الكائنات، ومدبّر جميع المخلوقات. فهـو بكـر القدرة، وحجاب العظمة، وقابل الوحي، وعالم المراد، وفريد السرّ، ومفيض الأمـر، وبدعـة النور، وخصيصة العلم، ووسيلة الرحمة، ومجري النعمة، وينبوع الحكمـة، وإرادة المبـدع، وصفيّ البارى. به انتظم الكون، وظهرت مراتب العلل، وكملت منازل الخلقة. وهـو مكـوّن الأكوان، وإمام الأئمّة، ومسيح الأزمان »[١٢].

ظهر « العقل الكليّ، صلوات الله عليه، من نور الباري سبحانه فكان جوهراً كـاملاً، ونوراً صافياً، فعّالاً فيما دونه من العلل والمعلولات، مفعولاً بتأييد العالّ سبحانه، قـابلاً فـي جوهره كل شيء بالقوّة، متحرّكاً لطلب المادّة والزيادة، مخصوصاً فـي جـوهره بالأسـماء النورانيّة، كالارادة، والعلّة، والعقل، والسابق، والأمر، وذو معة، والابداع، والرّوح، والهادى، والوحي، والوسيلة »[١٣] الخ...

---

(١١) مختصر البيان في مجرى الزمان، ورقة ٤ ب. انظر أيضاً: « النقط والدوائر » ص ٣ ـ ١٣، والنجار « إمامة العقل في مذهب الموحّدين...
(١٢) مختصر البيان... ورقة ٥ أ.
(١٣) نفس المرجع، ورقة ٥ أ و ب.

والعقل منعوت في ذاته « بالكمال، والقوّة، والفعل، والعلم، والاطّلاع، والتمييز، والاحاطة، والحفظ، والذكر، والنورانيّة، والشعشعانيّة، واللطافة، والصفاء، والضياء، والاشراق، والشفاف، والنبوّة، والهداية، والافادة، والزيادة، والطاعة، والثبات، والحياة، والحركة، والبقاء، والأزليّة، والدوام، والزمان، والمكان، والحلول، والانتقال، بداية بلا نهاية، ودوام لا تدركه الغاية »(١٤).

لقد خصّه البارى « بالصفات الشريفة: كالعلم، والنبوّة، والاطلاع، والهداية، والدلالة، والرحمة، والحقيقة، والرّسليّة، والافادة، والسعادة، والوسيلة، والفضيلة، وما شاكل ذلك... وخصّه أيضاً بالأسماء الرفيعة: كالإمام، والناطق، والرسول، والهادي، والداعى، والتدبير، والديّان، والبرهان، والدالّ، والدليل، والحجّة، والنبي، والوليّ، والحقّ، والسدق، والشاهد، والمجازى، والمثيب، والمعاقب، وما شاكل ذلك... وخصّه أيضاً بالأمثال البديعة: كالشمس والبحر، والجبل، والسماء، والعلم، والصراط، والكتاب، والفنيق(١٥)، والرئبال، واليعسوب، والقلم(١٦)، والقاف(١٧)، والألف بالابتداء، والألف بالانتهاء، وما شاكل ذلك »(١٨).

*****

دعا العقلُ، في دور العليّ، إلى التوحيد، فاستجاب له

---

(١٤) مختصر البيان... ورقة ٥ ب.
(١٥) الفنيق « ظاهره فحل الجمال المكرّم، وحقيقته إمام الزمان » (الدرر).
(١٦) من القرآن: « اقرأ وربّك الأكرم، الذي علّم بالقلم » (سورة القلم ٤).
(١٧) سورة « ق » في القرآن رقم ٥٠ آية ١.
(١٨) مختصر البيان... ورقة ٢٤ أ.

قـــوم يُقال لهم « البِنّ »، لأنّهم « بانـــوا عن المشركين »[١٩]، وهـــؤلاء هم « الجِنّ » الذين « كانوا يعبدون العدم »[٢٠].

هذا العقل كان « علّة العلل » و « سبب الأسباب »، في حين أن العليّ هو « معـــلّ علّة العلل » ومسبّب الأسباب. « بالعقل كوّنت جميع الكائنات، فكان « به تكوينهـــم، لقـــوله: « انّما أمره، إذا أراد شيئاً، أن يقـــول له كن. فيكون »[٢١]، هـــو « أصل نقطة البيكار »[٢٢]، « مدروك محسوس، يأكل ويشرب »[٢٣]، عكس « العليّ » الـــذي لا يـــدرك. وهـــو غايـــة الموجودات، قال له العلي: « لا دخل أحد جنّتي، أي ميثاقي، إلاّ بك ومحبتـــك، ولا احتـــرق بناري، يعني ظاهر الشرائع الناموسيّة، ... أحد إلاّ بتخلّفهم عنك ونفاقهم عليك. من أطاعـــك فقد أطاعني، ومن عصاك فقد عصاني...[٢٤].

*****

يجب أن نعرف إنّه ليس في مجموعة « رسائل الحكمة » والشروحات عليها أوســـع من الكلام على العقل ودوره وصفاته. وقد تكون كلّها في تمجيده، وعرفان جميله، والاعتراف بفضله، ومعرفة دوره في كشف التوحيد، عبر جميع الأدوار... هذا العقل قد ظهر، بأشـــكال وأسماء مختلفة، في الكشوفات اللاحقة جميعها. سيظهر باسم « آدم الصفا » وباسم « حمزة » في دور الحاكم...

---

(١٩) السيرة المستقيمة ١٢ / ١١٤.
(٢٠) نفس المرجع، ١٢ / ١١٣.
(٢١) كشف الحقائق، ١٣ / ١٣٢، مستشهدة بسورة يس ٣٦ / ٨٢.
(٢٢) كشف الحقائق، ١٣ / ١٣٢، انظر كتاب « النقط والدوائر ».
(٢٣) كشف الحقائق، ١٣ / ١٣٢.
(٢٤) نفس المرجع. انظر ص ١٣٢ ـ ١٣٣، ١٤٠، ٣٩ / ٢٨٢ الخ...

٢ً ــ الضدّ:

كان جوهر العقل قابلاً للطاعة والمعصية قبولاً متساوياً: شاهدَ العقلُ وجــودَ العلـــيّ، وأوراه العليُّ ذاتَه المقدسة، وتقرّب إليه بالأنسيّةِ، وقال له: « أَقبِلْ »، فأقبلَ على توحيد العليّ اقبالاً كلّياً، ثم قال له: أَدبِر، أي تولَّ عن جميع مَن يُشرك بي غيري ويعبد سواي، فَعَلِمَ العقلُ بوجودِ قومٍ عصاةٍ يُشرِكون بالعليّ ويَعبِدون سِواه(٢٥).

ثم تحرّك جوهرُ العقل نحو مبدِعه فتولّد من تلك الحركة الحرارةُ، وهي الطاعة؛ ولمّا سَكن في توحيد مبدِعه واستقرّ باطمأنّيّةِ اليَقين، فتولّد من ذلك السكونِ برودةٌ، وهي المعصية. وعندما سكن العقلُ مطمئنّاً إلى ذاته، ونظرَ إلى نفسه بعين الفردانيّة والعظمة، ورأى ذاتَه بلا نظير يشاكله، ولا ضدٍّ يقاومُه، ولا ندٍّ يُعادِلُه... تولّدَ من هذه النظرةِ إلى الذاتِ الضدُّ اللَّعِينُ.

لقد وُجِدَ الضدُّ إذن من « اعجابِ » العقل بنفسه، وظهر منه بغير مُرَادِه، كرهاً منـــه. وفي ذلك بيان قدرة العليّ الذي يَخْلُقُ من النور المحضِ ظلمةً محضةً... إلاّ أنّ العلـــيّ أَمَــرَ الضدَّ بطاعةِ العقلِ، فأبَى وخاصَم ونازَع وتكبَّر، وطلب الرئاسةَ على العقلِ... وعَلِم العقلُ أنّهَا محنةٌ ابتلاه بها العليّ، أي اختبرَه بها لمّا نظَر إلى ذاتِه وأُعجِبَ بنفسِه، فأقرّ عند ذلك بالعجزِ والضعفِ، واستغفرَ من العليّ عن ذنبه، وتضرّعَ إلى مولانا العليّ الأعلى لِيُوجِدَ له « مُعِيناً » على الضدِّ المُخالِفِ: فَخَلَقَ له « النفسَ ».

---

(٢٥) انظر مختصر البيان... ورقة ٨ أ ـ ١٢ ب.

٣ً ــ النفس:

جعل العليّ للعقلِ اذن « مُعِيْناً » على الضدِّ، لِمَا أظهرَه في سؤالِه من حُسْنِ التوكّــلِ السادق، والتضرّعِ الصحيحِ، والشوقِ الشديدِ، والاقرار بالعجزِ، والاستغفارِ عــن الــذنبِ... وهكذا صار الضدُّ سبَباً لخلقةِ المُعينِ الذي هو « النفسُ الكلّيّة »، صلّى الله عليه. وكان وجودُ النفسِ من بين نورِ العقلِ وظلمةِ الضد، لأنّ العقلَ والضدَّ سَبَقَاه في الابداع. ومعنى ذلــك: إن الباري حرّكَ جوهَري النورِ والظلمةِ حتى لقّح بعضُها ببعض، فظهر منها جوهرٌ ثالثٌ، وهو النفس.

ولكن الغالبَ في النفسِ من نورِ العقلِ، لأنّ العقلَ طلبَه واشتاقَ إليه، فكان انجذابُه إلى العقلِ أكثر؛ لذلك أُفِيضَ عليه من نور العقل الجزءُ الكبير، ومن ظلمةِ الضدّ النــزرُ اليســير. وأمرَ العليُ سبحانه النفسَ بطاعةِ العقلِ، وعرّفه أنّه الواسطةَ الكلّيةَ، والوسيلةَ إلــى الرحمــةِ الأزليّة، والمنفردَ بالــدرجة العليّة، فأقبل النفسُ على طــاعةِ العقلِ، وجعله العقلُ « خليفَتَه »، و « ذا مصتّه »، لأنّه امتصّ العلم منه، وتالياً لخدمته، سامعاً له، مطيعاً لأمره[٢٦].

٤ً ــ الأساس:

لمّا قام العقلُ خَلفَ الضدِّ وقامَ النفسُ قُدامَه، راغَ الضدُّ عنهما يميناً وشمالاً، واحتــاجَ « مُعيناً » له عليهما، فَوُجِدَ « المعينُ المُؤالِفُ »، أي

(٢٦) انظر مختصر البيان... ورقة ١٠ أ وما يلي.

« الأساس »، وهــو الضدّ الآخر للنفس. « وسمّي مؤالِف لأنّه يُؤالِفُ الضــدَّ علــى جميــعِ مفاسده »[٢٧]... وبذلك أصبحتْ « حالةُ الازدواجِ في كل شيء ما بين نور وظلمة، وطاعــة ومعصية، وطائعٍ وعاصي، ومعينٍ على الطاعة ومعين على المعصــية، وهدايــة وضــلال، ونقصٍ وكمال، ودعوةٍ توحيديّة ودعوة تلحيدية، ونفوسٍ باقية وأجساد فانية، وفرائضَ توحيديّة ودعائم تكليفيّة، ودورِ كشف ودورِ ستر... »[٢٨]. هذا الازدواج هو سبب وجود الخير والشرّ في العالم.

هً ــ الكلمة:

واحتاج النفسُ، كما احتاج قَبلَه العقلُ، إلى مُعينٍ على الأساسِ. فكان « الكلمةُ ». وهذا معنى قول الحكمةِ: « احتاجَ العقلُ إلى مُعين يكون له على يمينه (أي يمين الضدّ)، واحتــاجَ النفسُ إلى معين يكون له على شماله (أي شمال الضدّ) لينحصِرَ الضدُّ بيــنهم »[٢٩]، فظهــر الكلمةُ الأزليّة. والغالب فيه نورُ العقلِ والنفسِ أكثرُ من ظلمة الضدِّ والأساس. وكان الكلمــةُ، بسبب كثرة نوره، طائعاً للعقل والنفس، وقابلاً أوامرَهما، وممتثلاً لأمر العليّ الأعلى[٣٠].

---

(٢٧) مختصر البيان... ورقة ١٠ ب.
(٢٨) نفس المرجع، ورقة ١٥ أ و ب.
(٢٩) نفس المرجع، ورقة ١٤ ب، كشف الحقائق ١٣ / ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٣٠) مختصر البيان... ورقة ١٧ أ ـ ١٨ أ.

٦ً ــ السابق:

ثمّ انفعل جوهر الكلمة بالحركات التأييديّة المتّصلة إليه من العلل الروحانيّة السابقين له في الابداع، أعنى العقل والضدّ والنفس والأساس، فظهر من الكلمة جوهر « السابق » قابلاً أيضاً للخير والشرّ قَبولاً متساوياً، وفيه من النور الجزء الكبير، ومن الظلمة النزر اليسير، فشاهد وجودَ العليّ أيضاً، وعرفَه وأطاعَه، واهتدى بهداية مَن فَوقَهُ، وهم العقل والنفس والكلمة، وأطاعهم كما أمره باريه(٣١).

٧ً ــ التالي:

ثم انفعل جوهر السابق بحركات العلل الروحانيّة التي فوقَه، المتحرّكة بتأييد العليّ، فظهر من جوهره الشريف جوهرُ « التالي » الذي هو العلّة الأخيرة. فكان أيضاً عنده قَبول الخير والشرّ قبولاً متساوياً... وبهذا ثبت عدلُ الله في خلقهِ. وفي التالي الجزء الكبير من النور والنزر اليسير من الظلمة، لموجب الاختصاص الربّاني...(٣٢).

هذه الجواهر السبعة هم « أرواح مجرّدة، قبل حلولهم في الأجسام البشرية. ولم يكن من جميع الكائنات موجود إلاّ هذه الجواهر الخمسة، وجوهرا الضدّ والأساس »(٣٣)، وهي جميعها علّة جميع الكائنات.

---

(٣١) نفس المرجع، ورقة ١٨ أ.
(٣٢) نفس المرجع، ورقة ١٨ أ - ب.
(٣٣) نفس المرجع، ورقة ١٨ ب، وما يلي.

خمسة منها هي علّة كل خير، واثنان سبب كل شرّ وفساد في الدنيا. وليس للعليّ الأعلى، بعد أن أوجدهـــا، أيّة مداخلة في الكون، لقد فوّض إلى العقل كلّ شيء، وتعاون العقـــل مع سائر « الحدود » فكان منهم عالمان: عالم الخصيصة، وعالم المساواة.

أمّا عالم الخصيصة فهم حروف السدق[٣٤] وحروف الكذب[٣٥]. والغالب في حـــروف السدق من نور العقل على قدر درجاتهم الأعلى بالأعلى. وأمّا حروف الكذب ففيهم من ظلمة الضدّ الجزء الكبير. حروف السدق موجودون في أشخاص كاملة، يرشـــدون الخلائـــق إلـــى معرفة الخالق، ويعرّفونهم الحلال والحرام، ويحذّرونهم من الخطايا والأثام، ويفيضون عليهم العلوم والمعارف الروحانيّة والجسمانيّة، ويأخذون عليهم العهود، ويجرون فيهم الأمر والنهي، ويبسطون لهم الوعد والوعيد... والمطلوب من الخلـــق معرفـــة الســـبعين حـــدّاً مـــن أذرع السلسلة[٣٦]... أمّا حروف الكذب الأربعة والعشرين فهم يقومون بالمضاددة، ويزيّنون للخلـــق الزخرف والمحال، ويسقونهم من عين الضلال، ويشيرون إلى العدم[٣٧]. ولكن ليس لحـــروف الكذب شريعة ظاهرة[٣٨]، ولا دعوة قائمة في دورا العليّ هذا[٣٩].

---

(٣٤) السدق تُكتب بالسين، وكذلك كل مشتقّاتها، وذلك حتى يناسب مجموع حروفها، في حساب الجمّل، ١٦٤ حدّاً، لأنّ: س = ٦٠، د = ٤، ق = ١٠٠.

(٣٥) الكذب في حساب الجمّل مجموعه: ٢٦، لان: ك = ٢٠، د = ٤، ب = ٢. اثنان منهم يرمزان إلى الناطق وأساسه، والباقون أولادهما في الشرّ.

(٣٦) من سورة الحاقة ٦٩ / ٣٣ « ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً »، انظر تفسيرها ومعناها في رسالة كشف الحقائق ١٣ / ١٣٧ ـ ١٣٨...

(٣٧) « العدم » هو نكران الله أو عدم الإيمان به « ظاهراً » و « متجلّياً »...

أمّا عالم المساواة فهي النفوس الناطقة جميعها، وهي درجتـــان: درجـــة الذكوريّـــة، ودرجة الأنوثيّة. والنور والظلمة فيه سواء. برزت جميعها من جـــوهر « التـــالي » صـــوراً منفصلة الذوات، متّصلة الموادّ بعللها، منفعلة بها. وهي أرواح مجرّدة بغير أجسام ولا زمان ولا مكان ولا صفة جسمانيّة ولا عيان. بل هي صور روحانيّة، معـــدودة الكمّيّـــة، محـــدودة بجهاتها، مستقرّة في أماكنها، غارقة في بحر عظمة اللاهوت. ولمّا حلّـــت النفـــوس الناطقـــة بالأبدان، بفعل عوامل طبيعيّة وكواكبية، مدّهم العليّ بالخيرات والبركات وسرعة التعليم للنطق باللغات ومعرفة أصناف البلاغات واكتساب الصناعات ودرك الحسابات...[٤٠].

*****

لقد استمرّ دور العليّ الأعلى في الصورة الناسوتيّة مدّة طويلة جدّاً، لأنّ الخلائق كانت في ضعف بالغ، ممّا احتاجت فيه إلى طول مدّة التجلّي ليتبيّن الخيّر من الشرّير والطائع مـــن العاصي والثابت من المرتدّ...

وفي هذا الدور انقسمت الخلائق قسمين: قسم للجنّة وقسم للنار. القسم الأوّل هو فريق الهدى، والثاني هو فريق الضلال. بقي الأوّل على هدايته من البداية حتى يوم القيامة، وكذلك الثاني. وما تَكَرُّرُ الكشوفات الربّانيّة إلاّ لثبوت الحجة على كل منهم وقطع المعاذير من جميع الخلق.

---

(٣٨) الشريعة الظاهرة لم تبتدئ إلاّ في الدور التالي لهذا الدور.
(٣٩) انظر: مختصر البيان... ورقة ٢٠ أ ـ ب، ٢٤ ب ـ ٢٥ ب.
(٤٠) نفس المرجع، ورقة ٢٠ ب ـ ٢٣ ب...

وكانت الخلائق في دور العليّ معروفة باسم: الطِمّ والرِمّ والحِنّ والجِنّ، وكان فـيهم شرائعُ غيرَ مدوّنة في كتاب، واستمرّت مدّتُهم، كما قلنا، ٣٤٣ مليون سنة... وفي نهايتها، أي في دور الجنّ، غاب « مقام العليّ الأعلى »، وغاب لغيبته صفيّه العقل، ثم النفس، ثم سـائر الحدود، ثم بقيّة حروف السدق. وفي آخر شريعة الجنّ حيث كان « أهل الحقّ » الموحّـدون ساكنين مستورين ظهر مُقام البارى تعالى... وظهرت معه جميع الحدود، وأظهـروا معهـم دعوة التوحيد من جديد. وعاد الأمر كما بدا.

*****

ولكن يبدو لنا أنّ هناك، في الكتب الدرزيّة، نقصاً وتناقضاً، فيمـا يخـصّ المرحلـة الممتدّة بين دور العليّ ودور البارّ أو البارى، وقد وَعَدَنَا حمزة فـي كشـفها دون أن يحقّـق وَعْدَه، وذلك عندما قال في « كشف الحقائق »: « وسنذكر لكم، في غير هذا الكتاب، أسـماء مولانا سبحانه التي سمّى بها ناسوتَه وتظاهرَ به للعالم من وقت ابداعه العقل الكلّي إلى حـين ظهور آدم الصفاء (في دور البار) »[٤١].

لهذا سيكون دور البارّ هو الدور الواحد والستّون، فيكون إذن أدوار عديدة في المـدة الطويلة بين دور العليّ ودور البارّ.

*****

(٤١) كشف الحقائق ١٣ / ١٤٣.

ثانياً ـ دَوْرُ البَارّ

ظهر « البارّ » أو « البارى » في آخر شريعة « الجنّ ». وكان أهل الحق ســـاكنين في تأويل شريعة الجنّ. وظهر، لظهوره، العقل في « آدم الصفا الكلّي » أو « شَطْنِيْل » الذي دعا إلى التوحيد في شريعة الجنّ، فاستجاب له قوم يُدعَون بـــ« البِنّ »، وهم الذين « بـــانوا عن المشركين »[١].

لقد ظهر البارّ في هَجَر[٢]، من قول أحد الموحّدين لأخيه: « اهجُر إبلـــيسَ وحزبَـــه. فيقول: قد هجرتُه. فبذلك تُسمَّى مدينةُ صُرْنَة (في بلاد اليمن) هَجَراً »[٣]. والبارّ لَفْظٌ فارســـيٌّ من « بَارْخُدَايْ » ومعناه « الإله الأعظم أو إله الآلهة »[٤].

وكان أصل ولادة « آدم الصفا » ببلاد الهند، بمدينة يقال لها أَدْمِينْيَة. خرج من بلـــده إلى أن وصل إلى بلاد اليمن على مدينة صُرْنَة، ومعناها المعجزة[٥]، حيث ظهر البارّ. ومـــن صِرنة أَطْلَقَ « شطنيلُ » الـــدعاةَ الاثني عشر، وبشّرَ بالـــدعوة التوحيدية، فلُقِّبَ بأبي البشر، « لأنّ البشرَ ههنا هم الموحّدون، لأنهم بُشِّروا بآدم، وقَبِلوا منه التوحيد.

---

(١) السيرة المستقيمة ١٢ / ١١٤.
(٢) توفيق سليمان، أضواء على تاريخ مذهب التوحيد، ص ٥٤.
(٣) السيرة المستقيمة ١٢ / ١١٥.
(٤) نفس المرجع، ١٢ / ١١٨.
(٥) نفس المرجع، ١٢ / ١١٤.

فصار أبوهم في الدين »[٦].

وينكر حمزة على اليهود والمسلمين الذين يقولون بولادة آدم الصفا من التراب، أو إنّه « بلا أب ولا أمّ »، أو يكون اسمه من « أدم الأرض، أي وجه الأرض »، أو « لأنّه مغبّـر اللون »[٧]... بلإنّ الباري خلقه من أجلّ الأشياء وأعزّها...

ثم ظهر « الضدّ » الذي هو ابليس باسم « حَارَت بن تَرْمَاح » وكان أصله من مدينة أصبهان، وهو ساكن في المعجزة. « ولم يكن في ذلك الوقت إمام ظاهرٌ الا « شطنيل ». وقد أمر مولانا البارّ الملائكةَ، وهم الدعاة، بأن يسجدوا لشطنيل، أي يُطيعوه. فأطاعَ جميعُهم، غيرُ حارت، فإنّه أبى واستكبر، ونظر إلى شطنيل وقال: « أنا خيرٌ منه، أي أعلى منـه منزلـة، فأُخْرِجَ من الجنّة، أي من الدعوة، وأُسْقِطَ من جملة الحدود »[٨].

ثم ظهر « النفسُ » بصورة « أخنوخ » أو « آدم الثاني الذي نَطَق به القـرآن أنّـه عصى ربّه[٩] فسمّي لذلك بـ« آدم العاصي »[١٠]، وهو حجّة آدم الصفا. ولقّب بـ« حـوّا » لأنّها احتوت على جميع المؤمنين. وقيل إنّها أمّ البشر، لأنّها منصـوبة لرضـاعتهم بـالعلم الحقيقي وتربيتِهم وترقيتِهم من درجة إلى درجة إلى أن يبلغوا حدّ البلاغ »[١١].

(٦) السيرة المستقيمة ١٢ / ١١٥.
(٧) نفس المرجع، ١٢ / ١١٣.
(٨) نفس المرجع، ١٢ / ١١٤.
(٩) سورة طه ٢٠ / ١٢١.
(١٠) السيرة المستقيمة ١٢ / ١١٢.
(١١) نفس المرجع، ١٢ / ١١٥.

ثم ظهر « الكلمة » بصورة « شرخ » أو آدم الثالث أو « آدم الناسي الذي قيل إنّه نسي ربّه ولم يجد له عزماً[١٢]. ظهر بمدينة سَرَّمَنَا. ولمّا التقى به شطنيل، وأخذ عليه العهد، قال له: « أريد أن أجعلك أساساً لحدودي ». فقال له شرخ: « إنْ شِئتَ أنتَ شِئتُ أنا. فسمّاه شيتاً ».

إلاّ أنّ أخنوخ وشرخ أصغيا إلى حيلة الشيطان، وهو « الهبّال معاون حارت »[١٣]، ونسي شرخ ما أُخِذَ عليه من العهد، وادّعى منزلةَ شطنيل، فَبَدَتْ سؤاتُهما، وأُسقِطا من المنزلة التي كانا فيها. فأقاما سنين يبكيان على ما فعلا ويسألان الإِمام شَطْنيل العفوَ والمغفرةَ، فَرَحِمَهُمَا شطنيل وسأل البارَ أنْ يعفو عنهما، فعفا عنهما. وهذا معنى ما جاء في القرآن: « فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه »[١٤]، وردّهما إلى المنزلة التي كانا فيها وقرّبهما إليه[١٥].

ثم بثّ آدم الكلي دعاتَه وحججَه الاثني عشر في جميع البلاد، وكان منهم رجل يدعى « صَرْصَر » راح يبشّر بالتوحيد في الاحساء، وأخذ العهد على خلق كثير. وكان منهم القرامطة... إلاّ أنّ هؤلاء بدّلوا في الدين وارتدوا وأضاعوا التوحيد، واتّبعوا شهوات بني العبّاس... ولا بدّ يوماً من رجوعهم إلى ما كانوا عليه « حتى لا يبقى بالحَرَمَيْنِ مشركٌ ولا كافر ولا منافق »[١٦].

---

(١٢) سورة طه ٢٠ / ١١٥.
(١٣) مختصر البيان في مجرى الزمان، ورقة ٣٨ ب.
(١٤) سورة البقرة ٢ / ٢٧.
(١٥) السيرة المستقيمة ١٢ / ١١٩.
(١٦) نفس المرجع ١٢ / ١١٦.

واستمرّ التوحيد مكشوفاً في دور البارّ مدّة طويلة، إلى أن غاب مقام البـــار، وغـــاب لغيبته صفيّه شطنيل، وتخلّف بعده أخنوخ، وقام شرح بالدعوة الروحانيّة يدعو إلـــى توحيـــد البار، ودام الموحّدون على حالهم، ودام باب الدعوة مفتوحاً حوالي ألف سنة، حتـــى تغيّـــرت أحوالهم، ومالوا إلى المشركين، فغضب عليهم البار، وأظهر لهم الشرائع الناموسيّة التكليفيّـــة، الواحدة بعد الأخرى، كما يلي:

١ً ــ شريعة نوح:

هو نوح بن لَمْك. كان أوّل من قام بشريعة، ونهى عن طاعة آدم، وأشار إلى العـــدم، وإلى نفسه. وكان أسَاسُهُ « سام » واثنا عشر حجّة بين يديه. فدخَلَ أهلُ الحـــقّ (الموحـــدون) قاطبةً في شريعته، وكانت قوّتُهم في معرفةِ التوحيدِ ضعيفةً جدًّاً بمثابة قوّةِ الولدِ وهو مكمـــن الأبّ [١٧].

٢ً ــ شريعة إبراهيم:

وهو ابراهيم بن آزر، وأساسُه إسمَعيل. دخلَ أهلُ الحقِّ في شريعته، ثم في شـــريعة أساسه التأويلية، وصارت قوّتهم في معرفة التوحيد بمثابة العَلَقَة من الجنين. وظهر في أيّامـــه من الصالحين إسحق ويعقوب ويوسف وغيرهم من حروف السدق[١٨].

---

(١٧) انظر: ١٢ / ١٢٠، ٣٦ / ٢٦٣، مختصر البيان... ورقة ٤٢ ـ ٤٣.
(١٨) نفس المراجع...

٣ً ــ شريعة موسى:

وهو موسى بن عمران، وأساسه هارون، ثم يشوع بن نون. دخل أهلُ الحقّ في شريعتهم، وصارت قوّتُهم في معرفة التوحيد كمبلغ المُضْغَة من خَلْق الإنسان. وظهر في زمانهم من الأنبياء الصالحين آشعيا وأرميا وحزقيال ومخائيل ودانيال وداوود وسليمان وأمليخا وشعيب وأيوب... ومن الحكماء الفاضلين فوثاغورس وأفلاطون وأرسطاطاليس، وغيرهم[١٩].

٤ً ــ شريعة عيسى:

هو عيسى بن يوسف، أساسه شمعون الصفا، وحججه الحواريون الاثنا عشر. انتقل أهلُ الحقّ إلى شريعتهما، وكانت قوّتهم في معرفة التوحيد كمبلغ العَظْمِ من خَلْق الإنسان. ظهر في زمانهم أنبياء صالحون أمثال « السيّد المسيح » الذي هو « يسوع » عليه السلام[٢٠]، وأصحاب الأناجيل الأربعة: يحنّا ومتّا ومرقص ولوقا، سلام الله عليهم. هؤلاء كانوا يفيضون الوحي إلى عيسى، ويُودِعون الحقائق التوحيديّة في شريعته[٢١].

٥ً ــ شريعة محمّد بن عبد الله:

وهو النبي محمّد، وأساسه علي بن أبي طالب[٢٢]. قام محمّد

(١٩) انظر: ١٢ / ١٢٠، ٣٦ / ٢٦٣، مختصر البيان، ورقة ٤٤ أ.
(٢٠) منذ الآن يجب أن نلحظ الفرق والتمييز بين عيسى ويسوع...
(٢١) انظر: ١٢ / ١٢١، ٣٦ / ٢٦٣، مختصر البيان، ورقة ٤٤ أ و ب.
(٢٢) يُسمَّى علي بن أبي طالب بعض المرات بـعلي بن عبد مناف. كلاهما واحد.

بشريعة الإسلام. ودخل أهلُ الحق قاطبة في شريعته. وكان سلمان الفارسي[٢٣] « يَمُدُّ » محمّداً، ويفيض الوحي عليه. ولمّا قام علي بن أبي طالب بالتأويل دخل أهلُ الحقّ في تأويله، واستمرّوا عنده حتى انقضت مدّةُ سبعةِ أئمّةٍ بعدَه، وهم من ذريّته: الحسن والحسين وعلي زين العابدين ومحمّد الباقر وجعفر الصادق وإسمعيل[٢٤].

وكانت شريعتا محمّد وعليّ أقوى الشرائع، لأنّ محمّداً ظهر بسيفه، وقام على العالمين بعنفه، ونسخ جميع الشرائع كافّة بشريعته، وهدم بنيانَهم ببنيتِه، وبدّلَ دعواتِهم بدعوتِه... وبذلَ في الناس السيفَ، وسبى ذراريهم وأولادَهم، وأباعَهم في الأسواق والشوارع[٢٥].

٦ً ــ شريعة محمّد بن إسمعيل:

هو محمّد بن إسمعيل بن جعفر الصادق... بن علي بن أبي طالب. ختم الشرائع وأتمّها، أي لا يكون بعد شريعته شريعة تكليفيّة. وكان له « أساس قائم بدعوة باطنة ولم نعلم اسمه »[٢٦]. وهو كالنطقاء أو الأنبياء السابقين، ولكنّه لم يكن له « العزم » ليكون له كتاب أمثالهم. ولقوّة شريعةِ النبي محمّد وعظم تكاليفها استغرقتْ شريعةَ محمّد بن إسمعيل، وأخفتْ كتبهَا، حتى لم تُعرف عندنا. ولقوّة شريعةِ علي بن أبي طالب التأويليّة الباطنة استغرقتْ أيضاً تأويلَ أساسِ محمّد بن إسمعيل. لذلك بقي أهلُ الحق على شريعة النبيّ محمّد وشريعة أساسه علي. وكان مبلغ عقولهم في

(٢٣) سلمان الفارسي أحد الصحابة الأوائل للنبي محمّد. سيرته معروفة.
(٢٤) هؤلاء الأئمة، مع علي بن أبي طالب يؤلفون الأئمة الإسماعيليّة.
(٢٥) انظر: ١٢ / ١٢١، ٣٦ / ٢٦٤، مختصر البيان، ٤٤ ب ـ ٤٦ ب.
(٢٦) مختصر البيان، ورقة ٤٦ ب.

معرفة التوحيد كمبلغ العَظْم إذا كُسِيَ لحماً وصار صورةً مخطّطَةً مشخّصَةً بــلا روح مــن الإنسان الحيّ الناطق(٢٧).

*****

ثم تختلف المراجع الدرزيّة في شأن النــاطق السابع. فمنهــا مــن يعتبــر « ســعيد المهدي »، وهو « عبيد الله المهدي » مؤسّس الدولة الفاطميّة، ناطقاً سابعاً، وأساسه « ميمون القداح ». ولكنّهما لم يكن لهما العزم لوضع شريعة تكليفية، فبقي أهل الحقّ مســتورين فــي شريعتي النبي محمّد وأساسه علي بن أبي طالب... ومنها من يعتبر « آدم الناســي » ناطقــاً سبق بشريعته جميع النطقــاء اللاحقين... فيكتمل بذلك عدد النطقــاء السبعة، على حدّ قــول « الحكمة »: « وكل شيء إذا بلغ سبعة انتهى ووجب تغييرُه وحدوثُ غيرِه »(٢٨).

بيد أنّ رسالتي الحكمة: « السيرة المستقيمة » و « تقسيم العلوم » لا تذكر « ســعيد المهدي » كناطق سابع، في حين أنّ شروحات الحكمة، أمثال « مختصر البيان فــي مجــرى الزمان » تكمّل العدد سبعة بسعيد المهدي هذا. والذي نعلمه أنّ اعتبارنا لسعيد ناطقاً أو غيــر ناطق لا يضير « الحكمة » بشيء....

وبهذا الغموض ينتهي دور البارّ. ولنا عودة إلى الشرائع التي أغرقــت « التوحيــد » بظلام دامس، في فصول تابعة، لأنّها كانت عليه شرّاً.

---

(٢٧) انظر ١٢/ ١٢٢، ٣٦ / ٢٦٤، مختصر البيان، ورقة ٤٦ ب ـ ٤٨ أ.
(٢٨) الجزء الأول من سبعة أجزاء ٤١ / ٣١٨.

ثالثاً ــ أدْوارُ الأعداد للكَشف الحَاكمي

١ً ــ دور أبي زكريّا:

لمّا قرب الفرج وهجم زمان الكشف الأخير (في دور الحاكم) أوجبت الحكمة ظهــور مقام أبي زكريّا في وقت الإِمام الثالث للإسماعيليين أحمد بن محمّد بن إسمعيل[١] وفي صورته البشريّة[٢]، أي إنّ أبا زكريا هو نفسه أحمد بن محمّد الملقّب بــ« أحمــد الرضـــى » الــذي اضطهده المأمون الخليفة العباسي، وفتك بعامّة أسرته، حتى اضطرّ إلى النزوح عن الأهواز، حيث كان متخفّياً تحت أسماء عديدة وأزياء مختلفة، واستقرّ في تدمر سنة ١٩٣ هــ.

وبعد اشتداد الاضطهاد، ترك أبو زكريا تدمر إلى سَلَمِيَّة ما بين حمص وحماه. فـــي أيّامه ظهر أخوان الصفاء برسائلهم السريّة، وبدعوتهم الباطنيّة، وهم عند الدروز « رعيل من أهل التوحيد الأول... الذين كانوا يشرحون شرحاً يستمدونه من الإِمام أحمد »[٣]. وكان حجّته في الدين عبد الله بن أحمد بن ميمون القداح[٤].

(١) هو الثالث من الائمة المستورين.
(٢) تقسيم العلوم، ٣٦ / ٢٦٦.
(٣) سليم أبو إسمعيل، الدروز، وجودهم ومذهبهم وتوطّنهم... ١ / ١١٩.
(٤) أمين طليع، أصل الموحدين، ص ٤٤ ـ ٤٥.

ظهر العقل الكليّ في دور أبي زكريّا بصورة أسماها المولى قارون، وكــان قــارون عجمياً. وظهر النفس بصورة « أبي سعيد الملطي أمّا سائر الحدود فلا نعلم عنها شيئاً نظــراً لتخفّيهم وكثرة الاضطهادات عليهم، ولذلك لم يكن لأبي زكريا ملك في الدنيا. إلاّ أنّه يذكر له من المعجزات أنّه سُجن يوماً وُقيّد بسلاسل حديديّة وأُقفِلَ عليه. ولمّا جاء السجّان في الغد لــم يجدْه، ورأى الحبسَ على هيئتِه لم تَتغيّر، وَوجد القيدَ مَقفولاً لم يُفْتَح »[٥].

٢ً ــ دور العليّ:

هو الحسين بن أحمد بن محمّد بن إسمعيل، كُنِّيَ بالحسين الوفيّ ولقّب بــ« العليّ »، وهو غير اسم المقام الأوّل الذي رأيناه باسم « العليّ الأعلى ». لم يبقَ لشيعة الحسين من القوّة ما يمكّنها من المقاومة الفعليّة، فعمد الحسين إلى تنظيمات سرّية أتقن أمر إدارتها اتقاناً يعادل شدّةَ الضغط عليه. اتّخذ من العلم سلاحاً[٦] وامتهن التجارة وأثرى منها ثراءً كبيراً بالإضــافة إلى وارداته من المؤمنين بدعوته[٧].

اتّخذ عبدَ الله القداحَ مستودَعــاً له، وأقامَه حجّةً ظاهرةً لــدعوته. أمّا معجزاتُه فكانت « كثيرةً. ولم يصل إلينا منها شيء »[٨]. يقول التميمي فيه: « لمّا أنشئتِ السماءُ الرابعة، وهو قيــام عبد الله بن أحمد، وهو من ولــد ميمون القداح، ظهر المولى سبحانه بصورة أســماها عليّاً »[٩].

---

(٥) مختصر البيان في مجرى الزمان، ورقة ٤٨ ب ـ ٥٠ أ، ٥١ ب.
(٦) سليم أبو إسمعيل، المرجع السابق، ص ١ / ١٣٦.
(٧) أمين طليع، أصل الموحدين، ص ٤٧.
(٨) مختصر البيان، ورقة ٥٢ ب.

٣ً ــ دور المعلّ:

هو عليّ بن الحسين بن أحمد بن محمد بن إسمعيل. جال بعض الظلام عنــه عنــدما راحت الدولة العباسية تنشغل باخماد الفتن والثورات، من ثورة الزنج الذين احتلّوا البصــرة، إلى حرب أحمد بن طولون الذي احتلّ الشام... كان عليّ كثيرَ الحِيطة شديدَ الحَذَر لا يســتقرّ في مكان. وكان يَظهر بمظهر التجَار، يجوبُ صحاري تدمر والمشرق.

من معجزاته أنّه « كان يسافر وحدَه بألفِ جَمَلٍ مُحَمَّلَةً من البضائع والأموال ولــيس معه سوى غلامٍ واحد... وكان إذا قصدتِ اللصوصُ تَسْرِقُ شيئاً فيأتون إلى جانب البضــائعِ فيجدونَ المعلَّ حاضراً في ذلك المكان، ثم يأتون إلى جانب آخر فيجدونَــه حاضــراً. وكلّمــا حاولوا أخذَ شيء فيجدُوا المعلَّ حاضراً عنده. فلم يقدِروا أنْ يأخذوا شيئاً »[١٠].

تَرَكَ المعلُّ طفلاً اسمُه محمّد، عُرِفَ فيما بعد باسم « القائم بأمر الله »، وكَفَلَه « سعيدُ الخير » الذي عُرف فيما بعد باسم « عبيد الله المهدي ». وسلّم المعلُّ أموالَه لسعيدٍ لينفقَ منها على القائم.

*****

يُلاحظ أن هذه الأدوار الثلاثة متلاحقة، وسرّيّة، لم يستطع فيها الدعاة إعلانَ التوحيد، لشدة الاضطهاد عليهم. وقليلاً ما تذكرها الرسائل لعدم وجود أيّ نشاط توحيدي لها[١١].

(٩) كتاب فيه تقسيم العلوم ٣٦ / ٢٦٦.
(١٠) مختصر البيان في مجرى الزمان، ورقة ٥٢ أ و ب.
(١١) انظر: ٣٦ / ٢٩٦، ٢٦٩، ١٢ / ١٢٢...

٤ً ــ دور القائم بأمر الله:

يقول قائم الزمان حمزة: « وَتَسمّى مولانا جلّ ذكره بالقائم لأنّه أوّل ما ظَهر للعــالم بالمُلكِ والبشريّة في أيّام النُطَقاء الناموسية الشركيّة، فقام على العالمين بالقوّةِ والقدرة، وأقــام للموحدين قسطَه أي عدلَه في هذا الموضع، وأقام قواعدَ توحيده التي هي تمامُ البناء في وقتنا هذا بمشيئته »(١٢).

استلم القائم ابنُ المعلّ الحكمَ عن عبيد الله المهدي ــ لعنه الله ــ وفي رأســه تــدور أحلام الزحف على مصر كأوّل عمل يدشّنُ به عهدَه. إلا أنّ ثورةَ الأدارسةِ كادت تهدّدُ الدولة الفاطمية وتقضي عليها. فعزم القائم على اخمادها والانقضاض عليها، وحوّل أنظــارَه عــن مصر إلى المغرب، فأخمد ثورتَها. وقام « أبو يزيد الخارجي » بثورةٍ أخرى حتى أصبحَ على أبواب « المهديّة » عاصمة الدولة. فاستنجدَ القائمُ بزعيمَ صَنهاجة « زيري بنُ مناد » حتــى قَضى عليه. وقام « الروم » من جهتهم بحملات على « جَنَوَا » و « سردِينيا » فأرسلَ إليهم القائم جيوشَه واستمرّت الحروبُ بين الدولتين طيلة عهده. وهكذا زالت أحلام الاستيلاء علــى مصر(١٣).

٥ً ــ دور المنصور بالله:

بدأ حكمه في مواجهة الخوارج الذين طوّقوا عاصمةَ الدولة الفاطمية. وكان زعــيمُهم هو نفسُه « أبو يزيد بن كَيداد الخارجي » الذي

---

(١٢) السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٣.
(١٣) انظر: القائم بأمر الله للدكتور عارف تامر، دار الجيل...

اتّخذ القيروان قاعدةً لثورته. واستمرّ حكمه في معالجة ما أساءَ إليه هؤلاء الثوّار، حتى قضى عليهم في معركة « سَوْسَة » التي تُعتَبر من المَعارك الخالدة في التاريخ. و « أمر ببناء مدينة المنصورية تخليداً لذكرى هذا الانتصار »[١٤].

٦ ـــ دور المعزّ لدين الله:

بدأ حكمُه بالقضاء التامّ على الثورات الدَّاخليّة، فقضى على دولة الأدارسة قضاءً كاملاً، وحطّم نفوذَ الأمويين في الأندلس، ودانتْ له جميعُ قبائل البربر، وأخضع ثوارَ الخوارج، وشنَّ على الروم حروباً طاحنة، وتوسّع في ايطاليا والمغرب عامّة... ثم راح، بمعاونة القائد الفاتح جَوْهَرِ الصقلي، يفكر بغزو مصر.

ففي سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م سار جوهر إلى مصر، فخضعت له الاسكندرية، وزحف على الفسطاط (أي مصر القديمة) واستولى على مناحيها، حيث وضع أسسَ مدينةِ القاهرة. وزال عنها سلطان العبّاسيين وعملائهم الاخشيديين. وخرج المعزّ من المنصوريّة، ودخل القاهرة، وسكن القصر الذي بناه له جوهر، وأصبحت القاهرةُ، من ذلك الحين، عاصمةَ الدولة الفاطميّة.

ثم رأى جوهر ضرورةَ فتحِ الشام باعتبارها خطَّ الدفاعِ الأوّل عن مصر. « وبذلك يكون قد سبقَ محمّد علي الذي كان يرى أنّ خطَّ الدفاع

---

(١٤) أمين طليع، أصل الموحدين، ص ٥٩. انظر كتاب « المنصور بالله، للدكتور عارف تامر، رقم ٣ في « الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين، دار الجيل بيروت سنة ١٩٨٠ / ١٤٠٠.

عن مصر يجب أن يكون في سوريا، لا في مصر نفسها »[١٥]. ثمّ إنّ الاستيلاءَ على بلاد الشام له أهمّيّةٌ في القضاء على القرامطة الذين بدأوا يناوئون الفاطميين، وفي القضاء على الروم الذين يشكّلون خطراً مداهماً عليهم، وفي ضبط نفوذ العباسيين ومطامعهم في العالم الإسلامي... ... وكان لجوهر ما أراد، حتى امتدّتِ الدولةُ الفاطمية أيّامَ المعزّ من المحيط الأطلسي غرباً حتى الخليج العربي شرقاً. ولم يبقَ لحكم العباسيين سوى بغداد. وقَضَى المعزّ قبل تحقيق أحلامه البعيدة

٧ ـ العزيز بالله:

تفاقم في أيّامه خطرُ أفتكين التركي الذي خرج على الدولة العباسيّة واستقلّ بالشام وساعدَه القرامطة، فرماهم العزيز بالقائد جوهر، فلم يستطع جوهر القضاء عليهم، فاستنجد بالعزيز الذي قام بنفسه بهذه المهمّة. ولم يقض عليهم إلاّ بعد جهد طويل، عندما أسر أفتكين واقتاده إلى القاهرة حيث أكرمه وأحسن معاملته.

من مآثر العزيز بالله إنّه كان شغوفاً بالعلم، قريباً من العلماء، فاستقدم أبا الفرج يعقوب بن كلس، وجعله أوّل وزرائه، وكان ذائعَ الصيت في شهرته العلمية. ثمّ ولّى الوزارة أيضاً عيسى بن نسطورس النصراني، ومنشّا اليهودي. وكان طبيبَه نصرانيٌّ يُدعى أبو الفتح منصور بن مقشّر المصري، وكانت له منزلة سامية في الدولة.

قضى العزيز ببلبيس واستلم الحكمَ ابنُه الحاكم كما رأينا.

---

(١٥) تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن ابراهيم حسن، ص ١٥١.

*****

يعتبر الدروز أنّ هذه الأدوار، التي مررنا على ذكرهـا، كانـت اسـتعداداً مباشـراً للكشف، إذْ بها انكشف التوحيد ظاهراً معروفاً. ولكنّ وقت فتح أبوابه للدخول فيه لم يحن بعد، ولا حتى في أيّام الحاكم الأولى ما قبل سنة ٤٠٨ هجرية.

ويعتبرون أيضاً، على حدّ قول حمزة قائم الزمان، بأنّ « الحاكم... وهو المعزّ وهـو العزيز وهو الحاكم جلّ ذكره، يظهر لنا في أيّ صورة شاء، كيف يشاء »[١٦]، وكمـا يقـول التميمي بأنّه « وقت قيام المنصور والمعزّ والعزيز... والحاكم... وكلّهم واحد »[١٧].

ويقولون بأنّه « لمّا قام مولانا الحاكم جلّ ذكره بصورة التوحيد، انكشف المكنـون... فصار كشف المكنون هو توحيد مولانا جلّ ذكره، ... فانكشف في وقتنـا هـذا، وزال كـل مستور، وزهق المغرور، وانجاز وعده لا يبور »[١٨].

ويؤمنون بأنّ مَن عَرف دوَر الحاكم استغنَى عن الأدوار السابقة، لأنَّ دورَ الحاكم هو أعظمُها وأشرَفُها وأكملُها وأوضحُها وتمامُها. في ذلك يقول التميمي: « ولا لكم أنْ تَرغبـوا إلى ذكرِ ما تَقدّمَ لأنّكم في غِنى عنه بالوجود. وظهورُ الحاكم بين أيـديكم ظـاهراً مكشـوفاً، وحجّتُه ظاهرةً مرئيةً قـد أغنى ذوي العقول بها عن البحثِ فيما تَقَدَّم »[١٩]؛ لأنّ الحاكمَ هـو « الحاكم على جميعِ النطقاءِ والشرائعِ، المنفردِ عن جميعِ المخلوقاتِ والبدائع »[٢٠].

---

(١٦) رسالة ١٢ / ١٢٢ ـ ١٢٣.
(١٧) رسالة ٣٦ / ٢٦٩.
(١٨) رسالة ٣٦ / ٢٦٩.
(١٩) رسالة ٣٦ / ٢٦٧.
(٢٠) رسالة ١١ / ١٠٤.

الفصل الخامس

حُدودُ دَعْوَةَ التَوْحيد وَخَوَنَتُهَا

أوّلاً — معنى الحدود ومعرفتهم

ثانياً — العقل — حمزة بن عليّ

ثالثاً — النفس — إسمعيل التميمي

رابعاً — الكلمة — محمّد بن وهب القرشي

خامساً — السابق — أبو الخير سلامة السامري

سادساً — التالي — بهاء الدين المقتنى

سابعاً — خونة الدعوة

أوّلاً ــ مَعْنى الحُدود ومَعْرفَتهم

حدود دعوة التوحيد خمسة. كانوا منذ البدء، وظهروا مع كل ظهور إلهـيّ بصُـورٍ جسمانيّة بشريّة. عرفنا بعضَهم وجهلْنا آخرين، لكنّ جميعَهم تشخّصوا في كل دور من أدوار الكشف.

« الحدود » من آية قرآنيّة تقول: « تلك حدود الله، ومَن يُطـعِ اللهَ ورسـولَهُ يُدخِلْـه جنّات »[١]، وكثيراً ما وردت في القرآن كما ترى: « تلك حدود الله فلا تتعدّوها »[٢]، و « من يتعدَّ حدودَ الله فأولئك هم الظالمون »[٣]، و « تلك حدود الله يبيّنُهَا لقوم يعملون »[٤]، و « مَن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلمَ نفسه »[٥]، و « مَن يعصِ الله ورسولَه ويتعدَّ حدودَه يُدخلْه ناراً خالـداً فيها... »[٦].

و « الحدود »، في المفهوم التوحيدي، هم غاية الوجود « وقد تناهتْ فيهم الكمـالاتُ من سائر الوجوه »[٧]، وهم القيّمون على كشفِ

(١) سورة النساء ٤ / ١٣.
(٢) سورة البقرة ٢ / ٢٢٩.
(٣) نفس المرجع.
(٤) سورة البقرة ٢ / ٢٣٠.
(٥) سورة الطلاق ٦٥ / ١ بها تستشهد رسالة الشمعة ٣٨ / ٢٧٩.
(٦) سورة النساء ٤ / ١٤، انظر: ٢ / ١٨٧، ٩ / ٩٧، ٨٥ / ٤ الخ..
(٧) كتاب الدرر المضيّة واللمع النورانيّة، باب « د »، فصل « حـ »...

التوحيد في مختلف أدوار الكشف؛ وهم « وزراء » الله في خلقه؛ و « الوسائط » بينه وبين العباد[٨]؛ « وهم وسائط الله، وسفراؤه، وأبواب رحمته، وينابيع حكمته، ومفاتيح نعمته »[٩]؛ هم « سادات الأمم، الدعاة إلى التوحيد، المحقّين... والسفرة الموقنين »[١٠]، « ورجال الأعراف الأطهار »[١١]، و « شهداء الدين »[١٢]، و « آيات التوحيد »[١٣]، « وقواعده »[١٤].

*****

هؤلاء الحدود وُجِدُوا كما يلي: « أبدَع (مولانا) من نوره الشعشعاني الكاملِ العقلَ الكلّي، وأبدعَ من نورِ العقلِ النّفسَ الحقيقي، وأبدعَ من نور النفسِ الكلمةَ، وأبدعَ من نور الكلمةِ السابقَ، وأبدع من نور السابقِ التالي، وأبدع من نور التالي الأرضَ وما عليها، والأفلاكَ الدائراتِ والبروجَ الأثنعشر والطبائعَ الأربعةَ والهيولى الذي هو الطبع الخامس... »[١٥].

وهؤلاء الحدود « مُشَخَّصون في وقتنا هذا في حضرة مولانا الحاكم »[١٦] كما يلي: العقلُ مُشَخّصٌ بحمزة بن علي، والنفسُ مُشَخَّصٌ

(٨) منشور في ذكر اقالة سعد ١٠٤ / ٨١٢ وغيرها.
(٩) مخطوط ١٤٣٨ في معنى الجوارح السبعة، ورقة ٩٩ ب.
(١٠) رسالة السفر إلى السادة ٦٨ / ٥٣٨.
(١١) الإسرائيليّة ٧٢ / ٦٣٣، انظر مقدمة هذا البحث، ص ٢٠.
(١٢) رسالة الهند ٦١ / ٤٧٧.
(١٣) انظر: ٣١ / ٢٣٩، ٥٠ / ٣٦٩، ٣٨ / ٢٧٧، ٤٢ / ٣٢٠ الخ.
(١٤) رسالة التنبيه والتأنيب... ٤٢ / ٣٢٠.
(١٥) رسالة سبب الأسباب ١٤ / ١٤٦.
(١٦) نفس المرجع ١٤ / ١٥٩.

بإسمعيل التميمي، والكلمة مشخّص بمحمد بن وهب القرشي، والسابق أو الجناح الأيمن مشخّص بأبي الخير سلامه السامري، والتالي أو الجناح الأيسر مشخّص بعلي بن أحمد السموقي المعروف ببهاء الدين المقتنى...

هؤلاء الحدود يؤلّفون « شمعة التوحيد »[١٧]: إن « النار الذي يتعلّق بالشمعة لطيف وكثيف، فاللطيف فيه لسان النار العالي الأحمر الذي تعتريه زرقة، يُخْفَى مرّة ويَظهر مرّة، وذلك دليل على قائم الزمان حمزة بن علي بن أحمد؛ والنار الذي يُوقَد الشمع دليل على حجّته إسمعيل بن محمّد بن حامد؛ والشمع دليل على الكلمة محمّد بن وهب؛ والقطن دليل على السابق سلامه بن عبد الوهّاب؛ والطست الذي هو الحسكة دليل على التالي علي بن أحمد السموقي »[١٨].

هؤلاء الحدود كَشفوا إذن عن التوحيد، ودعوا الناس للدخول فيه، ثم أغلقوا، بعد مدّة، بابَه. تارة نرى في « رسائل الحكمة » ذكراً لأربعة حدود، فلا يكون حمزة بينهم، لأنه هو علّتهم خارجٌ عنهم، وطوراً هم خمسة فيكون حمزة من جملتهم. فلا عبرة بذلك.

*****

كل درزيّ موحِّد عليه واجبُ معرفتِهم بأسمائِهم ومراتبِهم ومنازلِهم وألقابِهم وكنياتِهم وأدوارِهم، وإلاّ لا يكون من الموحّدين السادقين: « مَنْ عرف هؤلاء الحدود، روحانيّاً وجسمانيّاً، وعَرف درجةَ كلِ واحدٍ

(١٧) انظر الرسالة الموسومة بالشمعة ٣٨ / ٢٧٨، ٢٨١ مرّتين و٢٧٧.
(١٨) نفس المرجع، ٣٨ / ٢٧٨.

منهم بَانَ له توحيدُ مولانا القائم الحاكم بذاته »[١٩]، « فعليكم معاشر المستجيبين الموحّدين لمولانا جلّ ذكره بمعرفةِ مولانا وحده... ثم معرفة حدوده... »[٢٠]، و « يجب على سائر الموحّدات أن يعلَمْنَ أنّ أوّلَ المفترضات عليهنّ معرفةُ مولانا... ثم معرفةُ قائم الزمان... ثم معرفةُ الحدود الروحانيين بأسمائهم ومراتبهم وألقابهم »[٢١].

أمّا الذين لا يعرفون هذه الحدود فليسوا من الموحّدين بحال. أو من خالف حدّاً منهم فقد ظلمَ نفسه وخرج من جملة الموحدين. قالت الحكمة: « مَن عُدِمَ معرفةُ هذه الخمسة حدود لم يَعرفِ التوحيد في وقتنا هذا. وكان توحيدُه دَعوى. فليعلمِ الموحّدون ذلك ويعتقدوه، ولا يعبدوا المولى بلا معرفة. فقد قال: « وتلك حدود الله، ومن تعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه »[٢٢].

وقال قائم الزمان: « من كذب على إمامه، أو خالفَ حدّاً من حدود التوحيد... فقد خَرج من جملة الموحّدين، وصار من الكافرين بنعمتِه، الجاحدين لسلطانِه وعَظَمتهِ »[٢٣].

*****

فمعرفة الحدود إذن ضرورةٌ واجبةٌ للموحدين، وقد لا يفوزون بالخلاص إنْ جهلوهم، لأن الحدودَ هم وسيلةُ الخلاص ووسائطُه.

---

(١٩) الكتاب المعروف بالنقض الخفيّ ٦ / ٥٩.
(٢٠) الكتاب المعروف بالنقض الخفي ٦ / ٦٣.
(٢١) ميثاق النساء ٨ / ٧٢.
(٢٢) رسالة الشمعة ٣٨ / ٢٧٩ وهي تستشهد بسورة الطلاق ٦٥ / ١.
(٢٣) رسالة البلاغ والنهاية... ٩ / ٧٦ ـ ٧٧.

ثانياً ــ العَقل ــ حَمْزَة بن عَليّ

إنّ العقل الذي تشخّص في جميع أدوار الكشف بأشخاص عديدة مختلفة الصور والأسماء، ظهر، في هذا الدور، دور الحاكم، باسم حمزة بن علي بن أحمد الزوزني الخرساني الفاطمي. وهو القائل عن نفسه: « ثم رجعنا، في وقتنا هذا، على يد آدم زمانكم، حمزة بن عليّ بن أحمد الصفاء: كما بدأنا أوّلَ خلقٍ نُعيده[١]. إن مولانا جلّ ذكره (هو) الفاعل ذلك، وهو القادر القهّار »[٢].

ويعترف حمزة بأنّه كان منذ الدهور؛ وأنّه هو العقل الكلّي، وهو آدم الصفاء، وأنّه هو الذي دعا الناس إلى التوحيد « في سبعين عصراً، ما منها عصر إلاّ ويظهرني مولانا جلّ ذكره فيكم، بصورة أخرى، واسم آخر، ولغة أخرى. أَعرِفُكم ولا تعرفوني، ولا تعرفوا أنفسكم »[٣].

وفي المعنى نفسه يقول: « اصطفاني (المولى) وأبدعني من نوره الشعشعاني مِن قَبل أن يكونَ مكان، ولا إمكان، ولا أنس، ولا جانّ. وهو (المولى) من قبل أن يخلقَ آدمَ الناسي بسبعين

---

(١) سورة الأنبياء ٢١ / ١٠٤.
(٢) السيرة المستقيمة ١٢ / ١١٧.
(٣) الغاية والنصيحة ١٠، ٩٤.

دوراً، بين كل دور ودور سبعون أسبوعاً، وبين كل أسبوع وأسبوع سبعون عاماً؛ والعام ألف سنة ممّا تعدّون. وما منها عصر إلاّ وقد دعوتُ العالمين إلى توحيد مولانا بصـــور مختلفـــة ولغات مختلفة »[٤].

ويبدو أنّ حمزة كان آخر ظهورات العقل في العالم: لقد « قام بالتوحيد آخِرُ قـــائم... إليه انتهت أدوارُ الإمامة... والقائم، عليه السلام، لا يقومُ بعـــدَه غيـــرُه، لأنّـــه تمـــامُ الأدوار ونهايتُها... وَعَرَفَ العالَمُ أنْ لا خَلَفَ له »[٥].

*****

لحمزة صفات العقل جميعِها، بل حمزةُ هو العقل، والعقلُ هو حمزة. ولكنَّ العقلَ، في ظهوره بحمزة، اتّخذ لغةَ أهل زمانِه، « بحسب طاقةِ العالَمِ، وما يتّسعُ في خواطرهم، وتستطيعُ عليه ألسنتُهم »[٦]. وقد لا نستطيعُ حصرَ صفات حمزة جميعِها، فـــ« رســـائل الحكمـــة » مغمورةٌ بها. ولكنّنا نقتصر، هنا، على ما يقول حمزة عن نفسه:

« الحمدُ لمن أبدعني من نوره، وأيّدني بروح قدسه، وخصّني بعلمِه، وفـــوّضَ إلـــيّ أمرَهُ، وأطلَعَني على مكنون سرّه.

فأنا أصلُ مبدعاته، وصاحبُ سرّه وأماناته، المخصوصُ بعلمه وبركاته.

أنا صراطُه المستقيم، وبأمرِه حكيمٌ عليم،

أنا الطور، والكتاب المسطور، والبيت المعمور،

(٤) رسالة سبب الأسباب ١٤ / ١٥١، انظر ١٣ / ١٣٤.
(٥) الموسومة بايضاح التوحيد ٧٤ / ٦٧٠ ـ ٦٧١.
(٦) رسالة سبب الأسباب ١٤ / ١٥٩.

أنا صاحب البعث والنشور،
أنا النّافخ بإِذنِ المولى سبحانَه في الصُّور،
أنا إِمام المتّقين والعِلمُ المبين ولسانُ المؤمنين وسندُ الموحّدين،
أنا صاحبُ الراجِفة، وعلى يدي تكون النِعَم المترادفة،
أنا ناسِخُ الشرائع، ومُهلِكُ أهلِ الشركِ والبدائع،
أنا مُهدِمُ القبلتين، ومُبيدُ الشريعَتين، ومُدحِضُ الشَهادَتين،
أنا مسيحُ الأمم، ومنّي إِفاضة النِعَم، وعلى يدي يَحلّ بأهلِ الشِرك النِقَم،
أنا النارُ الموقَدة، التي تطّلعُ على الأفئدة،
أنا مُمِدُّ الحدود، والدّالُ على توحيد المعبود، ومُفني أهل الشِرك والجحود،
أنا مُجرِّد سيفِ التوحيد، ومهلكُ كلِّ جبّارٍ عنيد،
أنا قائمُ الزمان، وصاحبُ البرهان، والهادي إلى طاعة الرحمن »[٧].

إنّ أصعب ما يعترضنا في بحثنا هذا التوقّف على كمالات حمزة، كما نستصعب شرحها لاتّساع معانيها، لأنّ كل ما في التوراة والإنجيل والقرآن يقع عليه: « جميع ما في القرآن والصحف وما نزّله (المولى) على قلبي من البيان ومن الأسماء الرفيعة يقع على عبده الإِمام »[٨].

---

(٧) رسالة التحذير والتنبيه ٣٣ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣. انظر أيضاً الرسائل التالية: ١٧ / ١٩١ وما يلي، ٢٢ / ٢١٤، ٣٢ / ٢٤٠، ٣٤ / ٢٤٧ ـــ ٢٤٨، ٣٦ / ٢٥٩، ٥٣ / ٣٨٣؛ ٧ / ٦٨، ٩ / ٧٦، ١١ / ٩٧، ١٣ / ١٣٢، ١٤ / ١٥٧، رسالة ١٤ بكاملها، ١٠ / ٨٥، ١٢ / ١٢١، ١١ / ١٠٧، ٢٥ / ٢٢١، ٢٢ / ٢١٦، ١٣ / ١٣٣، ٥٨ / ٤٥٧، ١٨ / ١٩٦، ١٠ / ٩١، ١١ / ١٠٠، الخ... ... ... انظر أيضاً: كتاب النقط والدوائر، ومختصر البيان، وغيرها...
(٨) رسالة سبب الأسباب ١٤ / ١٥٩، وأيضاً ٢٢ / ٢١٤.

رغم كل هذا الفيض من الصفات، يجدر بنا معرفة بعضها، لأنّ فيه ما يميّز حمزة عن سائر الحدود. ففي رسالة « ذكر معرفة الإمام، وأسماء الحدود العلويّة روحانيّاً وجسمانيّاً » هذه المميزات. يقول صاحب الرسالة: « الأسماء الواقعة على مولاي قائم الزمان: الأوّل منها: علّةُ العلل، والثاني: السابق الحقيقي، والثالث: الأمر، والرابع: ذو مَعَة[٩]، والخامس: الإرادة. العقل الكلي روحاني؛ واسمه جسماني: حمزة بن علي بن أحمد، هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين، بسيف مولانا سبحانه وشدّة سلطانه »[١٠].

*****

إنّ صفات حمزة تدلّ على مهامّه وأدواره في دعوة التوحيد. وقد يكون من خصائصه وحده كتابة « الحكمة »، وانْ كَتَبَ سِوَاهُ بعضاً منها فبتكليفٍ منه صريح. وَمَن كَتَبَ رسالةً ما، عليه أن يقفَ على إرادته ومعرفته، كما أنّ كلَ مَن يقرأ شيئاً عليه أن يكون قد انتدبه لذلك. ومن خالف هذه الشريعة يُعتبر هو ومَن يَسمعُه من العصاة. يقول بصراحة:

« وليس لأحدٍ من الحدود أن يؤلّفَ كتاباً، ولا يقرأ على من استجاب، إلاّ بأمرِ مَن نُدِبَ لِهدايتهم، ونُصِبَ لإمامتهم. فإنّ قرأ عليهم كتاباً بغير أمرٍ فقد عصى القارئُ والمستمعون جميعاً، لأن الإمام ينطق بتأييد مولانا جلّ ذكره روحانيّاً بلا واسطة. والدعاة يتكلّمون من

(٩) « سُمّي ذو معةٍ لأنه وعا توحيد مولانا بلا واسطة » (١٠ / ٩٢) ولأنّه « هو الذي وحّد المولى بالحقيقة لأنه ذو معة وقلبه مع المولى لا يفارقه، وهو الدالّ على التوحيد المحض، ومنه القصد وإليه » (٣٨ / ٢٧٨).

علمه تعليماً مشافهة، فإذا عملوا شيئاً بغير أمر كان بالرأى والقياس »[١١].

ويعترف إسمعيل التميمي بأنّه لم يستطع كتابة شيء لولا أمر صريح من قائم الزمان حمزة: « أمرني مولاي قائمُ الزمان، والنورُ التمام، عليه من معبوده أفضل التحيّة والسلام، بتصنيفِ هذا الكتاب، فرجعتُ إلى روحي لأنظرَ مبلغَ فهمِها ومجهود طاقتها، فوجدتُها عن ذلك عاجزةً، فلم يمكنّي مخالفته، فعلمتُ عِلماً يقيناً أنّه لم يأمرْني بتصنيفِ هذا الكتاب إلاّ وموادّه تَطرقُني، وبعلمِه يَهديني، إذ كانتْ من المولى جلّ ذكره الموادُّ إليه متّصلةٌ، وهي عن سائر الناس أجمعين منعَزلةً. فتيقّنتْ أنّ القوّة منه اليّ واصلة إذْ كنتُ منه امتصّ[١٢]، والذكر لي منه مختصّ. فحسستُ عند حلول أمره بقوّةٍ لم أعهدْها قديماً من عمري كلِّه. فألّفتُ هذا الكتابَ بما أيّدني به تلقينا، وفي الصحف روحانيّاً. فما كان فيه من صوابٍ وجزالةِ خطابٍ فهو منه وراجع إليهِ، وما كان فيه من خطأ وزلل فهو منّي وإليّ منسوب »[١٣].

وكذلك بهاء الدين يعترف هو الآخر بأنّ جميع ما وضعه من كتب ورسائل في مجموعة الحكمة هو من « بركات قائم الزمان ووليّ الفضل والاحسان »[١٤].

*****

---

(١٠) ذكر معرفة الإمام... ٣٢ / ٢٤٠.
(١١) رسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين ١٧/ ١٩٢.
(١٢) لهذا يلقّب إسمعيل بـ« ذى مصة » لأنّه امتصّ العلم من الإمام.
(١٣) تقسيم العلوم ٣٦ / ٢٥٩ ـ ٢٦٠، انظر: رسالة الشمعة ٣٨ / ٢٨١.
(١٤) رسائل: ٦٤ / ٤٩٧، ٦٧ / ٥٢٦، ٤١ / ٣١٠ وغيرها.

أمّا الرسائل التي وضعها حمزة في مجموعة « رسائل الحكمة » فهي من رقم ٥ حتى ٣٥ من الجزء الأوّل والثاني ورسالة ٤٤ من الجزء الثالث. ومن المشكوك فيه أن تكون رسالة ٣٣ من تأليفه، وذلك لإطلاقه فيها لفظة « مولاي » على نفسه؛ غير أنّه من الجائز أن تكون هذه اللفظة وحدَها مقحمة في النصّ.

وهناك رسائل لحمزة لا توجد في هذه المجموعة، منها ما يشير إليها بذاته كـ« كتاب المنفرد بذاته » الذي تذكره الرسالة ١٧ مرّتين[١٥]، وكتابٍ في الزواج عنوانه: « الشريعة الروحانيّة في علم اللطيف والبسيط والكثيف » المذكور في الرسالة ١٥.

ومنها ما نراه مذكوراً في مخطوط مكتبة فييناّ رقم ١٥٧٧ فهرست فلوجيل تحت عنوان « الرسالة الموسومة بالدرّ المكنون في حقائق الهزل عن المَلِكِ المَصون مولانا الحاكم »، ورقة ٨ ب، و « الرسالة الموسومة بالدامغة الزهرية في الردّ على النصيري وإله النصيرية »، ورقة ٤٢ ب.

*****

ومن مهمّات حمزة الرئيسة نَسْخُ جميعِ الشرائع والنواميس. وربّما جاء حمزة وظهر في هذا الدور من الكشف لأجل هذه الغاية، وذلك لكي يُرجعَ التوحيدَ إلى أصوله وصفائه، ذلك التوحيد الذي كان منذ البدء، قبل مجيء النبيين والنواميس. وسنتوقّف عند هذه المهمّة في فصل لاحق، ولكن يجدر بنا الإشارة إليها هنا والتنبّه لها. وربّما أيضاً

---

(١٥) وهو موجود مخطوط بين يدينا بعنوان « مصحف المنفرد بذاته » ٢٧٠ ص.

عَرَّفتْ به الحكمةُ بأنّه « مسيحُ الأزمان، محلِّلُ معاقِدَ المِلَلِ، وناسخُ الأديان، وقاتــلُ الإبلــيس والشيطان، ومهلِكُ العجلِ والشيصبان[١٦]، المنتقمُ من أهل الكفر والطغيــان، ومــاحقٌ لأهــل الخلاف والعصيان »[١٧]. وربّما أخيراً « جعله المولى بفيضِ حكمتِه لِشرَعِ نواميسِ الأبالســة (النطقاء) قاطعاً محلِلاً، ولزخرفهِم الملبوسِ على الأمم ناقِضاً مفلِّلا »[١٨].

ولم تغب عن خاطر حمزة مهمّتُه هذه، فهو يقول عن نفسه: « أنا مُهدِم القبلتــين[١٩]، ومُبيدُ الشريعتين[٢٠] ومُدحِضُ الشهادَتين »[٢١].

*****

حمزة والدّعاة:

ولد حمزة ــ أو « وُجِدَ » كما يقول الدروز ــ يوم الخميس في ٢٣ ربيع الأوّل سنة ٣٧٥ هــ الموافق ١٣ آب سنة ٩٨٥ م؛ وهو نفس التاريخ الذي « وُجِدَ » فيه الحاكم. أصــله من زَوْزَن في بلاد فارس، جاء مصر سنة ٤٠٥ هــ. واتّفق مع بعض الأصحاب على العمل في اعلان

---

(١٦) الشيصبان من أسماء الشيطان الرجيم (لسان العرب / شصب) وهو، عند الدروز، لقب « الأساس » علي بن أبي طالب (الدرر ص ٣٣ / شصب).
(١٧) رسالة التعقب والافتقاد ٥٥/ ٤١٧، انظر ٤٨ / ٣٥٨ الخ...
(١٨) رسالة اليمن ٦٠ / ٤٦٩، انظر ٦١ / ٤٧٧ الخ...
(١٩) « القبلتين » يعني: مكة وبيت المقدس.
(٢٠) « الشريعتين » هما شريعة « التنزيل » و « الظاهر »، أي شريعة أهل السنة، وشريعة « التأويل » و « الباطن » أي شريعة شيعة عليّ.
(٢١) « الشهادتين » أي « أشهد أن لا إله إلا الله »، ثم « محمّد رسول الله ». انظر رسالة ٣٣/ ٢٤٣، ٣٤/ ٢٤٨ الخ...

دعوة التوحيد في بدء السنة الثامنة بعد الأربعمائة للهجرة.

وكان من هؤلاء الذين يحسن بنا تسميتُهم، لكثرة ورودهم في الكتب الدرزيّة، ولأهمّيّة دورهم: أبو الخير سلامة بن عبد الوهّاب السامري، وأبو عبد الله محمد بن وهب القرشي، أبو ابراهيم اسماعيل بن محمّد التميمي[٢٢]. هؤلاء، كما يقول الدروز، هيّأوا أجواء الدعوة، كلّ منهم استمرّ في دعوته سبع سنين، حتى « نودي بحمزة بن علي إماماً للموحّدين. وكان عمره آنذاك نحو ثلاث وثلاثين سنة »[٢٣]. « واتّخذ الدعاة مسجدَ رَيْدَان، خارجَ أسوار القاهرة، مركزاً لهم يجتمعون فيه »[٢٤]، « وسمّي هذا المسجد بدار الهجرة الجامعة »[٢٥]، لأنّ جميعَ الدعاة هاجروا إليه بانتظار إعلان الدعوة.

وأقام حمزة دُوراً للقضاء خاصّةً بالموحّدين. وحظي بتأييد الحاكم المطلق، وفي ذلك يقول الأنطاكيّ: « وكان أصحابُ الهادي (حمزة) يَلقون الحاكم في كل يوم في القرافة (موضع في القاهرة) للسلام عليه، وهو مع ذلك يعتني بالهادي ويسأله عن عدد ما حصل في بيته من أهل دعوته ويظهر منه المشورة بالكثرة »[٢٦]. وكثر عدد المستجيبين للدعوة حتى بلغ « ستة عشر ألفاً »[٢٧].

---

(٢٢) سيأتي الكلام عليهم في الفصول اللاحقة...
(٢٣) تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، ص ٦٠.
(٢٤) نفس المرجع.
(٢٥) نفس المرجع.
(٢٦) تاريخ الأنطاكيّ، ص ٢٢٤.
(٢٧) تاريخ الموحدين الدروز، ص ٦١ مستشهداً بتاريخ الأنطاكيّ ص ٢٢٤.

« ومن الذين استجابوا إلى دعوة التوحيد عدد من كبراء الدولة والأعيان، كالشـريف فخر الدولة أبي يعلا حمزة بن أبي العباس الحسيني نقيب الطالبين (المنتسبين إلى علي بن أبي طالب) في بلاد الشام[٢٨]، وأمراء آل تنّوخ: أبي الفضائل عبد الخالق بن محمّد، وأبي الحسن يوسف بن مصبح، وأبي اسحق ابراهيم بن عبد الله الذين كان أسلافهم من دعاة النذر[٢٩]. وإلى أبي اسحق ابراهيم بن عبد الله، الذي كان أميراً بالبيرة[٣٠] في ناحية الغرب من جبل لبنان، ينتسب الأمير ناهض الدولة أبو العشائر بحتر بن شرف الدولة علي بن الحسين جدّ الأمراء البحتريين من آل تنّوخ أمراء بيروت والغرب في جبل لبنان[٣١].

« ومن الأعيان الذين استجابوا إلى دعوة التوحيد أيضاً يمكننا أن نعدّ الأمير أبا الفوارس معضاد بن يوسف الفوارسي، من أعيان ناحية الغرب كذلك، وزمّاخ بن مفرّج بن دغفل بن جرّاح الطائي، وأخاه جابراً، وهما من أمراء الرملة، والأمير عزّ الدولة أبا العلي رافع بن أبي الليل بن عليان الذي أصبح فيما بعد أمير بني كلب، والشيخ أبا الخير سلامة بن جندل من أعيان بني جندل التميمي في وادي التيم، وسلاطين الاحساء من القرامطة الملقبين بالسادة: أبا الفضل الطاهر، وأبا العباس، والعبّاس، وأبا الفضل العمران، وأبا اسحق المعلي، وأبا الفتح الفرج، بالإضافة إلى راجبال ابن سومر الذي تسلّم أمور دعوة التوحيد في الهند »[٣٢].

---

(٢٨) عمدة العارفين، ٣ / ١٢٢، راجع كذلك ابن القلانسي، ص ٨٣.
(٢٩) عمدة العارفين، ٣ / ١٣٩ ـ ١٤٢.
(٣٠) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، تحقيق لويس شيخو، ص ٤٧.
(٣١) نفس المرجع، ص ٤٢.
(٣٢) عمدة العارفين، ٣ / ١١٨... انظر تاريخ الموحدين... ص ٦٢.

حمزة والدَّرَزِي:

وكان من الدعاة أيضاً محمّد بن إسمعيل الدرزي الملقّب بنَشْتَكِين، وحسن بن حيـدرة الفرغاني المسمّى بالأخرم، وعليّ بن أحمد الحبّال، والعجمي، والأحول، وخطلـح ماجـان، ومعاند، وأبو منصور البرذعي[٣٣]، وغيرهم... هؤلاء أصحـاب التعاليم الفاسدة وأصحـاب « الطوارق والبوائق »[٣٤]، خاطبهم حمزة بقوله: « وما منكم أحد إلاّ وقد نصـحته بحسـب الهداية إلى دعوته. فمنكم من استجاب ونكث... وكتبنا عليهم الميثاق، وأبـاعوا الديانـة فـي الأسواق، ومالوا إلى الشهوات والأعواق »[٣٥].

هؤلاء جميعهم عملوا، بالاتّفاق مع حمزة، على اعداد الدعاة، وتهيئة الأجواء لإعلان الدعوة، وكتابة الحكمة بخطوطها العريضة، وتنظيم الاجتماعات، وتسيير أمـور المبشّـرين، وتوزيع الأدوار، والحصول على تأييد الحاكم...

وتوالت اجتماعاتهم في جامع رَيدان المحصّن منذ سنة ٤٠٥ هـ، وأقـرّوا الوقـت الملائم. إلاّ أنّ الدرزي، الذي كُلِّفَ بملازمة البلاط ونشْرِ الدعوة بين الموظّفين، حازَ برضى الحاكم الذي قرّبه منه « وفوّض الأمورَ إليه. وبلغ منه أعلى المراتب، بحيـث أنّ الـوزراء والقوّاد والعلماء كانوا يقفون على بابه، ولا ينقضي لهم شغل إلاّ على يده، وكان قصد الحاكم الانقياد إلى الدرزي المذكور فيطيعونه »[٣٦].

(٣٣) رسالة الصبحة الكائنة ١٩ / ٢٠٣.
(٣٤) نفس المرجع، ١٩ / ٢٠٢.
(٣٥) نفس المرجع، ١٩ / ٢٠٣.
(٣٦) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٨٤.

واستغلّ الدرزيّ موقعَه في القصر وتسلّطَه على بيت المال، و « غرّه ما كان يضربه من زغل الدنانير والدراهم »[٣٧]، واستقلّ بكتابة الرقاع إلى بعض دعاة الإسماعيليين، فكتب إلى ختكين داعي دعاة الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه، كما كتب إلى وليّ عهد المسلمين عبد الرحيم بن الياس الذي كان يمثّل عقيدة الحاكم التوحيديّة، وكتب إلى متولّي الغلمان الأتراك... وإلى غيرهم[٣٨]، يدعوهم إلى دعوته.

وظنّ نفسه، والناس تنقاد إليه، أنّه أولى بالإمامة من حمزة، وأنّه يستطيع اعلان الدعوة قبل أوانها، فباشرها فعلاً، وأعلنها سنة ٤٠٧ هـ. وكان الخلاف الكبير يقع بينه وبين حمزة. وكتب إليه حمزة يحذّره: « إنْ كنت تدّعي الإيمان فأقرّ لي بالإمامة، كما أقررت في الأوّل... حتى تصحّ عبادة مولانا... فإذا فعلت هذا مالت قلوب العالم الينا، وارتفعت ألسنتهم عنّا... »[٣٩].

إلاّ أنّ الدرزي مضى في غيّه وغطرسته ومعاندته، « وأظهر الضدّيّة »، وأصبح، بنظر حمزة والدروز من بعده، « الضدّ » على الاطلاق. لقد كان في الأوّل « طائعاً لباريه. إلاّ أنّه أظهر المنافسة، وطلب اللعين الرئاسة... وأظهر الضدّيّة، وجادل باريه »[٤٠]. كما أصبح غطريساً متكبّراً متبختراً متعسّفاً مدّعياً حاسداً عاصياً. يقول فيه حمزة:

« وغطريس هو نشتكين الدرزي الذي تغطرس على الكشف بلا علم

---

(٣٧) رسالة الغاية والنصيحة ١٠ / ٩٣.
(٣٨) تاريخ الأنطاكيّ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٣٩) رسالة الرضى والتسليم ١٦ / ١٨٢.
(٤٠) الكتاب المعروف بالنقض الخفي ٦ / ٥٠ ـ ٥١.

ولا يقين. وهو الضدّ الذي سمعتم بأنّه يظهر من تحت ثوب الإمام ويدّعي منزلته ويكون لــه خوارٌ جولةٌ بلاد دولة، ثم تنطفي ناره. وكذلك الدرزي كان مــن جملــة المســتجيبين حتــى تغطرسَ وتجبّر وخرجَ من تحت ثوب الإمام وادّعى منزلتَه حسداً له واعجاباً بروحه. وقــال قولَ ابليس... وقال: أنا سيّدُ الهاديين، يعني أنا خيرٌ من إمامي الهادي... وأبى أن يسجدَ لمن نصبَه المولى جلّ ذكره وقلّده واختارَه وجعلَه خليفتَه في دينه وأمينَه على سرّه وهاديــاً إلــى توحيده وعبادته. فتغطرس على الدين... طلباً للرئاسة... »[٤١].

والدرزي، بنظر حمزة والدروز، هو « العجل »، والعجل هــو « الضــدّ ». يقــول حمزة: « والعجل هو ضدّ وليّ الزمان الذي هو القائم بجميع الحدود... وسمّي الضد عجــلاً لأنّه ناقص العقل، عجول في أمره، لــه خوار. وهــو يتشبّه بقائم الزمان بــلا حقيقيّــة ولا برهان »[٤٢]. وبذلك، أصبح كل ضدّ يسمّى بــ« العجل »، فجميع الأنبياء هم « عجــول »، والساعون وراءهم هم أيضاً « عجول »، لأنّهم جميعا أضداد التوحيد. وقد يكون « محمّــد » العجل الأكبر لأنّ شريعته كانت أظلم الشرائع[٤٣]...

والدرزي هو أيضاً « الخنزير » الذي هو « الضدّ الروحاني المشبّه روحه بمولانــا جلّ ذكره. وقد دعوته ورضي بذلك وأقرّ لي بالعبودية ضرورة لا ديانة »[٤٤]، أي أجبر على ذلك لمنفعة مادّيّة دون أن يكون مؤمناً.

(٤١) رسالة الغاية والنصيحة ١٠ / ٩٢ ـ ٩٣.
(٤٢) رسالة البلاغ والنهاية ٩ / ٧٥، انظر رسالة ٤١ / ٣١١.
(٤٣) سترى ذلك بتوسّع في فصل « الدرزيّة والإسلام ».
(٤٤) رسالة الرضى والتسليم ١٦ / ١٧٨.

والدرزيّ، على ما يبدو من كلام حمزة، لم يحصل على أيّة رسالة من رسائل الدعوة التي وضعها حمزة وإسمعيل التميمي وغيرهما، وقد طلب منه ذلك دون جدوى: « قد سألني مراراً بكثرة أن أدفع إليه شيئاً من كتبِ التوحيد ممّا ألّفتُه، فلم أفعلْ ذلك، ممّا تفرّستُ فيه من العاقبة الرديّة... فنظرتُ فيه بنور مولانا جل ذكره وتأييدِه، ولم أفعلْ أسلّمُه شيئاً ممّا طَلَبَه، فتردّى بالكبرياء، وقال: « أنا خيرٌ منه وأعلى ». ولم يعلم بأنّ الغالبَ مَن أعانه المولى جلّ ذكره... »(٤٥).

ثم راح الدرزي يدعو البرذعي إليه، ويحوّله عن حمزة، فأعطاه دنانيرَ كثيرة، « وأوعده بالمركوب والخُلَع، فمضى إلى عنده، وفتّح له أبوابَ البلايا والكفر »(٤٦)، ولذلك يتّهمُهما حمزةُ بأنّهما « نطقا بغير معرفة ولا علم. وعملا لغير وجه مولانا جلّ ذكره. وأعليا البناء بغير أساس. وما أصاب أحدٌ منهما ما أصابه إلاّ باستحقاق وعدلٍ من المولى سبحانه على يدي »(٤٧).

ولعدم حصول الدرزي من تعاليم الحكمة شيئاً، كتب إليه حمزة يحذّره من تعاليم يقوم بها على هواه، وقال له: إن « الذي تطلبه أنت من الكشف ليسَ لك عليه قدرة، ولا بفعله طاقة، لأنّ له روحاً وجسماً، وما بيدك شيء منهما، لأنّ الروح هو العلم الحقيقي، وأنت صِفْرٌ منها، ما تعرف ما طحَاها. وقد أظهرتُ أنا من العلم الحقيقي المكنونِ ما تعجز أنتَ عنه وجميعُ العالمين »(٤٨). ثم يتّهمه بأنّه كان « أوّلَ مَن عمل برأيه،

---

(٤٥) رسالة الرضى والتسليم ١٦ / ١٨١.
(٤٦) نفس المرجع، ١٦ / ١٨١.
(٤٧) نفس المرجع، مستشهداً بسورة ص ٣٨ / ٧٦.
(٤٨) رسالة الرضى والتسليم ١٦ / ١٨٢.

وقاس العلم بهوائه... فأُسقِط من مرتبته وأخرج من دعوته ومنزلته »[٤٩].

بسبب ذلك « عمل الدرزي في نقل رئاسة الدعوة إليه »[٥٠] فكتب إليه حمزة تحـذيراً آخر يقول له فيه بأنّ الإمامة « لا تنقسم في شخصين في وقت واحد، إذ كانت الإمامة نـوراً كلّياً شعشعانيّاً، لا يتجزّأ ولا يدنّسه ندّ ولا يغيّره ضدّ... »[٥١].

وهكذا، كما « ظهر » العقل الكلّي بحمزة بن علي، « ظهر » الضدّ الذي هو إبليس بـ« نشتكين الدرزي ». وهي محنة ابتلاه بها المولى. وكما ظهر ابليس من اعجاب العقل بنفسه، كذلك ظهر الدرزي « من تحت ثوب الإمام »[٥٢]. وكما كان لإبليس معاونون يعملون في ضلال الموحّدين، كان للدرزي أيضاً دعاة أفسدوا التوحيد وعلّموا بحسب أهوائهم الشنيعة.

وبسبب تعاليمهم هذه عُلِّقَتْ دعوةُ التوحيد سنةً كاملةً، وهي التاسعة بعد الأربعمائة، وغابَ الحاكم، وغاب الإمام حمزة، وغاب جميع الدعاة. وانقطع النصّ[٥٣]، وظهرت البدع، وكثر نشاط الأضداد، ونكثَ بعضُ الدعاة، وتراجَع « المرتدّون » الخونة... وكانت هذه السنة امتحاناً عسيراً على الموحّدين واختباراً شديداً لإيمانهم...

---

(٤٩) رسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين ١٧ / ١٩٢.
(٥٠) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ٤ / ١٨٤.
(٥١) رسالة الصبحة الكائنة ١٩ / ٢٠٣.
(٥٢) رسالة الغاية والنصيحة ١٠ / ٩٢.
(٥٣) لذلك لا نرى رسالة واحدة في مجموع الحكمة من سنة ٤٠٩ هـ.

غيبة التاسعة:

محنة عسيرة أصابت الدعوة في مهدها ومن كل صوب، من الداخل ومن الخارج. لقد انقسم الدعاة بعضهم عن بعض، فكان الدرزي والبرذعي والأخرم وأبو جعفر الضرير ومعاند وغيرهم، من جهة؛ وكان حمزة وحدوده الأربعة وسواهم من جهة ثانية. وكان أهل جميع الأديان من سنّة وتأويليّة ونصارى ويهود على الدعوة عواناً. وكاد الجميع يقضي عليها... ولكنّ حمزة تدبّر الأمر وتفادى الكارثة، فأعلن اغلاقها سنة كاملة.

في هذه السنة ٤٠٩ هـ هدأ نشاط الدعاة، وغابوا عن مسرح الأحداث. وراحوا يعيدون النظر في تنظيم صفوفهم، ويعدّون الدعاة والمعاونين، ويعالجون رسائل جديدة، ويختلفون بالحاكم ليتداركوا الأمور الصعبة والأحوال المستعصية.

« غير أنّ تعليق الدعوة لم يثنِ الدرزي عن نشاطه. بل شجّعه اعتكافُ الحاكم واعتزالُ حمزة بن علي على المضي في دعواه واستجلاب مَن يستطيع استجلابَه إليه... وهكذا فلا تكاد سنة ٤٠٩ هـ ان تشرف على الانتهاء حتى تكون نقمة أهل القاهرة على الدرزي قد بلغت مبلغاً جعلتهم، في ٢٨ ذي الحجة ٤٠٩ / ٨ أيّار ١٠١٩، يتصدّون للدرزي ويُلحِقون به هزيمةً ذهب ضحيتَها نحو أربعين قتيلاً من أتباعه[٥٤]. ويبدو أن الدرزي، في محاولة منه أخيرة لرأب الصدع بينه وبين القاهريين وانجاء دعوته من فشل نهائي، سعى إلى مفاوضة أهل القاهرة، وأقنعهم

---

(٥٤) في هذا إشارة إلى « الصبحة الكائنة » ١٩ / ٢٠٤.

بالتصدّى لحمزة بن علي الذي كان معتكفاً مع بعض من الموحدين في مسجد ريدان المحصّن الواقع خارج أسوار القاهرة.

« وهكذا نجح الدرزي بتحويل النقمة على حمزة بن علي. وقد انضمّ الدرزي إليهم، ليزحف ـ فيما قال ـ ما ينيف على العشرين ألفاً لقتال إمام الموحدين. وتقول مصادر التوحيد(٥٥) إنّه لم يكن مع حمزة بن علي في حصنه ذاك إلاّ نفر قليل لا يتجاوز الاثني عشر، منهم خمسة لا يصلحون للقتال نظراً لكبر السنّ أو صغره. أمّا السبعة الآخرون فهم: إسماعيل بن محمّد التميمي، ومحمد بن وهب القرشي، وسلامة بن عبد الوهاب السامري ـ وهؤلاء كانوا دعاة النذر ـ والمقتنى بهاء الدين عليّ بن أحمد الطائي، وأيّوب عن علي، ورفاعه بن عبد الوارث، ومحسن بن علي. وقد استطاع حمزة بن علي ومَن معه أن يصمدوا أمام المهاجمين خلف تحصينات المسجد. وعند المغرب، وكانوا قد بلغوا أشدّ درجات الضيق، أطلّ الحاكم عن شرفة قصرة المشرف على المسجد. فلمّا رأت الجموع الخليفةَ كفّوا عن القتال وتراجعوا ورُفع عن حمزة بن علي الحصار ليعود بعودة الحاكم ونصرته له إلى سابق عهده.

« وفي صباح تلك الليلة، أي في الأوّل من محرّم سنة ٤١٠ هـ / ١٠ أيّار سنة ١٠١٩ م قتل الدرزي بأفعاله (؟)، واستقام الوضع مجدّداً واستؤنفت الدعوة. فعاد الدعاة إلى سابق نشاطهم يدعون في مختلف الامصار. »(٥٦).

(٥٥) في هذا إشارة إلى الرسالة ١٩ / ٢٠٥، و١٠ / ٩٤، ١٦ / ١٧٩.

(٥٦) تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، ص ٦٤ ـ ٦٥، وهو يستشهد بالرسالتين ١٠ و١٩ وبيوسف العقيلي في خبايا الجواهر، ص ٧٣٠... وهو أمر نادر جدّاً عند كتبة الدروز...

نهاية الدّرزي:

في رأى الدروز عامّة أن الدرزي قتل سنة ٤١٠ هـ(٥٧). وهم يعتمدون بذلك على ما جاء في تاريخ الأنطاكيّ(٥٨) وفي الرسالة ١٩. إلاّ أنّ رأياً آخر يرجّح إبعاده إلى بلاد الشام، وهو رأى المؤرّخين غير الدروز. وقد يكون الرأي الأكثر صواباً للأسباب التالية:

إن الذين يقولون بقتله يعمدون إلى الرسالة ١٩ المؤرّخة في شهر شعبان من السنة الثانية لحمزة، أي ٤١٠. ولكنّ هذه الرسالة لا تذكر صراحة بأنّ الدرزي قتل مع سائر القتلى؛ ثم إنّها لم تُوَّجَهْ إليه شخصياً، بل إلى أصحابه، اذ هي تبتدئ بما يلي: « رسالة من هادى المستجيبين المنتقم من المشركين بسيف مولانا سبحانه، إلى أصحاب نشتكين المعتقلين »(٥٩)، وليس إلى نشتكين بالذات. وإنّها أيضاً تشير إلى كثيرين هربوا من المعركة مع أهل القاهرة بقولها: « وهَرَب من هرب »(٦٠).

ثم إن شمسَ الدين أبا المظفر بن قزأوغلي في تاريخه « مرآة الزمان » يدلّ صراحة على هربه إلى بلاد الشام بعد ثورة الناس عليه. يقول: « فثار الناس عليه، وقصدوا قتلَه، فهرب منهم. وأنكر الحاكم أمره خوفاً من الرعيّة. وبعثَ إليه في السرِّ مَالاً، وقال: أخرج إلى الشام،

(٥٧) انظر: تاريخ الموحدين الدروز السياسي... ص ٦٤، وعبد الله النجار، مذهب الموحدين الدروز، ط ٢، ص ١٦٧...
(٥٨) تاريخ الأنطاكيّ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ حيث يقول إن تركيّاً قتله...
(٥٩) رسالة « الصبحة الكائنة » ١٩ / ٢٠٢.
(٦٠) نفس المرجع ١٩ / ٢٠٤.

وانشر الدعوة في الجبال، فإنّ أهلها سريعو الانقياد. فخرج إلى الشام، ونزل بوادي تيم الله بن ثعلبة، غربيّ دمشق، من أعمال بانياس. فقرأ الكتاب على أهله (أي على أهــل وادي التــيم)، واستمالهم إلى الحاكم، وأعطاهم المال. وقرّر في نفوسهم الدرزي التناسخ، وأباح لهم شــرب الخمر والزنا، وأخذ مال من خالفهم في عقائدهم وإباحة دمـــه. وأقــام عنــدهم يبــيح لهــم المحظورات إلى أن انتهى »[٦١].

والله أعلم.

وهكذا « لمّا انقضت التاسعة تجلّى الباري سبحانه بالوحدانيّة، وكشف توحيده في أوّل السنة العاشرة، واستمرّ الكشف إلى قرب آخر السنة الحادية عشر، وعادت الدعوة التوحيديــة كما بدأت في السنة الثامنة من تجلّي المعبود وظهور الحدود وكشف التوحيد ودحض التلحيــد ونشر الدعوة وفيض الحكمة وتصنيف الرسائل وكتابــة المواثيــق ونســخ الشــرائع ورفــع التكاليف... »[٦٢].

غيبة حمزة الأخيرة:

في نهاية السنة الحادية عشرة بعد الاربعمائة من الهجرة، غاب حمزة بن علي غيبتــه الأخيرة. وسلّم مقاليدَ الدعوة إلى المقتنى بهاء الدين علي بن أحمد الطائي. وكانت غيبة حمزة هذه أثر غيبة الحاكم في ٢٧ شوال سنة ٤١١ / ١٢ شباط ١٠١٢. ثم غــاب معهمــا جميــع الحدود، ما عدا

(٦١) النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٨٤.
(٦٢) مختصر البيان في مجرى الزمان، ورقة ٧٢ ب وما يلي.

بهاء الدين المقتنى الذي وقع عبء الدعوة عليه. وفي ذلك قالت الحكمة: « لمّا... ثبتت حجّة الحقّ على كلّ الأمم، وتجلّى (الحقّ) للبشر من حيث تخييل النظر، احتجب بنوره عن خلقه، فلم يقتف له أثر، واستتر لغيبته وليّه الهادي النذير (حمزة)، وغاب لغيبته صفيّه البشير (اسماعيل التميمي) »[٦٣].

ولكن، أين كان موضع الغيبة هذه؟ إنّه أمر مجهول لدينا. ولكنّ حمزة وما زال موجوداً، يراسل الدعاة سرّاً، ويوجّه نشاطهم من مكان اختفائه. « في اعتقاد الموحّدين أن غيبة حمزة هذه كانت امتحاناً لهم ولإخلاصهم لدعوة التوحيد »[٦٤]. وعنها قالت الحكمة: « إن غيبتي عنكم غيبة امتحان لكم ولجميع أهل الأديان. فمن وفى منكم بما وثق عليه ولم ينكص على عقبيه فسأوتيه أجرا عظيماً، وأنيله مقاماً كريماً »[٦٥].

وقالت أيضاً: « ثم غاب سلام الله على ذكره بعد ايجاب الحجة على العوالم في ملكوت باريه إلى أجل يتمّمه بمعالم حكمته وينتهيه اثباتاً لحججه على العوالم، وتمييزاً للطائع المظلوم من المرتدّ الشاك الظالم، واقامة للقسط والحق والعدل في يوم المعاد والقضاء والفصل، بأمر يتّصل بحول باريه، ويتمّ ببركة قائمه وهاديه »[٦٦].

وبعد غيبة الحاكم بشهرين أرسل حمزة « رسالة الغيبة » رقم ٣٥، على يد أبي يعلا إلى الموحّدين في بلاد الشام. وكانت الأخيرة من يده.

---

(٦٣) الموسومة بأحد وسبعين سؤالاً ٧٣ / ٦٣٦ ـ ٦٣٧.
(٦٤) تاريخ الموحدين الدروز في المشرق العربي، ص ٦٥.
(٦٥) الاعذار والانذار ٣٤ / ٢٤٨، انظر: ٧٦ / ٦٩٠، ٦٤ / ٤٩٨.
(٦٦) رسالة السفر إلى السادة ٦٨ / ٥٤٦ ـ ٥٤٧، انظر أيضاً ٧٤ / ١٦.

ثالثاً ــ النَفْس ــ إسمعيل التَميمَي

هو أبو ابراهيم إسمعيل بن محمّد بن حامد التميمي، الحدّ الثاني من حـدود التوحيد الخمسة. وهو بمقام « النفس الكلّيّة » التي تشخّصت فيه في دور الحاكم. كتب إليه حمزة يقلّده مرتبته التوحيدية، ومنزلته الدينيّة. جاء في كتابه:

« من عبد مولانا (حمزة)... إلى أخيه وتاليه، وذى مصّة علمه، وثانيه، آدم الجزئي، الذي اجتباه (اختاره) بعلمه، وهداه بحلمه، وغذّاه بسلمه، أخنوخ الأوان، وإدريس الزمان، هرمس الهرامسة، أخي، وصهري، أبو ابراهيم إسمعيل بن محمّد التميمي، الداعي...

« إنّي نظرت إليك... فجعلتك خليفتي على سائر الدعاة والمأذونين والنقباء والمكاسرين وجميع الموحّدين بالحضرة الطاهرة وفي سائر جزائر الأرض وأقاليمها.

« وأسميتك بصفوة المستجيبين، وكهف الموحدون، وذى مصّة علم الأوّلين والآخرين. وجعلت لك الأمر والنهي على سائر الحدود، تولي من شئت، وتعزل من شئت. فما رأيتَ فيه من صلاح وعملتَه فهو أمري، وما نهيتَ عنه فهو نهيي. ومن خالفك فقد خالفني، من أطاعك فقد

أطاعني »[١].

وفي أمكنة كثيرة من مجموعة « رسائل الحكمة »، يعتبر إسمعيل هذا في الدرجة الثانية بعد حمزة: « فأوّلهم وأعظمهم فعلاً ذو معة (حمزة)، وبعده ذو مصّة »[٢]، أي إسمعيل الذي « امتصّ علمه من قائم الزمان »[٣]. ويكنّى بـ« المشيئة » وبـ« الحجة الصفية الرضيّة » وبـ« صفوة المستجيبين، وكهف الموحدين »، وبـ« الشيخ المجتبى »... الخ...[٤]

وفي الرسائل القليلة التي وضعها إسمعيل يعطي نفسَه ذات الألقاب والصفات والمهامّ التي يضفيها عليه حمزة[٥]. ويشبّه نسبته إلى حمزة كنسبة الزناد إلى الحجر « ولو مكث الزناد طول الدهر ملقى بلا قادح ولا حجر يحركه، لما ظهر من الزناد نار. وإنّما ظهور النار من الزناد بالقادح والحجر. كذلك النفس »[٦]. فالنار كامنة في الزناد، وفي الحجر، ولولا القادح لما كانت. و « الزناد والحجر زوج مزدوج، ذكر وانثى.. والنار متولّدة من بينهما... »[٧].

ثم يعطينا درجَتَه من حمزة كما يلي: « أوجدَني (قائم الزمان) منه لقوّة ابداعه ومادّته. وجعلني تاليه وحجتَه وزجتّه وَقابلَ صورتِه ومودِعَ سرّه وحكمتِه. وأفاضَ علي نورَه وبركتَه. وأوجد مني حدودَ دعوته... فأنا النفس.

---

(١) سجل المجتبى ٢٠ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٢) رسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين ١٧ / ١٩١.
(٣) كتاب فيه تقسيم العلوم ٣٦ / ٢٥٨.
(٤) تقليد المقتنى ٢٢ / ٢١٦، انظر ذكر معرفة الإمام ٣٢ / ٢٤٠.
(٥) انظر ٣٩ / ٢٨٢، ٣٢ / ٢٤٠، ٢١ / ٢٠٩ الخ...
(٦) رسالة الزناد ٣٧ / ٢٧٤.
(٧) نفس المرجع ٣٧ / ٢٧٥.

ومنزلتي من إمام الهدى بمنزلة القمر من الشمس. فاسمعوا أيّها الموحّدون نصّ الحكمة تسعدوا... وأوصلوا شكري بشكره وشكر جميع الحدود »[٨].

*****

عُرف عن إسمعيل أنّه وضع في مجموعة الحكمة خمسَ رسائل، من رقم ٣٦ إلى ٤٠ في الجزء الثاني منها. والرقم ٤٠ « شعر النفس » وهي قصيدة بعثها إلى أهل جبل السمّاق يبثّ فيها عقيدة التوحيد.

*****

غاب مع غيبة حمزة، واختفى عن مسرح الأحداث بسبب الاضطهاد، ونظراً لمصاهرته بقائم الزمان. له في الدعوة « اثنعشر حجة في الجزائر، وسبعة دعاة للأقاليم السبعة »[٩].

*****

لم يعط شيئاً جديداً فيما كتب سوى أنّه شرح نظريّة حمزة وقرّبها للأفهام بكثرة استعاراته وأمثاله. يقول الدروز بأنّه بدأ يعدّ العدّة قبل كشف الدعوة بسبع سنين، فهيّأ بذلك لمجيء حمزة واستلامه الإمامةَ الحقيقيّة.

---

(٨) الموسومة بالرشد والهداية ٣٩ / ٢٨٣.
(٩) الموسومة بكشف الحقائق ١٣ / ١٣٧.

رابعاً ــ الكلمَة ــ مُحَمَّد بن وَهَب القَرَشي

هو « الكلمة، الشيخ الرّضى، سفير القدرة، فخر الموحّدين، وبشير المؤمنين، وعماد المستجيبين، وكلمتهم العليا روحاني، واسمه جسماني: أبو عبد الله محمّد بن وهب القرشي الداعي »[١].

هو ثالث الحدود الروحانيّة التوحيدية. هو « الكلمة » في دور العليّ الأعلى، و « شرخ » أو « آدم الناسي » في دور البارّ. لا أحد يعلوه في الدعوة غير إسمعيل التميمي[٢]. تقع عليه مهمّة ملاطفة الموحّدين، وحثّهم على الخدمة، وتلقّي الأخبار من النقباء، ورفعها إلى حمزة[٣].

يبدو أنّ منزلته الدينية هذه كانت لواحد قبله، توفّاه الله، وكان يلقّب بـ« الشيخ المرتضى، قدّس المولى روحه »[٤]. وقد تسلّم القرشي مرتبته وعلومه وكتبه التوحيديّة، وهو الذي واراه التراب واهتمّ بدفنته[٥]. لا نعرف عنه أنّه كتب شيئاً من رسائل الحكمة أو من سائر الكتب التوحيدية. له « اثنعشر حجة وسبعة دعاة للأقاليم السبعة، لأنّ

---

(١) انظر: ٣٢ / ٢٤٠، ٢٢ / ٢١٦، ٢١ / ٢٠٨ مرّتين.
(٢) تقليد الرضى وسفير القدرة ٢١ / ٢٠٩.
(٣) نفس المرجع.
(٤) نفس المرجع.
(٥) نفس المرجع.

للكلمة نظير ما للنفس »[٦].

من توصيات قائم الزمان إلى القرشي:

« اجمع شمل الموحدين. وكنْ لهم في نَفَاسِهم وأعراسِهم وجَنائِزهم على السنّة التي رسمت لهم...

« ومَن رأيتَ من جميع الحدود والدعاة والمأذونين والنقباء قَصَّرَ عن الخدمة وبانَ لك منه زلّةٌ فأبدِلْهُ بغيره...

« أوصِهم بحفظِ بعضهم بعضاً. ولا يمشي أحدٌ منهم إلاّ ومعه شيءٌ من السلاح وأقلَّه سِكّين...

« مَنْ حُبِسَ على جَنِيّة أو خطيّةٍ وسُومِحَ بها فَامْضِ به إلى بيتِكَ واضربْه بالعصيّ ضرباً وجيعاً حتى لا يعودَ إلى خطأٍ لا يليقُ بالموحدين، وذلك في بيتِك موضعاً لا تكون فيه الأضداد...

« احذر أن تتجاوز ما رسمتُ لك... قلْ الحقَّ ولا تستحي منّي ولا تَفْزَعْ... لا تتقدّم من الحضرةِ (الحاكم) إلاّ بعدَ أن تدعوك. ولا تتكلّم بحرف واحدٍ إلاّ بعد أن تسألكَ عنه... لا تُخْفِ عنّي جميعَ ما أنتَ فيه... قلْ الحقَّ ولا تخشَ الا ذنبَك... »[٧].

هذه الوصايا الأخيرة تدلّ على ضعفِ شخصيّةِ القرشي أمام قائم الزمان، وخاصّة عندما ينبّهه بمثل قوله: « لا تلجّ في السؤال، ولا ترفع صوتك، ولا تحرّك يدك، ولا تشير بعينك، ولا ترفع رأسك عند الكلام... »[٨].

---

(٦) الموسومة بكشف الحقائق ١٣ / ١٣٧.
(٧) تقليد الرضى وسفير القدرة ٢١ / ٢٢٠ ـ ٢١١.
(٨) نفس المرجع، ص ٢١١.

خامساً ــ السَابق ــ أبو الخَير سَلامَة السَامري

هو « الجناح الأيمن، الشيخ المصطفى، نظام المستجيبين، وعزّ الموحدين، روحاني. واسمه جسماني: أبو الخير سلامة بن عبد الوهّاب السامري الداعي »[١].

ليس في مجموعة « رسائل الحكمة » تقليد خاصّ به، كما هو لسائر الحدود؛ لكنّنا نستطيع معرفة القليل عنه في « تقليد المقتنى » رقم ٢٢. وقد يكون عدم ذكره كثيراً لأنّ المهمّة الموكولة إليه سرّيّة: « القوّة للسابق مستورة مكتومة »[٢].

ومع هذا قد يكون قائم الزمان حمزة أرسل إليه تقليداً خاصّاً ثمّ ضاع، أو لا يوجد في مجموعة « الحكمة »، بدليل ما أشار إليه حمزة في « تقليد المقتنى » بقوله له: « ولا يكون أخذك على المستجيبين خارجاً عمّا في تقليد أخيك المصطفى »[٣]. والمصطفى هو السامري نفسه.

للسامري « اثنعشر حجّة لا غير »[٤]. ليس له أيّة رسالة في مجموعة « الحكمة ».

---

(١) ذكر معرفة الإمام ٣٢ / ٢٤١.
(٢) تقليد المقتنى ٢٢ / ٢١٥.
(٣) نفس المرجع، ص ٢١٧.
(٤) الموسومة بكشف الحقائق ١٣ / ١٣٧.

سادساً ـ التَالي ـ بَهَاء الدين المقْتَنَى

هو « الجناح الأيسر، الشيخ المقتنى، بهاء الدين، ولسان المؤمنين، وسند الموحّـدين، الناصح لكافّة الخلق أجمعين، روحاني. واسمه جسماني: أبو الحسن عليّ بن أحمـد الطـائي السموقي الداعي »[١]. المعروف بـ« الضيف »[٢].

بهاء الدين هذا هو بالفعل « لسان المؤمنين وسند الموحّدين » وقد يكون حمزة اختاره لأجل كونه « صاحب القول المبجّل ». لقد كان، بحسب ما ورد في « تقليد المقتنى »، كاتبـاً بليغاً، ينمّق الكلم، ويحكم التأليف. وكان يسرّ حمزة « عند سماع لفظه ومعجز تنميقه، وإحكام تأليفه ». واُعتبر ذلك من أنعام المولى عليه. وعرفه أيضاً « بالذكاء والفطنة شخصاً حليمـاً. فأشرقت زهرة ألفاظه في سماء عقله وفكره وخاطره. وفاح نسيم زهرة عقيدتـه الصـحيحة، فاستحقّ علوّ المنزلة ورفيع الدرجة »[٣].

وبسبب معرفة حمزة به المتأخرة عن معرفة سائر الحدود جعله في آخـر المراتـب. ولكنّه كلّفه بالمهامّ الصعبة، وباكمال الدعوة التوحيدية،

---

(١) ذكر معرفة الإمام ٣٢ / ٢٤١.
(٢) انظر: ٢٢ / ٢١٣ و٢١٤.
(٣) تقليد المقتنى ٢٢ / ٢١٤ ـ ٢١٥.

واعلانها، ووضع رسائل في الحكمة. فالفعل هو، في الحقيقة، له: « والفعل للتـــالي بأفعـــال صحيحة معلومة »[٤]. وقد يكون بهاء الدين، بسبب ذلك، أعظم من كل من شغل مرتبته هـــذه في الأدوار الماضية، فـــ« تالينا يقوم بها (بدعوة التوحيد) أعلى من كل حدّ قام »[٥].

في الأدوار السابقة كان يقوم « النفس » مقام « الإمام » عند غيبته، أمّا في هذا الدور فالكلّ غاب ما عدا « التالي »: « وتخلّف بعدهم مولاي بهاء الدين (أي خلفهم)... وسبب خلفة المقتنى في هذا العصر الأخير لأن ما بعده شرائع ولا بقى إلاّ الجزا والقيامة. وإلاّ الخلفة بعد غيبة الإمام فهي لحجته النفس الكليّة في جميع الأدوار. وهذا العصر الأخير تخلّف (أي خلف) المقتنى سلام الله عليه، وتمّم الدعوة وكمّل هداية الخلائق، وخلّص بقيّة الموحدين مـــن ديـــن التأويل، وتمّم قيام الحجة على جميع الخلق... »[٦].

ولأجل ذلك طلب حمزة من بهاء الدين أن يكتب الميثاق على المستجيبين بـــ« ضـــبط الحلية وإحكام الشهادة »[٧]. وهو أمر هامّ يتعلّق به وحده، ويستطيع بهاء الـــدين ذلـــك لأنـــه يعرف، نظراً لسعة معارفه، أن يبيّن هويّة كل موحّد ويعرّف عليه بما يميّزه بسمات وجهـــه، ويعرف كيف يحكم عليه الشهادة الحقّة.

ووضع حمزة لبهاء الدين جملة موحّدين ليكونوا في خدمته وتحت

---

(٤) تقليد المقتنى ٢٢ / ٢١٥.
(٥) نفس المرجع.
(٦) مختصر البيان في مجرى الزمان، ورقة ٧٦ أ ـ ب.
(٧) تقليد المقتنى ٢٢ / ٢١٧.

أوامره، فكان منهم « حسن بن هبة الرّفّاء، نقيب النقباء، ليكون هو وأصحابه فيما يعرض لك في المدينة (القاهرة) من المهمّات »[٨]. وحسن هذا كان وسيطاً بين حمزة وسفير القدرة محمّد بن وهب القرشي. وعليه الآن أن يكون وسيطاً بين بهاء الدين وحمزة مع أصحابه المبثــوثين في القاهرة. وحسن هذا « تدفع إليه كتبكم. فإنّها واصلة على يده »[٩].

وعيّن حمزة لبهاء الدين « ثلاثة حدود يتمسّكون به، أوّلهم الجَدّ أيّــوب بــن علــي، وثانيهم الفَتْح رفاعة بن عبد الوارث، وثالثهم الخَيَال محسن بن علي »[١٠]. ومعنى « الجَدّ لأنه جَدَّ في طلب العلم من الإمام »، و « الفَتْح لأنه يَفتحُ بابَ العهد والميثــاق على المستجيبين »، و « الخَيال لأنّه يلوّح بعلمه ومكاسرته مثل الخيال، إذ كان التلويح بالكلام بغيــر كشــف ولا تبيــان »[١١]. وأهمّية هؤلاء تأتي من كونهــم، مع الحــدود الخمسة، يؤلّفـــون « شــمعة التوحيد »[١٢]. وهذا ما يشير، مرّة أخرى، إلى أهمّيّة بهاء الدين ودوره الفعّال في الدعوة.

وعَرَفَ إسمعيل التميمي أيضاً أهمّيّةَ بهاء الدين هذه، فاعتبر أن التوحيد لا يقوم فعــلاً إلاّ به وعليه، تماماً كـــ« الطست » أو « الحسكة » الذي يَحمل الشمعة... « إذا اتّفق النـــار (العقل والنفس) والشمع (الكلمة) والقطن (السابق) قال: إنّي استعملت شمعة تبقى منفردة، تريد من يحملها. فإذا لم يكن لها حسكة تحملها بقيت ناقصة

---

(٨) تقليد المقتنى ٢٢ / ٢١٧.
(٩) مكاتبة إلى أهل الكدية البيضاء ٢٣ / ٢١٨.
(١٠) الموسومة برسالة الشمعة ٣٨ / ٢٨١.
(١١) رسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين ١٧ / ١٨٨.
(١٢) الموسومة برسالة الشمعة ٣٨ / ٢٨١.

الآلة[١٣]. فبهاء الدين هو « آلة » التوحيد، حامله ومحرّكه...

هذا ما نعرفه من حمزة التميمي عن بهاء الدين. ولكنّنا نستطيع توضيح صورة المقتنى من الرسائل التي كتبها بنفسه وبعث بها إلى كافّة أنحاء الأرض. وفي معتقد الموحّدين « ما غاب مولاي بهاء الدين حتى قامت الحجّة على جميع الخلق. ولو تأخّر من الخلق شخص واحد لم تبلغه الدعوة لبقي له حجة على الله ورسله... لهذا « بالحجة تقطّعت معاذير الأنام »[١٤].

لقد كتب بهاء الدين أربعة أجزاء على ستة من « رسائل الحكمة »، أي من رسالة ٤١ حتى ١١١ الأخيرة، ما عدا رقم ٤٤ التي يظنّ بأنّها لحمزة. وبلّغ دعوة التوحيد أقاصي الأرض. فكتب إلى الملوك والرؤساء وجميع البلدان، فراسل قسطنطين الثامن امبراطور بيزنطية، وراجبال زعيم الهند، وسادات العرب، واليمن، وجبل السمّاق، ووادي التيم، وحلب، وراسل المسيحيين، واليهود، وأهل السنّة، والشيعة، وأهل التوحيد، والفلاسفة، وردّ على المنجمين، وراسل شيوخ الموحّدين الأطهار، أمثال آل عبد الله، وآل تراب، وآل سليمان. وقلّد شيوخاً كثيرين، وكتب رسائل توبيخ للمرتدّين الخونة... الخ.

لقد وقع عبء الدعوة على أكتافه، بعد غيبة الحدود. وكانت الفترة التي تسلّم فيها مهامّه صعبة جدّاً، هي فترة محنة وبلاء واضطهاد وتشريد وقتل... حتى عجز في النهاية من اكمال الرسالة. فأغلق أبواب

---

(١٣) الموسومة برسالة الشمعة ٣٨ / ٢٧٨.
(١٤) مختصر البيان في مجرى الزمان، ورقة ٧٦ ب ـ ٧٧ أ.

الدعوة فيها إلى الأبد. وكان ذلك سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م. وقد كتب في ذلك رسالته الأخيرة المسمّاة بـ« منشور الغيبة » رقم ١١١ حيث يوصي الموحدين بهذا الكلام: « من وقعت به منكم محنة، وطلب منكم سبّ هذا العبد (أي المقتنى نفسه) فتبرّأوا منه (أي من المقتنى) وسبّوه. وإنْ طلب منكم لعنته فالعنوه. هذا عند الاضرار (أي عند الضرورة). والله العالم بما تظهروه وتكتموه »(١٥).

*****

لكن، لنعد قليلاً إلى الوراء. قلنا إنَّ الدعوة ظهرت سنة ٤٠٨، واستترت سنة ٤٠٩، وعادت سنتي ٤١٠ و٤١١، وفي أواخر هذه السنة غاب الحاكم وسائر الحدود، « وبويع لأبي الحسن علي بالخلافة، ولقّب بالظاهر لاعزاز دين الله(١٦). وما إنْ اعتلى الخليفة الجديد العرش حتى بادر إلى اضطهاد الموحّدين »(١٧). وكان السبب، بنظر الدروز، إنّ « الموحّدين لم يعترفوا بالظاهر إِماماً لهم » فالإِمامة الفاطمية انتهت، حسب معتقدهم، بالحاكم(١٨) الذي سلّمها في الأوّل من محرّم سنة ٤٠٨ هـ إلى حمزة بن علي، وقد لقّبه بإِمام الزمان. إذن، كان الموحدون في نظر الخليفة الظاهر، خارجين عن طاعته لا يعترفون بإِمامته، وبالتالي لا يدينون له بالولاء. لذلك كان لا بدّ له من استئصالهم بالسيف على حدّ تعبيره(١٩).

(١٥) منشور الغيبة ١١١ / ٨٤٢.
(١٦) تاريخ الأنطاكيّ، ص ٢٣٥.
(١٧) تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، ص ٦٦.
(١٨) انظر: سامي مكارم، الحاكم بأمر الله... مقال في « الأبحاث » ج ٢٣.
(١٩) تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، ص ٦٧.

« فلمّا اعتلى الظاهر عرش الخلافة الفاطمية، وكان قد مضى على اختفاء الحاكم نيّف وأربعون يوماً، عدّ كل يمين من الأربعين يميناً، التي قيل إنّه أخذها على نفسهِ بألاّ يصيب الموحّدين بسوء، قبالة يوم واحد، حسب المصادر التوحيدية التي تضيف إن ذلك كان بمشورة أحد أخصام الموحدين وهو صالح بن مرداس والي حلب[٢٠]. وهكذا أخذ الظاهر يسوم الموحدين شتّى أنواع الاضطهاد والتعذيب والتنكيل. وقد هدر دماءهم في مختلف أنحاء مملكته ودامت فترة الاضطهاد هذه نحو ست سنوات ونيّف »[٢١].

لقد استمرّت المحنة إذن من غيبة الحاكم سنة ٤١١ هـ حتى سنة ٤١٧. واستمرّت دعوة التوحيد معلّقة طيلة هذه المدّة، إلى ان تسلّم المقتنى كتاباً من قائم الزمان حمزة يأمره فيه باستئنافها. وقد لبّى المقتنى أمر حمزة وعادت الدعوة إلى سابق عهدها من النشاط[٢٢]. وكانت أوّل رسالة كتبها بهاء الدين « الجزء الأول من السبعة أجزاء »، وفيها يبشّر بقرب الفرج: « والفرج بمشيّته قريب. وقد مضا من المحنة أكثرها، وبقي أيسرها. فابشروا معاشر الإخوان الموحدين، وبشّروا إخوانكم، واحذروا من القنط والضجر، واصبروا، فإنّ العاقبة لمن صبر »[٢٣]. وكان أمل المقتنى بانتهاء المحنة يعتمد على قاعدة درزيّة شهيرة، وهي إن « كل شيء إذا بلغ سبعة انتهى ووجب تغييره وحدوث غيره »[٢٤].

---

(٢٠) انظر يوسف العقيلي، خبايا الجواهر، ص ٧٣٨ ـ ٧٣٩.
(٢١) مختصر البيان في مجرى الزمان، ٧٧ أ، عمدة العارفين ٣ / ١٩٣. وانظر « تاريخ الموحدين الدروز السياسي... »، ص ٦٧.
(٢٢) عمدة العارفين ٣ / ١٠٥، والمرجع السابق، ص ٦٩.
(٢٣) رسالة الوصايا السبع (؟) ٤١ / ٣١٩.
(٢٤) نفس المرجع، ٤١ / ٣١٨.

وهكذا استمرّت رسائل بهاء الدين تتوالى من سنة ٤١٧ حتى ٤٣٥ هـ. وهي تتصف بالشموليّة والعمق ومتانة الأسلوب وغنى المفردات وكثرة الألغاز وصعوبة الرموزات ونفاذ المنطق... قاعدتها تعاليم حمزة، وهي تشرحها وتفسّرها وتغنيها بالصور والأمثال. وتشير إلى معرفة صاحبها بشتى الأديان والعلوم والصناعات. فهو يعرف المسيحية وتقاليدها وتعاليمها وأعيادها، حتى حسبه « دو ساسي » مسيحياً مرتدّاً[٢٥]، ويلمّ بقواعد الطب وأنواع الأدوية والأمراض[٢٦]، ويدرك طرق التجارة وآلات الزراعة وما إليها[٢٧].

ولا يقلّ بهاء الدين عنفاً عن حمزة في نقض جميع الشرائع والأديان، وكشف عوار الأنبياء والرسل وجميع الأوصياء. فهو القائل: « فوحقّ السيّد... لاهتكنّ عوار نواميس الأديان... ولأهدمنّ قواعد النِحَل الشركية البدعية، ولأفسخنّ المقالات المفرّعة للشك والشرك في أصول الأديان بعد الاذان (أي أذن) في ذلك من قائم العصر مسيح الأزمان »[٢٨].

*****

(٢٥) انظر كتاب « دو ساسي »، بالفرنسية، الجزء الأول، ص ٤٨٩.
(٢٦) انظر الرسائل: ٧٩ / ٧٢٦، ٨٧ / ٨٦٢، ١٠١ / ٨٠٠، ١٠٢ / ٨٠٣ ـ ٨٠٧، ١٠٥ / ٨١٥ الخ...
(٢٧) انظر الرسائل: ٩٢ / ٧٧٥ ـ ٧٧٧، ٩٣ / ٧٧٨، ٩٤ / ٧٨٠ ـ ٧٨٤، ٩٥ / ٧٨٥ ـ ٧٨٦، ١٠٠ / ٧٩٦ ـ ٧٩٨، والرسائل الأخيرة.
(٢٨) الموسومة بالمسيحية وأمّ القلائد النسكية... ٥٤ / ٤١٦.

سابعاً ــ خَوَنَةُ الدَعْوَة

رغم يقظة بهاء الدين وحيطته دخل الدعوةَ أناسٌ « لم يكونوا بمستوى الرسالة التي أنيطت بهم. فقد لعبت في بعضهم الاطماع الشخصيّة، كما أنّ بعضهم الآخر لم يتسنّ لهم فهمُ الدعوة على حقيقتها. وقد اضطرّ المقتنى إلى العمل على القضاء على هؤلاء المرتدّين »[١]، كما عبّر عن ألمه وأسفه وكثرة الدموع التي أصابته بسببهم: « فباللهِ، لقد أَلَمَ قلبي ذلك، وفاضت عينايَ بواكفِ الدموع الرّسَّلِ، أَسَفاً على ما بسَاحتِهم من الخرص أجرى إليه، ومن الغلط والتحريف ما لم أطّلع عليه »[٢].

ويبدو أنّ المرتدّين كانوا على بهاء الدين أشدَّ بأساً من سائر أهل الأديان؛ وهو القائل: « ونحن من أهلنا على شفا جرف المصائب والمهالك »[٣]، وقد يكون المسلمون أرحم بالموحدين من هؤلاء الخونة: « فالنواصب (أهل السنّة) بنا ألطفُ وأرحم، والمؤمنون لنا منهم أغشٌّ وأظلم. ونحن بين أهل الخِلاف (المسلمين) آمنون مطمئنّون، وبين المدّعين الإيمان وَجِلون خائِفون »[٤].

---

(١) تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، ص ٦٩.
(٢) منشور إلى المحل الأزهر الشريف ١٠٦ / ٨٢٠.
(٣) الرسالة الواصلة إلى الجبل الأنور ١٠٩ / ٨٣٣.
(٤) مكاتبة الشيخ أبي المعالي ١١٠ / ٨٣٨.

هؤلاء المرتدّون هم أوّل الخاسرين بين أهل الأديان. قال عنهم حمزة: « ولا يظنّ أحد ممّن ارتدّ من دين مولانا جلّ ذكره بأنّ رجوعه عن الدين ينجّيه من الظاهر، ولا هروبه يخلّصه من أولاد العواهر »[٥]. بل هم يخسرون انتماءهم إلى أيّ دين، ويخسرون الجنّة وسعادتها: « والذين ارتدّوا من دين مولانا جلّ ذكره، وشكّوا فيه، وكرهوا أفعاله، فهم المرتدّون، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ليس مع المسلمين، ولا النصارى، ولا اليهود، ولا مع الموحّدين العابدين الموجود. خسروا الظاهر والباطن، ولم يبلغوا إلى علم ما هو كائن. ليس لهم في السماء إله، ولا في الأرض لهم إمام. ذلك هو الخسران المبين »[٦].

وإذا كان « غيار النواصب[٧] عِلاّقتان من الرصاص في أُذُنَي كل واحد منهم، وزنُهما عشرون درهماً...وجاليتُه[٨] ديناران ونصف... »، وإذا كان « غيار أهل التأويل[٩]... علاّقتين من الحديد في أذُنَيّ كل واحد منهم، وزنهما ثلاثون درهماً... وجاليته ثلاثة دنانير ونصف... »، فـ« يكون غيار المرتدّين علاّقتين من الزجاج الأسود في أُذُنَي كل واحد منهم، وزنهُما أربعون درهماً... وجاليته خمسة دنانير في كل سنة. وهم المنافقون »[١٠].

---

(٥) الغاية والنصيحة ١٠ / ٨٧.
(٦) الغاية والنصيحة ١٠ / ٩١.
(٧) النواصب هم أهل السنّة، أي اليهود « يهود هذه الأمّة » (٤٣ / ٣٣١) و « اليهود هم المخالفون أهل الظاهر » (١٨ / ٢٠١).
(٨) الجالية هي الجزية التي يدفعها أهل الأديان للموحّدين...
(٩) أهل التأويل هم « النصارى أهل الباطن الواقفون مع اللعين ». (١٨ / ٢٠١).
(١٠) رسالة البلاغ والنهاية ٩ / ٨١، الرضى والتسليم ١٦ / ١٨٢ ـ ١٨٣.

وكان أخطر المرتدّين في وقت حمزة بن عليّ، وقد مرّ الكلام علـيهم، محمّـد بـن إسمعيل الدرزي الملقّب بنشتكين، الملقّب « بحرامي النهار »[١١] لأنّه حاول أخذ الإمامة مـن قائم الزمان في أيّامه، والدروز له لاعنون ومنه متبرّئون[١٢].

ويأتي بعده أبو منصور البرذعي الملقّب بـ« فرعون »، لأن « فرعون كان داعـي وقته، فلمّا أبطأ الناطق (موسى) قال: « أنّا ربّكم الأعلى »، يعني إمامكم الأعظم »[١٣]. وهو الذي حذّر منه حمزة بقوله: لم يزل أمر الدعوة جارياً حتى « احتال رجل منافق، واتّصل على يد الداعي، وعرف جميع الحدود وعلومهم، ثم رجع إلى نفاقه وكفره، وتبيّن للمستجيبين زيفه ومكره. فرفع العقل (حمزة) علمه إليه (أي عنه) وستره عن جميع المنافقين عليه (أي علـى حمزة) »[١٤].

أمّا عبد الرحيم بن الياس، الذي عيّنه الحاكم وليّاً للعهد، فقد « ظهرت أفعالـه وبـان للناس قبحُ باطله ومحاله »[١٥]، وانقلب على الحاكم، وأصبح « من ألدّ أعداء الموحّدين. وقـد قُتل وسُبي وأُحرق من الموحدين عددٌ كبير »[١٦]. وادّعى أنّه « ابن عمّ أمير المـؤمنين »[١٧] أو أخوه[١٨]، وهو

---

(١١) عجاج نويهض، الأمير السيّد التنوخي، ص د.
(١٢) انظر الرسائل التالية: ١٠ / ٩٣، ١٦ / ١٨٢، ٩ / ٧٥، ٤١ / ٣١١، ١٩ / ٢٠٣، انظر صفحة ١٧٠ وما يليها من هذا البحث.
(١٣) الغاية والنصيحة ١٠ / ٩٣.
(١٤) الموسومة بكشف الحقائق ١٣ / ١٣٩؛ انظر عن البرذعي: ١٦ / ١٨١، ١٩ / ٢٠٣ الخ...
(١٥) رسالة الغيبة ٣٥ / ٢٥٧.
(١٦) تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، ص ٦٢ ـ ٦٣.
(١٧) رسالة إلى ولي العهد... ٢٦ / ٢٢٣.
(١٨) رسالة إلى خمار بن جيش السليماني... ٢٧ / ٢٢٥.

في الحقيقة « ابليس الابلاس، ومعدن الشرك والوسواس، النّغل اللعين، والمسيح الحزين »[١٩]، وهو « ابليس المتشبّه بالمولى سبحانه، ويزعم أنّه جنس، ويدّعي عهد المسلمين »[٢٠]، وهو من جملة تقمّصات ابليس: فهو نفس « أبي يزيد الذي حارب جيش مولانا القائم، وهو سعيد المهدي، لعنه الله، وهو أبرهة الأشرم صاحب يوم الفيل ضد سيّدنا عين الزمان، وهو حارث بن ترمّاح الاصبهاني الذي خرج من العقل بغير مراده، وهو ابليس لعنه الله في كل كتاب. وهو أخيراً « وليّ عهد المسلمين كبيرهم وإِمامهم الأعظم (أي كبير الخونة وإِمامهم) لأنّه بمنزلة الناطق محمّد بن عبد الله »[٢١].

ويجمل بنا ذكر سائر الخونة المرتدّين الذين عملوا في تهديم دعوة التوحيد منذ اعلانها والكشف عنها. فكان منهم « عبّاس بن شعيب ولي عهد المؤمنين »[٢٢]، وختكين الداعي[٢٣]، وجعفر الضرير[٢٤]، وأحمد بن العوام قاضي القضاة[٢٥]. هؤلاء الخمسة، مع عبد الرحيم بن الياس هم « أشباح بلا أرواح. وهم كلّهم جاحدون لقدرته (قدرة الحاكم) كافرون بنعمته، مشركون بعبادته، جاهلون بأصول الدين »[٢٦]، وهم موجودون في أيّامنا « لإقامة دعوة التلحيد »[٢٧].

---

(١٩) رسالة إلى خمّار بن جيش السليماني العكاوي ٢٧ / ٢٢٥.
(٢٠) الغاية والنصيحة ١٠ / ٩٢.
(٢١) رسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين ١٧ / ١٩١، انظر أيضاً رسالتي ٢٦ و٢٧ بكاملها، و٣٥ / ٢٥٧، ٤٤ / ٣٤٢ الخ...
(٢٢) انظر رسالة ١٧ / ١٨٩ ـ ١٩١.
(٢٣) انظر رسالة ٩ / ٧٩ و١٧ / ١٩٠.
(٢٤) انظر رسالة ١٧ / ١٩٠.
(٢٥) انظر رسالة ٩ / ٧٩، ١٠ / ٩٤، ١٦ / ١٧٩.
(٢٦) رسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين ١٧ / ١٩٠.
(٢٧) نفس المرجع ١٧ / ١٩١.

أمّا في أيّام بهـــاء الدين المقتنى فكان عـــدد المرتدّين كبيراً. وقـــد كتب لكل منهـــــم « التوبيخ » تلو « التوبيخ »، ونعتهم بشرّ الأوصاف وأقبحها. واعتمد بهاء الـــدين، فـــي ردّه على هؤلاء الخونة، قاعدةً ذهبيّة، يحسن بنا ذكرها واعتمادُها. يقول: « مَن سَتَر على صَاحب بِدْعَةٍ بدِعَتَه فقد خَان قائمَ الحقِّ في دَعوتِهِ »(٢٨). ويَنقلُ عن حجّة الحقّ قولَه أيضاً: « مَن باتَ مع صاحب بدعةٍ ليلةً واحدةً فقد ثَلَمَ من الدينِ ثَلْمَةً وَهَدَمَ منهُ قاعدَةً »(٢٩).

وكان أوّل أصحاب البدعة « ابن البربريّة الذي أقام في سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م في سبسطاس(٣٠) دعوة نجح فيها باكتساب بعض الأتباع، ممّا اضطرّ المقتنى بهـــاء الـــدين إلـــى الذهاب إلى الاسكندريّة حيث وجّه رسالة(٣١) يشهر بها هذا المرتدّ عن الدعوة. ويبدو أن هـــذه الرسالة كفته مؤونة اكماله الطريق إلى سبسطاس »(٣٢).

يصف بهاء الدين ابن البربريّة بهذه الألفاظ: إنّه « المعتوه الشيطان... النجس... النّغل الشيطان ابن البربريّة... أوّل من ادّعى في دور الكشف منزلة وليّ الأمر... المعتوه الخائـــب الخيّاب وهو بالحقيقة المسيح الكذّاب... الملعون الفاسق الدهّاش... المارق البهّات... »(٣٣).

---

(٢٨) توبيخ ابن البربرية. الرسالة الموسومة بالدامغة للفاسق النّجس، الفاضحة لاتباعه أهل الردّة والبلس، ٧٦/ ٦٨٩.
(٢٩) نفس المرجع.
(٣٠) تقع سبسطاس في مديرية الغربية في مصر، راجع إدراة التعداد في مصر، قاموس جغرافي للقطر المصري (بولاق ١٨٨٩، ص ٣٣).
(٣١) تاريخ الموحدين الدروز السياسي يعيّن رقم الرسالة بأعجوبة، ص ٦٩.
(٣٢) نفس المرجع، ص ٦٩.
(٣٣) تمسخ ابن البربرية ٧٦ / ٦٨٧ ـ ٦٩٦.

لابن البربريّة قصّة مشينة يرويها لنا بهاء الدين بقوله: « وسيّده ابن أبي خمار، ينزوه (يلوط به)، وأيّوب أيضاً يعلو أمّه مريم العدوية (أي يزني بها) ويعلوه (أي يلوط به أيضاً)[٣٤]. ويورد « كتاب الدرر... » نفس القصّة بقوله: « وقصّته أن رجلاً اسمه خمار استرقّه وكان يلوط به ويزني بأمّه، وكان يأجر نفسه بفعل الفاحشة، وعاد ادّعى منزلة الإمام، ونصب له حدوداً، وهو آخر الأشقياء المدّعين في الدنيا بعد الدّجّال (النبي محمّد) وأوّل الفراعنة الهالكين في القيامة »[٣٥]. ويعتبره الدروز عامة أنّه « حرامي الليل »[٣٦] لأنّه ادّعى الإمامة بعد غيبة الإمام حمزة.

أمّا « لاحق بن الشرف العبّاسي » فقد كان من ريحا قرب حلب. وكان أوّلاً داعياً في دعوة التوحيد، وأرسل إليه بهاء الدين بـ« تقليد » لقّبه فيه « الشيخ المختار، ربّي الحقائق، والنجم السيّار، الحميد الطرائق، أبي الفوارس الأمير (كنيته) ابن الشرف لاحق »[٣٧]، وسمّاه بـ« الشيخ الدّيّن الفاضل »[٣٨] الذي « أهّلْتُكَ لسيادة الدعوة الهادية والكلمة العالية... فتولَّ ما أوليتُك من سيادة الدعوة الهادية المهدية بعزم »[٣٩].

ولكنّ لاحقَ، على ما يبدو، كان قد تظاهر بالديانة والوفاء والكمال، إلى أن أشرقت على بهاء الدين أعمالُه القبيحة[٤٠] فراح يدّعي

---

(٣٤) نفس المرجع ٧٦ / ٦٩٥.
(٣٥) كتاب الدرر المضيّة واللمع النورانية... لفظة « بربريّة ».
(٣٦) عجاج نويهض، الأمير السيد التنوخي، ص د.
(٣٧) رسالة تقليد لاحق ٤٥ / ٣٤٥.
(٣٨) نفس المرجع.
(٣٩) نفس المرجع، ص ٣٤٦.
(٤٠) كتاب الدرر المضيّة... باب « ق » فصل « ل ».

الألوهيّة، وأنّ روح الله حلّت فيه، ويعلّم الإباحة[٤١]. ويصفه المقتنى بـ« الطليق الخائب الناكث العاقّ، العاجز عن حميد الطاعة إلى العصيان والاباق، المخترص بالكذب والخلاف والشقاق، والسالك لسبيل أهل النكث والبلس والنفاق »[٤٢]، ومثله « كمثل الأعجف الحمار المكدود في الدولاب لسقي الثمار، أو كالبغل المستخدم في الرّحى... »[٤٣].

لقد كان سهلاً على بهاء الدين ترويض هذا « البغل » « إذ لم يكن لهذا الداعي دارُ هجرة يُقيم فيها، إذ كان ينتقل بحكم وظيفته في مراكز الدعوة المختلفة، فلم يكن بالصعب على المقتنى عزله، بخلاف ما حدث للداعي الآخر سُكَيْن الذي كان قد قلّده المقتنى أمورَ الدعوة في جزيرة الشام العليا منذ سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م[٤٤]. وقد بقي سُكَين في مركزه ذاك إلى سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ ــ ١٠٣٥ م حين ظهر على حقيقته، بعد أن كان قد جمع حوله كثيراً من الاتباع فقويت شوكتُه وتعاظم شأنه لبعده في وادي التيم عن مركز الدعوة في مصر »[٤٥].

سُكَين هذا، اسمه مسعود، ولقبُه ابنُ الكردي، وأصلُه من بلاد حلب. جاء مصر بعد لاحق، ودخل في الدعوة، وكتب الميثاق، ثم أتى إلى وادي التيم، واتّخذ له مغارةً في جبل تَنّورة، وَجَدَّ في العلم والعملِ حتى برز على أقرانِه، وساد على كثير من أهل زمانِه، وصبر على محنةِ الدجّال (الخليفة الظاهر). فلمّا بلغتِ المقتنى أخبارُه قلّدَه واختارَه،

(٤١) توبيخ ٧٦ / ٧٠٠ ـ ٧٠١.
(٤٢) نفس المرجع ٧٦ / ٦٩٧...
(٤٣) نفس المرجع ٧٦ / ٧٠٢.
(٤٤) تقليد سكين ٤٦ / ٣٤٩ ـ ٣٥٣.
(٤٥) تاريخ الموحدين الدروز السياسي... ص ٧٠.

وسمّاه « الشيخ المرتضى، عصمة المؤمنين، وصفوة الموحدين... الشيخ الخيّر الفاضل والدّيّن الراجح الكامل »[٤٦].. وأثنى عليه فقام في الدعوة نحو سبع سنين. ولم يزل كذلك إلى أن ظهر ما كان مكمناً في سريرته وَغَلَبت عليه الضدّيّة وغيّر ما في نفسه فغيّر الله به وبأبناء جنسه »[٤٧].

كتب إليه بهاء الدين رسالتين شديدتي اللهجة: الأولى اسمها « الرسالة الموسومة بالقاصعة للفرعون الدّعيّ، الفاضحة لعقيدة الكذّاب المعتوه الشقيّ »؛ يصفه فيها بالكذّاب النَّجِس الموجِب البلس والنفاق، والخائب الذي أحاد الموحّدين عن الحق وسقاهم نَهلاً من السمّ الزعاق، وأهلك الجزيرة، وأهبّ فيها أرباحَ الخَبالِ والفسادِ والإشراكِ والنِفاق... وسبّ الإمام، وحرّف كتب الحكمة... »[٤٨].

والثانية اسمها « توبيخ الخائب العاجز سُكَين »، كتبها بهاء الدين بعد أن استدعاه إليه في الاسكندرية في محاولة لإقناعه، ولكنّ سكيناً « وهو عندنا في الموضع (الاسكندرية) أخذ يفعل أفعال الشياطين، ويحتال علينا »[٤٩]، وكان يفرّ من موضع إلى موضع يعلّم تعاليم فاسدة. فاضطر المقتنى إلى إرسال « الداعي أبو اليقظان عمّار إلى وادي التيم لإقناع شرذمة سكين، وأصحبه برسالة منه إليهم يُعلِمُهم فيها بعزلِه سُكَيناً فلمّا وصل الداعي عمّار إلى وادي التيم توجّه إلى قرية كوكبا[٥٠]، مركز هؤلاء المرتدّين »... فوثبوا عليه وضربوه وقتلوه خارج بلدتهم وأخفوا جثّته

---

(٤٦) تقليد سكين ٤٦ / ٣٤٩ ـ ٣٥٣.
(٤٧) كتاب الدرر المضيّة واللمع النورانيّة... باب « ن » فصل « س ».
(٤٨) الرسالة رقم ٦٤ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٩.
(٤٩) الرسالة رقم ٧٨ / ٧٠٥ ـ ٧١٩.
(٥٠) عمدة العارفين للاشرفاني، ج ٣ ص ١٦٢.

تحت رجمة من الحجارة...[٥١]. بيد أن بهاء الدين عاد فأرسل السيّدة سارة ابنة أخيه، وقيل ابنة أخته[٥٢]. ولكنّ سُكَيناً كان قد رجع إلى وادي التيم، وراح، بمعاونة « مصعب التيمي »، يجمع حوله المرتدّين والمارقين، ويوشي لدى الخليفة الظاهر على المقتنى وأتباعه الموحّدين، فاضطر المقتنى إلى الهرب وستر الدعوة من جديد. يقول: « وأنا العبد الضعيف معذور لغلبة الشياطين في السياحة والهرب إلى وليّ الزمان والاستغاثة إليه »[٥٣].

وقد نعجز عن تعداد أسماء الخونة المرتدّين الذين حاربوا بهاء الدين ودعوة التوحيد على كل صعيد. وما كان للموحدين نصيب سوى التشريد والقتل والاضطهاد المرير. وإذا ما اضطرّ المقتنى إلى كتابة رسالة أو إرسال مبعوث إلى مكان ما فبحذر وحيطة واختصار ورموز، وهو القائل « ويجب الاقتصار بعد هذا في المكاتبة »[٥٤]، و « ما تمكن المكاتبة بأكثر من هذا »[٥٥].

*****

بقي لبهاء الدين المقتنى علينا حقّ: إنّه شخصيّة عالميّة أخفاها الموحّدون على غير حقّ. رجل عظيم استطاع أن ينفذ في ظروف قاسية كلّها كانت تعاكسه. ولعلّنا في الكشف عنه والحثّ إليه لن يكون لنا معاكس.

---

(٥١) تاريخ الموحدين الدروز السياسي في الشرق العربي، ص ٧٠ ـ ٧١.
(٥٢) عمدة العارفي، للأشرفاني، ج ٣ ص ١٤٩، ١٥٣.
(٥٣) الرسالة الموسومة بتمييز الموحدين ٦٦ / ٥٢٣.
(٥٤) مكاتبة رمز إلى الشيخ أبي المعالي ١٠٥ / ٨١٧.
(٥٥) مكاتبة رمز إلى آل تراب ١٠٨ / ٨٣١.

الفصل السادس

الدرزيَّة والإسلام

أوّلاً ـــ عرض الموضوع

ثانياً ـــ بطلان الأنبياء والأديان والشرائع عامّة

ثالثاً ـــ بطلان شريعتي الإسلام: الظاهر والباطن

رابعاً ـــ بطلان محمّد وشريعة الظاهر

خامساً ـــ بطلان عليّ وشريعة الباطن

سادساً ـــ نقض دعائم الإسلام جملة

سابعاً ـــ مصير مكّة وبيت الكعبة

ثامناً ـــ العرب « كثر فيهم الغدر » والخيانة

تاسعاً ـــ موقف دروز اليوم من الإسلام

أوّلاً ــ عَرضُ المَوْضوع

في مُعتَقدِ المسلمين « إنَّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلام »[١]، « ومَنْ يبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يُقبلَ منه »[٢]، و « مَن يُردِ اللهُ أن يُهديَه يَشرح صدرَه للإسلام »[٣]، و « هو على نورٍ من ربّه »[٤]. والإسلام، هو الدينُ التامّ الكامل الذي ارتضاه الله لعبادِه الصالحين: « وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً »[٥]. وهو نعمة من الله يُشكَر عليها بامتنان: « لا تَمنّوا عليّ إسلامَكم، بل اللهُ يمنّ عليكم »[٦]. فالإسلام إذن هو دين الله، ولا دين سواه يُقبلُ عنده. إنّه تمامُ الأديان جميعها، وكمالُ الشرائع، ونهايةُ الوحي، وخاتمُ النبوّات.

لأجل ذلك، إذا أرادتِ الدرزيّةُ أن تُقابلَ بالتسامحِ وتفوزَ بقَبولِ المسلمين ورضاهم، عليها أن تَنسجِمَ مع الإسلام، وتنتسبَ إليه، وتأخذَ بفرائضه، وتُقيمَ دعائمه، وتُعلَّم تعاليمَه، وتُجاهدَ في سبيله...

---

(١) سورة آل عمران ٣ / ١٩.
(٢) سورة آل عمران ٣ / ٨٥.
(٣) سورة الأنعام ٦ / ١٢٥.
(٤) سورة الزّمر ٣٩ / ٢٢.
(٥) سورة المائدة ٥ / ٣.
(٦) سورة الحجرات ٤٩ / ١٧.

إلاّ أنّ الأمر لم يكن كذلك، بل كان عكس ذلك. والدرزيّة في الحقيقة هي غير ما تعلنه في الظاهر. يريد الدروز مع المسلمين وفاقاً، ولكنّ ما يريدون لن يمحي ما في « رسائل الحكمة » من طعن وسبّ وشتم بالإسلام والمسلمين. لقد حاول الدروز مراراً وتكراراً، ويحاولون باستمرار ردّ تهمة مروقهم عن الإسلام، ولكنّ مروقهم كان أقوى من ردّ التهم.

حاول « الأمير السيّد » تصدير الحكمة بسجلاّت حاكميّة أربعة، تبرّر انتماء الدرزيّة إلى الإسلام[٧]، ولكنّها جاءت على هامش الحكمة، لا تفيد حتى في ردّ تهمة. هذه السجلاّت ركّزت موضوعَها على اعتبار الحاكم مسلماً « بنى الجوامع وشيّدها، وعمّر المساجد وزخرَفها، وأقامَ الصلاة في أوقاتها، والزكاة في حقّها وواجباتها، وأقام الحجّ والجهاد، وعمّر بيت الله الحرام، وأقام دعائم الإسلام، وفتّح بيوت أمواله، وأنفق في سبيله »[٨]. وجعلت الحاكم يصرّح في فضل الإسلام والمسلمين، ويقول: « إنّ أحسنَ الأمور عائدة إلى الإسلام والمسلمين »[٩]...

والمعلوم عند الدروز أن « السجل هو الكتابُ المُبَاحُ المُطْلَقُ المَبذولُ لكلِّ أحدٍ... لأنّ المُقامَ أباحَه لمن يأخذُ منه. وكانتْ هذه

(٧) هذه السجلات هي: « نسخة السجل الذي وجد معلّقاً على المشاهد في غيبة مولانا الإمام الحاكم » ١ / ٢٧ ـ ٣٤، تاريخه « في شهر ذي القعدة سنة ٤١١ »، و « هذا غلط ـ كما يقول مخطوط مختصر البيان، ورقة ٧٤ ب. لأن السجل المعلّق ليس هو من نصوصات الكشف، لأنه وجد معلّقاً في غيبة المقام في السنة السابعة قبل التجريد ». « السجل المنهي فيه عن الخمر » ٢ / ٣٥ ـ ٣٦، تاريخه سنة ٤٠٠. « خبر اليهود والنصارى » ٣ / ٣٧ ـ ٤٥. بدون تاريخ. نُسخة ما كتبه القرمطي إلى مولانا الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين عند وصوله إلى مصر « وجواب الحاكم » ٤ / ٤٦.

(٨) نسخة السجل المعلّق ١ / ٣٠.

(٩) السجل المنهي فيه عن الخمر ٢ / ٣٥.

الموعظة (في السجل المعلّق) مباحة لعمومِ أهل الدعوة من المسلمين، بقوله: ولا يُمْنَعُ أحدٌ من نَسخِها وقِراءَتِهَا... »[١٠].

ولكن غير هذه السجلات الأربعة مائة وسبع رسائل جميعها محظور غير مباح إعلانه. وعلَيه معتمدنا في اكتشاف حقيقة الدرزيّة وموقفها من الإسلام والمسلمين. ونترك، إلى خاتمة الفصل، معالجتنا لموقف الكتّاب الدروز المعاصرين الذين يحيلوننا باستمرار إلى هذه السجلات، دون سائر الرسائل.

أمّا الآن فنريد قولاً لم يُقَلْ بعده، لأنّه قولٌ خطيرٌ جدّاً، يذكّرنا بموقفِ شاوول الطرسوسي من ناموس موسى. يقول الطرسوسي « إن لا سلطةَ للناموسِ على الإنسان »[١١]، وإن البشرَ جميعَهم، بمجيء المسيح، ماتوا عن الناموس، وإن الأهواءَ الأثيمة تعملُ فيهم متذرّعةً بالناموس، وإن الخطيئةَ لم تُعرَفْ إلاّ بالناموس، بل إنّها اتّخذتْ منه سبيلاً لِتُميتَهم. لذلك فالعاملون بأحكام الناموس هم ملعونون جميعُهم، لأنّ الناموسَ لا يَبَرُّ أحداً عند الله، فذاك أمر واضح[١٢]. ووُجِدَ الناموسُ بسبب المعاصي، وحاشا له أن يُحييَ أو أن يكونَ بوسعِه تبريرَ الإنسان.

ولمّا جاء المسيح حرّرَ الإنسانَ من الناموس[١٣]، وافتداه من لعنته. لقد كان الناموسُ كالمؤدِّبِ الذي يزولُ دورُه عندما يَعي الربيبُ حرّيّته. لهذا جاء المسيح مولوداً في حكم الناموسِ ليفتديَ الذينَ هم في

(١٠) كتاب الدرر المضيّة... باب « ل » فصل « س »، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧.
(١١) الرسالة إلى الرومانيين ٧ / ١ و٤ و٦ و٧ الخ.
(١٢) الرسالة إلى الغلاطيين ٣ / ١٠ الخ.
(١٣) الرسالة إلى الرومانيين ٨ / ٢.

حكم الناموس. لقد حرّر المسيحُ البشرَ ليكونوا أحراراً، وعليهم أن لا يعودوا إلى نيرِ العبودية، أي إلى التمسّك بأحكامِ الناموس[١٤]. والذينَ يلتمسون البرَّ من الناموسِ قد انقطعوا عن المسيحِ وسَقطوا عن النعمة. لقد صَلَب المسيحُ معه الناموسَ، كما صلبَ الخطيئةَ والموتَ وابليسَ[١٥].

لكأنّك، وأنت تقرأ رسائل شاوول الطرسوسي، تحسب نفسك مع قائم الزمان حمزة بن علي أو مع بهاء الدين المقتنى. هذان كذاك لم يتمكّنا من كشف دعوة التوحيد إلاّ بعد تنظيف قلوب البشر من الناموس، بل من جميع النواميس. ولن يكونَ الإنسانُ موحِّداً صادِقاً إلاّ بعد إعلان براءَته « مِن جميعِ المذاهبِ والمقالاتِ والأديانِ والاعتقاداتِ كلِّها على أصنافِ اختلافاتها »[١٦]، فـ« أوّلُ الدعوةِ التبرّي من زُخْرُفِ النواميسِ »[١٧]، و « من الأبالسةِ (الأنبياء) أصحابِ الزخرفِ والناموس. وليسَ للعالَمِ نجاةٌ إلاّ بالبراء منهم »[١٨]، ذلك لأنّ « النطقاءَ (أي الأنبياء) والأسسَ (أي الأوصياء) طَمَسُوا معالِمَ التوحيد، وخانوا في تأديةِ أمانتِه، فضاقتْ مسالِكُه، والتبستْ على الناس معالِمُه »[١٩].

بسبب ذلك يجدر بنا التوقّفُ عند رأي الحكمةِ في الأنبياء والشرائع عامّة، وفي النبي محمّد وعليّ بنوع خاصّ. فللحكمةِ في ذلك مواقفُ جريئة...

---

(١٤) الرسالة إلى الغلاطيين ٥ / ١ و٤ وما يلي.
(١٥) الرسالة إلى الغلاطيين ٢ / ١٩.
(١٦) ميثاق وليّ الزمان ٥ / ٤٧.
(١٧) رسالة التنزيه ١٧ / ١٩٣.
(١٨) كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا... ١١ / ١٠٧.
(١٩) تفسير رسالة كشف الحقائق للأمير السيّد، ص ٢٤٥.

ثانياً ــ بُطلانُ الأنبياء والأديان والشَرائع عَامَّة

للتوحيد غايتان متكاملتان: الواحدةُ سلبيّة والأخرى إيجابيّة. أمّا السلبيةُ فهي، كما ورد في « ميثاق وليِّ الزمان »، البراءَة « من جميعِ المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلّها على أصناف اختلافاتها ». وجاء في شرح هذه الكلمات الأربع أنّها « جَمعتْ جميعَ الشـرائع الناموسيّة والمقالات الشركية والاعتقادات الكفرية. وليس هي مخصوصة بالشرائع الظاهرة بل شاملة لمذاهبِ الأُسُسِ وعبادةِ الأوثان والأصنام... ولكل عقيدةٍ خارجةٍ عن مذهب التوحيـد، لأن هذه الأربعةَ المذكورةَ لم يَخرجْ عنها أبداً مذهبٌ فاسِدٌ ولا عقيدةٌ واهيـةٌ ولا أصـلٌ ولا فرعٌ... فلأجل ذلك صدَّر صاحبُ الحقّ صلّى الله عليه... وجعلَ فريضةَ التبرّى قبلَ فريضةِ الطاعة والعبادة للحاكم تعالى، لأنّ كلَ وَعاء مليءٍ من شيءٍ لم يَسَعْ معه غيرَه حتى يَتفـرّغَ منه... وكل مَن لا يَنصرفُ عن سائر الأديانِ ويُدبِرُ عنها بالكليّة بعقلِهِ ونفسِه وفكرِه وحسِّـه انصرافاً كاملاً وادبَاراً تامّاً لم يقدرْ على الاقبال بالكليّة على عبادة الحاكم سبحانه... »[١].

ومتى تبرّأ الموحّد من هذه المذاهب « يصح له الوصول إلى التوحيد. وكانت الشرائع جميعُها والعقائدُ بأسرها في دور السَترِ تُشيرُ إلى كشف

---

(١) انظر مخطوط رقم ١٤٣٦ في المكتبة الوطنية بباريس، وهو في عنوان: « ميثاق يعني حجّة ورباط على الخلق »، يفسر « ميثاق ولي الزمان، ٢٢ أ...

التوحيد... فكانت المذاهب للتوحيد في دور الستر كالصَدَفِ للجوهر، وكالقشر للّب، وكالسنبلة للحبّ. فكان العمل بالمذاهب في ذلك الوقت مقبولاً لأجل التوحيد الكامِنِ فيها، لا لأجل نفسِها. فلمّا جاء أوانُ كشفه ظهرَ الإمام المنتظَر قائمُ الحق المؤيَدُ من ربّ العالَمين الذي هو صاحبه، وأظهره من صَدَفِهِ وأخرجَه من سُنْبُلِهِ... واستغنَى بنفسه عن كل المذاهب التي كانت أوعيةً له كاستغناءِ الحبّةِ عن السنبلةِ لأنّ الحَبّةَ تحتاجُ إلى السنبلة في زمانِ نشوئها... »[٢].

فدعوة التوحيد، إذن، هي « آخِرِ الدعوات، وحدودُها آخر الدعاة، وهي ناسِخَةٌ لجميعِ المذاهبِ والانتحالاتِ... »[٣].

ومِن هذا المنطلق يجدرُ التوقّفُ على معتَقد الدروز في جميع الأنبياء والأوصياء والأديان والشرائع بوجه عامّ. ثم ننتقل إلى نظرتهم في محمّد وعلي وشريعتيهما الظاهر والباطن بوجه خاصّ.

١ً ــ بطلان الأنبياء والأوصياء:

هؤلاء « هم معادِنُ النواميس الفانيةِ الحَشْوِيَّةِ والأعمالِ الفاحشةِ الدَنِيَّة »[٤]. هم « أهلُ الزخاريف الحشوية »[٥]، بل هم حَمِير ودَوَابّ « الدوابُّ هم النطقاءُ والأُسُس »[٦]، و« الحَمِيرُ دليلٌ على النطقاء »[٧]...

---

(٢) نفس المرجع ٢٢ أ ـ ٢٧ أ.
(٣) الرسالة الموسومة بأحد وسبعين سؤال... ٧٣ / ٦٤٠.
(٤) كتاب فيه حقائق ما يظهر... ١١ / ١٠٢.
(٥) السيرة المستقيمة ١٢ / ١١٢.
(٦) كتاب فيه حقائق ما يظهر... ١١ / ١٠٣.
(٧) نفس المرجع، ١١ / ٩٩.

وجميعهم من آدم إلى محمّد بن إسمعيل، مروراً بنوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمّد بن عبد الله، وجميع الأسس من هابيل إلى ابن القدّاح، مروراً بسام وإسمعيل بن ابراهيم ويشوع بن نون وشمعون الصفا وعلي بن أبي طالب... لم يَقُمْ بينَهم نبيٌّ أو وصيّ يَدعو دعوةَ التوحيد الحقيقية. كلّهم مُقصِّرون ومُشرِكون ومُلحِدون وكافِرون، و « كلّهم شيءٌ واحدٌ في القول والعَوَرِ مختلِفون في الصُوَرِ »[٨]، و« كلّهم يشيرون إلى توحيدِ العَدَم »[٩]، لأنَ جميعَهم « النطقاء (الأنبياء) والأسس (الأوصياء) طمسوا معالم التوحيد، وخانوا في تأدية أمانته »[١٠]، ولأنّ نفسَهم « جميعهم من نوح إلى محمّد بن إسمعيل هو نفس واحدة وهو ابليس اللعين »[١١].

أمّا نوح بن لَمْك فكان « أوّل مَن قام بشريعةٍ ونهى عن طاعةِ آدم، وأشار إلى العدم وإلى نفسِه »[١٢].

« ثم قامَ ابراهيم وأساسُه إسمعيل، يدعونَ الناسَ إلى عبادة العدم وتوحيدِ الصنم »[١٣].

« ثم قام موسى بن عمران وأساسُه هارون، يدعون إلى عبادة من لا يُشَاهد وتوحيدِ مَن لا يُعرف »[١٤].

« ثمّ قام عيسى بن يوسف وأساسُه شمعون الصفا، يدعون الناس إلى عبادةِ العدم وتوحيدِه »[١٥].

« ثم محمّد وأساسه علي بن أبي طالب، وقد « ظَهر محمّد بن

---

(٨) السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٢.
(٩) كتاب فيه تقسيم العلوم... ٣٦ / ٢٦٣.
(١٠) تفسير رسالة كشف الحقائق للأمير السيّد، ص ٢٤٥.
(١١) نفس المرجع، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥.
(١٢) رسالة السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٠، وكتاب تقسيم العلوم ٣٦ / ٢٦٣.
(١٣) نفس المراجع.
(١٤) نفس المراجع.
(١٥) نفس المراجع.

عبد الله بسَيفِه، وقام على العالمين بعُنْفِه، ونسَخَ جميعَ الشرائع كافّةً بشريعته، وهدم بنيانَهم ببنيتِه، وبدّلَ دَعَواتِهم بدعوتِه... وبذل فيهم السيفَ وسبَى ذَرارِيهم وأولادَهم، وأباعَهم في الأسواقِ والشوارعِ ولمْ ينفعْهم ما كانوا عليه من دِين آبائهم وأجدادِهم »[١٦].

« وظهر ناطِقٌ غيرُه وهو محمّد بن إسمعيل الذي ختَم الشرائع وأتمّها. أي لا يكون بعدَها شريعةٌ تكليفِيّةٌ »[١٧].

هكذا انتهت أدوار هؤلاء الأنبياء السبعة. وبانتهائهم « بطلت دعاويهم لأنها تمويهات على الأمم، وغير جائزة إلاّ على أشباه البقر والغنم »[١٨]. وهو أمر صريح من الباري تعالى لقائم الزمان بأنْ يَتْرُكَ الموحِدون كلَ ما جاء به الأنبياءُ المتقدّمون: « وأوصيكم بما أيّدني به مولانا، وأمرني به من إسقاطِ لا يلزمُكم اعتقادُه، وتَركِ ما لا يضـرُّكم افتقادُه مِن الأدوارِ الماضية الخامِدة، والشرائعِ الدارِسة الجامِدة. وما منهم ناطِقٌ إلاّ وَقَدْ نَسَخَ شَريعَةَ مَنْ قَبلَهُ مِنَ المتقدِّمين »[١٩].

ومَن منّا ينكر فسادَ الأنبياء بتكفيرهم بعضهم بعضاً!؟ « وقد عَلِمَ كلُّ ذي لبٍّ أنَّ أصحابَ الشرائع قد قَطع كلٌ منهم شريعةَ مَن تقدَّم قبلَه. وهو يعلم أنّ أهلَها لم يُخالفوا شيئاً ممّا فرضَه عليهم صاحبُ شريعتِهم، وقد حلّلوا سبيَ بعضِهم بعضاً وهلاكَهم واستئصالَ شأْفَتهم »[٢٠].

(١٦) رسالة السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٣، تقسيم العلوم ٣٦ / ٢٦٤.
(١٧) نفس المراجع.
(١٨) رسالة السفر إلى السادة ٦٨ / ٥٤٦.
(١٩) الرسالة الموسومة ببدء التوحيد لدعوة الحق ٧ / ٦٤ ـ ٦٥.
(٢٠) الرسالة الموسومة بالإسرائيلية ٧٢ / ٦٢٥.

ويبدو أن الاختلاف الحاصل بين الأمم سببه هؤلاء الأنبياء: فإنّ « أصحابَ الشــرائع قَد أَجْبَروا أمَمَهم على الأعمالِ الجسميّة، وقعدتْ بهم أعمالُهم عــن معَــالِم الأمــورِ الإلهيــةِ التوحيديّة... وَعَلِمَ كلُ ذي لبّ أنّ الاختلافَ ليسَ للأممِ، وإنما هو لأصحابِ الشرائعِ، لأنَ كلَّ واحدٍ منهم أَمَرَ أمّتَه بجهادِ الأمّة الأخرى، وقتلَ بعضُهم بعضاً. فكيفَ يكــون الاخــتلافُ إلاّ كذلك! »[٢١].

وبالنتيجة، إن الأنبيــاءَ والأوصياء هــم، كمــا تســمّيهم « الحكمــة »، « أبالســةُ الأزمان »[٢٢]، « وأبالسةُ الأدوار »[٢٣]، أو أيضاً « أبالسةُ الدين »[٢٤] و « العُصْبَةُ المارِقَــة الــدَعِيَّة »[٢٥] و « عصــاةُ الأمم ودجاجِلةُ الفَتْرَةِ »[٢٦]. هم « أهلُ التلبيسِ والإِبــلاسِ »[٢٧]، و « دجاجِلةُ العُصور »[٢٨]...

جاء قائم الزمان حمزة فــ« جَعله المولى لِشِرَعِ نواميسِ الابالسةِ ناسِخاً، ولِمَا لَبّســوه على الأمم بزخرفهم قاطِعاً فاسِخاً، ومحلِّلاً لِرُبُطِ كفرِهم الذي عقدوه، وفاضِحاً لمصائدِ سِحرِهم الذي نفخوه في آذانِهم وَنَفَثُوه، وهادِماً لمباني إِفْكِهِم المأسَّسِ على الضلالاتِ، وقامِعاً بالتوحيــدِ جميعَ الآراء وأصناف المقالاتِ »[٢٩].

---

(٢١) رسالة التبيين والاستدراك ٧١ / ٦١٣ ـ ٦١٤، ٧٢ / ٦٢٥.
(٢٢) رسالة الايقاظ والبشارة ٥٦ / ٤٣٨.
(٢٣) التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٢، ٥٦ / ٤٣٨.
(٢٤) التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٤.
(٢٥) القاصعة للفرعون الدعيّ ٦٤ / ٤٩٩.
(٢٦) الحقائق والانذار والتأديب لجميع الخلائق ٥٧ / ٤٤٧.
(٢٧) رسالة التبيين والاستدراك ٧١ / ٦١٤.
(٢٨) التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٢.
(٢٩) رسالة الهند ٦١ / ٤٧٧، انظر: ٦٠ / ٤٦٩، ٦٢ / ٤٨١...

وحمزة قائم الزمان هو « الإمام القائم لتنكيسِ أعلام الباطل، وهَتْكِ عقائد المُلَبِّسِــين، والقاطعِ لِشرَعِ الفراعنةِ والأبالسة والعُصبَةِ المكذّبين... الجاحِدين... إيقاظاً للسَهْوَةِ المُفتَرِين... المَرَقَةِ المرتَدِّين الناكِثين... وزَجْراً للشياطين، الفَسَقَةِ المدَّعِين المخترِصين. ونبرأ إلى الباري تعالى مِن نَجَس كلِ معتوهٍ أفّاكٍ مَهِين... العنصرِ الخبيث »[٣٠].

بسبب ذلك يجب على الموحّدين أن يتبرّأوا من جميع الأنبياء والأوصياء، ويبغضوهم ويمقتوهم لأنّ جميعَهم، دون استثناء، كذبةٌ أردياء. يقول الأمير السيّد: « أوّلُ البــراءة مــنهم بُغضُهم ومَقْتُهم بحيثُ لا يبقى في قلبِ الموحِّد محبةُ لأحدٍ منهم، لا قليل ولا كثير، ولو كــان ولَدُهُ وهو خارِجٌ عن الدين فيتبرّأُ منه. ثم البراءةُ من أفعالِهم الرديّة وأقوالِهم الكاذبة »[٣١].

٢ً ــ بطلان الأديان:

أمّا الأديان التي جاء بها الأنبياء فجميعُها باطل، وكذلك المذاهب التي تفرّعتْ عنهــا. تُعَدِّدُ رسائلُ الحكمةِ بعضاً منها وتبطِيلُ دعاويها بقولها: « وهــذه الفِــرَقُ مِــن الأمــمِ فهــم النصرانيّةُ والمُسْلِميّة واليهوديّة والمجوسيّة... ومن المذاهبِ كالنصَيرية والقَطْعِية والشَــمْطِيّة والكَيْسَانِيّة والزَيْدِية والمُوسَوِيّة، وجميع مَنْ لم نُسمِّيه، فقد بَطلتْ دعاويهم، لأنها تمويهاتٌ على الأمم وغيرٌ جائزة إلاّ على أشباهِ البقرِ والغنم »[٣٢].

---

(٣٠) القاصعة للفرعون الدعيّ... ٦٤ / ٤٩٢.
(٣١) تفسير رسالة كشف الحقائق للأمير السيّد، مخطوط، ص ٣٤٨.
(٣٢) السفر إلى السادة ٦٨ / ٥٤٥ ـ ٥٤٦.

ثم تعود الرسائل مرّة أخرى وتذكّر بعضَ هذه الأديان وتحكُمُ على تمزيــقِ شــرائِعها وتقول: « وكلُ شريعةٍ (بمعنى كل دين) من الشرائعِ الأربعة، البراهمة المتعلّقــين بــإبراهيم، واليهود المنسوبين إلى موسى، والنصارى المعروفين بعيسى، وأتباع محمّد بن أبــي كبشــة، ومسوخ شريعته، يعتقدون ويُقرّون أنّ الباري جلّت قدرتُه يتجلّى في يوم القيامــة لبريّتــه... وحقيقتُه أن المولى، لعظيم قــدرته، عنــد ظهور أمرِه ومشــيئته، يَــأْمُرُ بِتَمْزِيْــق شَــرَائِعِ المُتَقَدِّمِين »[٣٣].

وقد تُعَرِّفُ « الحكمة » على قائم الزمان حمزة بأنّه هو « القائمُ لِنَسْخِ الأديــان »[٣٤]، وهو « مسيحُ الأزمان محلِّلُ مَعَاقِدِ المِلَلِ، وناسِخُ الأديان... المنتقِمُ من أهلِ الكفرِ والطغيــان، وماحِقُ لأهل الخلاف والعصيان »[٣٥]، وهو « ناسِخُ الشرائع والمِلل »[٣٦]، و « ناسِخُ النِحَل والمذاهب والمقالات »[٣٧]، الذي جعلَه المولى لــ« هَدْمِ قواعِدِ النِحَل الإِفكيّة وفسخِها »[٣٨]...

فجميع الأديان إذن وجميع المِلَل والنِحَل والمذاهب والمقالات والفرق والشِيع باطلةٌ من أساسِها. وعلى قائم الزمان أن يَقضي عليها، ويَنْقُضَها بتمامِها. وإنْ لم يَتمكّنْ منها فــي هــذا الدور من التاريخ، فإنّه سيكونُ له ذلك، بعون المولى، في نهاية الأزمان:

---

(٣٣) الموسومة بالحقائق والانذار والتأديب ٥٧ / ٤٤٦.
(٣٤) الرسالة في ذكر المعاد... ٧٠ / ٦٠١.
(٣٥) الموسومة بالتعقب والافتقاد... ٥٥ / ٤١٧.
(٣٦) الرسالة الواصلة إلى الجبل الأنور ١٠٩ / ٨٣٦.
(٣٧) الايقاظ والبشارة ٥٦ / ٤٣٦.
(٣٨) تقليد سكين ٤٦ / ٣٥٠.

« إذا اشتهر من المشرق الصارمُ المُشرَفي، وظهرَ مِنَ الحُجُبِ المستورُ الخَفي، لتطهيرِ الأرض وتغيير المِلَل، وقَتْلِ أبالسةِ الدين ونَقلِ الدُوَل »[٣٩]. في ذلك الحين تُقامُ « حجّةُ الوليّ على جميعِ أهلِ النحل والأديانِ بالدليلِ السادقِ وحقيقية البرهان »[٤٠]. وفي اليوم الأخير « إذا تبلّجَ صبحُ الليلةِ الغرّاء، وانقشَع ظلامُها، وقُطِع رأسُ النِحَل الشركيّة، وقُضِبَ سنَامُها، وتَهدّمتْ أركان النواميسِ، وتفلّلتْ معاقِدُها وانحلَّ نِظامُها... عند ذلك تهتزّ الممالكُ بأقطارِ المعمورة المبنيّة »[٤١]، فيكون، بالقضاء عليها، خلاصُ العالم ونجاتُه.

٣ ـــ بطلان الشرائع:

جميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء واحتوتْها الأديانُ وبشّرتْ بها، فاسدةٌ مِن طبعِها. وهي سببُ فسادِ العالَم وضلالِهم أجمعين. لذلك عليها أن تزول: « الشريعةُ التي هي الزخرف واللّهو واللّعب، وقد دنا هلاكها »[٤٢] بظهور قائم الزمان « الإمام القائمِ على الأمم بالحدّ والنكير، وعلى نواميس الأبالسة بالنسخِ والتحليل والتغيير »[٤٣]. فهو « المحلِّلُ لمعاقد نواميس الأبالسة المفترعة والهادم لقواعد شرعهم المكذوبة المخترعة »[٤٤]، وهو « المؤيّد

(٣٩) التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٤.
(٤٠) الايقاظ والبشارة ٥٦ / ٤٤٠.
(٤١) نفس المرجع ٥٦ / ٤٣٩.
(٤٢) كتاب فيه حقائق ما يظهر... ١١ / ١٠٧.
(٤٣) رسالة العرب ٥٩ / ٤٦٣.
(٤٤) تقليد الأمير ذي المحامد كفيل الموحدين... ٤٨ / ٣٥٨.

لاطفاء ما اشتعل من محرقات النواميس، والقائم لهدم ما بناه هامان وذبح ابليس، والماحق لخوار العجل والغطريس »[٤٥]. لقد جعله البـاري تعالى « بالحقيقة قاطعاً لمضلاّت النواميس »[٤٦]، و « ماحِقاً الشرائع في أقطار الأرض »[٤٧].

« الشريعة هي النار المحرِقة للأجسادِ »[٤٨]، وَمَثَلُها « مَثَل الليل المظلمِ الذي لا نور فيه، لأنّ دعواتهم، أعني أصحابَ الشرائع، إنما كانت مخالفةً لأمر البارى جلّت آلاؤه، ولتوهيمِ الناس، وإلى العدم والشِرْكِ والإبلاس »[٤٩]. « هي صَدَفٌ بلا جوهر، وجِسْمٌ بلا روح، وجيفَةٌ ملقاة لا فائدةَ فيها »[٥٠]. هي كالجدار الذي يَستُر تحتَه الحقيقةَ التي هي دعوة التوحيد. وهي كالقِشْر فيما دينُ التوحيد هو اللبّ. وهي الجسم ودين التوحيد هو الروح[٥١].

بسبب ذلك يقول الأمير السيّد « إن الشرائعَ كلَّها ماتتْ لمّا طَلَعتْ روحها. وروحُها هي الحكمة التوحيدية التي كانت مدفونةً فيها »[٥٢]. وهذه « الشرائع الناموسية الشركية ولّتْ وانقضى زمانُها والشريعةُ التوحيديّة أقبلتْ وأضاءَ شهابُها »[٥٣].

---

(٤٥) الموسومة بالحقائق والانذار والتأديب ٥٧ / ٤٤٣.
(٤٦) تقليد سكين ٤٦ / ٣٥٠.
(٤٧) تفسير كشف الحقائق للأمير السيد، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.
(٤٨) الغاية والنصيحة ١٠ / ٨٥.
(٤٩) تفسير كشف الحقائق، ص ٣٤٣.
(٥٠) نفس المرجع، ص ٩٣ ـ ٩٤.
(٥١) نفس المرجع، انظر أيضاً ص ١١٢، ومخطوط ١٤٣٦ ورقة ٢٤...
(٥٢) تفسير كشف الحقائق، ص ٢٢٦.
(٥٣) نفس المرجع، ص ٢١١.

الشرائع هي « النواميس المضِلَّةُ بالعدم »[٥٤]، وهي « نارُ العـذاب، وهـي الهاوِيـة والجحيمُ. وهذه الأسماء معنى الشريعة التي هَوى أهلُها وغَووا ولقَوا فيها العذاب »[٥٥]، وهي « الظلم الصراح »[٥٦].

لذلك لا بدّ من الخروج منها ومن ظلمتِها إلى النور والحقيقةِ وفسيحِ التوحيد. والخروجُ منها كخروجِ الولد من ظلمةِ بَطنِ أمِه إلى سَعَةِ الدنيا المضاءة: « فخروجُ الولد من بطن أمّه وضيقِه على فسيحِ الدنيا وسَعَتِها رحمةٌ عظيمة، وهكذا خروجُ الإنسان من ظلمةِ الشرائع إلى ضوءِ الوجود أوسعُ الرحمات »[٥٧]. وهذا معنى قولُ الانجيل: « إنّي أبعثُه في اليوم الأخير » يعني اخراجَه من ظلمةِ الشرائعِ إلى ضوءِ الوجود وفسيحِ التوحيد. وقوله أيضاً: « إنه يبعـثُ مَنْ في القبور إلى أعلى القصور »، القبورُ هي الشرائع، والقصور توحيدُ الخالقِ الموجـود. « وفي الحقيقة، إذا خرج الإنسانُ من ظلمةِ الشرائع وقَتْمَتِهـا وضِـيقِها وفسـادِها وعَـدَمِها وتحديدِها وتكالِيفها إلى فسيحِ التوحيد وضيائِه الباهِر وشعاعِه الزاهرِ فهو كالذي يخرجُ مـن بطنِ أمّه وضيقِه إلى فسيحِ الدنيا »[٥٨]. « فَطُرُقُ الشرائعِ أصـولُها وفرُوعهـا مُهلِكـةٌ مـع الاصرارِ عليها »[٥٩].

ومن أجل ظلمها لا بدّ من « مباعدتِها والتبرّي منها »، فهو « من الفروض اللازمـة الذي لا يَصحُّ دينٌ لِبَشَرٍ أبداً إلاّ بالتبرّي منها، لأنّها

(٥٤) الايقاظ والبشارة ٥٦ / ٤٣٥ ـ ٤٣٦.
(٥٥) رسالة الزناد ٣٧ / ٢٧٣.
(٥٦) تفسير كشف الحقائق، ص ٢٢١.
(٥٧) نفس المرجع، ص ٢٤٦.
(٥٨) نفس المرجع.
(٥٩) نفس المرجع، ص ٣٤٥.

صارفة لكل من اتَبعها عن مشاهدة الجلال. وأعاذَنا اللهُ منها بكَرَمِهِ ولطفه »[٦٠]. وكلّ « من لا تتقبّحُ عندَه الشرائعُ، وينفَكُّ مِن رباطِها، ويتوبُ عنها، ويؤمِنُ بالحقائقِ المدفونةِ فيها، فــلا يَتَقَبَّلُ اللهُ له إجَابةً في دورِ الكشفِ »[٦١]. بل لا يمكن لإنسانٍ أن يعرفَ نفسه أو يعــرفَ الله وما في الوجود من خيرٍ إنْ لم يمتنعْ عن الشرائعِ كافّة: « فمن الممتنع أنَّ المولودَ يعرفُ أمَّه ولا نَفسَه ولا ما يصلُ إليه، وكذلك من الممتنع أنَ المستقِرَّ في الشريعةِ وظلمتِها يعرفُهــا، ولا يعرف نفسَه، ولا توحيد الوجود »[٦٢].

*****

هذه النصوص العامّة لهدم الأديان والشرائع العامّة هي بمثابة مقدمة للانقضاض على شريعتيْ محمّد وعلي، أي شريعتي الإسلام اللتين هما: التنزيل والتأويل، أو الظاهر والباطن. ولم يسلم محمّد أو علي من غضب قائم الزمان وبهاء الدين ثم من كافّة الموحّدين الذين أغلقوا باب دعوتهم التوحيدية بسببهما، وبسبب شريعتيهما الظالمتين، وأتباعِهما اللعنة الشياطين. وقد يكونُ زوال الإسلام علامةً لِقُرْبِ نهاية الدهر الحاضر، وآذاناً بحكمِ الموحدين الدائم في العالم الآتي. بهذا يتيقّن الدروز: « لقد ثبتَ لكم أن الدنيا قد زالتْ، وهي جميع الشــرائع والأديــان والعبادات »[٦٣]. والمنتهي هم « النطقاء والأسس والشرائع »[٦٤].

(٦٠) تفسير كشف الحقائق، ص ٢٢١.
(٦١) نفس المرجع، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.
(٦٢) نفس المرجع، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.
(٦٣) رسالة بني أبي حمار ٤٤ / ٣٤١.
(٦٤) الوصايا السبع للموحدين ٤١ / ٣١٨.

ثالثاً ــ بُطلانُ شَريعَتي الإسلام: الظاهر والبَاطن

في الحكمة الدرزيّة « الناس ثلاثة أجناس: فأهل الظاهر يُقال لهم مسلمون، وأهل الباطن يُقال لهم مؤمنون، وأهل قائم الزمان يُقال لهم موحّدون »[١]. وفي مكان آخر: « الإسلام باب الإيمان، والإيمان باب التوحيد، لأن التوحيد هو النهاية الذي لا شيء أعلى منه »[٢]. « ولمّا ظهر التوحيد زالت قدرتهما جميعاً »[٣]، إذْ إنْ الموحّدين « يتخلّصون بتوحيد مولانا جل ذكره من حَشْوِ الشريعتين اللتين هما الظاهر والباطن »[٤]. و « مَن قَبِلَ مِن هادي العالَم (حمزة) وعَبَدَ مولانا العليّ الحاكم كان من الفائزين الذين فازوا بالتوحيد، وتخلّصوا من التلحيد، الذينَ لا خوفَ عليهم من الظاهِر، ولا هم يَحزنون بِشِرْكِ الباطن »[٥].

وهكذا يكون الناس، في عصرنا الحاضر، على ثلاثة أجناس، أو على ثلاثة أديان:

---

(١) رسالة الشمعة ٣٨ / ٢٧٩.
(٢) البلاغ والنهاية ٩ / ٧٤ ـ ٧٥.
(٣) كتاب فيه حقائق ١١ / ١٠٧.
(٤) البلاغ والنهاية ٩ / ٧٥.
(٥) الموسومة ببدء التوحيد لدعوة الحق ٧ / ٦٨، انظر أيضاً: ٩ / ٨٠، ١٠ / ٩٦.

١ً ــ أهل الظاهر، سُمّوا بذلك لأنهم يعتمدون على ما جاء في القرآن على ظـاهره، أي دون تأويل أو اجتهاد في فهم حقيقته. ويُسمّون أيضاً بـ« أهل التنزيل »، لأنّهم يؤمنون بتنزيل آيات القرآن بحسب ترتيبها وحقيقتها كما وردت. هم إذن « أهل السنّة »، لكنّ هذا الاسم قليل في رسائل الحكمة. وهم « النواصِب » الذين ناصَبوا العِدَاءَ والشتمَ لعلي بن أبي طالب...

٢ً ــ أهلُ الباطن، سمّوا بذلك لأنهم يعتمدون على باطن الحقيقة الموجودة في آيات القرآن، لذلك سمّوا أيضاً بـ« أهل التأويل » لأنهم يؤولون ويجتهدون في نقلِ معانى الآيات القرآنية من معانيها الظاهرة إلى معانيها المجازية الحقيقية. وقليلاً ما يسمّون بـ« الشيعة » كما هو المعروف عنهم، بل يغلب عليهم، في الحكمة اسم « التأويلية ». وهم، كما نعلم على فرق وشيع متعددة...

٣ً ــ أهل التوحيد، أو الموحدون، أو أصحاب « المسلك الثالث »، أو « الطريقة الوسطى »، أو « أهل المعرفة » و « الأعْراف » ولكن لا نجد في الحكمة اطلاقاً اسمهم المعروف في التاريخ « الدروز ».

لقد دلّت الحكمةُ الدرزيّة على أن القرآن أقرّ بوجودِ هذه الأديان الثلاثة، وذلك في قوله: « وَضَرَبَ بينهم بِسُوْرٍ، له بابٌ، باطِنُه فيهِ الرحمةُ، وظاهِرُه مِن قِبَلِهِ العَذَابُ »(٦). فـ« دلَّ بأنَّ الظاهِرَ مِن قِبَلِهِ العذابُ، وأنّه وصاحبُه (محمّد) عذابٌ، والباطِنُ فِيهِ الرحمةُ، ولم يَقُلْ هو الرحمةُ... فدلَّ بأنَّ الباطِنَ يدلُ على الرحمةِ، وهو القِسمُ

(٦) سورة الحديد ٥٧ / ١٣.

الثالث في الدين »[٧].

بعد هذا تنطلق رسائلُ الحكمة في وصفِ الظاهرِ والباطن، وتدعو إلى إسقاطهما والتخلّصِ منهما نهائياً وسريعاً، فتقول عن مولانا إنّه « أسقَط الباطنَ مثل ما أسقَط الظاهر، إذْ جعلهما في الحدِ سَواء. فَنَظَرْنَا إلى مَنْ يُنجّينا من الحالَتَينِ جميعاً، ويُخلِّصنا من الشريعَتين سريعاً، ويُدخلنا جنّةَ النعيم التي هي دعوةُ القائم قائمِ الزمان »[٨].

ثم تعتبرهما معاً بهذه التعابير: « الفحشاءُ والمنكر هما الشريعَتين الظاهر والباطن »[٩]، « الجورُ والظلم الشريعَتان اللذان هما العدمُ والتشبيه »[١٠]، « البَوْلُ والغيطُ هما علم الظاهر والباطن »[١١]، و « هما في الحقيقة طريقان مُضِلاّنِ فاسِدان لا حقيقةَ فيهما »[١٢]، « والكفرُ والشِرْكُ هما الظاهر والباطن »[١٣]. وأدلُّ دليل على فسادِهما تكفيرُ أصحابِهما بعضُهم بعضاً: « أهلُ الظاهر يقولون إنّ دينَهم هو الناجي، وأهلُ الباطن يقولون إن دينَهم هو الناجي. والفريقان كاذِبان لا نجاةَ فيهما، بل النجاةُ في الحكمةِ الأخرى التي هي توحيدُ الحاكم جلّ جلاله »[١٤].

---

(٧) تقسيم العلوم ٣٦ / ٢٦١، الشمعة ٣٨ / ٢٧٩، انظر: ٥٨ / ٤٦٠، ٦٩ / ٥٩٤، ٧ / ٦٨، ٩ / ٨٠، ١٠/ ٩٦ كلّها تبيّن أقسام الدين...

(٨) الوصايا للموحدين ٤١ / ٣١٧.

(٩) النقض الخفي ٦ / ٥٦، انظر: ١١ / ١٠٢، ٤١ / ٣١٧.

(١٠) تفسير كشف الحقائق، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩، الرضى والتسليم ١٦ / ١٣٨.

(١١) النقض الخفي ٦ / ٦٠، كتاب فيه حقائق ١١ / ١٠٩، تفسير، ص ٢٢٥.

(١٢) تفسير كشف الحقائق، ص ٣١٦.

(١٣) كتاب فيه حقائق ما يظهر قدّام مولانا ١١ / ١٠٦.

(١٤) تفسير رسالة كشف الحقائق، ص ٢٥١.

وتفسِّر الحكمةُ قولَ القرآن: « وما أدراكَ ما العَقَبَة! فَكُّ رَقَبَة »، بقولها: « فَكُّ الرَقبة هو التخلّصُ من الشريعَتين الظاهر والباطن »[١٥]. وفي قول القرآن « اللهُ والرحمن » دليلان على داعي التنزيل (محمّد)، وداعي التأويل (علي)، وهما اليوم صامِتان. دليلٌ على نَسْخِ الشريعتين وتبطيلِهما؛ واظهارُ الحقيقيةَ ومحضُ الإمامة المرئية للمسلكِ الثالثِ الذي أشارتْ إليه جميعُ النطقاء والأسُس والأوصياءِ والأئمةِ واللواحق بهم وهو توحيدُ مولانا »[١٦]. وعلى الحديثِ القائل: « مُلِئَتِ الأرضُ عَدلاً وقسطاً كما ملِئَتْ جوراً وظلماً »، فتقول: « مُلِئَتِ الأرضُ »، الداعي، « عدلاً وقسطاً »، التوحيدُ والعبادة، « كما ملِئتْ جوراً وظلماً »، وهو زخرف الشريعتين »[١٧].

وفي الحكمة ما يشير على أنّ كلَ تصرّفاتِ الحاكم الغريبة وأعمالِه المروعة وأحكامِه المتناقضة، وما قام به من قتلٍ وظلمٍ وسفكِ دماءٍ وعزلٍ وسجنٍ وَجِدٍّ وهَزَلٍ وزهدٍ وجمَاعٍ وغير ذلك، كلّها تشيرُ وتعني نقضَ الإسلام وابطال شريعتيه: « إنّ أفعالَ مولانا كلَّها حكمةٌ بالغةٌ، جِداً كان أم هزلاً »[١٨]، من ذلك: « بلوغُه إلى القصور، وهما قَصْرَان عظيمان خرَابان، دليلٌ على بطلان الشريعتين وخرابِهما »[١٩]، ومِن ذلك أيضاً « دوارُه حولَ المسجدِ، وقُدَّامُه عَقَبَةٌ صَعْبَةٌ، دليلٌ على التخلّص من الشريعتين الظاهر والباطن »[٢٠]، ومنها أيضاً « قتلُه لِرَجُلَين، دليلٌ على قتلِ الناطِق (محمّد) والأساسِ (عليّ) وتعطيلِ

---

(١٥) كتاب فيه حقائق ١١ / ١٠٧، يستشهد بسورة البلد ٩٠ / ١٣.
(١٦) البلاغ والنهاية ٩ / ٧٤.
(١٧) الرضى والتسليم ١٦ / ١٧٨.
(١٨) كتاب فيه حقائق ١١ / ٩٨.
(١٩) نفس المرجع ١١ / ١٠٢.
(٢٠) نفس المرجع ١١ / ١٠٧.

الشريعتين: التنزيل والتأويل، والهَوَانِ بالطائفتين: أهلِ الكفرِ والتلحيد »[٢١].

وهكذا « عَلِمْنَا بأنّه علينا سلامُه ورحمتُه قد أسقَطَ الباطِنَ مثلما أسقطَ الظاهر »[٢٢].

وتروح الحكمة تحذّر « كلَ مَنْ ذَكَر عن نفسِه أنّه موحّدٌ، وهو متمسِّكٌ بشيءٍ من الشَرْعِ، فقد أبطلَ وكذّبَ في قولِه، بل هو ملحِدٌ كافِرٌ. ومَن كان من أهلِ الباطن تأويليّاً وذكَر عن نفسِه أنه موحّد، فقد كَذب وأبطَلَ في قوله، بل هو مشرِكٌ كافِرٌ »[٢٣]، وأيضاً « كل من ادّعى التوحيدَ وهو يقول بالظاهِرِ والباطِنِ كانَ كاذِباً في قولِه »[٢٤]، لذلك « لا يجوز استقبالُ قائمِ الزمان وطاعتُه وامتثالُ مراسيمه التوحيدية إلاّ بعدَ الطهارة الخالِصة من الشريعَتين الشركيةِ والكفريةِ »[٢٥].

*****

وبالنتيجة، بالتوحيد يتخلّص الموحّدون من « حشو الشريعتين اللتين هما الظاهر والباطن »[٢٦]. وعليهم باتّباع قائم الزمان الذي عَرّف عن نفسه بقوله: « أنَا صاحبُ المنزلتين ومُبِيْدُ الشريعَتين »[٢٧]....

(٢١) كتاب فيه حقائق ١١ / ١٠٩.
(٢٢) النقض الخفي ٦ / ٥٦، انظر: ١١ / ١٠٢، ٤١ / ٣١٧.
(٢٣) رسالة الشمعة ٣٨ / ٢٨٠.
(٢٤) نفس المرجع ٣٨ / ٢٨٠.
(٢٥) تفسير كشف الحقائق، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.
(٢٦) البلاغ والنهاية ٩ / ٧٦.
(٢٧) الاعذار والانذار ٣٤ / ٢٤٨، ٣٣ / ٢٤٣.

رابعاً ــ بُطلانُ مُحمَّد وَشَريعَة الظاهر

كلُ شيء يَدُلّ على أنّ الإسلامَ قد بَطُلَ واضمحَلّ، وأن التوحيدَ جاء بالنور والحق. كلُ ما في « الحكمة » يثبتُ أنّ محمّداً هو معدنٌ الكَذِبِ والدَجلِ، وانَّ قائمَ الزمان جــاءَ بالسِــدقِ والمعرفةِ. لقد انقَضى، بظهور الدعوة التوحيديّة، دورُ محمّد، ونُسختْ شريعته الفاسدة بالتمام.

١ً ــ إنّ محمّدا، بحسب ما تصفه الرسائل المقدّسة، هو « الابليسُ الأعظم... الــذي نَفَثَ سُمَّ نَجَسِهِ في أنيابِ شيعَتِه »[١]، هو « الابليسُ المعتوهُ الشيطانُ، آخِرُ عُكُورَاتِ مُجَــوَّرِ الفَلَكِ »[٢]، هو « ابليسُ الرجيم »[٣] و« ابليسُ اللعين »[٤]، هو « الدَجَّال الرجيمُ الاجذَع »[٥]، « والدجّالُ الخبيثُ الأعورُ الفاجِرُ »[٦]، و « دجّالُ العرب »[٧]، هو « المعتل

---

(١) رسالة اليمن ٦٠ / ٤٧٠، انظر: ٥٦ / ٤٣٩... الخ.
(٢) تأديب الولد العاق ٦٣ / ٤٨٨. معنى ذلك أنّ محمّداً هو « آخر ذرّات الكون » التي تتألّف منها الأجسام الفاسدة الشريرة. ومن المعروف أن آخر الذرّات في الفلسفة اليونانية تؤلّف المادّة العمياء.
(٣) انظر: ٥٦ / ٤٤١، ٥٧ / ٤٤٥، ٥٨ / ٤٥٣... الخ.
(٤) انظر: ٥٧ / ٤٤٨، ٥٨ / ٤٥٥... الخ.
(٥) رسالة التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٠...
(٦) انظر الرسائل ٥٦ حتى ٦٦ ص ٤٣٥ ـ ٥٢٥.
(٧) رسالة التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٥.

الهَبّال »[٨] و « العجل »[٩]... الخ.

وهو الإبليس الذي ادّعى الوحيَ مِن الله ولفَّق عليه « الزورَ المكذوب »[١٠]، ثم رجع فنقضَ الوحيَ الذي زعم أنه أُوحيَ إليه. « فظهر للناس ما كذّبه على الله وزخرفَ عليه ». فتناقضتِ الأقوالُ (أقواله) وصارت هَرَجاً الأفعالُ (أفعاله) »[١١]. « لقد عميتْ بصيرتُه... فمرّةً يأمرُهم باستقبالِ المشرق، ومرّةً يأمرُهم بالتوجّهِ إلى المغرب »[١٢].

وتبيّنُ الرسائل تناقضاتِ تعاليمِ محمّد، وتفنّدُ أكاذيبَ القرآنِ، وكلُّها « مبيِّنٌ لقلةِ معلومِه وعجزه وتحقيقٌ لباطله »[١٣]. « فتأمّلوا لَكِنَ هذا المسعورُ المفتون »[١٤]، « وتأمّلوا يا أهل الغفلة، هل... أَبْيَنُ من هذا... لكشفِ عُوارِ مَنْ هو مُسرِفٌ كذّابٌ »؟[١٥]. ثم « انظروا ما مَوَّهَ به صاحبُ شريعةِ الإسلامِ ما هو، باللهِ، أعظمُ من الشَطَنِ والتَلبيسِ وعبادةِ الأصنام... »[١٦].

قال محمّد فيما قال: إنّه أُسْرِيَ به في ليلةٍ واحدة مِن مَكَّةَ إلى مسجدِ بيتِ المقدسِ، وإنّه عُرِّجَ به إلى السماء السابعة، وإنّه جالَسَ الملائكةَ، وسمعَ نداءَ الرب. ولم يكن له دِينٌ، ولا رَعَةٌ يزجراه عمّا لَفَّقَ

(٨) رسالة إلى الولد العاقّ ٦٣ / ٤٨٩.
(٩) رسالة الحقائق والانذار ٥٧ / ٤٤٣، التقريع البيان ٦٢ / ٤٨٣.
(١٠) رسالة التبيين والاستدراك ٧١ / ٦٠٨. يجب قراءتها بمجملها.
(١١) نفس المرجع ٧١ / ٦٠٩.
(١٢) نفس المرجع ٧١ / ٦١٠.
(١٣) نفس المرجع ٧١ / ٦١٥.
(١٤) نفس المرجع ٧١ / ٦١٥. « لَكِنَ »: عَيَّ وثَقُلَ لِسانُه.
(١٥) نفس المرجع ٧١ / ٦١٧.
(١٦) نفس المرجع ٧١ / ٦١٨.

مِن الزور والكذب »[١٧]. ونَاظَرَه رجلٌ يهودي قائلاً له: « يا محمّد، ارتفعْ لنـــا مـــن الأرضِ ذراعاً واحداً، ونحن نؤمنُ بك... فأُفحِمَ الدعيُّ عن الجواب والقول. وتبيَّنَ للجماعة كذبُه على ذي المآنة والطَّول، وعلِمُوا أنها زخاريفٌ ليَستجْذِبَ بها أموالَهم، وحِيَلٌ على الأمور الدنيويـــة يستحِلُّ بها حَرَمَهُم وعِيالَهم »[١٨].

ويجنّدُ بهاء الدين المقتنى نفسَه إلى إظهارِ عَوَار محمّد وفسادِ تعاليمه، ويختم رســالتَه بقوله: « لقد عرّفتُ مثالبَ مَن أ ضلَّ العوالمَ، وأشرتُ بالتعيين. وقد بلغَ العبدُ الناصِحُ بعــضَ الغَرَضِ... فلنختم ذلك بالاعترافِ بالتقصيرِ »[١٩].

ولن ما قصّر به بهاء الدين أكمله الأميرُ السيّد جمالُ الدين التنوخي. فهو القائل: « إنّ ممثولَه (أي ممثول ابليس) الذي هو محمّد بن عبد الله يجمـــع نـــواميسَ النطقـــاء وزخـــرفَهم أجمعين... لأنّ غالبَ الظن أنه لم يكن ظهرَ في ناطقٍ ولا في غيرِه من مبتدأ الدنيا إلى زمان الكشفِ لا أشدُّ عُتُوّاً ولا أشدُّ ناموساً ولا أصرمُ سَيفاً ولا أعظمُ قَتْلاً ولا أقوى كَذِباً ولا أعظــمُ رغبَةً في نسوانٍ وشهواتٍ بهيميّةٍ ولا إباحةَ معاصي من شخصِ الناطقِ محمّد لَعَنَهُ الله »[٢٠].

وفسادُ محمّد ملازِم لفسادِ شريعتِه: فــ« محمّدٌ شرَّع شُرُوعاتٍ فاسدةً إبليسيةً، يشـــيرُ بها إلى العدمِ والتعطيلِ، ممّا يشاكلُ عُنصرَه

---

(١٧) رسالة التبيين والاستدراك ٧١ / ٦١٨.
(١٨) نفس المرجع.
(١٩) نفس المرجع، ص ٦٢٢.
(٢٠) تفسير كشف الحقائق للأمير السيّد، ص ٧٤٥.

الفاسد. وأظهر تكاليف ناموسية شركية، وأباحَ محرَّماتٍ، وحرّم محلّلاتٍ ما في بعضها الهلاك الكليّ »[٢١].

ثم تصف الدرزيّةُ شريعةَ محمّد بالزنا، وتعتبرُ صاحبَها ابنَ زنا، أو « إبليس » لأن إبليس هو من « أَبْ لَيْسْ» أي « مَنْ لَيْسَ لَهُ أَبٌ »، أعني ابنَ زنا. وفي ذلك أن « الزنا بالنساء دليلٌ على شريعتِه. فصحّ أن شريعتَه باطنُ الزنا. ومتّبعُوه أولادُ زنا حَتْماً. وقد صحّ واتّضحَ ان الشرائعَ الناموسيّة مدلولٌ عليها بالزنا. وإن الزنا بالنساء شهوةٌ فاسدةٌ ظاهرةٌ للعيانِ. فصار المائلُ إلى الشرائعِ ولدَ زنا والمشكُّ في الحقيقة ولدَ زنا. والشرائعُ الناموسيّة الشركية شهوةً وزنا باطني. وهو الزنا الأعظم. والزنا الحقيقي والسِفَاح الحقيقي هما عبادات العدم ومحبة الشريعة وأصحابهما والميل إليهم »[٢٢].

وفي شريعة محمّد فروعٌ كثيرةٌ فاسدةٌ، وخوارقُ كاذبةٌ، وتعاليمُ مضلَّةٌ، تُعمي قلوبَ مَنْ سلَكَها، وتطمسُ بصائرَ مَنْ تَعلَّقَ بها.

منها إِسْرَاءُ محمّد... « وهذا كفرٌ وفسوقٌ، وما جَرى أبداً ».

ومنها إن المسلمين يعتقدون أن محمّداً ما له ظِلٌّ في الشمسِ، وهذا الكفرُ الأكبرُ. ولم يكن هذا الأمرُ لغيرِ الله تعالى أبداً.

ومنها إن الإنسان إذا زنا بامرأة وجاءها منه بنتٌ فيجوزُ له زواجُها ويحلُّ ذلك ولو كان محققاً انها ابنتُه.

ومنها إن الإنسان إذا اشترى ألفَ جارية فيحلّ له وَطءَ جميعِهنّ.

ومنها إن الإنسان إذا اجترأ على الزنا والقتلِ والسرقةِ وقطعِ

---

(٢١) تفسير كشف الحقائق، ٢٢٤.
(٢٢) نفس المرجع، ص ٥٠٦ ـ ٥١١، انظر رسالة ١١ / ١٣٦.

الطريق وجميع المحرّمات حتى بلغ ثمانين سنة على هذه الحالة ثم تاب يوماً واحداً كان كيومِ وَلَدَتْه أمُّه ولا عقابَ عليه... ».

« وأمثالُ هذه الفروع الفاسدة كثيرٌ. فصارتِ الشريعةُ الظاهرةُ مضلّةً حتماً لَزْماً بهذه الأسباب. وجميعُ ما تعيَّن كذِبٌ ومحالٌ. فلعنةُ اللهِ عَلَى مُؤَسِّسِهَا وَمُرَكِّزِهَا وَمَنْ أعَانَ عَلَيهَا وفَاعِلِها وقائلِها وقابِلِها. أعاذنا الله سبحانَه وتعالى »[٢٣].

ثم إنّ كلَ ما جاء به محمدٌ من خوارقَ ومعجزاتٍ هو كذِبٌ وتدجيل: فشريعتُه « مشحونةٌ بذكرِه ونبوّتِه المجازية بما فيها من الكذبِ الصريحِ والمعنى القبيحِ، كدلالته عليه إنّه عَرَّجَ إلى السماءِ، وإن الماءَ نَبَعَ من بين أصابعِه، وإن الغزالَة سلَّمَتْ عليه، وإن البعيرَ قَبَّلَ يَدَيْهِ، وما شاكلَ ذلك من الكذبِ المعظّم »[٢٤].

٣ً ــ ولم يسلم القرآن من الكذب والتدجيل والفساد. فهو، بنظر محمّد، كلام الله، وإنه منزل عليه، غير مخلوق، ولا مجعول، وإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد طابق أصحابُه (أي أصحاب محمّد هذا القول) وجميعُ هذه الأمة (الإسلامية) وقد أجازوه ورضوه ولم يُنكروه »[٢٥]. كل هذا فاسد من أساسه، والقائلون به ضالّون مضلّون، وهم، بحسب ما يناديهم بهاءُ الدين، أهلُ بَلَهٍ وتدجيلٍ.

« فيا أهلَ البلَهِ والتدليسِ والتشبيهِ! كيف يكونُ قولُكم في الكلامِ

(٢٣) تفسير كشف الحقائق، ص ٧٢٨ ـ ٧٢٩، انظر ٧١ / ٦١٨.
(٢٤) تفسير كشف الحقائق، ص ٧٥٤ ـ ٧٥٥.
(٢٥) رسالة التبيين والاستدراك ٧١ / ٦٢٠.

الذي نسبتموه إلى الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه سدقاً. وقد اعتورتْه لإصلاحِ فسادِه ألسنُ النحويينَ واللغويينَ، ودخلَ عليه النقصُ والخللُ لخروجِهم به عن مباني الدينِ. وكيف ينساغُ في عقلِ ذي لبٍّ أنَّ كلامَ الله تعالَى يفتقرُ إلى إصلاحِ المخلوقين. وهذا ممّا يبيّنُ فسادَ شرعِ المخترصين، ويوضِحُ إنّهم خالَفُوا أمرَ الباري وخرَجُوا عن سننِ التوحيدِ والدين »[٢٦].

٤ ــ أمّا المسلمون فهم الذين « استعبدَهم الإبليسُ الأعظمُ » (أي النبيّ محمّد)[٢٧] فيؤلِّفون بالتالي حزبَه وعُصبْتَه. فهم « حزبُ الدجالِ »[٢٨]، و « عصبةُ الدجالِ، أتباعُ الدجاجلةِ في أقطارِ الأرضِ فوضى مُهْمَلُون »[٢٩]. ويوصَفون بـ« الهَلَكَةِ الأَغْفَالِ... الطُغَاةِ الفَسَقةِ المكذِّبين... البهائمُ المهملون والسوائمُ المنكِرون... المَرَقَةُ الهَلَكَةُ الغافِلون... حزبُ الضلالِ آلُ البَلَسِ والشَطَنِ والعقوق والإِبَاقِ... الخونةُ الذين أضرموا نارَ الفِتَنِ على الموحِدين »[٣٠].

يخاطبهم بهاءُ الدين المُقْتَنى بقوله: « تنبّهوا يا أهلَ البَلَسِ والضلالِ والعَمى، وتيقّظوا يا أُولي السَغَبِ والسَفْسَافِ والظَمَى. فقد أفَلَ شمسُ الدجالِ الأعورِ (محمّد) وَقَمَرُه (علي) في المُحَاق، وتضاءلتْ نجومُه (خلفاؤه) عن مطالِعها بالنحوسِ والرجوعِ والاحتراق، وتزلزلتْ أرضُه بالخَسْفِ (مكة)، وأذِنَتْ سماؤُه (ديانته) بالهبوطِ والانشقاق، لِزُهْرَةِ

(٢٦) رسالة التبيين والاستدراك ٧١ / ٦٢١.
(٢٧) رسالة اليمن ٦٠ / ٤٧٠.
(٢٨) رسالة تمييز الموحدين الطائعين ٦٦ / ٥١٦.
(٢٩) رسالة اليمن ٦٠ / ٤٧٠.
(٣٠) رسالة تمييز الموحدين الطائعين ٦٦ / ٥١١ ـ ٥١٥.

شمس الحقائق (حمزة)... »[٣١].

هم « أهل الشَطَن والغَفَلة والسهْو... أَجْلافُ الأممِ... أهلُ النَجَسِ والكذبِ والبهتانِ... العصبةُ الجاحدةُ المنكِرة العميّة عن الحقِّ... أتباعٌ لِنَعَقَةِ شـياطينِ الفتـرة... أوبـاشُ الأمـم وعُكُورَاتُ هذا الخلق... أهلُ النفاق والعنود والفسق... العُصْبَةُ الضـالّة... [٣٢]. يُشْـبِهُون، لكثرةِ شرِّهم على الموحِدين، المسوخَ والذئابَ... والثعابينَ الرُّقَطَ والأساودَ الـزُمَّطِ والأراقـمَ الشمّطِ »[٣٣]. فهم « أوغادُ الأنام وأولادُ الحَرام »[٣٤]... « الخَوَنَةُ الأغتَام »[٣٥] و « الأجلافُ الاغتام »[٣٦] و « الغَفَلَة النوّام »[٣٧].

هم « أمّةُ السوء »[٣٨] و « أهلُ السفَه »[٣٩] و « الادّعـاء »[٤٠]، و « أهـل الغـدر والنكْث، أهلُ الردّة وأولاد الخبثِ »[٤١]، « أهلُ النَصَبِ والشكِ والشرْكِ والانعكـاسِ والظلـمِ والابلاسِ »[٤٢]، « أهلُ الكذبِ والنكثِ والزور »[٤٣]. هـم « كَدَرُ الأمـم »[٤٤] و « عصـاةُ الأمم »[٤٥] و « أوباشُ الأمم »[٤٦] و « أجلافُ الأمم »[٤٧] و « عَبَدَةُ العجْلِ والصَـنَم »[٤٨]. هم

---

(٣١) الايقاظ والبشارة ٥٦ / ٤٣٧ ـ ٤٣٨.
(٣٢) توبيخ الخائب معلا ٨٢ / ٧٣٨ ـ ٧٤٣.
(٣٣) مثلاً ضربه بعض حكماء الديانة ٤٣ / ٣٣٨.
(٣٤) تقليد لاحق ٤٥ / ٣٤٦.
(٣٥) الحقائق والانذار ٥٧ / ٤٤٩.
(٣٦) نفس المرجع، ٥٧ / ٤٤٤.
(٣٧) رسالة إلى العرب ٥٩ / ٤٦٥.
(٣٨) نفس المرجع ٥٩ / ٤٦٦، ...
(٣٩) كتاب أبي اليقظان ٦٥ / ٥٠٠ ـ ٥٠٧ بكاملها.
(٤٠) إلى الجبل الأنور ١٠٩ / ٨٣٥.
(٤١) نفس المرجع.
(٤٢) التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٤.
(٤٣) تأديب الولد العاق ٦٣ / ٤٨٩.
(٤٤) التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٥.
(٤٥) الحقائق والانذار ٥٧ / ٤٤٧.
(٤٦) توبيخ الخائب محلا ٨٢ / ٧٣٩.

« كالبقـــر السائمة والغنم »[٤٩]، أو « أشباه البقـــر والغنـــم »[٥٠] و « أخبثُ الأمم »[٥١]. هم « أولادُ البغايا العواهِر، وبقيّةُ نَسْلِ أغتامِ البرابِر أهل الخلاف... أئمّة الجورِ الفَسَقَة الفجّـــار، أهلُ الحَشْو والعُمى والصَمم والخرس، وأعوانُ الدجاجلة بالغيِّ واللعنِ والـــبَلَس... أصـــحابُ الكرّة الخاسرة... بقيّة عُصاة الأمم »[٥٢]. هم، « على أولياءِ الحق كالنمورِ الضاريةِ والسباعِ أو كالأراقمِ المزمنة والأفاعِ »[٥٣].

ليس للمسلمين عامّةً من فضيلةٍ. كل ما عندهم من موادِّ إبليسِ الـــرجيم، فهـــم « مـــا امتدّوا ــ بحسب مفسّري الحكمة ــ إلاّ من الموادِّ الإبليسيّة، ولا تغذَّوا إلاّ من الأغذية المبخرة السُّمِّيّة. فأجلِ ذلك تكلّموا بألسنةٍ خرِسَةٍ، ونظروا بأعينٍ عَمِيّةٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا... فما تعلّقـــوا من داخلهم إلاّ بالفساد، ولا نَطَقوا إلاّ به »[٥٤].

٥ ــ والنتيجة هي « إن العقلَ بالحق يشهدُ ويقطعُ أن الأكثرَ. مـــن أمّتـــهِ (أي أمّـــة محمّد) والجمَّ الغفيرَ من رؤساء شُرْعَتِهِ ليسَ لأحد منهم أمانةٌ على تأديةِ كلمـــةٍ واحـــدةٍ مـــن العدلِ... وإنّهـــم في فهمهِـــم للحق والحكمة أَبْلَهُ مِنَ الْحِمَـــارِ والبَغْـــلِ. فكيف يكونوا شهداءَ على الناس! »[٥٥].

---

(٤٧) نفس المرجع، ٨٢ / ٧٣٩.
(٤٨) التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٥.
(٤٩) رسالة تمييز الموحدين ٦٦ / ٥١٣.
(٥٠) السفر إلى السادة ٦٨ / ٥٤٦، ٥٩ / ٤٦٥.
(٥١) رسالة العرب ٥٩ / ٤٦٥.
(٥٢) نفس المرجع.
(٥٣) إلى أهل اليمن ٦٠ / ٤٧٠.
(٥٤) تفسير كشف الحقائق للأمير السيد التنوخي، ص ٨٧.
(٥٥) رسالة التبيين والاستدراك ٧١ / ٦١١.

ينتج أيضاً « إن شريعة محمّد قد تقضّتْ أيّامها، (وكذلك) جميع النِحَلِ قد وهتْ قواها، وانحلَّ نظامُها »[٥٦].

وينتج أيضاً إنّ إِلَه المسلمين هو عَدَمٌ لأنه لم يَظْهَرْ مَرّةً واحدةً لعباده، ولم يَأْنَسْهُم ويُعَرِّفْهم بنفسه: فـ« ما كان لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ ولا يُدْرَكُ بشيءٍ من الحواسِ (أي من يتجلَّ) فأحرَى به أن لا يكونَ شيئاً »[٥٧].

وأيضاً إن محمّداً « الناطق ــ لعنه الله ــ أصلٌ لجميعِ المعاصي وجميعِ الأخلاقِ الفاسدةِ والعلومِ الرديّةِ »[٥٨].

وأخيراً إن « العِجْلَ » هو « الضدّ »، والضدّ الأعظم في أيّامنا هذه هو « محمّد ». ولكنَّ جميع النطقاءَ هم أيضاً « عجول » لأنّ نواميسَهم هي تكليفيّةٌ إبليسيةٌ وُضِعَتْ لطمسِ معالمِ التوحيد. وإذا ما اتُّهِمَ الدروزُ بعبادةِ العجلِ فذلك لأجل أنّهم يُخْفُونَ أسفارَ الحكمة في مجالِسهم ضِمنَ رأسِ العجلِ الذي يُمَثِّلُ محمّداً. فكما إنّ دعوةَ التوحيد مخفيةٌ في شريعةِ الإسلام، كذلك رسائلُ الحكمة مخفيةٌ في رأسِ العجل... بسبب ذلك عُرِفَ الدروزُ، خطأً وضلالاً، بعبّادِ العجل، فيما عبّادُ العجل، بنظرهم، هم المسلمون وسائرُ أصحابِ الشرائع الفاسِدة...

إنّنا نعترف بعجزنا عن حصر كل ما قيل في محمّد وشريعته وأتباعه ونهمسُ إليك أيّها القارئ بأنّنا لم نتجرّأ على نقل كل ما في « الحكمة »...

---

(٥٦) رسالة القسطنطينية ٥٣ / ٣٨٩.
(٥٧) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٣٤.
(٥٨) تفسير كشف الحقائق، ص ٣٧ ـ ٣٨.

خامساً ــ بُطلانُ عَليّ وَشَريعَة البَاطن

ليستْ منزلةُ عليّ بن أبي طالب أفضلَ من منزلةِ محمّد بن عبد الله. كلاهما في الشرّ والفساد سَواء. وشريعةُ الاثنين في الضلال على اتّفاق. شريعةُ عليّ هي « الشِركُ » بعينــه، كما شريعةُ محمّد هي « الكفر » بعينه. وكل ما يَصدُر عنهما من علوم هو « سُمٌّ قاتِــلٌ »[1]. وقد علّم قائم الزمانِ في رسائله إلى النساء الموحّدات « إنّهما، محمّدٌ وعليٌ، لا يجوزُ لكنَّ أن تطعنَ أحداً منهما. وقد نهَى الدينُ عنهما. ألم تَرَيْنَ أنَ المولى عزّ وجلّ قد ملَّكَهُمَــا الــدنيا؟ أليسَ أشار لكنَّ بأنّهما دَنِيَّانِ القَدْرِ؟ لأنّ الدنيا سُمّيتْ دنيا لأنّها دَنِيّة؟ وإن هــذَين الشخصــين يتزيّا بزيَّ المولى، وقد حصلا ضِدَّين. فكيف تجوزُ عبادتُهما في وقتِنا هذا؟ »[2]، وقــد أمــر الباري: « لا تسجدوا للشمسِ ولا للقمرِ، وهُما الناطق (محمّد) والأساس (علي) »[3].

١ ــ ماذا يكون إذن من شأن علي وأتباعه وشريعته الباطنيّة بعدما كان شأنُ محمّــد والمسلمين وشريعةُ الظاهر الكفرَ والفسوقَ والضلالَ!

---

(١) مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٤٣٩، ورقة ٢٥ ب.
(٢) رسالة النساء الكبيرة ١٨ / ٢٠٠.
(٣) كتاب النقض الخفي ٦ / ٦٢.

الحقيقة تنـال من « الحكمة » و « الحكمة تقول: « بالحقيقة، إن عليّا زوجةَ ابليس اللعين محمّدٍ بن عبد الله هو أنجسُ الخلق بعدَ محمّد »(٤)، وإنّ محمّداً وعليّاً صارا « أصلاً لدينِ التلحيد الذي لم يرضَاه اللهُ، ولا أمرَ به، بل أفاضاه من تلقاء نفسيهما، وأضلا به الخلائق في أقطار الأرض »(٥).

بل « هما النَحْسَان العظيمان لمّا اقترنا واتّفقا وَأْتَلَفَا وامتَزَجَا خرجَ من بينهما جميعُ العقائد الفاسدة والتكاليفُ والعباداتُ المحرِقةُ والطرائقُ الرديّةُ. وجميع ما في الناس من الفساداتِ والمعاصي، مِن مبتدأِ الدنيا إلى يومِ القيامة فهو منهما ومن تأثيرِهما ومن مادّتِهما وبحرِهما الآجنِ الزعاق. فالأساسُ (علي) مُعِينُ الناطقِ (محمّد) على جميعِ مفاسدِه لَعَنَهُ اللهُ »(٦).

وعليّ بالنسبة إلى محمّد هو « زوجتُه وأَليفُه وحليفُه وسديقُه على المروق والفسوقِ والعقوق، لأن النتائجَ الابليسيةَ والنواميسَ الشركيّةَ من بينهما ظهرتْ ومنهما خُلِقَتْ وإليهما نُسِبَتْ. فلا محرَّمٌ في الدنيا إلاّ وَهُما أصلُه »(٧). ثم إن « كلَ علومٍ فاسدةٍ برزتْ منهما. فهي فروعٌ من هذا الأصل »(٨).

٢ ـ وقد تكون شريعة عليّ المسمّاة بـ« الباطن » أخطرَ على الموحدين من شريعةِ محمّد، لأن غايتَها في تأليهِ عليّ تلامِسُ عقيدةَ أهلِ

---

(٤) تفسير كشف الحقائق للأمير السيّد التنوخي، ص ٧٣.
(٥) نفس المرجع، ص ٤١٢.
(٦) نفس المرجع، ص ٣٦.
(٧) نفس المرجع، ص ٣٧، مخطوط رقم ١٤٣٩، ورقة ٢٥ أ.
(٨) نفس المرجع، ص ٣٨، مخطوط، ورقة ٢٥ ب.

التوحيد في تأليه الحاكم. لذلك فإنّ « شريعةَ الأساس مضلّةٌ لمنْ تَبِعَهَا ومَشَى عليها، لأن غايتَها ومقصودَها ومقتضَاها ألوهيّةُ أولادِه وأولادِ أولادِه... فصارتْ هذه العقيدةُ الفاسدةُ مضلّةً على كل حال »[9].

ومن ذلك ما ينقله أتباعُ عليّ عنه قوله: « أنا اللهُ ربُّ العالمين ». ويعلِّق على هذا القول أحدُ مفسّري الحكمة: « كَذِبَ اللعينُ خَزاه اللهُ. ويَنْقُلُ إلينا ما يُروى عنه قائلاً: « والمأثورُ عنه أنّ بعضَ جماعتِه رآه في الحجاز وهو يسبِّحُ بين الصَفَا والمروة ــ وهما مكانان بالحجاز ــ فقال له: « يا مولاي! لمنْ تُسَبِّحُ وأنتَ الكل؟ وفي زماننا هذا حضَر شخصٌ تأويليٌ (من أتباع علي) وقال: عليٌّ فوق، عليٌ تحت، عليٌ يمين، عليٌ شمال، عليٌ خلف، عليٌ قدّام. اللهُ هو عليّ. فقيل له: كيف تقولُ هذا، وله أولاد، ويأكلُ ويشربُ؟ فقال: له أولادٌ مجاز. فصمَّم على ذلك وانصرفَ. لَعَنَ اللهُ الجميعَ... ثم... اعتقادُهم أن ألوهيَّتَه المكذوبةَ نقلها إلى ولدِه الحُسَيْن ثم إلى ولدِ ولدِه عليّ ثم إلى ولدِه وولدِ ولده... وهو أعْجَزُ العَجَزة... »[10].

بسببِ هذا الاعتقادِ الفاسد، سُمّيتْ شريعةُ عليّ بـ« الشِرْك » وهي بالحقيقة تدعو إلى الشِرْك. والشرك قد يكون أخطرَ منَ الكفرِ والتلحيدِ، لأنه يعملُ في السرّ، وينفذُ إلى العمق، ويبدّلُ الحقائقَ، ويَسري خِفْيَةً « لأنّ الشرك أخفَى من دَبيبِ النملةِ السوداءِ على المسحِ الأسودِ في الليلةِ الظلماءِ[11]. فعلى الموحدين أن يتنبّهوا وأن يعلَموا إذن « أنّ

(٩) تفسير كشف الحقائق، ص ٧٢٥.
(١٠) نفس المرجع، ص ٧٢.
(١١) رسالة النساء الكبيرة، ١٨ / ١٩٦.

الشركَ خفيٌّ المدخَل، دقيقُ السَتْرِ والمَسْبَل. وليسَ منكم أحدٌ إلاّ وهو يُشْرِكُ ولا يَدري، ويَكفُر وهو يَسرِي، ويجحَدُ وهو يَزدري. وذلك قول القائلِ منكم بأنَ مولانا سبحانَه صاحبُ الزمان، أو إمام الزمان، أو قائمُ الزمان، أو وليُّ الله، أو خليفةُ الله، أو ما شاكلَ ذلك من قولكم: الحاكمُ بأمر الله، أو سلامُ الله عليه، أو صلواتُ الله عليه... فهو الشِرْكُ بعينِه »[١٢].

فخطرُ الشرك يكمنُ إذن في سهولةِ الخَلْطِ بين أوصافِ علي بن أبي طالب وأوصافِ المولى الحاكم: لقد « صحَّ عند الموحِّدِ بأنّ الشركَ الذي لا يُغْفَر أبداً بأنّ يُشْرَكَ بينَ عليٍ بن أبي طالب وبينَ مولانا جلّ ذكره »[١٣]. من أجل ذلك يجبُ الحَذَرُ والحِيطةُ. ولأجل ذلك تكون الباطنيّةُ التأويليّةُ، لعنةُ الله عليهم[١٤]، على الموحدين شرّاً مستطيراً. ولهذا « صار عليٌّ قُبْلَةَ المشرِكين في أقطارِ الدنيا، شاءوا أو لم يشاءوا »[١٥].

٣ً ــ أمّا مآخذ الموحدين على شريعة عليّ فكثيرة، لأن فيها فروعاً كثيرةً فاسدة تضلّ وتعمي مَن سلَكَها:

من جملة ذلك ما يسمّى بزواجِ المِتْعَةِ، وهو « إن الرجلَ يأتي الامرأةَ فيوافِقُها على شهورٍ معلومةٍ بِدَرَاهِمَ معلومةٍ، ويَجعلُ ذلك فريضةَ

---

(١٢) رسالة البلاغ والنهاية ٩ / ٧٤.
(١٣) رسالة الردّ على النصيري ١٥ / ١٧٢.
(١٤) تفسير كشف الحقائق، ص ٣٣٠.
(١٥) نفس المرجع، ص ٤١.

عن تراضٍ منهما. فإذا تمّ ذلك الأجَلُ وقبضتْ تلك الفريضةَ، فإنّ أرادَ أن يصرفَهَا أصــرَفَها، وإنْ أرادَ جدَّدَ لها فريضةً أخرى، وأقامتْ عندَه، أو تأتيه إلى تمامِ تلك الفريضةِ. وذلك قولـــه (أي قول محمّد في القرآن): ولا جَنَاحَ عليكم فيما تراضَيتم به مِن بعدِ الفريضةِ. إن اللهَ كـــانَ عليماً حكيماً »[١٦].

« فقد نَسَخ (محمّد) لهذا الحكم، ونقضَ جميعَ شروطِه في أبوابِ النكاح، وآلَ أمْرُ أمّتِه إلى الهَرَجِ والفِسقِ والسِفاحِ. وإذا كان ذلك كذلك فقد بطلتْ من قلوبِ الآبـــاء صـــحّةُ الأولاد، والتبستْ بالحَقيقة أنسابُ العِباد »[١٧].

ويعلّقُ الأمير السيّد بقوله: « فهذا زِنا صريح. وهو ثابتٌ في شريعةِ الأساس (علـــي) إلى الآن »[١٨].

« ومن جملةِ ذلك أيضاً في بلادِ الحجاز قومٌ حُسَيْنِيَّةٌ منسوبين إلى الحُسَين بن علـــيّ، فُسَّاقٌ مُرَّاقٌ، فيرسلُ هؤلاءِ الفسقةُ نساءَهم إلى الحجاز ويُرَخِّصوا العِرْضَ في بذلِ نفوسِـــهنّ لأولئكَ الفسقةِ الحُسَينِيّة، رجاءَ أنّهنَّ يأتيهِنَّ بأولادٍ حُسَينِيّة. وهذا زنا محض. لعـــنَهم اللهُ ثـــم لعنَهم. ما أشد فسقِهم وأشدّ ضلالِ مذهبِهم أصلاً وفرعاً.

« فصارتْ شريعةُ الأساس مضلّةً بهذه الأسباب. ومَن تعلّقَ بها احترقَ وذاب. وغيرُ هذه (الأمور) المُعَيَّنَةِ فروعٌ كثيرةٌ فاسِدةٌ في هذه

---

(١٦) رسالة التبيين والاستدراك ٧١ / ٦٠٩ ـ ٦١٠. سورة النساء ٤ / ٢٤.
(١٧) تفسير كشف الحقائق، ص ٧٢٦.
(١٨) نفس المرجع، ص ٧٢٧.

الشريعة الشركيّة »[١٩].

٤ ـــ أمّا أصحاب عليّ وأتباع شريعته فهم أهل الباطن والتأويل، « الواقِفــون مــع اللعين صاحبِ الباطن »[٢٠]. هؤلاء كانوا على الموحِدين أشدَّ خطراً من أهلِ الظاهر والتنزيل، لأنّهم استَسْهَلوا الدخولَ في دعوة التوحيد نظراً للتقاربِ الحاصِل في العقيدةِ والنَسَب. يقول أحد مفسّري الحكمة: إنّه « في السَنةِ الثامنةِ دَخَلَ مع الموحدين في الدعوةِ خَلْقٌ كثيرٌ مــن أهــلِ التأويل، ورافقوهم في الإقرار لا غير، ولم يكتُبوا عليهم مَواثِيقَ. وكانتْ إجَابتُهم ريَاءً ونِفاقــاً لأجلِ العزِّ والجاهِ. وأيضاً لمّا كان الموحِدُون[٢١] مرافِقِيهم في الأنسابِ الجســمانيّة[٢٢] فمَــالُوا إلى الإقرارِ تَشَبّهاً بالموحِدين.

« وكذلك جُبلتْ طينتُهم وأَلِفتْ نفوسُهم الاقرارَ في جميعِ الأعصار، كما قال. ومــنهم مَنْ يعرفُ هذا ويعتقدُ بأنّه الكفر، يعني يَعرف أنّه إذا أقرّ بألوهيّة الحاكم سبحانَه وهو معتقِــدٌ بَشَرِيَّتُه فيكونُ اقرارُه كفراً وهو يتكلّم به إنْ شاءَ أو أبى كما جرى على لسانِه بالعادة. ولمّــا كانت العادةُ سابقةً في الأدوارِ الماضيةِ بأنّ لا بد من إقرارِ أهلِ التأويل بالتوحيد في كل كشفٍ فلهذا أقرّوا بتوحيدِ الحاكم سبحانه في هذا الكشفِ الأخير.

« والراجحُ إن المقرّبين هم الشيعةُ الإسمعيليةُ المقصِّرَةُ لأجل مرافقتِهم للموحدين فــي الأنسابِ. ولا بد من لزومِ حجةِ الاقرارِ بجميعِ

---

(١٩) تفسير كشف الحقائق، ص ٧٢٧.
(٢٠) رسالة النساء الكبيرة ١٨ / ٢٠١.
(٢١) في الأصل: « كانوا الموحدين ».
(٢٢) أيْ إن الموحدين وأهل التأويل كلاهما من فروع شيعة عليّ.

فِرَقِ التأويل مع تَكرارِ النفوسِ في الانتقالِ. ولمّا دَخَلــ(وا) أهلُ التأويل في الدعوة، وكانــت إجابتُهم مَيْلاً إلى الراحةِ والإباحةِ، فظهر منهم ومِن المرتدّين مخالفَاتٌ وأحوالٌ ذميمةٌ في السنة الثامنة من جهةِ مجاهَرتهم بالسبِّ والعداوةِ لأهلِ التنزيل، وما شاكل ذلك. فاستحقوا غضَــبَ الباري سبحانَه، فامتحنَهم واحتجبَ عنهم في السنة التاسِعة... »[٢٣].

بسبب هذا الخطر الجسيم المتأتّي من انتسابِ أهل التأويل إلى الموحدين، لم توفِّر كتبُ الحكمة الطعْنَ بهم ولَعْنَ تعاليمهم الفاسدة، فكتبَ بهاءُ الدين المقتنى رسالةً بعنوان « ذكرُ الردّ على أهل التأويل »، يناديهم فيها بقوله لهم: « يا سَهَوَةً... ويا غَفَلَةً... ويا بَلَسَةً... يا مَثَلَــتَ البهائِم، ويا سَلَبَة العزائم... يا خَرَصَةً... يا ظَلَمَةً... يا أهلَ النَصَفَةِ... لقد ادّعيــتم البهتــانَ، وسلكتم طريق العدوان... »[٢٤].

*****

هكذا، وبهذه الصورة، يقضي الموحدون على شيعة علي بن أبي طالب، وعلى شريعته الشركية الفاسدة والمضلّة. ويومَ يحينُ زمنُ المَعَاد الأخير لن يبقَ من أهل التأويل واحدٌ أَمــامَ جبروت قائم الزمان « وسوفَ يُخْمَدُ حَرُّها ويضمحِلُّ العَوار »[٢٥]، وينتصرُ دينُ التوحيد.

---

(٢٣) مخطوط « مختصر البيان... » رقم ١٤٤١، ورقة ٧٠ ب ـ ٧١ ب.
(٢٤) رسالة ذكر الرد على أهل التأويل ٧٥ / ٦٧٨ ـ ٦٨٣.
(٢٥) السيرة المستقيمة ١٢ / ١٢٤.

سادساً ـــ نَقْضُ دَعَائم الإسلام جُملة

قيل في الحكمة: « ولا تستَحسِنوا الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطن. ومن جملةِ الخبائثِ الدعائمُ السبعةُ الذينَ هم: الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحجّ، والجهاد، والولاية »[1]. هذه « الفواحش » و « الخبائث » قد نقضَها الموحِّدون واحدةً فواحدةً، ظاهرَها وباطنَها، أصولَها وفروعَها؛ وألّفَ قائمُ الزمان في نَقضِها رسالةً سمّاها: « الكتاب المعروف بالنقضِ الخفيّ »[2]، وبيّن، في سيرةِ الحاكم بأمرِ الله وتصرّفاتِه وتعاليمه، كيفيّةَ نقضِها وبطلانِها دعامةً دعامةً.

١ً ـــ نقضُ الشهادتين: « لا إله إلاّ الله / محمّد رسول الله ». إنّها تعني عند الموحدين غير ما تعنيه عند المسلمين. فهي دلالات لمداليل مختلفة: فـ« لا إله إلاّ الله » كلمتان: « لا إله / إلاّ الله »، الأولى سلبية، والثانية إيجابية، وهما دليل على « العقل والنفس ». وهي أربعة فصول، أي أربع كلمات: « لا / إله / إلا / الله »، وهي دليل على الأصلين والفرعين في المذهب: العقل والنفس والكلمة والتالي. وهي

(١) تفسير كشف الحقائق، ص ١٨٤، مخطوط ١٤٤٠ ورقة ٧٩ أ.
(٢) كتاب النقض الخفي، رقم ٦ من الجزء الأول، ص ٤٩ ـ ٦٣.

سبع قطع، أي سبعة مقاطع صوتيّة دليل على النطقاء السبعة، والأوصياء السعبة، وسبعة أيّام الأسبوع، وسبع سموات، وسبع أرضين، وسبعة جبال، وسبعة أفلاك. وأمثـال هـذه أسـابيع كثيرة. وهي أخيراً اثنا عشر حرفاً، دليل على اثني عشر حجّة أساسية لدعوة التوحيد.

أمّا الشهادة الثـانية « محمّد رسول الله » فلهـا أيضـاً مدلولات: فهي ثلاث كلمات « محمد / رسول / الله » دليل على ثلاثة حدود التوحيد: النفس والكلمة والتالي. وهي سـتّ قطع دليل على ستة نطقاء أصحاب الشرائع الناموسية التكليفية الذين يخرج منهم محمّـد بـن إسمعيل لأنه لم يكن له شريعة. وهي اثنا عشر حرفاً دليل اثني عشر حجـة بـازاء الحجـج السابقة، وكذلك السماء اثنا عشر برجاً، والأرضون اثنتا عشرة جزيرة... الخ.

فالمقصود التوحيدي إذن من هاتين الشهادتين ليس هو نفسه مقصود المسلمين. ولـئن سمعتَ الدروزَ يقولونها فإنّهم يعنون بها أمراً مِن دينِهم، وهي ترمزُ عندهم إلى بطلانِ محمّـدٍ والإسلامِ والمسلمينَ كافّة[٣].

٢ ــ نقض الصلاة: يأمر القرآن بإقامة الصلاة في خمسة أوقات. ويقول: من تـرك صلاتَه ثلاثاً متعمِّداً فقد كَفَر. ويأمرُ بقوله: « صَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ »[٤]. فالصـلاةُ والنَحْـرُ اذن واجبانِ على المسلمين...

إلاَّ إنّ « مولانا ــ بحسب الموحدين ــ له سِنِينَ بكثرةٍ ما صَلّى بنَاسٍ، ولا صلّى على جَنازةٍ، ولا نَحَرَ في العيدِ... فَعَلِمْنا بأنّه قد نَقَض

(٣) انظر النقض الخفي ٦ / ٥٠ ـ ٥٤.
(٤) سورة الكوثر من القرآن ١٠٨ / ٢.

الصلاةَ والنَحْرَ... وأنّ لعبيدِهِ رخصةً في تركِهما »[٥]. أمّا الاوقاتُ الخمسةُ ثم الثلاثةُ فتعنـــي الحدودَ الخمسة: العقل والنفس والكلمة والسابق والتالي ثم الجدّ والفتح والخيال، ومن أنكرَهـــا فقد كفر...

فالصلاة، بحسب دين التوحيد، بِمَعْنَيَيْهَا الظاهرِ والباطنِ، هي « صِلةُ قلوبكم بتوحيـــدِ مولانا. هذه هي الصلاة الحقيقية دون الصلاتين الظاهر والباطن »[٦]. وجميع ما يتبعُ الصلاةَ من « نَحْرٍ، وحَجٍّ وتضحيةٍ وصومٍ وفطرٍ وتَرْوِيَةٍ وخروجِ الناسِ إلى مُنَى، ويوم عرفة، « إنّما كانت جائزةً في دور السَتْر، وإنّما حينَ ظهرَ تعالى بالألوهية ــ في دَور الكشفِ ــ فقد عَرف حقيقتها مَن سلّم للنهي والأمر »[٧].

٣ً ــ نقض الزكاة: لــ« قد أسقطَها مولانا جَلّ ذكرُه عنكم بالكليّة ». و « بطَّل باطن الزكاة... كما بطَّل ظاهرَها. وإن الزكاةَ غيرُ ما أشاروا إليه (المسلمون). وإنه فـــي الحقيقـــةِ توحيدُ مولانا، وتزكيةُ قلوبِكم وتطهيرُها من الحالَتين جميعاً، وتركُ ما كنتم عليه قديماً »[٨].

٤ً ــ نقض الصوم: مَن فَطرَ يوماً واحداً ــ بحسب المسلمين ــ وهو يعتقدُ أنّـــه قـــد أخطَأ وجَبَ عليه صومُ شهرَين وعشرةَ أيّام كفّارةً عن ذلك اليوم[٩]. ولمّا ظهرَ « مولانا هَـــدَمَ الصومَ بكمالِه مدّةَ سِنِينَ بكثرةٍ

(٥) النقض الخفي ٦ / ٥٥.
(٦) نفس المرجع ٦ / ٥٦.
(٧) رسالة أيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٦٢، انظر: ٤١ / ٣١٥ ـ ٣١٧.
(٨) النقض الخفي ٦ / ٥٧.
(٩) انظر: سورة المجادلة ٥٨ / ٥٤، وسورة النساء ٤ / ٩٢...

بتكذيب هذا الخبر: صُوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته (أي رؤية الهلال)، وأَمَرَنَا بالافطارِ في ذلك اليوم الذي يعتقد(ون) المسلمون كلُّهم بأنّه خاتَمُ الصومِ ولا يُقْبَلُ منهم الشهرُ إلاّ بصيامِه. ولا يكونُ في نقض الصوم أعظمَ من هذا ولا أبينَ منه لمَنْ نَظَر وتفكّر وتَدبّر ».

والصوم ــ عند الموحدين ــ هو صومٌ عن الأكل ــ أي عن شريعة الظاهر ــ والشربِ ــ أي شريعة الباطن، وذلك يعني أن الصومَ هو « بالحقيقة غيرُ الصومَين المعروفين من الشريعَتين، وهو صيانةُ قلوبكم بتوحيد مولانا جل ذكره »[١٠].

٥ً ــ نقضُ الحجّ: قال القرآن: « وللهِ على الناسِ حجُّ البيتِ مَن استطَاعَ إليه سبيلاً »[١١]. وقال أهلُ الظاهر عن الناطق: إنّ الحجَّ هو المجيءُ إلى مكّةَ والوقوفُ بعَرَفَات وإقامةُ شروطِه... ومَنْ دخل الحَرَمَ كان آمِناً...

إلاَّ إنّ الدروزَ رأوا في هذا الحَرَمِ قَتْلَ الأنفسِ ونَهْبَ الأموالِ، وشاهدوا داخِلَ الكعبةِ السَرِقَةَ. لذلك فإنّ جميعَ ما يعملُه المسلمون من « شروطِ الحج فهو ضَرْبٌ من ضُروبِ الجُنونِ: مِنْ كشفِ الرؤوسِ وتَعْرِيَةِ الأبدانِ ورميِ الجِمَارِ والتَلْبِيَةِ من غيرِ أنْ يدعوهم أحدٌ، وهذا مِنَ الجنون... ومولانا جلّ ذكره قد قَطَعَ الحجَ سِنِينَ كثيرةً، وقطعَ عن الكعبةِ كَسْوَتَهَا. وقَطْعُ كَسْوَةِ الشيءِ كشفُه وهَتْكُه ليبيّنَ للعالمِ بأنَّ المرادَ في غيرها، وليسَ فيها منفعةٌ »[١٢].

---

(١٠) النقض الخفي ٦ / ٥٧ ـ ٥٩.
(١١) سورة آل عمران ٣ / ١٧.
(١٢) النقض الخفي ٦ / ٥٩ ـ ٦٠.

وفي تفسير « الحكمة » لقول القرآن: « فَلْيَعبُدوا ربَّ هذا البيتِ الذي أطعَمَهم مِن جوعٍ وأَمَّنَهُم مِن خوفٍ »[١٣] أن « البيتَ هو توحيدُ مولانا »، و « ربَّ البيت هو مولانا »؛ و « الجوعُ يعني الظاهر »، و « الخوفُ يعني خوفَ الشكوكِ من الوقوفِ عند الأساس »[١٤].

٦ً ـ نقضُ الجهاد: بالجهادِ « قامَ محمّدٌ وأظهَر الإسلامَ، وجعلَه فرضاً على سائر المسلمين كافّةً. وقد رَفَعَه مولانا عن سائر أهلِ الذمّة ». ونقضَ باطنَ الجهادِ وظاهِرَه. والجهادُ الحقيقيُ، عند بني معروف، هو « الطلبة والجُهْدُ في توحيدِ مولانا ومعرفَتُهُ، ولا يُشرِكُ به أحدٌ من سائر الحدود، والتبرّى من العدمِ المفقود »[١٥].

٧ً ـ نقض الولاية: قال القرآن: « أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرسولَ وأولي الأمرَ منكم »[١٦]. وقالـ(وا) أهلُ الظاهر وسائر المسلمين كافّة بأنّ الولاية لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكانت في بني أميّة، ثم رجعتْ إلى بني العباس. وكل واحد منهم إذا جَلس في الخلافةِ كانتْ ولايته واجبةً على المسلمين كافّة ».

« وقد نقضَها مولانا جلّ ذكره وكتبَ لعنةَ الأوّلين والآخرين على كل بابٍ ونَبَّشَهُم مِن قبورِهم »[١٧]، وأصبحتِ الولايةُ الحقةُ لقائمِ الزمان.

(١٣) سورة قريش ١٠٦ / ٤ ـ ٥.
(١٤) النقض الخفي ٦ / ٥٩ ـ ٦١.
(١٥) نفس المرجع ٦ / ٦١.
(١٦) سورة النساء ٤ / ٥٩.
(١٧) النقض الخفي ٦ / ٦١ ـ ٦٣.

هكذا، وبهذه الصورة، قضى دينِ التوحيد على كل ما يقوم عليه الإسلام، في ظـاهره وباطنه، ودكَّ أركانَه، وأبطلَ تعاليمَه، ونقضَ أسُسَه، وأوّلَ آياتِ القرآن بما يوافـقُ مبادئَـه، وطَعَنَ بنبوّةِ محمّد، وبولايةِ عليّ وإمامتِه، واعتبرَ أنَ كلَ ما في كتابِ المسلمين يشـيرُ إلـى دعوةِ التوحيد، وإلى قائم الزمان وحدودِ الدعوة: فـ« بسم الله الرحمن الرحيم » هي « صفات الإمام وحدوده »، و « الجنّة » هي التوحيد، و « النار » هي الشرك، و « طُول الجنّة » هو العَقل، و « عرضُها » النفس... الخ

ولئن اعتمدَ الموحّدون على القرآن وتَلوا آياتِه فالمقصودُ مـن ذلـك غيـرُ مقصـود المسلمين. وكم مرّة يصلّون على محمّد جَهْراً ويذكرون اسمَه الطيّبَ على مسامعِ الناس، ثـم يُدمدِمُون في سرِّهم « لعنَ الله مَن ذكرنا » أو « لعنةُ الله عليـه »[١٨]، أو يتنحنحـون عنـد ذكره[١٩]...

هذه الدعائم الإسلاميّة السبع التي نقضَها قائمُ الزمان، ونسخَ بها شريعةَ محمّد بتمامِها وكمالِها، وضعَ مكانَها سبعَ دعائم توحيدية: « أوّلها وأعظمها سِدْقُ اللسـان، وثانيهـا حِفْـظُ الإخوان، وثالثها تَرْكُ ما كنتم عليه وتعتِقدوه من عبادةِ العدم والبهتان، ورابعها البـراءةُ مِـن الأبالسة والطغيان، وخامسها التوحيدُ لمولانا جَلّ ذكره في كل عصرٍ وزمان ودهـرٍ وأوان، وسادسها الرِضى بفعلِه كيفما كان، وسابعها التسليمُ لأمرِه في السرِّ والحَدَثَان »[٢٠].

(١٨) كما روى لنا أحد الشيوخ الموحدين الأفاضل...
(١٩) سؤال ١٠٢ من تعليم الديانة الدرزيّة.
(٢٠) انظر: ٨ / ٧٢، ٧ / ٦٦، ٩ / ٧٤ و٨٠، ١٠ / ٨٨، ١٦ / ١٧٩، ٤١ / ٣١١، ٤٥ / ٣٤٨...

سابعاً ــ مَصيرُ مكّة وبيت الكعْبَة

لم يبقَ في الإسلام شيء إلاّ طُعِنَ بــه: محمّد هــو « الابليس الأعظــم »، والإسلام « شريعةٌ ابليسيةٌ تكبيلية »، والقرآنُ « أمَدَّهُ سلمان الفارسي »، ودعائمُ الإســلام « نُقِضَــتْ أصلاً وفرعاً »، العجائبُ التي جرتْ على يديّ محمّد « كَذِبٌ وتدجيلٌ »، وعلي بن أبي طالب « أنجسُ خَلْقِ الله بعد محمّد »، والمسلمون « في فهمِهم للحــق والحكمة أبلَهُ مــن الحِمــار والبَغْلِ »، والخلفــاء الراشدون « نُبِّشُوا من قبورهم »، والله ، فيمــا يُعَرِّفُ عليه المسلمون، « عَدَمٌ وكَلا شَيء » مِسخٌ مُتَعَالٍ قابِعٌ على عرشِه فوقَ السموات السبع... ...

بقي النظرُ في أمرِ « مكّة » محجّةِ المسلمين، وفي « الحجرِ الأسودِ » قبلةِ المؤمنين. فما هو رأي « الحكمة » فيهما؟ وكيف يكونُ مصيرُهما في اليوم الأخير؟ إنّكَ، واللهِ، تُــدْهَشُ لِما ستَقْرأ، وقد لا تصدِّقُ ما تَرى عيناك. ولكنّ الأمانةَ تقضِي علينا الدقّةَ في النَقْلِ والعَرْضِ، ولو سَئِمْتَ من كثرةِ التردادِ وحَشْدِ النصوص. تسمّع:

حمزة يحذّرُ من الركونِ إليهما: « الحذَر الحذَر مــن الأقاويــل الشــركية والأفعــال الكفرية. لا تركنوا إلى بيتٍ خَرَابٍ، ولا تجلسوا تحتَ ركنٍ معاب... فتهلِكوا عن بكرةِ أبــيكم بالجوعِ المدامِ والعطشِ التمام »[١].

وبهاء الدين المقتنى يعجب « من قوم قَطَعوا المفاوزَ، ولَقَوا في سَفَرِهم الهزاهِزَ إلى بلدٍ لم يكونوا بالغِيه الاّ بِشَقِ الأنفسِ قَصْداً إلى حَجَرٍ أسودَ وبيتٍ جَلمدَ، ليس فيه حياةٌ ولا نطقٌ. فأيّ عَجَبَ أعجبُ من قومٍ هذا فعلُهم؟! فيا ليتَ شِعري ما نفعُهم مِن تَقبيلِ الحجرِ الأسودِ؟ وما اكتسابُهم من العلومِ الحقيقيةِ؟ هل فعلُهم إلاّ كفعلِ النصارى في الصليب؟ بل هم أشدُّ عُتُوّاً، لأنّ الصليبَ موجودٌ في كلِ البلاد، والحجرَ الأسودَ يُسَافِرُ إليه أهلُ الضَلالةِ مِن جميعِ العِباد »(٢).

مكّة! ماذا سيحلّ بمكة؟

في نهاية الأزمنة ستُهْدَمُ مكّة وتُدَكُّ على رؤوسِ حَجيجِها، سَيُحَطَّم ركنُها، ويَسقُطُ حَرَمُها، ويُهْزَمُ المسلمون كافّةً أمام قائمِ ال،زمانِ كـ« البهائمِ والغَنَمِ »، ستهلِكُ « مَقْطَرَةُ الكفرِ أعني مَكّة »(٣)، وستُهْدَّمُ أسْوَارُ « دارِ الفاسِقينَ وَمَقِيْلِ الأبالسةِ والشياطين »(٤)، وستدورُ « رُحَى الخَسْفِ بديارِ الأنجاس »(٥)، وستَبورُ « مِن أطرافِها أرضُ الطغاةِ الفَسَقَةَ المكذّبين »(٦)... يومَها، سيكونُ النصرُ والغَلَبةُ للموحِدين، وتُرفَعُ رايةُ قائمِ الزمان فوقَ الجبال على رؤوسِ جميعِ البشر. وينتهي العالَمُ، ويرتوِي غليلُ أبناءِ حمزة بـ« أخذِ الثأرِ لدماءِ الموحِدين المظلومِين »(٧).

---

(١) رسالة البلاغ والنهاية ٩ / ٨١.
(٢) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٣٣.
(٣) رسالة إلى أهل اليمن ٦٠ / ٤٧٢، تأديب الولد العاق ٦٣ / ٤٨٩.
(٤) تمييز الموحدين ٦٦ / ٥١٧، القاصعة للفرعون الدعي ٦٤ / ٤٩٣.
(٥) التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٣.

إليكم ما تقوله الحكمة من فم الحكمة نفسها:

« قد أَفَلَ شمسُ الدجالِ الأعورِ (محمّد) وَقَمَرُه (علي) في المحاق... وتزلزلتْ أرضُه (مكّة) بالخَسْفِ... إذا تبلّجَ صبحُ اللّيلةِ الغراءِ، وقُطِعَ رأسُ النِحَل الشركيةِ، وقُضِبَ سَنَامُها... إذا تهتّكتْ أستارُ الإبليسِ الأعظمِ (محمّد) مؤسّسِها في القديم.. عند ذلك تهتزُّ الممالكُ بأقطارِ المعمورة... إذا طلعتْ راياتُ الملِكِ المظفَّرِ المسعودِ (حمزة) من الفجِّ العميق... وأدارَ بديارهم (ديار المسلمين: مكة) رُحَى المنون... وفاضَ طوفانُ القيامةِ بيَعْبُوبِ الدماء، وثَعَنْجَرَ شؤبُوبه لِهَدْمِ دَارِ الفاسِقين (مكة) وَهَمَا... فكسفت شموسُ (خلفاء) دجالِ السُها (محمّد)... فانتبهوا أيّها الغفلةُ المكذّبون (المسلمون) »[٨].

في اليوم الأخير إذا « صاحَ صائحُ القيامة والنشورِ (حمزة)، وآنَ البعثُ لِمَنْ في الأجداثِ والقبور... أينَ المفرّ... إذا استُلَّ مِن غمدِه الصارمُ الذَكَر (حمزة)، واقتدَحتْ بالنارِ والشرَرِ، وأتتِ السماءُ بغَبَشِ الأثيرِ والدخان، واسودَّ لِعِظَمِ يومِه الافُقَان، وأظلمتِ الأقطارُ لهلاكِ أولادِ الشيصبانِ (أهل التأويل أصحاب علي)، وانكسفتْ شمسُ الرجيمِ الدجّالِ (محمّد)، وغاصَ في بحرِ الخِلافِ والضلالِ، وهتفَ بأهلِ النكثِ والارتدادِ طوفانُ السيفِ، وهلاكِ مَقْطَرَةِ الكفْرِ وهدمِها، أعني مكّةَ وأهلَ الخيفِ. هنالك تبورُ الدجاجِلَةُ

---

(٦) تمييز الموحدين ٦٦ / ٥١١.
(٧) انظر: « نظرية الثأر عند الدروز » فيما بعد.
(٨) رسالة الايقاظ والبشارة ٥٦ / ٤٣٧ ـ ٤٤٠. انظر الرسالة بكاملها.

(النطقاء) في الآفاق والأقطار »[٩].

وتُنَبِّهُ الحكمةُ عمّا ستصيرُ إليه مكةُ فتقول: « تنبّهوا يا أهلَ البصائرِ الحائرةِ... فَعَنْ قليلٍ يتناهَى الأجَلُ محتومُ القَدرِ، وتتكسفُ شمسُ الدجالِ (محمد) لظهورِ القائمِ المنتَظَرِ (حمزة)، وَيفتَضِحُ أهلُ الشكِّ والنكثِ والارتياب (أهل التنزيل وأهل التأويل والمرتدون). إذا صَرَفَ فَنِيْقُ الحقِّ بالمِنْسَمِ والنَّابِ، وَضَرَبَ بِجَرَانِهِ أعني مَكّةَ مِنَ الكفرِ الثَبَجِ، وبَقَرَ خاصِرَةَ الباطلِ وفَرَى المِنْحَرَ منه والوَدَجِ[١٠].. إذا زَخَر بحرُ الحقائقِ (حمزة) من جانبِ الطورِ الأعلى (جبل مكة)، وضربَ مَوْجُهُ بالجريانِ فزلزلَ أركانَ الأرضِين السفلا (وادي مكة)، وعصفتْ أرياحُه بالعذابِ والسخطِ على عصاةِ الأممِ (المسلمين)، ودارتْ رُحَى الخَسْفِ بديَارِ الأنجَاسِ (مكة) وحلولِ النِقَمِ... هنالكَ تتصلُ الأنوارُ ببصائرِ الموحِدين، وينهضُ يَعْسُوبُ المؤمنين (حمزة)، ويتعالى ضياؤُه في الآفاقِ لكشفِ معلومِ الدينِ (الحكمة)، وتحلُّ أولياؤُه (الموحدون) بعد ظلمةِ الدجاجلةِ (الأنبياء) بالحَرَمِ الأمين (الكعبة).. فحينئذٍ انتظروا يا أمّةَ السوءِ (المسلمين) صيحةَ البَوارِ... فيا لَهَا من نقمةٍ إذا ظهرَ الأعورُ دجالُ العرب (محمّد)... فحينئذ انتظرُوا صيحةَ الفَناءِ يا كَدَرَ الأممِ، ويا بقيَّةَ عَبَدَةَ العجلِ (محمّد) والصنَم »[١١].

---

(٩) رسالة إلى أهل اليمن ٦٠ / ٤٧٢.

(١٠) « صرف »: صوت ناب البعير إذا حكّه على ناب آخر. « فنيق »: الفحل المكرّم من الجمال، ممثوله حمزة. « المنسم »: خفّ البعير. « جران »: مقدم العنق. « الثبج »: العظيم. « بقر »: شقّ. « فرى »: قطع. « المنحر » موضع النحر أو الذبح. « الودج »: عرق في العنق يقطعه الذابح... المعنى جملة هو: عندما يكون حمزة في آخر الأيام أمام أبواب مكة.

وتسألُ الحكمةُ عن مصيرِ مكة والمسلمين، وتعتبرُ مكّةَ « مقطرة الكفر »، أي منبعَه حيثُ يتقطَّرُ الكفرُ منها تقطيراً، ويتوزّعُ منها على جميعِ المسكونة، تقول: أينَ يُتاهُ بعالَم النجسِ والهلاكِ والمروقِ (المسلمين)؟ وأين المفرُّ بأهلِ الارتدادِ والخِلاف والفسوقِ (خونة الدعوة)، من سَيْلٍ عَرِمٍ... يهدمُ الأركانَ من نواميسَ الشرَع. أين يَذهبُ من شواظِه (غضب حمزة) أهلُ الكذبِ والنكثِ والزورِ، إذا همرتْ رواعدُه بالبعثِ جبالَ الحَرَمِ من جانبِ الطور، وتلألأتْ أنوارُه بالسقفِ المرفوعِ والبيتِ المعمورِ (مكة)، وزمجرَ شؤبُوبُه بأرضِ البَحْرَين واليمامة، وسحَب ذيلَه بالخَسْفِ لمقطرةِ الكفرِ والبابِ الأعظمِ لتهامة (مكة)، وعكسَ دخانَه لذَاتِ الفجاجِ والشعوبِ (أودية مكّة وشعابها)، وسَعَر نارَه بها لهدمِ الهيكلِ (الكعبة) وإحراقِ بصائرِ القلوب (مكة)...[١٢].

وتصفُ رسائلُ الحكمة الموحدين الدروزَ بـ« المرتقِبينَ لهدمِ دارِ الفاسِقين (مكة) في ظلّ راياتِ حقّهِ وبنودِه (أي حمزة)، البريِيّنَ ممّنْ شطنَ عنه لِعَمى بصيرتِه، وشَكَّ في ظهوره لطولِ الأمَدِ لِعَرَضِ نفسه وضلالتهِ وعنودِه، الذينَ عَيَّنَتْهم أسفارُ حكمته بالبَلَس والنِفاقِ والطغيانِ »[١٣].

ـ متّخذاً شكل حيوان جبّار مكرّم، عند ذاك يصرخ صرخة عظيمة تهتزّ لها أركان المدينة، فيرفس بخفّيه أبوابها الدهرية، ويضرب أو ينطح بعنقه جدرانها، ويسقطها حجراً حجراً، حينئذ يزول عنها الكفر العظيم المتأصل بها، ويشقّ الباطل المتحكّم في كعبتها، ويقطع شريان الحياة منها. هكذا تخسف ديار الأنجاس إلى الأبد.

(١١) رسالة التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨١ ـ ٤٨٣.

(١٢) تأديب الولد العاق ٦٣ / ٤٨٩.

(١٣) القاصعة للفرعون الدعيّ ٦٤ / ٤٩٣. سترفع، بعد هدم مكة، رايات حمزة على جبالها، ويدخل الموحدون إليها منتصرين...

لقد « آنَ هدمُ الحقِ (أي هدم حمزة لمكة) لِتمامِ المقدورِ (لقرب الأجل) لِمَبَانِي هُــبَلِهم القديمِ العتيقِ (لمباني الكعبة)، وتزلزلتْ أرضُه (أرض البيت الحرام) للخسفِ بِمَثَــالي آيــاتِهم ومدارسِ الشكِ والشركِ الحقيق[١٤]، وتقضّتْ من أطرافِها أرضُ الطغاةِ الفَسَقَةِ المكذّبين... أما تنظرون إلى حكمةِ البار الحكيم، وارساله الزلازل لزوالِ أستارِ البيتِ العتيقِ القديمِ، وهجــومِ الرواجفِ لهدمِ المساجدِ والجوامعِ والبِيَعِ، إشارةً وأذاناً من البارِ لِنَقْلِ الدُوَلِ وتمحيقِ الشرَع...

« أتقولون إن الصواعقَ النازلةَ بأستارِ المِشْعَرِ على رايكم والبيتِ الحــرامِ، وشــقَّها للركنِ من معبدكم والمقامِ، وخَرابِ المساجدِ والجوامعِ والبيعِ ببلدِ الشام...[١٥].

« فها هو قد قَرُبَ... قلعُ العلامةِ النجِسَةِ المعيّنةِ في كتابِ دانيــال بهيكــلِ الــدجالِ الخبيثِ الأعورِ الفاجرِ (كعبة محمّد)... وصرختْ بأرجائها (أرجاء الكعبة) البكــرُ الهَمُــوس، وطَحَنتْهم بأثقالِها العَوانُ الضَرُوس، وكَشَرَ للكشفِ عن نابِه الرئبالُ الفروس، وهَدَّر فَنِيْقُ الحَقِ بالصواعقِ والأَرجافِ، ونَهض لأخذِ الثأرِ ساداتُ الأممِ رجالُ الأعرافِ، وقامَ لنصرةِ أســباطِ الدينِ لهلاكِ آلِ الشطنِ والإباقِ والخِلافِ، وأحيطَ بذاتِ الفِجاجِ دارِ الفاسِــقِين، وهَــدْمِ مَقِيْــلِ الأبالسةِ والشياطين »[١٦].

---

(١٤) « متالي آياتهم »: الجوامع الكبار. « مدارس الشك »، أي المدارس المظلمة التي نشأت في الإسلام (الدرر، ص ٣٩٢).

(١٥) « المشعر »: علامات الحج (الدرر، ص ٢٠٧).

(١٦) تمييز الموحدين ٦٦ / ٥١١ ـ ٥١٧. مكّة هي المكان الذي يرى فيه الأبالسة، أي الأنبياء، والشياطين، الأوصياء، راحتهم، ويأخذون فيها قيلولتهم بعد عنائهم الكبير في افساد الخلق أجمعين.

في اليوم الأخير، حين يَتجلّى الحاكمُ من جديد، ويظهرُ قَبْلَه صفيُّه قائمُ الـزمان حمزة « بالعسكرِ العظيمِ، فيظهرُ من الشرق حتماً، ويَسْحَبُ ذيلَه قاصِداً بيتَ مكّة، فتلاقيه ملوكُ الدنيا مِن مشارقِها إلى مغاربها... وتخرُّ الجبابرةُ له بينَ يدَيهِ على رُكَبِهم، وتجلسُ أعـداؤُه علـى الترابِ... فيظهرُ السيّدُ العظيمُ صلّى الله عليه بعساكِرَ وعظماتٍ، ومعجزاتٍ وآياتٍ، وهيبـةٍ وسلطانٍ، وعزّ وإمكانٍ، وخيلٍ شُزّبٍ عتاقٍ، وزينةٍ تبهرُ الآفاقَ... فحينئذ يتجلّى الملكُ العـلاّمُ جلّ جلالُه، ويظهرُ بينَ تلك العساكِرِ بالقدرةِ الربانيةِ... وفي ذلك اليوم يَأذنُ جلّ جلالُه بخرابِ البيتِ العتيقِ الذي هو الكعبة...

« وإذا حلَّ بمكة يجري الحقُ سبحانَه (الحاكم) على يَدِه (يد قـائم الزمـان) أمـوراً عظيمة، ما لا أذنَ سمعتْ، ولا عينَ رأتْ، ولا خطرَ على قلبِ بَشَـر... » (تفسـير كشـف الحقائق، ص ٧٨١ ــ ٧٨٦).

*****

إنّه يوم عسيرٌ جدّاً على مكة ومقدَّساتِها.

وقد يكونُ أخطرَ ممّا تُصبحُ عليه مَا قِيلَ عَنها.

وقد لا تصحُّ النبوءاتُ على مصيرِها التعيس، ولكنَّ ما قيل فِيها مَحَا عنها قدسيَّتها إلى الأبد. قـد لا تُهدّمُ أركانُ الكعبة، إلاّ أنَّ اعتبارَها « دارَ الفاسقين » وتسميتَها بـ« مقطـرةِ الكفرِ » وبـ« مقيلِ الأبالسةِ والشياطين » وَوصفِها بـ« ديارِ الأنجاسِ »... وصمتْ علـى جَبِينِها العارَ العظيمَ.

ثامناً ــ العَرَبُ « كَثرَ فيهم الغَدر » والخيَانَة

لم يوفّرْ بَهَاءُ الدين المقتَنى بلداً من بلادِ العَرب وشعوبها إلاّ وَجَّه إليهِ رسالةً يَـدعوهُ فيها إلى دعوةِ التوحيد، أو يلومُه على ارتدادِه وخيانتِه. الا أنّ أكثـرَ العـربِ كـان ذَميمـاً؛ والمحمودون كانوا خمسةً لا غير[1]. لقد كتبَ إلى العربِ عامّةً، وإلى أهلِ الـيمنِ والاحسـاءِ وحلبِ وجزيرةِ الشام وجبلِ السمّاق ووادي التيم، كما كتبَ إلى أهلِ العِراقِ وإيران والحجـازِ ومصرَ وغيرها. ويبدو أنّه لم يكنْ معهم على وِفاقٍ، ولم تظهرْ منه لهم أيّةُ مودّة. وقد وَصفَهم بشناعةٍ، وخصَّهم بالطَعْنِ والقذْف.

لقد كتبَ إلى العرب « من أهلِ العِراقَين والزَوراءِ، وما وَالاَها، وَمَنْ بأرضِ فَـارِسَ وأقطارِها ومَا وَراها، وجميعَ الأمم السالِفة والآنفةِ، أولـي الأسـماءِ المتباينـةِ والمتواطئـةِ والمترادفةِ »، ووصفَهم بـ« أهلِ النكثِ والتبديلِ والتضييعِ »، وبـ« أصحابِ الأجسامِ الخاليةِ من الأرواحِ، والهياكلِ القائمةِ كظلالِ الأشباحِ »، وبـ« عـالَمِ التَلَفِ والبَـوارِ »، « الغفلـةِ النوّامِ »، « أهلِ البلسِ والضلالِ والعَمى »، « أولي السَغَبِ والسَفسـافِ والظَمَـى ». هـم، بنظره، « كشواردَ من الأنعـامِ، أو كالعُجـمِ الأطرافِ الممنوعةِ مِنَ الفَهمِ والكلامِ »، الـذين « يأتمرون لفراعنةِ بني العباسِ، ويَذكُرون نجَسَهم في

---

(١) كتاب الدرر المضيّة... باب « ب » فصل « ع »، ص ٣٨ ـ ٣٩.

صلواتهم ». لقد سَمِعُوا تعاليمَ النبي محمّد « الإبليسَ الأعورَ الأشأم »، ووقعوا فــي حبائلِــه. ولمّا دخَل بعضُهم في الدعوةِ الجديدة، لم يلبثْ أن تَركها وخانَ دُعاتَها، لأنّ أكثرَهم « أهلُ شكٍّ وشركٍ وارتدادٍ ومروقٍ ونِفاقٍ »، مكذِّبون، فَسَقة، مارِقون، سكَارى، « فــي بحــرِ الجهالــةِ والتفريطِ غَرِقون »[٢].

وليس أفضلَ منهم « أهلُ جبلِ السَمَّاق وأنطاكيّا والجُزُرِ والنُقْــرَةِ وجَنْــدِي قِنِّسْــرِين وَعَزاز وحَلب وبَالَسَ والرِقَتَين ونهرِ الخابورِ والجزيرةِ ومَنْبجَ ونهرِ الجوزِ والوادِيين ونهــرِ الذَهَب » الذينَ طغى عليهم قَرْنُ الشيطانِ وطَغى، وكثرُ فيهم أهلُ الارتدادِ والنكــثِ، الــذين قاتلوا الموحدِين بأسلحتِهم، وعَبَدوا العجل (محمد) والجاموسَ (علي). ويطلبُ بهاء الدين مــن الله القدير أن يَجْتَثَّ شَجَرَتَهم من أصولِها[٣].

وقد يكون سكّانُ « الشامين الأسفل والأعلا، ومَنْ بالصعيد، والحِجازِ، وأرضِ اليمن، ومَن بالجزيــرةِ والعِرَاقيــن الأبعد والأدنى »، أكثرَ شرّا وفساداً من كلِ العرب، لأنّ أكثرَهم « جهلةٌ، غفلةٌ، نوّامٌ، تَعامَوا عن الحقِّ »، حتى أضحوا « أخبثَ الأممِ، أشباهَ البقرِ والغــنم ». وهم « أجلافٌ غلفُ القلوبِ، أولادُ البغايا والعواهر »، « أهلُ الخلافِ فراعنةُ العرب »[٤].

(٢) رسالة الايقاظ والبشارة ٥٦ / ٤٣٥ ـ ٤٤١.
(٣) رسالة الحقائق والانذار والتأديب لجميع الخلائق ٥٧ / ٤٤٢ ـ ٤٥٢.
(٤) رسالة العرب ٥٩ / ٤٦٣ ـ ٤٦٧.

ولكنّ بين العرب ساداتٍ آمنوا بالتوحيد، ومنهم ستةُ أمراءَ من آل تنّوخ وفروعهم جَعَلهم بهاءُ الدين « ملوكاً على رِقَابِ العَرَبِ، وحكّاماً فيها لأجلِ اعتناقِهم دينَ الحق، وهم من كريمِ النَسَبِ »(٥).

غير أن صفاتِ أكثرِهم ذميمةٌ رذيلةٌ لا مدحةَ فيها. فهم، كما عرّف عنهم ابن خلدون، غدّارون، خائنون، سَهلوُ الانقياد، لا دينَ لهم ولا وفاء. كذلك عَرَّفهم بهاءُ الدين، فقال عنهم: « ... والطريقُ السَهلَةُ فهي مَع العربِ، وقَد كَثُرَ فيهم الغَدْرُ وقِلَّةُ الوَفَاءِ بالذَمامات. وقد أَذَلّوا جَارَهم بَعدَ العِزِّ، وخَانُوا في الرَفَائقِ والأمانات. وأهلُ الديانةِ منهم أيضاً فهم قَلِيْلٌ، وقد شَسِعُوا عنّا لتغييرِ الأزمانِ والأوقاتِ »(٦).

أمّا أهل اليمن فهم، بنوع خاص، « الذين استعبدَهم الإبليسُ الأعظمُ (محمّد) الذي سَعَرَ نارٌ ضلالتِه، وبثَّ غواته للفتكِ بأهلِ الحق... ونفث سُمَّ نَجَسِهِ في أنيابِهم... وقد ثَاروا على الموحِدين كالنمورِ الضاريةِ والسباعِ، أو كالأراقمِ المزمنةِ والأفاعِ »(٧).

وأمّا أهلُ القاهرةِ والفسطاط (مصر القديمة) الناكثينَ عن دعوةِ التوحيدِ فقد سَيطر على عقولِهم الدجالُ الرجيمُ الأجذعُ... وهم أهلُ البصائرِ الحائرةِ الكليلة، أولو الأنفس السقيمة العليلة، وأهلُ الشكّ والنكث والارتياب. نفوسُهم نَجِسَةٌ خبيثَةٌ. طَمَس الرّانُ على عقولِهم، فمنعَهم التمييزَ بين الصحيحِ والسقيمِ. وهم أهلُ غَدْرٍ ونكثٍ، أمةُ سوءٍ،

(٥) الجميهيريّة، ٥٠ / ٣٦٥ ـ ٣٧١، انظر ٦٨ / ٥٤٧.
(٦) رسالة السفر إلى السادة ٦٨ / ٥٤٩.
(٧) رسالة اليمن ٦٠ / ٤٦٨ ـ ٤٧٣.

مَرَقة فسّاق، كَدَرُ الأممِ، وبقيةُ عَبَدَةِ العجلِ والصنمِ »[٨].

هؤلاء المصريون، كما يقول عنهم بهاء الدين: « أحوَجُونا إلى التغـرّبِ... ومنعُونَا التبرّكَ بِتُرَابِ حَرَمِ الميمونةِ القاهِرَةِ »[٩].

ولم ينثنِ بهاءُ الدين عن قذفِ العربِ بالشتائمِ واللاعناتِ، فراحَ يكتبُ إلى أهـلِ وادي التيم « الاخيبِ »، وحلبَ « الملعونةِ »، وأهلِ القاهرةِ ومصر « العاجزةُ نفوسُهم عن قَبـولِ الحق لإلفِها للخبلِ والانسفالِ، الخونةِ المنافِقين الأنجاسِ المرّاق، الأفّاكينَ، الهلكـةِ، الاغفـالِ، الكذبةِ المفترينَ، البهائمِ المهملينَ، الجحدةِ السوائم، حزبِ الضلالِ، آلِ البلسِ والشطنِ والعقوقِ والاباق... الذين لا ينزجرون عن المجاهرة بالفسقِ والمحارِمِ، ولا يرتـدعون عـن السـفهِ وارتكابِ المآثم، الـذين مزجوا الحكمةَ بالوَساخَةِ، والـذين ضـلّوا العـوالمَ بمـدِّ حبائـلِ الإبليس... »[١٠].

*****

مع هذا فـ« الدروز بعامة يعتقدون أنّهم عربٌ عريقون فـي العروبـة، مـا دامـوا ينتسبون في غالبيتهم إلى قبائل تنّوخ »[١١]، ويحتجُّون لذلك بـ« ان أسماءَهم عربية »، وبأنّهم « من أصحِّ الفروع العربية لفظـاً لبعضِ الحروف الهجـائية، أي الثـاء والـذال والظـاء والقاف »[١٢]، وبأنّ « لفظَهم بالعربي

(٨) رسالة التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٠ ـ ٤٨٥.
(٩) توبيخ ابن البربرية ٧٦ / ٦٨٨.
(١٠) تمييز الموحدين الطائعين... ٦٦ / ٥٨٨ ـ ٥٢٥.
(١١) مذاهب الاسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٦٣٧.
(١٢) سليمان أبو عزّ الدين، مجلة المقتطف، « أصل الدروز » ص ٧٨ سنة ١٩٣٠.

الفصيح... لا يساويهم فيه أحد من جميع سكان سورية »[١٣].

ولن يَنِي الدروز باستمرار عن تبريرِ انتمائِهم إلى العربِ والعروبةِ. ويؤدُّون في كل مناسبةٍ إعلانَ ذلك. فأمينُ طَليع، لشدّةِ خَوفِه على سَلبِ العروبةِ عنه وعن بني معروف، لا يفتَأُ يردّدُ بـ« أنّ الدروزَ عربٌ أقحاح »، وبأنّه « لا يوجدُ في العرب الجالين عن جزيرةِ العرب أصحُ عروبةً منهم »[١٤]. ومِثْلُه حافظ أبو مصلح: « والدروزُ عَرَبٌ أقحاحُ، حافظوا على نَقاوة دمِهم منذ نشأتهم، فلم يختلِطوا بالأتراكِ ولا بالفرنسيين. وهم يعتزّون بعروبتهم »[١٥]. ومِثْلُه عبد الله النجار الذي يَجعَلُهم « مضربَ الأمثالِ في ديار العروبة »[١٦]. أمّا الشيخُ وديع تلحوق فيُزايدُ على عروبيّي لبنان بقوله: « فكأنّما كانَ وجودُ الطائفةِ الدرزيّة في هذه البقعةِ العزيزة » لبنان « جاءَ ليحفظَ صِفةَ العروبةِ والاستقلالِ الوطني بهذا الجزء من العالم العربي، عندما غمرتْه موجةُ الفتحِ الغربيِ في ذلك الحين »[١٧].

وقد يكون صاحبَا « تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربيّ »، أشدَّ الغيارَى على عروبة الدروز الذين « ما عَرفوا في تاريخِهم أيَ انتماءٍ سياسيٍ طائفيٍ، بل كانوا دائماً حماةَ الأرضِ يُدافعون عن هويتِهم القوميةِ العربيةِ، ويَذودون عن هذه الأمةِ ضدَ غزواتِ الأجنبي ومطامعِ المستعمر ». بل إن تاريخَهم « إنما هو تاريخٌ وطنيٌ يستطيعُ أن يعطيَ المواطنَ العربي أمثولةً صالِحَةً في النِضالِ الوطني »[١٨]. الخ...

(١٣) شكيب أرسلان: « النقد التاريخي وعروبة آل معروف »، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٦١ سنة ١٩٣١، ص ٤٥٥.
(١٤) أمين طليع، أصل الموحدين الدروز، ص ٢٢ و٢٣.
(١٥) حافظ أبو مصلح، واقع الدروز...، ص ١١.
(١٦) عبد الله النجار، مذهب الموحدين الدروز، ط ٢، ص ٢٣٤.
(١٧) دور الدروز في التاريخ الوطني، في كتاب « الواقع الدرزي »، ص ٢١٨.
(١٨) تاريخ الموحدين... ص ٩ و١٠، انظر ص ١٥ ـ ٣٦.

تاسعاً ــ مَوقفُ دُروز اليومَ منَ الإسلام

إن أدهشَ وأغربَ ما نُفَاجَأ به اليومَ موقفُ الدروزِ المعاصرين من الإسلام والمسلمين. وقد يَضيعُ قارئُ الكُتبِ الدرزيّةِ المعاصرةِ ضَياعاً تامّاً لكثرةِ ما فيها من مغالَطاتٍ حيالَ هــذا الموضوع. فالدروز يُعلنون، في كل حينٍ، انتماءَهم إلى الإســلام، ويُظهــرون، دونَ وَجَــل، فخرَهم بهذا الانتماء، ويُسارِعون، متأهبين، إلى ردِّ تهمةِ مُروقِهم عن الإسلام، حتى ولو لــم يكنْ هناكُ متّهِمون.

بل إن أكثرَ الكتبِ جرأةً في عَرْضِ العقيدةِ الدرزية تحاولُ تبرئةَ الدروز مــن هــذه التِّهم؛ ولو اضطُرَّ أحدُهم إلى إنكار الحكمة ورسائلها، لَفَعَلَ. والفعلُ واجبٌ، لأنّ « التَقِيّــة »، كما سترى، ليستْ كتماناً سلبياً للحقيقة وحسب، بل هي تمويهٌ وتدليس وتضليل. ولن يســتطيعَ أحدُنا، إنْ لم يتزوّدْ بكلامِ « الحكمة »، أن ينالَ ذهنَه أيُّ شكٍّ لعمقِ ما عندَ المعاصــرين مــن نِفاق، ولبراعةِ المضلِّين.

فها هو دكتور الفلسفة محمّد علي الزعبي في كتابه « الدروز ظاهرهم وبــاطنهم »، يفتتح صفحاتِه بقوله: « هذا الكتاب... قصدتُ (به) العثورَ على الحبلِ الذي يربطُنا كمــذاهبَ وفِرقٍ بالجذرِ المعصومِ: القرآن...

تلك هي الحقيقة: إن جميعَ الأعضاءِ الذينَ يشكّلونَ جسمَ المسلمين (ومنهم الدروز)... إن جميعَهم مسلمون »[١].

وعندما يريد الدكتورُ الردَّ على سالبي الدرزيّةَ نعمةَ انتمائِها إلى الإسلام، يقولُ لهم: هؤلاء « متجاهلينَ قوافِلَ حجَّاجِها المتردّدةِ بين مكّةَ والشوف، ومعابدَها التي لا تزالُ للآن تتمتّعُ بكلمةِ مسجد »[٢].

ثم يقدّمُ لنا برهاناً قاطِعاً على إسلاميّةِ الدروز فيقول: « هناك شخصٌ اسمُه إِلْيَاهُو، واسمُ والدِه كُوهِيْن، واسمُ بنتِه دَيْنَه، واسمُ زوجتِه إِستِير، وهؤلاء جميعاً يتكلّمون العِبْرِيَةَ، ويفرحون بأعيادِ المظالِّ والفطيرِ والحَانُوكَا. ماذا تقولون عن هذه الأسرة؟ نقول: هم يهود. وهناك شخصٌ اسمُه محمّد، واسم ولدِه علي، واسم ابنتِه فاطمة، واسمُ زوجتِه خديجة، ويُجيدون الحديثَ بالعربيةِ. ماذا تقولون عن هذه الأسرة؟ نقول: هم مسلمون عرب، مسلمون وعرب،مسلمون وعرب، مسلمون وعرب... »[٣].

وللدكتور أيضاً برهانٌ من إقامة الشعائر الإسلامية « كشَعِيرَةِ عيدِ الأضحى مثلاً، أو شَعِيرة الصلاةِ على الأمواتِ، أو شعيرة عقودِ الزواج ». فمَنْ أقامها فعلى أيِّ دينٍ يكون؟ طبعاً على الإسلام[٤].

ويعتمدُ الدكتور على قول أستاذِه ليردّدَه على مسامِعنا، وهو « إنَّ النِحلَةَ المتفرِّعَةَ من دينٍ ما لا تُسمّى دِيناً، بل مَذهَباً، فالعلويّةُ

(١) محمد علي الزعبي، الدروز ظاهرهم وباطنهم، ص ٦ ـ ٧.
(٢) نفس المرجع، ص ٩، مجلة الضحى، شوال ١٣٨٦ / ١٩٦٧.
(٣) نفس المرجع، ص ١٠ ـ ١١.
(٤) نفس المرجع، ص ١٠.

والدرزيّة مثلاً، مذهبان من مذاهب الإسلام، لا دينان »[٥].

ويتأوّه الدكتورُ لِجَورِ التاريخ وظلمهِ وكذِبِه فيقول: « آهِ ما أكذبَ التاريخ الذي يُـدوِّنَ بقلمِ السياسةِ؛ لقد نَسِيَ الفرنسيون، بل تناسَوا أَننا... اعتنقْنا الإسلامَ منذ انبثاقِ فجرِه، ولا نزالُ نبذل المُهَجَ في سبيله ». ثم يجيبُه على تأوّهِهِ هذا شيخٌ آخر ينطقُ من « أفلاذِ كبده »، ويقول: « مَن لي بمَنْ يبدّدُ بقلمهِ الصريحِ الجريءِ هذه الظلمات، ويقذفُ في أفكارِ السوادِ المحمومِ من الناس، حقِيقَتَنا نحن الموحدين، ليعلم الجميعُ صميمَ عُروبتِنَا وعراقةَ إسلامِنا »[٦].

ويَسمَعُ الدكتورُ من شيخٍ آخرَ « لا ينطِقُ إلاّ بما يتلجلجُ في نفسِه، ويدورُ في خلـده » فيقول: « تبّتْ يدُ السياسةُ التي تحاولُ تجريدَنا من عروبتِنـا وإسـلامِنا... لقـد... شَـرِعُوا (المعادون لنا) ينفثُون بينَنا، نحن المسلمين الإسماعيليين الموحِدين، رسائلَ نَبْرَأُ من مُحتَوَيَاتِها، وقد حذَّرْنَا من مطالعتِها كثيراً، بل ورأينَا مقاطعَتها »[٧].

بعد هذا يروح الدكتور في تعليمنا بقوله لنا: إن « الموحـدين فـرعٌ مـن الشـجرةِ الإسلامية، وغصنٌ من الأَرُومةِ العربية »[٨]، وإن « الأكثريّةَ المطلقةَ من الموحدين حافظـتْ على أركانِ الإسلامِ العمليةِ، كما ورثوها منذ صدرِ الإسلام، إذ يعلمون عِلماً يقيناً إن المسـلمَ مَنْ حافَظَ على أركانِ الإسلامِ، بريئةً من التأويلِ الملتوية »[٩]. ويقول لنا: لقد « دامتْ

---

(٥) نفس المراجع، ص ١٩.
(٦) نفس المرجع، ص ٢٠ ـ ٢١.
(٧) نفس المرجع، ص ٢٢.
(٨) نفس المرجع، ص ٢٥.
(٩) نفس المرجع، ص ٢٩.

جوامع الموحدين عامِرةً بأركان الإسلام... وتضاعفَ عددُ الذين فَهِموا أركانَ الإسلام »[١٠].

ثم ينادي الدكتورُ الإسلامَ ويناجيه: « الإسلام! ما أعظمَ هذه الكلمة! ما أسمى هذا التوجيه! ما أعمقَ هذا الفهم! إن الإسلامَ صديقُ العقلِ السليم، وزميلُ المنطقِ المستقيم، ودعامةُ المصلحةِ العامّة، وأخُ الإنسانيّةِ الكبير... وعلينا ــ نحن الموحدين ــ المتخذين قِدوَتَنا رسولَ الله نفسَه وأصحابَه الأُوَل الذينَ لا نزالُ نفتخِرُ بعصرِ خِلافتِهم الذهبي ». ولئلا يعتبَ الإمام عليٌّ وشيعتُه على الدكتور، لا بدّ من توجيهِ كلمةٍ لهم: فـ« عليٌّ إمامٌ، في العلمِ والشجاعةِ والزهدِ والتضحيةِ. ومَنْ أجدرُ مِنّا بخدمةِ الإسلام، والتعاونِ مع الذين يخدمونَه بإخلاص! »[١١].

وقد يظنّ القارئُ بأنَّ هذا الموقف من الإسلام هو موقف الدكتور. كلاّ. إنّ حمزةَ نفسَه يقول على لسان الدكتور: « لا خالقَ ولا معبود إلاَّ الله، لا نبيّ ولا رسول بعد سيّدنا محمّد صلّى عليه وآله وسلّم ». ويقدِّمُ لنا الدكتورُ حمزةَ بأنّه كانَ لا يبرحُ « يسهرُ على القيامِ بأركانِ الإسلام، وأن إيمانَ المسلمِ على مقدارِ تَمَسُّكِه بتلكَ الأركانِ. هذا هو الفهمُ الكاملُ الذي يطلبُه حمزةُ مِن مسلمِي وادي التيم وغيرِهم. فحتى ما نَرْغَبُ عنه، راضِينَ بما أورثَتْنا إياه عصورُ الجهلِ والانحطاطِ!؟ »[١٢].

وهكذا « لبَّى » الدكتورُ طلبَ شيخِه، وضاعفَ جهدَه، ورزقَه اللهُ من المراجعِ ما لمْ يكن في الحسبان. وما هي إلاّ بضعُ سِنين من الجهدِ

---

(١٠) نفس المرجع، ص ٢٩.
(١١) نفس المرجع، ص ٣٠ و٣١ و٣٤.
(١٢) نفس المرجع، ص ٥٤ ـ ٥٥.

حتى تفتّحتْ براعِمُ حسنِ نيّتِه عن هذه الزهرةِ الفوّاحةِ. وها أنذا أزفُّها لعشّاقِ المعرفةِ كتاباً، ليتضاعفَ بنورِ الشمسِ عِطرُها وشَذاها، مُدعِماً بمراجعَ موثوقةٍ مخطوطةٍ ومطبوعةٍ بالعربيّةِ وسوَاها »[١٣].

هذا الكتابُ بَحَسبِ مؤلِّفه هو « زهرةٌ فوّاحة ». ولكنّنا، أمانةً منّا للعلمِ، نسمحُ لأنفسنا بوصفه « كتابَ نِفاقٍ ». وأكبرُ ما فيه من نفاقٍ اعتمادُه على مراجعَ لا علاقةَ لها بالدرزيّة إطلاقاً. فها هو ذا، مثلاً، لا يعتمد، من الرسائل المائة والإحدى عشرة، إلا على خمسةٍ فقط، وهي كما قلنا عنها مراراً، لا تمتُّ إلى عقيدةِ دينِ التوحيد بصلة، هي « السجلُّ المعلّق، ومنشورُ الخمر، ورسالةُ التبشير بالإسلام (لعلّها « خبر اليهود والنصارى » رقم ٣) ورسالةُ الردّ على القرامطة، ورسالة الغيبة »[١٤]. هذه الرسائل تعترفُ بنبوّةِ محمّد دون إحرَاج، وتعتبرُ الحاكِمَ أميرَ المؤمنين وخليفةَ الله على الأرض. ويستطيعُ الدروز البوحَ بها دونَ حِيطة وحَذر.

ولكنّنا نأسفُ فِعلاً لتضليلِ الدكتورِ لنا بإثباتاتٍ علميةٍ تاريخيّةٍ قد تَنطَلي على غيرِ العارفين بالدرزيّة. فهو يقول: « هذا كل ما عرفَه الموحدُون من رسائلَ تعودُ لنفسِ القرنِ الذي عاشَ بهِ الحاكمُ وحمزةُ وأبو يَعلى، وتتفقُ مع القرآنِ والدعائمِ وما كانَ عليه جميعُ الموحدين في عصرِ السيّدِ التنوخي »[١٥]. ونأسفُ للنفاقِ الذي صَبَغ به الزعبي العلمَ لِيُثْبِتَ بـ« التحليلِ الكيميائي صحةَ هذه الرسائل فقط »[١٦]. وهو يعلنُ دونَ

---

(١٣) نفس المرجع، ص ٢٤.
(١٤) نفس المرجع، ص ٨١ ـ ٨٤.
(١٥) نفس المرجع، ص ٨٤.
(١٦) نفس المرجع، ص ٨٤.

وَجَل من التاريخِ والعلمِ والحكمةِ نفسها فيقول: « وهذا المجموعُ (من الرسائل الخمسة فقط) هو وحدَه في الحقيقة الذي يُطلَقُ عليه اسمُ كُتُبِ الحكمة »، ويُضيفُ « لقد جاءَ الحقُ. فكلُ رسالةٍ أو تأويلٍ أو توجيهٍ لا يتفقُ مع هذا المجموع المحفوظِ الذي نجَحَ في فحصِ التحليلِ الكيميائي، هو موضوعٌ بَعْدَ عصرِ السيد التنوخي. وهو ممّا دعوناه بـ« الرسائل الطارئة »[١٧].

وهكذا يميّز الدكتورُ بينَ « الرسائلِ المحفوظة » و « الرسائلِ الطارئةِ »، ويتبيّنُ له أنَّ هذه الأخيرة « بسيطرةِ التحليلِ الكيميائيِ، كُتبتْ بوقتٍ يتراوحُ بين الثلاثمائة والثلاثمائة وخمسين عاماً، أي بعدَ عصر السلطان سليم »[١٨]. ويقيمُ القيامةَ على « الاكليروس اللبناني » الذي بثَّ « أفكاراً مسممةً، وعالجَ الأمور بـ« عقليةٍ متحجرةٍ » و « نَفس يهمُها الربحُ قصدَ من خلالِها الشهرةَ »، لأنه حاولَ كشفَ حقيقةِ الحكمة »[١٩].

ولكن، ما بالُ الدكتور محمّد الزعبي يغيبُ تماماً عن حقيقةِ هذه « الرسائل الطارئة » كما يسمّيها، وينفي نسبتَها إلى الدرزيّة!!! ألا يعلم الدكتور أن دروزاً مؤمنِين جريئين طيّبين مستنيرين مثلَه، وعلى رأسِهم شيخُ العصر محمد أبو شقرا شيخ عقل الطائفة الدرزية الذي تقبّل الشكر والتقدير من صاحبي كتاب « تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي » الدكتورين عبّاس أبو صالح وسامي مكارم الدرزيّتين[٢٠]، اللذين يُرجعَانِنا باستمرارٍ إلى « الأصولِ التوحيدية » وسائر الدرزيّة!

(١٧) نفس المرجع، ص ٨٤.
(١٨) نفس المرجع، ص ٨٥ .
(١٩) نفس المرجع، ص ٨٦.
(٢٠) تاريخ الموحدين الدروز... « شكر وتقدير »، ص ٥.

ولن نحمّلَ محمّدَ الزعبي وحدَه عبءَ هذا النفاق، بل أخلصُ الدروز لعقيــدتهم يقــفُ نفسَ الموقف من انتسابِهم إلى الإسلام والمسلمين.

فحافظ أبو مصلح، في كتابِه « واقع الدروز، معتقداتهم، خلواتهم، أدباؤهم »، لا يمــلّ من القولِ بأن الدروزَ « ينظرون إلى المسلمينَ كأخوانٍ لهم... وكانَ الــدروز بــالرغم مــن الافتراءات التي كانَ يُلقبها عليهم المسلمون الجاهلون لا يتنكّرون للإسلام، ولا يَعَملون ضدَه، ولا يحاوِلون المَساسَ به... والمسلمون اليوم يَعيشون في قراهم معزَّزِين مكرَّمين »... ويقول « وأمّا أركانُ الإسلام الخمسة لا ينكرونَها كما يُشاع عنهم »[٢١].

وكذلك هو موقف فؤاد الأطرش، في كتابِه « الدروز، مؤامرات، وتاريخ، وحقائق » فهــو يقول بصراحة: « الدروزُ إسلام، والانكار كالإثباتِ لا يُغيِّرُ شيئاً مــن هــذه الحقيقــة الساطعة »[٢٢]. ولكنّه، بعد ذلك، تقومُ قيامتُه على الذين لا يميزونَ بين الإســلامِ والدرزيّــة، فيقول: « قَرَأْنا الجرائدَ ونقرأها، فإذا هي لا تذكر من طوائفِ هذا الوطن ســوى المســلمين والنصارى واليهود... وهي لا تشأ أن تذكرَ أَنَّ في سوريا طائفةً لها مقامُها ولها نفوذُها، لهــا آدابُها ولها قوميتها، لها أخلاقَها، ولها وطنيتُها ــ ألا وهي الطائفة الدرزية الكريمة... »[٢٣].

والعجبُ كل العجب أن يقعَ السفيرُ عبد الله النجار، بعد عرضِه الشيّقِ للعقيدةِ الدرزية واطّلاعِه على نصوصِ الحكمة، في خطأٍ مثلَ هذا

(٢١) حافظ أبو مصلح، واقع الدروز، ص ٨.
(٢٢) فؤاد الأطرش، الدروز مؤامرات... ص ٩.
(٢٣) نفس المرجع، ص ١٤ ـ ١٥.

الخطأ... فهو أيضاً، وبدون جُرأةٍ منه، يريدُ حشرَ الدرزيةِ بالإسلام، فيقــول: « إن مــذهبَ التوحيد يُوصِي بممارسةِ الفرائضِ القرآنية »[٢٤] وثبتُ رأيَه بما جاء في « الســجلِ المعلّــق، وبفتوى محمّد شلتوت الذي أصدرَ البراءة من الأزهر بقوله: « لقد أرسلنَا من الأزهر بعــضَ العلماء كي يتعرّفوا أكثرَ على المذهبِ الدرزي. وجاءت التقاريرُ الأُولى تبشّرُ بالخير. فالدروز موحِّدون مسلمون مؤمِنون »[٢٥]. ولكنّنا بِتْنَا نخشَى على الأزهرِ نفسِه من ســخريةِ الســفيرِ النجار نفسه...

أمّا مع السيّد بايازيد فقد يكونُ المسلمون مقصّرين عن الــدروز فــي فهــمِ الإســلام ومحبّته. فهو يقول بأنّ الدروز « إنّما يعتبِرون أنفسَهم وَدِيْعَةَ الإسلامِ. وهم يعتبرون القــرآنَ المستَنَدَ الرئيسي لمصادرِهم الروحيّةِ ووحيهم وتأمّلِهم، كما يعتبرون الإنجيلَ والتــوراةَ مــن الكتبِ المقدسة... » ويقول: « إنما الموحِدون هم المسلمين الحقيقيين والأولين »، وربّما كانوا على تفوّقٍ في إسلامهم: « إنّما الموحِدون الدروز هم في طليعةِ المسلمين الحقيقيــين توحيــداً وتقرّباً إلى وجهه تعالى، وإيماناً بوحيه وقرآنِه وكتابه الكريم »[٢٦].

أمّا أكبرُ صعوبة فتأتي من أكثر المسلمين معرفةً بالدرزيّة. فالــذين قــرأوا رســائلَ الحكمة وكتبوا عن دعوةِ التوحيد، وألّفوا نصوصَها المقدّسةَ،

---

(٢٤) عبد الله النجار، مذهب الموحدين الدروز، ط ٢، ص ٢١٥.
(٢٥) نفس المرجع، ص ٢١٧.
(٢٦) أضواء على مسلك التوحيد « الدروز »، توطئة لبايازيد، ص ٧٣.

يصعب عليهم تصديق ما يقرأون:

فالدكتور محمد كامل حسين، على معرفته الصحيحة لعقيدة الموحدين، وتأكيده خروجَهم عن الإسلام، يعودُ، في خاتمةِ كتابه، ليعلنَ مع عارفِ النكدي بـ« أنَ الدروزَ مسلمون، كانوا ولا يزالون، وأنّهم لو لم يكونوا كذلك لصيَّرتْهم عربيتُهم مسلمين ». ومع أميرِ البيان العربي الأمير شكيب أرسلان بـ« أن الدروزَ فِرقةٌ من الفِرق الإسلامية... يقولون أنّهم مسلمون ويقيمون جميعَ شعائر المسلمين، ويتواصُّونَ بمرافقةِ الإسلام والمسلمين في السَراءِ والضَرَاء، ويقولون إن مَنْ خَرَجَ عن ذلك منهم فليسَ بمسلم... ويحفظون القرآن ». ومع الأمير السيّد جمال الدين التنوخي « الذي كان من الذين عَمِلوا إلى العودةِ بالدروز إلى مذهبِ أهل الجماعة والسنّة »[٢٧]. وليت الدكتورَ حسين اطَّلَع على شروحاتِ الأمير السيّد!

وأغربُ من الدكتور حسين موقفُ الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي عرفَ الدرزيّة ونقلَ رسائلهَا الخطيرةَ وتأكَّدَ من مُروقِها عن الإسلام. ومع ذلك لا يزالُ يصرُّ على إسلاميتهم، ويعتبرُ جمالَ الدين التنوخي خيرَ مرجعٍ لإصراره، ويَنقلُ عنه بأنّه « أمرَ بعمارةِ المساجد في القرى وتجديدِ الجوامعِ، وأنشأَ الأوقاف... ثم جَلَبَ الفقهاء إلى النواحي، وأقامَ الخطب أيّامَ الجمعات في كل قرية... ثم شدّد على القراءة الصحيحة في القرآن الكريم »[٢٨]. ويعتبر الدكتورُ أن « كل هذه الملامح تدلُ على تمسّكه بالقرآن وبالصلاة الشرعية الإسلامية. ولا يذكر لنا أيَّ مصدرٍ أنّ أحدا من الدروز قد أنكر عليه شيئاً من هذا. وهذا يدلّ دلالة قاطعة

---

(٢٧) طائفة الدروز، تاريخها وعقائدها، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٢٨) مذاهب الإسلاميين، الدروز، ص ٦٤٧.

على أنّ الدروز... لم يُسقِطُوا الفرائضَ الدينية، ولم يطّرحوا القرآنَ، ولم يترخّصوا في ركــن من أركان الإسلام، وكانوا يؤدّون الصلوات في أوقاتها، ويؤذّن المؤذّنون في أوقات الآذان... ففي هذا دلالة قاطعة على حسنِ اسلام الدروز... »[٢٩].

ونقول لهذا الدكتور ما قلناه للدكتور الآنف الذكر: أقرأتَ ما كتَبه الأميرُ الســيّد فــي شروحاتِ الحكمة!؟ أم إنّك تريد اكتسابَ الدروز إلى الإسلامَ بعفوك عنهم وعمّا يقولونه!!!

إن الذي يبدو لنا أنّنا وقَعْنَا جميعاً في حكم « التَقِيّة ». لقد وَقعْنا بين الــدروزِ الــذينَ يمارِسون على المسلمين التَقِيّة ليحفظوا كيانَهم، وبين المسلمين الذين يمارِسون التقيّــةَ نفسَــها على الدروز ليربَحُوهم في حظيرةِ الإسلام. واللهُ عونٌ لنا من شرٍّ يتطايرُ فوقَ رؤوسنا من كل صوب.

وزادَ الشرَّ تفاقماً فتوى صدرتْ عن جامعة الأزهر تعلنُ حقيقةَ إسلامِ الدروز، والتــي ارتاحَ إليها الدروزَ والمسلمون جميعاً. جاء فيها: « ... وحيث إن طائفةَ الدروز... ينطقــون بالشهادَتين، ويؤمنون بالقرآن، وبما جاء فيه من أحكامٍ تتعلّقُ بالتوحيدِ وبالتشريعِ، ولا يحصلُ منهم بجانبِ ذلك إشراكٌ لأحدٍ مع الله ولا مُناقَضةٌ للإسلام في قولٍ ولا عملٍ، فهم مســلمون، ولا يجوزُ لأحد حينئذ أن يتّهمَهم بعدمِ الإسلامِ، فإنّ اتّهامهَم بعدم الإسلام يُثِيــرُ الفرقــةَ بــين الجماعة الإسلامية، وربّما كان

---

(٢٩) مذاهب الإسلاميين، الدروز، ص ٦٤٧ ـ ٦٤٨.

هذا الاتّهام مقصوداً لتلك الفرقة المشؤومة، ولذلك نهى الله عن هذا الاتّهام بقوله تعالى: « ولا تقولوا لِمنْ ألقَى إليكم السلامَ لستَ مؤمناً ». والله تعالى أعلم »[٣٠].

رئيس لجنة الفتوى بالأزهر

محمّد عبد اللطيف السكبي

*****

بقي علينا في الختام ملاحظة هي: إن جميعَ الدروز هم على غرار الدكتور الزعبي، يتنكّرون، في الظاهرِ، لـ« رسائل الحكمة »، التي سمّاها الزعبي بـ« الرسائل الطارئة »، ويعتمدون، مثله، على « الرسائل ــ السجلاّت » الأربعة. ويُجمِعُون على القول بأنّ «الحكمة» لا يمكن أن يَحظى بها إنسان، وأن « كتابَ الحكمة » لا يوجد في أي مكان من العالم، بل لا يوجد منه سوى نسخة واحدة لا يَعرِفُ مكانَ وجودِها إلاّ الله. وأسهلُ طرق التنكرِ، عند الجهّالِ من الدروز، القولُ بأنّ هذه الرسائل ليستْ هي لهم، وهم لا يتعرّفون عليها إطلاقا[*].

(٣٠) نشرت هذه الفتوى في مجلة الضحى (الدرزية) الجزء الثاني عشر، كانون أوّل سنة ١٩٦٨ / شوّال ١٣٨٨ هـ. انظر: أمين طليع، أصل الموحدين الدروز، ص ١٠٥ ـ ١٠٧.

(*) بقي على سوانا البحث في الدرزيّة وعلاقتها بسائر الأديان كاليهوديّة والمسيحية والنصيرية. ومن أراد عن ذلك فكرة واضحة عليه بالرسائل: ١٥ و٥٣ و٥٤ و٥٥ و٧٢ و٧٣ وبكتاب « النصيريون العلويون ».

الفصل السابع

نَتيجَة المجَابهَة بَينَ الدرزيَّة والإسلام

أوّلاً ــ محنة الدروز وشدّة الاضطهاد

ثانياً ــ التقيّة

ثالثاً ــ استعمال الرموز والتأويل

رابعاً ــ سيف الانتقام والأخذ بالثأر

خاتمة الفصل

أوّلاً ــ محنَة الدُروز وَشدَّة الاضطهَاد

إنّ موقف الدروز من الإسلام والمسلمين جرّهم إلى تاريخ حافل بالمِحن والاضطهادات. منذ البدء شنَّ المسلمونَ عليهم حرباً ضروساً بقيادة الخليفة الفاطمي علي الظاهر « الدجال اللعين ». وبسبب ذلك غابَ الحاكم إلى الأبد، وغاب لغيبته صفيّه حمزة وسائر الدعاة، وتحمّل بهاءُ الدين المقتنى عبءَ الدعوة وقيادتَها بصبرٍ وألَم ودموع. وقد عبّر في رسائله عن مآسي الموحدين ونكباتهم، كما سبقه إلى ذلك حمزة نفسه، لما تعرّض له من المحن والعداء.

لقد رأى حمزة العداوة مستحكمة على الموحدين يشنُّها عليهم أهلُ الأديان والمذاهب عامّةً، فقال: « إن أهلَ الشرائع يرونَ محبّةَ الأعداء كافّةً، ولا يرونَ محبّةَ رجلٍ موحِّد »[١]. واعتبرَ المسلمين أشدَّ الأعداء أذى بحق الموحدين: « والمسلمون الجاحدون (السنّة) والمؤمنون المشركون (الشيعة) يقاتلونَك في بيتك، وهم أذيّةٌ لأهل التوحيد »[٢].

بيد أنّ قائم الزمان، قبل غيبته الأخيرة، عرفَ الاستفادَة من المحنة، وقال بضرورتها، لأنها تزيدُ الموحدين إيماناً وصفاءً ويقيناً:

---

(١) الموسومة بكشف الحقائق ١٣ / ١٣٧.
(٢) الكتاب المعروف بالنقض الخفي ٦ / ٦١.

فـ« المستجيب إذا كان فيه شكّ ووقع في هذه المحنة خرج زَيْفُهُ، وظهر ما كان فيه حَتْفُـه. ومَن كان مؤمناً بالِغاً في دينه سادِقاً في قوله صحيحاً في فعله كلّما زاده الزمانُ امتحانـاً زادَ في نفسِه يقيناً وإيماناً، كالفضّةِ الصافيةِ البيضاء التي كلّما زادتْ عليها النارُ في حَمَاهَـا زادتْ في جوهرِها وصفاها، كذلك الموحّد كلّما أرادَ به مولانا جلّ ذكره امتحاناً فهو راضٍ به صابرٌ لحكمِه »[٣].

وفي رسالته الأخيرة إلى الموحدين تَرَك لهم هذه الوصايا: « معشر الإخوان لا تصحّ الديانة إلاَّ عند الامتحان. ففي وقت السلامة والعافية يكونُ العالَم متساويان (هكذا)، لا فاضـل فيهم ولا مفضول، وإنّما تُنال الدرجات وارتقاء المنازل العالية المرتفعات بالصبرِ في وقـت الشدّة... فمن صَبَر على المكارِه نالَ المسرّات »[٤].

ثم ينصح حمزة أتباعَه بالصبر وبأنّ يكونوا مستعدين، لأن المحنة سوف تنقلبُ علـى أعدائهم: « كونوا أيّها الأخوان على هِبةٍ مِن أمركم، ولا تظنّوا الذي أنتم فيه شَرّاً لكم، بل هو خيرٌ لكم. فما تَمُرّ بكم إلاّ أزمان قلائل حتى تَرون مُخالفينَكم قد أُرْمِلَتْ منهم الحَلائِل، وأُوقِعُوا في الغوائل والمهالك، وسُلِبوا الأموال والممالك... فسوف أجعلُ أكابرهُم لأصـاغرِكم أَعْبُـدَ، وعزيزَهم لأحدِكم يطيعُ ويسجد، وأقتلُ المشركينَ والمرتـدين بسـيف مولانـا الحـاكم إلـه العالمين... »[٥].

ويوعدهم بتحطيمِ أعدائهم و « مَلْكِ ذراريهم وأموالِهم وأرضِهم،

---

(٣) رسالة الرضى والتسليم ١٦ / ١٨٠.
(٤) رسالة الغيبة ٣٥ / ٢٥٣.
(٥) رسالة الأعذار والانذار ٣٤ / ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

وخراب ديارِهم، وسبي حريمهم، وأولادهم، وإخلاطِ دم رِجَالِهم بدمِ كلابِهم. ويُوسَمون بسِمَةِ العبيد. وتَملكُ ضعفاؤُكم منهم كلَ جبّار عنيد... فاصبروا على الامتحان تنالوا المغفرةَ والاحسان »[٦].

ويتضرّع حمزة إلى باريه مناجياً ويقول: « يا مَن له العِزّة والتمكين، انصرنا على أعداءِ الدينِ، المارقين الجاحدين الناكثين، الذين نكثوا عهدَك وجَحدوا ميثاقَك وعَقْدَك، ومَرَقوا من دينِك، وأظهروا الفسادَ في أرضِك. فدمّر عليهم بِدَمَارِك، كما دمّرتَ على قومِ عادٍ وثمود، ودَمْدِمْ عليهم بيوتَهُم. إنّك علاّم الغيوب »[٧].

أمّا بهاء الدين المقتنى فإنّه يصفُ لنا المحنةَ التي كبّدتِ الدروزَ العذاباتِ المريرةَ والضحايا الكثيرة، ويتوجّهُ إلى المسلمين « أعوانِ الدجّال الرجيم الأجذع » الذين سفكوا دماءَ الموحدين وشربوه نَهْلاً. يقول:

« يا أيّها الغفلة... شربتُم بالظلم دِماءَ الموحِدينَ المظلومينَ نَهْلاً، وسَفكتُم الدمَ الحرامَ برضائِكم لِمَنْ أطلَّه عصياناً للحقِ وزَلَلا... فمِنْ حيثُ أَمِنَ أهلُ الحق على نفوسِهِم أتيتمُوهم، وبأسلحتِهِم قتّلْتُمُوهُم، ومن بيوتِهم وَمقاطِنِهم أزعجتُمُوهم، وعلى صَبرهم على البلايا والمِحَنِ وبّختُموهم... وساعدتُم جميعَ مَن قام على أهلِ الحقِ في ظُلمِه »[٨].

ويكمّل بهاء الدين وصف ما صنعه المسلمون بالدروز فيقول: « إن آل السَفه والفسقِ والجَهل والجحود، الذين رَفعوا بالبَلَسِ رؤوسَ

---

(٦) رسالة التحذير والتنبيه ٣٣ / ٢٤٤.
(٧) مناجاة ولي الحق ٢٩ / ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(٨) رسالة أيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٥٥.

الأشهاد على رؤوس الرماح، وسقَوهُم بالجَور والظلمِ كأسَ الذبَاح، مع مَن أُغرِقوا في البحار، وأَحرقُوهم بلهيبِ النار، وذَرُّوهم في الرياح؛ وقَتَلوا الجمَّ الغفير بسيوفِ الأضداد، بعد سبي النساءِ والأولادِ، وقطعِ قلوبهم والأكبادِ، وتعليق رؤوسِ الرجال الموحّدين في أعناقِ أخَواتِهم وبناتِهم، وذبحِ الأطفالِ الرُضَّعِ في حجورِ أمّهاتِهم.

فلم يَرعَوا لأحد في الله إلاّ ولا ذِمَّةً فيرحَموا صغيراً لِصَبْوَتِهِ وصِغَرِه، ولم يَعْفُوا عن كبيرٍ لشيخوخته وهَرَمِهِ وكِبَرِه، بل أَجْرُوهم على حدّ السيوفِ قَتلاً وصلباً، وفي الشوارعِ شَقّاً لبطونِهم؛ وجَرّاً بأرجلِهم وسحبَاً، ولأموالِهم وذراريهم سبياً ونهباً...

بل ذبحتمُوهم كما تُذبَحُ الجُزْرُ والغَنَمُ عداوةً لله، ووفاءً للفراعنةِ بالذِمم... فواأسفاهُ على أهلِ الحقِّ وعلى التخلّفِ من بعدِهم. ووالهفاهُ حسرةً واستوجاعاً لِفَقْدِهِم... »[٩].

ثم يصف بهاء الدين ما حلّ بالموحدين في كل مكان، ويشير على شموليةِ الاضطهاد واتّساعِه، من الاسكندريّةِ حتى أنطاكيّا. ومع هذا، بقي الدروزُ صابرين صامدين متحمّلين. لقد « هَدَرَ (الدجّالُ) دماءَهم في جميعِ البلدان، وتبعَهمُ هو وتبّاعُه في كل موضعٍ ومكان »[١٠] لقد « قاتَلونا بأسلحتنا من حيثُ أَمَّنَّا على النفوس »[١١] و « أظهروا العداوةَ والبغضَةَ لأهل التوحيد فعلَ الحسّادِ، وذوي الدَناءةِ والإنكارِ »[١٢]...

(٩) أيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٦٤ ـ ٦٦٥.
(١٠) مثلاً ضربه بعض حكماء الديانة ٤٣ / ٣٣٧.
(١١) رسالة الحقائق والانذار ٥٧ / ٤٥١.
(١٢) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٣٤.

ويقدّم بهاء الدين نفسَه مثالاً للموحدين المضطهدين، فهو أيضاً تعــرّضَ لـــــ« لأذى والضررَ من الغافلين المعتدين »... وتهجّرَ عن القاهرةِ، ومُنِعَ التبرّكَ بحرمِها[١٣]، ووصف لنا حالَه التعيسة، بعد اشتدادِ المحنَة عليه بقوله: « والجرعةُ ممّا تقذُفه القلوبُ، والدمعةُ النزرة ممّا تذرفُه العيونُ من الماءِ المسكوب، تزيدُ عليه ولـــو كانت أنهاراً، وتغمرُه ولو كـــان التكريـــرُ بحاراً »[١٤].

ويقول أيضاً في وصف ضيق حاله « وسعَةِ المسالكِ والبلدِ، وشعثِ الحـــالِ ومـــرارةِ العيشِ النكِدِ، لقلّة المؤازِرِ والسديقِ، وعدم الجارِ الصالحِ والرفيق. وقد تعذّرتْ علينا الطـــرقُ والمسالكُ، ونحن من أهلنا على شفا جُرْفِ المصائب والمهالك »[١٥]. حتى « ضـــاقَ الزمـــان على المكاتبةِ والجواب، وانقطعَ لحدّته القولُ والخطاب »[١٦]. وأصبحتِ الدعوةُ فـــي مصـــرَ صعبةً مستعصية: « إن التجارةَ بمصر قد كسدتْ لما فيها من ضيقِ السعرِ »[١٧].

هذه المحنة المريرة على بهاء الدين شدّدتْ من عزيمتـــه وأكســـبتْه فضـــيلةَ الصـــبر والاحتمال، ودعا جميعَ الموحدين المضطهَدين ليَقتَدُوا به، ويتحمّلوا المحنـــةَ بإيمـــانٍ ثابـــت. وصلّى إلى الله بقوله: « اللهمَ... أَلهِمِ الصبرَ لأهل الحق على هَرَجِ الشيطان ومتّبعِيـــه »[١٨]، ونصحَ أن « يلزَموا الصبرَ والاحتمالَ »[١٩] لأنّ للصبرِ والاحتمالِ ثواباً كبيراً[٢٠].

---

(١٣) توبيخ ابن البربرية ٧٦ / ٦٨٧ ـ ٦٨٨.
(١٤) جواب كتاب السادة ٩١ / ٧٧٢.
(١٥) رسالة الجبل الأنور ١٠٩ / ٨٣٣.
(١٦) جواب كتاب السادة ٩١ / ٧٧٤.
(١٧) كتاب على يد سرايا ٩٢ / ٧٧٥.
(١٨) رسالة أيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٦٩.

ولولا الصبر لكانت المصائبُ تفتُّ من عزمِ الدعوة. وغايةُ الصبر انتصارُ الموحـدين علـى أعدائِهم، وسعادتُهم عندما يجتمعون في نهايةِ الدهر بقائم الزمان وربّ العالمين: « ولولا إنّنـا نُصبِّرُ نفوسَنا ونُوعِدُ قلوبنَا بالاجتماعِ عند ظهور وليّ الحق وجسومُنا لكانتِ الحسراتُ تَغلبُ، والهمومُ تُنهِكُ وتُتعِب... »[٢١]، « وأيضاً لو لم يَلْحَق الموحدينَ ما يوجبُ الاحتسابَ والرضى والصبرَ على المِحن ومحتومِ القضا، لما فُضِّلُوا في يوم القيامة على البشر... فباختيارِ الأمـم للجَحْدِ والانكارِ يُعاقبون، وباختيارِ أهل الحق والطاعة والصبرِ على المحن يُثابون »[٢٢]. فلا بد أن تنجلي الليلة عن صباح مشرقٍ بهيج[٢٣].

وبسبب شدّة المحنة والاضطهاد أُغلِقَ بابُ الدعوة. فمَنْ دَخَلَها بقي فيها إلى الأبد، ومن لم يدخلْها بقي خارجاً عنها إلى الأبد. وعلى الذين يستطيعون الصبرَ والاحتمـال أن يوعِـدوا أنفسَهم بالرحمة التي لم تتوفّر لسواهم. والذين صَمَدوا جَلَبوا الرحمةَ عليهم وعلـى أولادِهـم وأولادِ أولادِهم إلى أبد الأبدين: « أيّها الإخوان فاغتنموا زمانَ الامهال، وتقرّبوا إلـى ولـيّكم بصالحِ الأعمال، قبلَ طيّ الصحائفِ وجفاف الأقلام، وغلقِ أبواب الرحمة وختمِ الأفواه، وقطعِ الكلام... »[٢٤].

---

(١٩) منشور نصر ابن فتوح ١٠٧ / ٨٢٧.
(٢٠) منشور نصر ابن فتوح ١٠٧ / ٨٢٨.
(٢١) منشور إلى آل عبد الله ٩٠ / ٧٧٠ ـ ٧٧١.
(٢٢) رسالة أيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٦٧.
(٢٣) منشور إلى آل عبد الله ٩٠ / ٧٧١.
(٢٤) توبيخ سكين ٧٨ / ٧١٤، انظر أيضاً: ٧٣ / ٦٤٨، ١ / ٣٠ و٣٢ و٣٣ و٣٤، ٥٧ / ٤٥١، ٨٤ / ٧٤٩، ٦٨ / ٥٤٤... ومواضع كثيرة غيرها في رسائل الحكمة...

ثانياً ــ التَقيَّة

إذا كان الصبر والاحتمال هما الدواء الناجع للمحنة، فإنّ في التَقِيَّة ما يُخمِدُ لَظَاها ويَعمَل على تهدئةِ ثورة المضطهِدين. في التقيَّة يخفي الدروزُ عقيدَتهم وحقيقَتهم وديـنَهم، ويُظهرون عقيدة مضطهِديهم، ودينَهم، ويتظاهرون بالمَألُوفِ عندهم. فالدروزُ مع الغالِب، والغالِبُ لا يرى فيهم أيَّ أمرٍ يُشِين. هم كالنعاج الطيّبة التي تُخضِعُ مِنحَرَها للجزّار طالما هي لا تقدرُ عليه. « لقد كانوا يفضّلون الوقوفَ على الحيادِ ما أمكن ــ على ما يقوله الدكتوران أبو صالح ومكارم ــ وإنْ لم يستطيعوا ذلك كانوا يميلون بشكل عام إلى جانب الفئة التي يرون أنّها سترجحُ كفّتُها في الصراع، والتي يمكن أن تقرَّهم على امتيازاتِهم المتوارثة في السلطة والحكم »[1].

*****

تقوم التَقِيّة على صونِ الحكمة عن غير أهلها، وعلى الحفاظِ على سرِّها وكتمانِها، وعلى الاحترازِ، والتدليسِ، والكذبِ على « الأضدادِ »، والتظاهرِ بالسنّةِ والمألوفِ عند أهلهِ. وبكل بساطةٍ وصراحة نقول بأنّ التَقِيّةَ تقوم على التظاهرِ بالإسلام ومحبّتِه وتلاوةِ آياتِ القرآن الكريم وإعلانِ نبوّةِ

---

(١) تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، ص ٣١.

محمّد وإمامةِ علي وإقامةِ شعائر الإسلام وأركانِه. يقول الأمير السيّد: « إنّ الأمــر فــي دور الستر بما يطابقُ الشريعةَ (شريعة الإسلام) جائزةٌ ولو كانَ تدليساً، والتدليسُ هو سَتْرُ الحقيقــة وإظهارُ ضدِّها، كالأمرَ بالصلاة والزكاة والصوم والحج وما شــاكل ذلــك، وكــالأمر إن الله سبحانه فوق السبع سموات، وكالأمر إنّ محمّد بن عبد الله هو الرسول الحقيقي. كل ذلك غيرُ الحقيقة، وتدليسٌ من إمام الزمان بأمرِ باريه، فلا لومَ عليه، ولا على مَن يتبعُه ويفعــلُ بمــا أمرَه، لأنه مأمور من قِبَلِ خالِقه، والخلقُ مأمورين (هكذا) من قِبَل إمام الحــق. وهكــذا كــلُ مذهب من مذاهبِ الشرائعِ كانوا الناسُ (هكذا) مأمورين يفعلوا بما جَارى قدّامهَم من الشرائع. وذلك تدليسٌ. لكن لم يأثِموا بذلك. ومع هذا التدليسِ الجاري في السَتْر كانت حدودُ الله يَلْغَزُوا بالحقــائق، ويُوعِزُوا إلى الناسِ إشاراتٍ إن الغــايةَ غيرُ في أيدِيهــم، وإنْ ســوفَ ينكشــفُ الأمرُ »[٢].

فالتَقِيّة إذن لا أن تخفي الحقيقةَ بل أن تقولَ بضدِها. والرسائل حافلــةٌ بهــا وبــدعوةِ الموحدين إلى العملِ بالظاهرِ (أي بالسنّة): « اعملوا بالظاهرِ ما دامَ نفعُه مســتمِرّاً، وحكمُــه مستقِرّاً... حتى يقومَ بالتوحيد... صاحبُ القيامة ». بعد ذلك، عندما يحينُ دورُ الكشــف « إن العملَ بالظاهر والباطن، بعد الكشفِ، غيرُ مقبول، والثوابَ عليهما غيرُ مأمول »[٣]. أمّا هنــا والآن في زمن السَتر والمِحَن فــ« مَن لاذَ بِحَرَمِهِ، وانفــردَ بكتمــانِ سِرِّه، فقد فــازَ بنائِلــه وبرِّه »[٤].

---

(٢) تفسير كشف الحقائق للأمير السيّد التنوخي، ص ٤٢.
(٣) أيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٦٩ و٦٧٠.
(٤) مناجاة وليّ الحق ٢٩ / ٢٣٠ ـ ٢٣١.

فالتقيّة أنْ تكون مسلماً مع المسلمين ونصرانياً مع النصارى ويهودياً مع اليهود وشيعيّاً مع الشيعة. أنْ تصلي صلاتَهم وتقيمَ فرائضَ عباداتِهم، وتعترفَ بنبــوّةِ أنبيائهم. إنّها وصــيّة قائمِ الزمان لِحدودِ التوحيدِ ولجميعِ الموحِدين، فهــو يشيرُ إلى « سفير القدرة، الكلمة » بقوله: « اجمعْ شملَ الموحّدين، وكنْ لهم في نَفَاسِهم وأعراسِهم وجنائِزهم على السُنّة التي رَسِمَتْ لهم »(٥).

وجاء في « تعليم دين التوحيد » ما يلي:

س: كيف نقدر نمشي مع النصارى أو مع الإسلام؟..

ج: ذلك يكون ظاهراً لنا، كما قال مولانا: احفظُوني في قلوبكم. ومثّل لنا مثلاً: إنه مَن كان تردَّى بثوبٍ أبيضَ أم أصفَر أم أسودَ أم أحمرَ أم أخضرَ، فجِسمُه هو هو إن كانَ صحيحاً أو مبتلِياً، فلا يقدّمُ ولا يؤخِّر معه ذلك الثوبُ، ولا يغيّرُ جسمَه إلاّ شكلٌ منه. وتشبيهُ الأديــانِ كالثوبِ، ودينِكم كالجسد، فابقوه في قلوبكم والبُسوا ما يلائم لبسه، وتظاهروا بذلك الدين غايةَ المظاهرة على قدر راحتكم.

س: وإذا دعينا إلى صلاة مع إحدى صلاة هذه الأديان، هل يجوز لنا أن نصلّي معهم؟

ج: صلّوا على أي ملّة كانتْ لا مانعَ على شيءٍ ظاهر لا يتمّ باطِناً. فافهموهم علــى قدر عقولِهم، ولكن احفظونِي في قلوبكم.

س: كيف نقدرُ نقرُّ مع الإسلام بمحمد ونشهدُ أنه فخرُ الخلائق

---

(٥) تقليد الرضى وسفير القدرة ٢١ / ٢١٠.

والأنبياء؟ وهل هذا محمّد نبي؟

ج: إن محمّداً نحن بالظاهر نقرّ به نبيّاً لأجل الاستتارِ والمُسَامَرة مع أمّته فقط، وفي الباطن نشهد به أنه قِرْدٌ وشَيْطَانٌ وابنُ زِنَا، لأنه حلَّلَ ما لا يَحلّ، وفعَلَ جميعَ الفواحشِ، واستحلَّ جميعَ النساءِ، وحلّلَ الفروجَ، ونكحَ الذكورَ، لأنه يقول في قرآنه: المؤمنةُ خيرٌ مِن غيرِ المؤمنة، والذكرُ المؤمِن خيرٌ من غيرِ المؤمن...

س: كيف تكونُ مخاطبتُنا مع أصحاب غير ملّتِنا، وهل يجوزُ لنا رفقتهم؟

ج: إن مولانا حمزة أمر بأنّنا نستر ونستتر في الديانة، الغاية كيف ما كانت النصارى كونوا معهم، أو إذا غلبتِ الإسلامُ كونوا إسلاماً، لأن مولانا أمرنا بأنّه أي ملّةٍ تغلّبتْ عليكم اتبعُوها واحفظوني في قلوبكم.

س: لماذا نُهلِلُ أمامَ الإسلام بابنِ القِردِ والشيطانِ وابنِ الزنا، ونقول لا إله إلاّ الله ومحمد رسول الله؟

ج: نحن نهللُ أمام الكافرةِ الخبيثةِ لأنَ لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله لأجل المساهمة والاستتار. ولكن نهلل باسم محمّد وهو ابن بهاء الدين المكنّى بمولانا قائم الحق.

س: وعيسى النصراني الكذاب هل هو نبي؟

ج: كلا ليس نبياً بل تاركٌ في إنجيله بعضَ أقوال باطلة لا صحةَ لها.

س: كيف نقدر نعمل مساهمةً مع أمّته؟

ج: كما أوصانا مولانا ظاهراً، نقول حقّ المسيحِ النصراني قدّامَ

أمّته النصرانيّة. فهم يظنّون أننا نحلف بمسيحهم الكذّاب، ولكن باطناً يرجع قولنا إلى مولانا سلمان الفارسي...

س: والمتاولة أمّة عليّ ماذا نقول بهم وهل هو نبي أم لا؟

ج: كلاّ ليس نبيّاً بل إن هذا هو علي عَرْضاً ملعوناً في ذات ملّته فما شأنه يكون نبياً...[٦].

فالتقيّة إذن بمعنى « التدليس » و « الكذب » واجبة على الدرزي، وكل درزي صالح عاقل عليه أن يربّي وَلَدَه ويدرّبُه على مِثْلِ هذه « المسايرة ». والكلمةُ هي للأمير السيّد[٧]. وقد فهمها يوسفُ يزبك بأنّها احترامٌ وتقديرٌ لجميع الأديان فقال: « وقد حانَ لنا... أن نُعلِنَ رأياً صريحاً في مذهبٍ يحترمُ جميعَ الأديانِ السماوية »[٨].

ولهذه « المسايرة » التقيّة قواعدُ ثابتة في الرسائل، لا نستطيع إلاّ التوقّفُ عندها وَنَقْلُ نصوصِها كما هي:

يقول قائم الزمان حمزة: « صونوا الحكمة عن غير أهلِها، ولا تمنعوها لمستحقّيها. فإنّ مَن مَنَعَ الحكمةَ عن أهلِها فقد دَنَّس أمانَتَه ودينَه. ومَن سلَّمهَا إلى غيرِ أهلِها فقد تَغَيّر في اتّباع الحقِ يقينُه. فعليكم بحفظِها وصيانَتِها عن غيرِ أهلها، والاستتارِ بالمَألُوفِ

(٦) من كتب « محمود الحلبي الدرزي البعقليني النازح من لبنان إلى جبل الدروز في السويداء سنة ١٩٢٤، أسئلة: ١٠٢ ـ ١١٦.
(٧) تفسير كشف الحقائق، ص ٧٥٦.
(٨) يوسف يزبك في مقدمته لكتاب « الدولة الدرزية »، ص ١٤.

عند أهله. ولا تتكشفوا عند مَن غلبتْ عليه شقوتُه وجهلُه. فإنّتم تَرَونَهم من حيثُ لا يَـــرونَكُم. وأنتمُ بما فِي أيدِيهِم عارِفون، وعَلى ما أَلفُوه مِن زخرفِ قَولِهم مُطَّلِعُون، وهم عمَّا في أيدِيكم غافِلون، وممّا اقتبستُمُوه من نُورِ الحكمةِ محجوبُون. لقد أُخْرِسْوا ونَطَقْتُم، وأُبْكِمُوا وسَـــمِعْتُم، وعَمُوا وأَبْصَرْتُم، وجَهِلُوا وعَرَفْتُم »[٩].

على الموحدين أن يعملوا بموجب وصايا الحكمة الداعية إلى الصمت والستر والكتمان باستمرار. تقول الحكمة: « اصمتوا عن الكلام، واغمدُوا سيفَ اللسان إلـــى أن يــؤذنَ لكـــم بالإيضاحِ والتبيان »[١٠]، « تعــاوَنوا على التقوى والصلاح والبر... وكتمانِ هذا السّر »[١١]، « تيقظوا أيّها الأخوة وتعاونوا على التقوى... واستدِيموا بالسَتْر لمـــا أوعَزْنــا إلــيكم »[١٢]. وعليهم أيضاً « أن تجتمع أهلُ كل موضعٍ مع شيوخِهم في معزَلٍ مُحَصَّنٍ، بالسرِّ والكتمانِ... ويستروا حالَهم بالعقلِ والسكونِ والفعلِ الجميلِ والرزانةِ والرجَحَان »[١٣].

أمّا التقيّة بمعنى « الكذب » على الأضداد، أي على غير الموحدين، فهي واجبـــة لا محالة. ولكن، بقدر ما يكون السدقُ واجباً وفرضاً مقدساً فيما بين الموحدين، فإنّ الكذِبَ هـــو أيضاً واجبٌ مقدّسٌ مع غير الموحدين.

---

(٩) رسالة التحذير والتنبيه ٣٣ / ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(١٠) رسالة التنبيه والتأنيب والتوبيخ والتوقيف ٤٢ / ٣٢٢.
(١١) رسالة جبل السمّاق ٩٨ / ٧٩٢.
(١٢) منشور إلى آل عبد الله وآل سليمان ٩٩ / ٧٩٤.
(١٣) مكاتبة الشيوخ الأوّابين ١٠٣ / ٨٠٩ ـ ٨١٠.

« والسدق فهو من نفس الأدب، وليسَ لِغَيرِكُم عَلَيكُم فرضٌ. ولا ذلك إلاّ لبعضِكم بعض. فمن كذِبَ على أخيه أو كذِبَ لهُ فقد نافقَه وشكَّ فيه. ولا يجوزُ الكذِبُ بين الموحدين...

« وليس لأحدٍ من الموحدين فسحُهُ في الكذبِ لإخوانِه إلاّ أن يكونَ هناك ضدٌّ حاضِرٌ، لا يمكن كشفُ الأمورِ إليه، ولا شرحُها بين يديه. وإن أمكنَ الصمتُ فهو أحسن، وإن لم يمكن فلا بأسَ أن يحرِّفَ القولَ بحضرتِه، أعني الضِدّ. ويجبُ عليه أن يرجِعَ يسدُق الحديثَ لإخوانه بعد خلوَّهِم من الشيطانِ. ولا بأسَ بالسدقِ فيما لا يضرّ عند الأضداد... لأنّ مَن رخّصَ لنفسه في الكذبِ خِيْفَ عليه أن يتعوّدَه لسانُه، وينطقَ به عند إخوانه... وإنما رخّصْنا بذلك عند الأضداد إذا كان يأولُ أمدُه إلى مَضَرّه، مثل أن يكونَ أحدُكم قد قَتَل رجلاً مِن عالم السواد، فإذا سألوه عن ذلك جَاز أن لا يُسدِقَهم، والاّ يُحَقِّقُوا عليه القتلَ باقراره... »[١٤].

فالسدق إذن بين الموحدين هو فريضةٌ وركنٌ من أركان الدين، والكذب على عالَم السواد هو أيضاً فريضةٌ وركن من أركان الدين. ودعوة التوحيدِ تعتمدُ على السدق بينَ أنصارِهَا كأعظمِ ركنٍ لها، وعلى الكذبِ على الغيرِ كأعظمِ وسيلةٍ للوصول إلى أهدافِها.

ثم إنّ التقيّة تعني صونَ الحكمة عن غير أهلها. فهو واجبٌ فرضٌ لا مجال للمهادنة فيه. بل من يَكشِفُ الحكمةَ على غير مستحقيها قد يتعرّضُ

(١٤) الجزء الأول من السبعة أجزاء ٤١ / ٣١٣ ـ ٣١٤.

للهلاك. فالموحدون « مطالَبون بما اجترحوه من الألفاظ، ومسئولون عمّا انتهكوه لهم من الألحاظ »[١٥]. تقول الحكمة: « اقبلوا الحكمةَ يا أهل الحكمة، وأديموا المواظبةَ على حفظها وصيانتِها عن غير أهلها »[١٦]. بل إن الحكمة تخاطبُ كلّ موحّد بقولها: « إنْ أخفيتَها عمّن أَنِسْتَ مِنهُ هدى إلى التوحيد هَلَكْتَ وهَبَلْتَ، وإنْ أذعتَها بالتشرّدِ إلى غيرهم قُتِلْتَ »[١٧]، « ولعنةُ الباري على مَن قرأها بين يدي شاكٍّ فيها أو مخالفٍ لها، أو أذاعَها إلى غيرِ أهلها »[١٨]. « وأيضاً من أشهَر شيئاً من هذه الأسرار فليُقْتَلْ جهاراً قدّام كافّةِ الموحدين، ولا يُرحَم، وكان خارجاً من جملة الموحدين داخِلاً في عدد الكافرين. وعليكم في دفن هذه الأسرار تحت الجدار »[١٩].

* * * * *

أمّا الأسباب التي أدّت بالدروز إلى التقيّة والتستر فهي، كما يصرّح بها عبد الله النجار، « صيانةً لأنفسهم من الاضطهاد، ووقايةً لها من العدوان »[٢٠]. وربّما تبيّن للقارئ، من خلال بحثنا هذا، صوابيّة هذا السبب. فلن نعود إليه الآن. بيد أنّ الدكتورَ سامي نسيب مكارم، والسيّدان كمال جنبلاط وبايازيد لا يريدون مثل هذه الأسباب.

(١٥) رسالة الجميهيرية ٥٠ / ٣٦٨.
(١٦) رسالة الرشد والهداية ٣٩ / ٢٨٦. انظر: ٣٣ / ٢٤٤...
(١٧) رسالة التنبيه والتأنيب والتوبيخ والتوقيف ٤٢ / ٣٣٦.
(١٨) رسالة البنات الكبيرة ٨٣ / ٧٤٨.
(١٩) انظر مخطوط ٢٣١ المكتبة الوطنية بباريس، ورقة ١٧ أ و ب.
(٢٠) مذهب الموحدين الدروز، ط ٢، ص ١٨.

أمّا السيّد كمال جنبلاط فيردّ التقيّة إلى عدم توفّر الأهليّة الروحيّة والاستحقاق الخلقي عند عامّة الناس. يقول: « ... الاحتراز ما أمكن فيما يتوجّب أن يبقى سرّاً مكتنَزاً لا تتداولُه أيدي عامّة الناس، ممّن لا تتفتّحُ أفهامُهم وأذواقُهم لمعناه، ولا تتوفّرُ فيهم شروطُ الأهلية الروحيّة والاستحقاق الخلقي، ولا يرغبون، بجدّيّةٍ وإخلاصٍ، بالانخراطِ في مَسلكِ هذا العرفان »[٢١].

وحجّته على وجوبها وضرورتها ما جرى على لسان الصوفيين. فهو ينقلُ إلينا قولَ ابن عربي الشاعر الصوفي:

فَافهَمْ فَدَيْتُكَ سرَّ الله فيكَ، ولا   تُظهِرُه فهو مِنَ الاغيارِ مَكنُونُ
وَغِرْ عليهِ وصُنْهُ ما حَيِيْتَ بهِ   فالسِرّ مَيّتٌ بقلبِ الحرِ مَدفُونُ.

ويقول: « إن السببَ الجوهري لمثل هذه السرّيّة ليسَ هو التقية بمعنى الخِشية، بل الصفةُ الملازِمة لهذا العرفان ذاتِه الذي هو محضُ اختبار »[٢٢]. وينقل إلينا حَذَرَ الكتبِ المقدسةِ في ذلك فيقول: « تُحَظِّرُ الكتبُ المقدسةُ على الصديقين الروحانيين أن يتحدّثوا عن الحقيقةِ كما هي... لأن الحقيقةَ تتأذّى من جَرَّاءِ ذلك وَتَتَشَوَّه. لأنّ الافرادَ... إذْ ذاك، يباشِرون الهزءَ بالحقيقةِ ذاتِها؛ وهذا الهزءُ يجرُّهم إلى التَهْلِكَة. فيجبُ أن نتجنّبَ مثلَ هذه الكارِثَةِ مهما كلَّفَنا الأمرُ »[٢٣].

بيد أن السيدَ جنبلاط يرغب في أن تظهرَ محاولاتٌ لنشرِ بعضِ ما يُمكنُ نشرُه من كتبٍ، وذلك « على يدِ بعضِ الأمناءِ الروحانيين...

---

(٢١) كمال جنبلاط في مقدّمة كتاب « أضواء على مسالك التوحيد »، ص ٧.
(٢٢) نفس المرجع، ص ١١.
(٢٣) نفس المرجع، ص ١٦.

وما يأذن به الموحّدون العقّال »[٢٤].

ثم يعود السيّد جنبلاط ليتأرجَحَ بين السرّيّة الواجبة وبين وجوب تجنّبِ عزلةٍ فكرية فيما بين المشايخِ وعامّةِ الناس، فيقول: « وكيفَ يتسنّى لمنْ لا يعرفُ شيئاً عن مبادئِ دينه العامّة أن يسترشِدَ به، وأنْ ينطبِعَ بِقَالبِه، وأنْ يتشخّصَ في صورتِه، وأن ينتسبَ روحيّاً، وحتى اجتماعيّاً إليه، دون أن يتجاوزَ أحدٌ، في كل حال، حدَّ ما لا يحقُّ كشفُه إلاّ للمتعبّدين الصدّيقين والصالحين المحترزين أي للمريدين »[٢٥].

أمّا الدكتور سامي نسيب مكارم فلا يَبْتَعِدُ، في ردّه على السفير النجار، عن السيد كمال جنبلاط. فهو يعتبر أنّ « كشفَ أسرار الحقيقة الأخيرة للوجود يعرِّضُها إلى ضروبٍ من التأويل والتحريفِ وإساءةِ الفهم من جانبِ الذين يجهلونَ هذه المسالك العرفانيّة. وهذا، حسب معتقد التوحيد، يكون أسوأ بكثير من ابقاءِ هذا المسلك على سرّيّته، كما أنّ أحداً لا يستفيدُ من هذا الكشف، كما يقول الدروز، إلاّ إذا كان قد سلك هذا المسلك العرفاني وعاشَ فيه وشَعر به واختَبره »[٢٦].

ويعتبر الدكتور « أنّ صيانةَ الحقائق في مسلك التوحيد هي أصلٌ وأسٌّ رئيسيٌّ، لا نهجٌ طارئ »[٢٧]، أي « إنّ السرّيّةَ هي بالأصلِ عقيدةٌ أساسيةٌ في مسلكِ التوحيد »[٣٨]. « لذلك كانتْ هذه الصيانةُ، في

(٢٤) نفس المرجع، ص ٩.
(٢٥) نفس المرجع، ص ٩ ـ ١٠.
(٢٦) أضواء على مسلك التوحيد « الدروز »، ص ٩٦.
(٢٧) نفس المرجع.
(٢٨) نفس المرجع.

قصدها الأوّل والأصيل وقاية للعامة من الناس الذين لا يقوون على هذا المرتقى الجليل في معراج التوحيد، فتكون أذى لهم وافساداً للظاهر الذي به يؤمنون؛ وهكذا يندفعون، لما اختلط في نفوسهم وأُشكِل عليهم من حقيقة التوحيد والعرفان، إلى ايذاء رجاله ومريديه، وإلى سوء فهم هذه الحقيقة. فالتقيّة، إذن، حسب مسالك العرفان، وقايةً للحقيقة، وللمستضيئين بهديها، ولمن لا يستطيعون إدراكها »(٢٩).

ويلخّص لنا السيّد بايازيد أسباب وجوب التقيّة ومصادرها بما يلي:

« أوّلاً: إنّ عامّةَ الناس لا يهتمّون، عادة، فيما يعود لحقائق الوجود الأخير، ولا يجذبُهم هذا الاستعلاءُ في معراج معرفةِ البشريّة والألوهيّة، ولا تستهويهم هذه التجربةُ في مجالِ الانفتاح على أسرارِ هذا الوجود...

« ثانياً: لأنّ مسلكَ العرفان، في كل شريعة وفي كل بلدٍ وفي كلّ دين، عَبر العصور، يَتباينُ، من حيثُ الانطلاق والاعتماد، مع نَهج الشريعة المعروف. فالأول يعتمدُ المعرفةَ والكشفَ الأخيرَ عنها، والثاني يعتمد الإيمانَ... ومن لم يصحّْ له الارتقاءُ إلى مرتبةِ المعرفة فيجبُ أن يَبقى في حِمَى الإيمان...

« ثالثاً: لقد اتّفق الجميعُ، منذ أقدم العصور، على ابقاءِ هذه المسالك العرفانيّة بعيدةً عن نظر الجَهَلة والمتطفّلين، وحتى عن العلماءِ ــ

(٢٩) نفس المرجع، ص ٩٧. انظر أيضاً ص ١١٩ ـ ١٢٠.

في المعنى الزمني للكلمة ــ والمتفقّهين، خوفاً من تشويهها وضياع حرمتها، وانكشاف معانيها ودلالاتها على غير جدوى لمن لم تتحرّك به نسائم الروح في طلب هديها... »[٣٠].

ويتّفق السيد بايازيد مع الدكتور مكارم والسيّد جنبلاط في الردّ على السفير النجّار، إذ يقول بأنّ « أوّل ما يؤخذ على مؤلّف كتاب « مذهب الدروز والتوحيد » الأستاذ عبد الله النجار، إنّه لم يدرك أنّ السرّيّة في مسلك التوحيد هي نهجٌ أساسيٌ ومسلكٌ عرفانيٌ أصيلٌ، وليست تقيّة في المعنى والقصد العادي الشائع للاتّقاء والاستتار من المكروه ومجانبة الانتقاد »[٣١].

*****

هؤلاء الثلاثة من الدروز المستنيرين يتّفقون، على ما يبدو، على أنّ الحقيقة تتأذّى من شيوعها، لذلك فُرِضَتْ عليها التقيّةُ، وضُرِبَ حولَها حصارٌ منيعٌ لكي لا تنكشفَ على عامّة الناس. ولكنّنا نسألُ بكل بساطة ووضوح: هل هذا هو معنى « التقيّة » في « الحكمة »؟ ثم هل الاطلاع على أسرار الحكمة يزيد غناها أم يفقرها؟

لنا على هذين السؤالين جوابان:

نجيب على الأوّل من شروحات الحكمة نفسها.

ونجيب على الثاني من مفهوم السرّ بمعناه الديني اللاهوتي.

اسمع:

---

(٣٠) بايازيد في « توطئة » على كتاب « أضواء على مسلك التوحيد »، ص ٦٤...
(٣١) نفس المرجع، ص ٦٥.

على السؤال الأوّل يجيب «الأمير السيّد جمال الدين التنوخي»، في شرحه لــ« ميثاق وليّ الزمان » بما يلي:

« تجب المساترة على كل أحد من أهل التوحيد، كما قال (قائم الزمان) « والاســتتار بالمألوف عند أهله »[٣٢]، وقال: « وكذلك أيّ رجل عرف باطن ثوبه ولبسه ــ وهــو التقيّــة والسترة وإقامة الشريعة مع أهلها واللطف بهم ــ ثم إنّه ينزع ثوبه وسرباله ويرميهما ويمشي في الأسواق عرياناً قيل إنّه مجنونا (هكذا) وقد خرج من المروّة »[٣٣]. فمع هذا الكلام والأمر بالمساترة لا يحلّ لأحد يتمسّك بدين التوحيد إنه يهمل المساترة، بل يجب عليه إنّــه يعــرف موجبات الصلاة والوضوء ونواقضه، ويقرأ ما تيسّر من القرآن قراءة صحيحة على شــيخ، وإنْ كان ذو يسر فيزكّي عن ماله لمستحقّه، ويعرف أمر الصيام ومفطراته، بحيث لا ينكشف عند الشرائع أمر دين التوحيد حتى ولو وخّر (أخّر) الإنسان بعض رسائل الحكمة بلا حفــظ، ويحفظ عوض ذلك ما يقيم به للمساترة، كان ذلك واجب،

لأنّ الإنسان، إذا غرس بستاناً ولم يصنه بشيء لم يسلم أبداً، وإذا غرسه ثــم نقــص بعض غرسه، وجعل عوض ذلك النقص حاجزاً يصونه، كان ذلك أقرب لسلامته، وأنتج فيه،

وكذلك مذهب التوحيد ما يصحّ لأحد صحة كاملة إلاّ بالاستتار. والاستتار بالمــألوف هو إنْ كان المحقّ (الموحّد) ساكن (هكذا) بين أهل

---

(٣٢) ما وضع بين مزدوجين: « ...» هو من كلام « الحكمة » الذي نعيّنه في مكانه من الرسائل. انظر ٣٣ / ٢٤٤.

(٣٣) انظر رسالة الردّ على النصيري ١٥ / ١٦٨. يفسّرها النجار بأنّها دلالة على « ممارسة الفرائض القرآنية »، ص ٢١٥ من كتابه، ط ٢.

الظاهر التنزيلية فيتساتر بمذهبهم من صلاة وصيام وحجّ وتقديم أبو بكر وعمر وعثمان على عليّ ابن أبي طالب وغير ذلك، وإنْ كان ساكن بين التأويليّة في بلاد غالب عليه الشيعة فيتساتر بمذهب التأويل ويتزيّا (هكذا) بزيّهم ويقدّم علي ابن أبي طالب على الصحابة كلّهم ويسبّ أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة ويكون موافقهم في دينهم في ظاهر أمره، وإنْ كان بين النّصارى فيتزيّا بزيّهم. وهذا الحال رحمة من الله على أهل التوحيد أن يكون توحيده في قلوبهم، ويتزيّوا بزيّ كل طائفة في ظاهرهم.

ولهذا مثال: إن المرآة لولا طمْسُ جهتِه الواحدةِ لكان الذي يَنظُر فيه يَخرقُه بصرُه، ولم تنطبعْ فيه صورةُ وجهه، ولمَّا جُعل على جهته الواحدة شيئاً (هكذا) حُجِبَ به نظرُ الناظر ومَنَعه من أن يخرقَه، فانعكس البصرُ وانطبعتْ في المرآة صورةُ الناظر،

وهكذا دين التوحيد لا يصحّ ولا يكمل إلاّ بالمساترة، كما لا يصحّ للناظر في المرآة أن يرى وجهه فيه إلاّ بطَمْسِ الجهة الأخرى »[٣٤].

وفي مخطوط آخر للأمير السيّد يقول بوضوح: « يجوز النظر إلى الأشرار وتبجيلهم مصانعةً ومدارَاةً لمجرى الزمان »[٣٥]. ويحقّ للموحّد أن يقضي « حاجةَ ظالمٍ لضرورةٍ تُوجِبُ مداراةً ومصانَعةً »[٣٦]. بل إنّ « مَن أهملَ المساتَرةَ دخَل في الزِنَا، ومنَ سلَّم الحكمةَ

(٣٤) مخطوط ١٤٣٦ في شرح ميثاق ولي الزمان، ورقة ٢٥ أ ـ ٢٧ أ.
(٣٥) مخطوط ١٤٣٨ في معنى الجوارح السبعة، ورقة ٢٠ ب.
(٣٦) نفس المرجع، ورقة ٢٨ أ.

إلى غير أهلها دخل في الزنا »(٣٧). بل إن بهاء الدين المقتنى قد أوجب على الموحّدين سبَّه ولعنَتَهم إيّاه إنْ رأوا أنفسَهم في خطرٍ داهمٍ، فيقول: « مَن وقعتْ به منكم محنةٌ وطُلِبَ منكم سبُّ هذا العبدِ فتبرّأوا منه وسبّوه، وان طُلب منكم لعنتُه فالعنوه، هذا عند الأضرار (أي الضرر) والله العالم بما تظهروه وتكتموه »(٣٨).

ويبدو أن فخرَ الدين المعني الثاني كان يعرفُ هذا المعنى الدرزي للتقيّة، وقد أوضح لترجمانِه في تسكانا عن تصرّفاتِ الدروز حِيالَ النصارى بقوله: « وعصبَتُنا جميعهم يمدحون كلِ إنسانٍ مسيحيٍ يجالسونَه، وقدّامَ الكهنةِ والرهبانِ سكانِ بلادنا، الذين هم محمُودو السيرة والمعارف والفضيلة عندنا وعند كلٍ مِن بني جنسِنا، ولكنْ بالجهرِ والاعلانِ فقط، ليسَ بالقلب والباطنِ، لأن الدروزَ جميعاً في السرِّ والباطِنِ وفي خِفيةٍ يذمّون سائرَ الرهبانِ والمسيحيينَ ويستخفّونَ بالإنجيلَ، ويُنكرونَ شجاعةَ الشهداء »(٣٩).

وقد لمس ذلك الكابتن « كاربِيْيِّه حاكمُ جبل الدروز، وقال عن السلطان باشا الأطرش بأنّه « متأثِرٌ بديانتِه الخاصةِ التي تجعلُ من الكذبِ عقيدةً حقيقيّة، ومن الحِلفَانِ بالباطلِ فرضاً »(٤٠).

(٣٧) مخطوط ١٤٤١ في « ذكر معرفة الشرور السبعة »، ورقة ١ أ.
(٣٨) منشور الغيبة ١١١ / ٨٤٢. وهو آخر كلام قاله بهاء الدين.
(٣٩) مخطوط ٢٣١، ورقة ٦٣ ب ـ ٦٤ أ.
(٤٠) Sultan Pacha El Atrach "est influencé par sa propre religion qui a fait du mensonge envers l'étranger un véritable dogme, et du faux serment une obligation". Carbillet, Au Djebel Druze; Ed.Argo, Paris 1929, p. 64-65.

لقد مارس الدروز، عبر تاريخهم، هذه « المساترة »، ونفّذوها، في حياتهم السياسـيّة وفي معاملاتهم مع جيرانهم، خيرَ تنفيذ. ولن تبرحَ عن البال تصرّفاتُ الشيخ سعيد جنبلاط مع مسيحي دير القمر في حوادث سنة ١٨٦٠، وقد يجهل ذلك المؤرّخون المعتمِدون على مصادرِ السفارات الغربية لهذه الفترة، فيما المصادرُ الروسيّة تؤكّدُ لنا ما يلي:

« وكان المشرِف على نشاطِ الارستقراطية الدرزيّة هو الشيخُ سعيد جنـبلاط، الـذي يُعتَبر دعامةً للنفوذ الإنكليزي في لبنان. فقد كان يعقدُ اجتماعاتٍ سرّيّةً للارستقراطيّة الدرزيّة في مقرِّهِ في المختارةِ ويمسك بيدِهِ جميعَ خيوطِ المؤامرةِ الدرزيّـةِ. وينبغـي الافتـراضُ أن القنصلَ العام الانكليزي كان على علمٍ بنشاط الأعيانِ الدروز. فقبيل وقوعِ الاصطدامات بـين الدروز والموارنة أَخَذَ الشيخُ سعيدُ جنبلاط يسألُ القنصلَ العامَ الانكليزي (مور) كيف ينبغـي عليه أن يتصرّفَ في الوضع القائم. وقد نصحَه القنصلُ نصيحةً لا تحتملُ التأويل، وهي عدمُ القيامِ بأعمالٍ سافرةٍ كي لا يفضحَ نفسَه. وقد نفّذَ الشيخ هذه النصـيحةَ بدقّـةٍ: فـامتنع عـن المشاركةِ في العَمَلِياتِ الحربيةِ، وحتى أنّه أرسلَ أغذيةً إلى دير القمر التي كانتْ محاصرةً من قِبَلِ الدروز وخبأَ عندَه بعضَ المسيحيين[٤١]. وكان يقودُ سرّاً جميعَ العملياتِ الحربيّـةِ ضـدّ المسيحيين[٤٢].

*****

(٤١) أرشيف سياسة روسيّا الخارجيّة، « السفارة في القسطنطينية ».
(٤٢) أ. سميليانسكايا، « الحركات الفلاحية في لبنان »، النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، تعريب عدنان جاموس، دار الجماهير بدمشق ودار الفارابي بيروت، سنة ١٩٧٢، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

أمّا جوابنا على السؤال الثاني: « هل الاطلاع على أسرار الحكمة يزيد في غناهـا أم يفقرها؟ » فهو من مفهوم السرّ بمعناه الديني واللاهوتي والإنساني. وهذا ما شجّعنا للخـوض في متاهات ألغاز الحكمة الدرزية، وأراح ارتباكَ ضميرنا في إعلان ما لا يجب إعلانه، وفي الحفاظ على كرامةِ أهل الحكمة، وفي سعينا نحو الخير.

إن السرّ في جوهره وحقيقته مجموعةُ عقائد ومعارف تكشف خفاياها فتبدو لك خفايـا أخرى. وكلّما عالجتَ مظهراً منها بانتْ لك مظاهرُ أخرى. فالسرّ، في تحديده وفي مفهومـه الديني، غنيٌّ لا يَفْتَقِر. وكلّما عالجتَه وتهتَ في ثناياه، زِدتَه غنى، وزادَك من غنـاه. ولـيس ككتمانِه ما يُفقِر معنَاه، ويُحدّ من أَبعادِه. وغنى السرِّ أوجبَ الوحيَ، بنوع إنّه لا قيمةَ للـوحي ولا فائدةَ منه للإنسانِ إنْ لم يُنَطْ مباشرةً بإعلانِ سرّ الله، أو سرِّ الخلاص، أو أيضـاً « سـرّ الحكمة ».

أيّ حكمة في قول أصحاب الحكمة هذا: « أنتم ترونَهم من حيثُ لا يرونكم. أنتم بمـا في أيديهم عارِفون، وهم عمّا في أيديكم غافِلون، وعمّا اقتبستُموه من نور الحكمة محجُوبون. لقد أُخرِسوا ونَطَقتم، وأُبكِمُوا وسَمِعْتم، وعَمُوا وأَبْصَرتم، وجَهِلُوا وعَـرَفْتُم »[٤٣]. هـل هـي بالفعل حكمة أن يكونَ أصحابُ الحكمة مغلَقين على غيرهم، ويُريـدون غيـرَهم أن يكونـوا مُنفَتِحِين عليهم!!! هل هي حكمة أن تستنيرَ بنورِ الناسِ، وتُبادِلَهُم من عندِك الظلمـةَ!!! تربـأ الحكمةُ بأصحابها أن يمنعُوها عن سائرِ البشر، ويوصِدُوا عليها الأبـوابَ، ويَحجِزُوهـا فـي جهلِهم.

(٤٣) رسالة التحذير والتنبيه ٣٣ / ٢٤٤.

من شأن الحكمةِ أن تضعَ الحكمة نفسَها في خدمةِ الجميـــعِ ولصـــالحِ الجميـــع، لا أن تقتصرَ على قِسمٍ منهم وتمنعَ القسمَ الآخرَ من خيرِها العميم. ومن واجبهـــا أيضـــاً أن تـــدعُوَ الجميعَ إليها وتصنعَ منهم كلَّهم أهلَها ومستحقِيها، لا أن تتبنّى بعضَهم وترذلَ بعضَهم الآخـــر. والكلُ يمكنهم، إذا ما توفّرتْ لهم الحكمةُ، أن يكونوا مـــن أهلهـــا؛ لأنّ اللهَ، منـــذ كـــان، أرادَ الخلاص لجميعِ الناس. فإنّ جازتِ الطبقيةُ بين البشر بالنسبةِ إلى معطياتِ الـــدنيا، فإنّهـــا لا تجوزُ مطلقاً بالنسبةِ إلى الخلاص. ومَن مَنَعَ عن الإنسانِ خلاصَه تعمّدَ الشرَّ في ذاتِه.

ففضيلة إعلانِ السرّ تعادلُ فضيلَة كتمانِهِ، وقد يكونُ إعلانُه أقلَّ شرّاً من كتمانِه، لأن الخيرَ العامَ هو في أن يعرفَ الناسُ سرَّ خلاصِهم، وأن يتبادَلوا هذه المعرفةَ، ويتفاهَمُوا علـــى حلِّ ألغازِها، ويحطِّمُوا الحواجزَ والعوائقَ فيما بينهم...

إنّنا نريدُ معالجةَ كلِ سرّ، في السماءِ كان أم على الأرض، في قلوبِ النـــاس أم فـــي طيّاتِ الكتب، فإمّا تنهارُ قدسيّتُه، فيفتقرُ؛ وإمّا يصمدُ عند ولوجِنا فيه فَيُفيدُنا مِن غناه. ولـــيسَ لأحد أن يحيطَ « الكتابَ » بهالةٍ من القدسيةِ والحرمةِ لا تُنال، فيما هو يَطعَنُ قدسيّةَ الإنســـانِ الذي لأجله وجدتِ الحكمةُ ووجدَ الكتابُ والوحيُ والخلاصُ.

إنّه واجب ملّح على أخوانِنا بني معروف أن يفتحوا أبوابَ دعوة التوحيد لجميعِ الناسِ، مهما كلّفهم الأمر، ومهما كانتِ النتيجة. هو خيرٌ لهم إنْ أرادوا البقاءَ أن يَنزِلوا إلى مســـتوى الإنسانِ ليرفَعوا إليهم كلّ إنسان يستميتُ في سبيلِ نيلِ الحكمةِ والخلاصِ. فلئنْ جازتِ الأنانيّةُ

في شيء على أرضنا، فإنّها لن تجوزَ مطلقاً فيما يخصُّ سعادَة البشر في الله. وسؤالُ الجاهل للعاقل: « لماذا أوصانا حمزة بن علي أن نُخفيَ الحكمةَ ولا نكشفها؟ وجوابُ العاقل: لأنه فيها أسرار مولانا وعلومه فلا يجبُ أن نكشفَها لأحدٍ كونُها خلاصُ النفوسِ وحيــاةُ الأرواح »[٤٤] باطلٌ من أساسه وشذوذٌ للعقل في تقديرِ رحمةِ الله.

*****

بقي علينا الجوابُ على سؤال عامّة الناس لنا: هل يعرفُ الدروزُ كلَ هذا الذي قلنـــاه عنهم؟ وهل لجميعِهم نفسُ الموقفِ العِدائي من سائر الأديان والمذاهب؟ أليسَ قلّةٌ ضئيلةٌ مـــن المشايخ يعرفون ذلك والسوادُ الأعظم منهم يجهلونَه أو ينكرونَه؟ ألم يغيّرِ العلماءُ والمفكِّـــرون بينَهم موقِفَهم هذا؟ أليسَ للعلمِ اليومَ وللتربيةِ المدنيّةِ وللأنظمةِ الاجتماعيّةِ وللحقوقِ الإنســـانيّةِ وللحضارةِ الحديثةِ أيُّ تأثيرٍ في توجيهِ كافّةِ الناسِ نحوَ بناءِ مجتمعٍ بشريٍّ أفضل، تسودُ فيـــه العدالةُ والمساواةُ والإخوةُ، وفيه يتبارَى الناسُ بقَبولِ بعضِهم بعضاً بروحٍ من التسامح بنّاءة؟!

نقول إنّ المُناخَ التربوي العامَّ الذي يعيشُ فيه الدرزيُ يفرِضُ عليه التجمّـــلَ بصـــفاتِه ومناقبيته، فالطفلُ الذي يَرى أبَاه نصرانيّاً مع النصارى ومسلماً مع المسلمين ينشأ مثلَه دونَ أن يكونَ عندَه رادِعٌ من ضميرٍ أو من واجبٍ. وإنَّ التاريخَ الذي يحملُ الإنسانُ عبءَ أحداثِه على كتفَيه يحتّمُ

---

(٤٤) مخطوط ٥١٨٨ في تعليم الديانة الدرزية، سؤال ١٠١.

عليه الحفاظَ على قدسيّته، إذْ ليسَ من السهل على الإنسانِ العادي أن يحكمَ بالضــلالِ علــى أجدادِه وآبائه وتراثِه الديني والاجتماعي. ومَن كان له جرأةٌ في تركِ ماضيه هَانَ عليه أثــرُ العلم والحضارة. لكنَّ ذلك أشبهُ بالانتحارِ الذي لا يقوى عليه إلاّ أبطالٌ قلائلُ مِن البشر... ثمّ إنّ الظلمَ الذي لحقَ بالموحدين، منذ نشأتِهم، يتفاعلُ في نفوسهم ويكبرُ شرّه ويتعاظَمُ من جيلٍ إلى جيل، حتى إنَّ الذينَ أنارَهم العلمُ وَعَوا جسامَتَه أكثرَ من سِواهم...

وكل هذا ارتفعَ في الدرزيّة على مستوى الدين، وعلّمتْهُ « الحكمــةُ » كأنّــه حقيقــةٌ موحاة. ومتى تسلَّم الدينُ عقولَ البشر واستأثرَ بعواطِفِهم أصبحَ له عليهم حقٌّ كيانِهم ووجودِهم وخلاصِهم واستعلائِهم على كافّة العالمين. إنَّ حكمَ الدين مُبرَم، والجهادَ بســبيله ينمــو فــي عُصَيَّاتِ الدماء، وتظهرُ فاعليّتُها عند خطر مداهِم، فيغدو الإنسانُ مُسَيّراً بقوافِلَ مــن الآبــاءِ القديسين تزحفُ عليه جيوشاً من أجداثِهم المُبعثَرة في نواحي الأرض، وتدفعُه بعنفٍ غيرِ واعٍ من تاريخٍ يحملُ حقائقَ نامتْ واستفاقتْ.

هذا اللاوعي المتطايرُ من الماضي البعيد يفعلُ في النفوس الغاشمة فعلَ سحرٍ مقــدّسٍ كلُ شيءٍ فيه يوقِظُها من رَقدتِها. ولن يستطيعَ عِلمٌ أو حضارةٌ أو ثقافةٌ مهما تعاظمَ شــأنُه أن يقفَ حائِلاً دون هجمتِه المسعورة. لن يمنعَ العلمُ انفعالاً استقرَّ في التاريخ ينتظرُ يومَ يقظتــه العجيب. لن يصمدَ كلُ المستقبلِ أمامَ يومٍ واحدٍ من تاريخٍ عَبَر.

قد يسهلُ على الإنسان الفرد التخلّصُ من عادات استَحكمتْ به أكثر من تقاليدَ يرتــاحُ إليها ولو كانتْ لا تنسجم مع الحياة المستجدّة.

ثالثاً ــ استعمَال الرُموز والتأويل

قد لا تكون التقيّة كافيةً لكتمانِ سرِّ الدرزيّة وكتبِها، وقد تقعُ « الحكمة » بين يدي أناسٍ لا يستحقّونها، فلا بدّ لها، إذن، من صيانةٍ أخرى، ومن حصنٍ منيعٍ تختبِئُ وراءه. فكانت « الرموزُ » وقاءً آخر، وحمايةً أخرى، يتّقي بها الدروزُ شرَّ « الأضداد ». وهكذا أنت ترّى لحروفِ الأبجديّة رموزاً، وللأعداد رموزاً، وللألوان رموزاً، ولبعض الكلمات رموزاً، ولآيات القرآن والإنجيل رموزاً، ومعان، ومدلولات، وتفاسير... لا يفكّها إلاّ المتبحرون في الحكمة، ولا يفقه معانيها إلاّ مشايخُ العقل المستنيرون.

وقد وفّقنا الله ببعض شروحات الأمير السيّد لـ« رسائل الحكمة »، وبـ« كتاب الدرر المضيّة واللمع النورانيّة في تلخيص ألفاظ الحكمة الشريفة ومعانيها الروحانيّة »، وبـ« كتاب المناظرات وبهجة المذاكرات وكاشف الاختلافات في مواقع الأسماء والصفات »، وبكتاب « النقط والدوائر »، و « مختصر البيان في مجرى الزمان »، وغيرها من الكتب التي تراها في حواشي الصفحات، والتي عليها اعتمدنا في فكّ الرموز والألغاز.

ولولا تزوّدُنا بمعظم المخطوطات، التي بذلنا في اقتناصِها كلَ نفيس، لما تجرّأنا على الإقدام في وضع هذا البحث الوضيع. ولولا تأمّلاتنا المتواصلة في « الحكمة » وجهودنا الكبيرة في سبيلها لكنّا مهاترين.

وقد لا نقف عند فكّ كل الرموز والألغاز ومعاني الحروف والألوان والآيات القرآنية، لأنّ ذلك أمرٌ مضنك للقارئ، بل نأخذُ من كل ذلك عيّنات وأمثلة، ونختصرُ قــدرَ المســتطاع رحمةً بأعصاب القارئ وشفقةً على الحكمة نفسها.

وقد لا يكونُ الكلام بالرموز والأمثال من خصائص الحكمة الدرزيّة وحدها، فــالقرآن والإنجيل تكلّما بالأمثال والآيات المتشابهات التي لا يعلمها إلاّ الله والراسخون فــي العلــم[(١)]. يقول الله في كتــابه الكريم: « وتلك الأمثــال نضربها للناس وما يعقلهــا إلاّ العالمون »[(٢)]، و « كذلك يضرب الله الأمثال »[(٣)] الخ[(٤)]. ويقول الإنجيل عن المسيح: « وهذا كلّه قاله يسوع للجموع بالأمثال، وبغير الأمثال لم يكن يكلّمهم »[(٥)]...

ولكن ما سُمّي في القرآن والإنجيل « أمثالاً »، سُمّي فــي الدرزيّــة « رمــوزاً ». والمدلول واحد. بينما المقصود يختلف، بل يتناقض تماماً. فالأمثال في القرآن والإنجيل كانت لأجل إعلان ما كان خفيّاً، فيقول الإنجيل نقلاً عن سفر المزامير[(٦)]: « أَنطِقُ بالأمثالِ، وأُعلِنُ ما كان خفيّاً منذ إنشاء العالم »[(٧)]، ويقول القرآن: « ويضــربُ اللهُ الأمثــالَ للنــاس لعلّهــم يتذكّرون »[(٨)]، « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون »[(٩)]؛ أمّا الرموز فــي الحكمــة الدرزية فهي لأجل التمويه والتخفّي والتستر...

---

(١) سورة آل عمران ٣ / ٧.
(٢) العنكبوت ٢٩ / ٤٣.
(٣) الرعد ١٣ / ١٧.
(٤) انظــــر: ١٦ / ٧٥، ٣٩ / ٢٩، ٦٦ / ١٠، ٢ / ٢٦٤، ٤٨ / ٢٩، ١٤ / ٤٥، ٢٤ / ٣٥... الخ.
(٥) انجيل متى ١٣ / ٣٤.
(٦) مزمور ٧٧ / ٢.
(٧) انجيل متى ١٣/ ٣٥.
(٨) ابراهيم ١٤ / ٢٥.
(٩) الحشر ٥٦ / ٢١.

٣ً ـ رموز بعض آيات من القرآن:

نعجز عن سرد ثبت لجميع آيات القرآن التي يفسرها الدروز بحسب ما يوافق عقيدتهم، بل إنّ جميعَها ترمز إليها وتقعُ على قائم الزمان: « جميعُ ما في القرآن والصحف، وما نزّله (الله) على قلبي (قلب حمزة) من البيان والأسماء الرفيعة، فهو يقع على عبده الإِمام »[١٠]. لذلك سنعرض بعضها وأهمّ ما في بعضها:

١) « بسم الله الرحمن الرحيم »:

مهما اجتهدتَ في التأويل والاجتهاد لهذه الركيزة الإيمانية عند المسلمين لن تستطيعَ فهم مقصود الدروز فيها. فهم يتلونها كالمسلمين، ولكنّهم يفهمون فيها ما لا يخطر ببال:

فهم يقولون مثلاً: « بسم الله الرحمن الرحيم دعاة عبده الإِمام »[١١]، ويقولون: « بسم الله الرحمن الرحيم حدود قائم الدين »[١٢]، ويقولون: « بسم الله الرحمن الرحيم صفات عبده الإِمام »[١٣]، و « حروف بسم الله الرحمن الرحيم حدود عبده الإِمام »[١٤]، و « وصفات العلة بسم الله الرحمن الرحيم »[١٥]...

---

(١٠) رسالة سبب الأسباب ١٤ / ١٥٩.
(١١) رسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين ١٧ / ١٨٥.
(١٢) انظـــــر: ٧٣ / ٦٣٦، ١٠٢ / ٨٠٣، ١٠٣ / ٨٠٨، ١٠٤ / ٨١١، ١٠٩ / ٨٣٣، ١١٠ / ٨٣٧، ١١١ / ٨٤١، وأيضاً: ١٩ / ٢٠٢.
(١٣) انظر: ١١ / ٩٧، ١٢ / ١١١.
(١٤) انظر: ١٨ / ١٩٥، ٢١ / ٢٠٨، ٧ / ٦٤، ١٤ / ١٤٦... الخ.
(١٥) ٢٠ / ٢٠٦، ٢٨ / ٢٢٧، ١٤ / ١٥٣، ١٥٥، ١٦ / ١٧٥...

وتفسير ذلك أن « بسم الله » سبعة أحرف، دليل على سبعة دعاة أصـــحاب الأقـــاليم السبعة »[١٦] وسبعة أفلاك، وسبعة أيام الأسبوع، وغير ذلك... و « الرحمن الـــرحيم » اثنـــا عشر حرفاً، دليل على اثنيعشر داعياً أصحاب الاثنيعشر جزيرة »[١٧] واثني عشر برحـــاً... والحروف جميعها التسعة عشر (٧ + ١٢) دليل على الدعاة التسعة عشر، الذين هم دعاة قائم الزمان حمزة الذي أرسلهم في أقاليم المملكة الفاطمية لبثّ دعوة التوحيد. وهؤلاء الدعاة هـــم بمثابة « صفات » حمزة، من قول « الحكمة »: « هذا داعي فلان ومـــن أصـــحاب فـــلان، فصاروا صفاته بهذا السبب »[١٨]. وصفات الإِمام هم أيضاً « حدوده » لأنهم « مشخَّصُون في وقتنا هذا »[١٩] بذوات جسمانيّة، لأن كل صفة يتولاّها حدّ من هؤلاء الحدود.

٢) « لا إله إلاّ اللّه / محمّد رسول الله »:

* « لا إله / إلاّ الله »: كلمتان، وأربعة فصول، وسبعة مقاطع، واثنا عشـــر حرفـــاً. الكلمتان دليل على العقل والنفس، والفصول الأربعة دليل على الحدود الأربعـــة، والمقـــاطع السبعة دليل على النطقاء السبعة: آدم، نوح، إبرهيم، موسى، عيسى، محمـــد، محمّـــد (بـــن إسمعيل)، وعلى الأوصياء السبعة: شيث، سام، إسمعيل، يوشع، شمعون، علـــيّ (بـــن أبـــي طالب)، عبد الله (القدّاح)، ودليل على الأيام السبعة، والسماوات السبع، والأرضـــين الســـبع، والجبال السبعة، والأفلاك السبعة؛ والاثنا عشر حرفاً

(١٦) رسالة سبب الأسباب ١٤ / ١٥٥.
(١٧) نفس المرجع.
(١٨) نفس المرجع.
(١٩) نفس المرجع، ١٤ / ١٥٩.

دليل على اثني عشر حجة الأساسية الموزّعين في الجزائر الاثنيعشر، بحسب ما تقسيم الأرض عند الدروز بالنسبة إلى الدعوة[٢٠].

* « محمّد رسول الله »: هي ثلاث كلمات، دليل على ثلاثة حدود بحسب الدعوة الاسماعيلية، وهي ستة مقاطع دليل على ستة نطقاء ـ ما عدا آدم الذي لم يكن له العزم ليقيم شريعة ظاهرة كغيره من النطقاء[٢١]، وهي اثنا عشر حرفاً دليل على اثني عشر حجّة، وكذلك السماء فيها اثنا عشر برجاً، والأرض عليها اثنا عشرة جزيرةً[٢٢].

* والشهادتان معاً مؤلّفتان من ثمانية وعشرين حرفاً، وكذلك الأفلاك السبعة: زحل، مشتري، مريخ، شمس، زهرة، عطارد، قمر، هم ثمانية وعشرون حرفاً. وكذلك أوّل بروج الفلك السبعة: حمل، ثور، جوزاء، سرطان، أسد، سنبلة، ميزان، هم ثمانية وعشرون حرفاً. وكذلك أول شهور السنة السبعة: محرم، صفر، ربيع، جمادى، جمادى، رجب، وهم ٢٨ حرفاً. وكذلك الأيام السبعة: أحد، اثنين، ثلثا، أربعا، خميس، جمعة، سبت، هم ٢٨ حرفاً. وكذلك النطقاء السبعة... هم ٢٨ حرفاً. وكذلك الأوصياء السبعة... هم ٢٨ حرفاً[٢٣]... وكلّهم دليل على دعاة قائم الزمان حمزة الـ١٩ مع دعاة النفس إسمعيل التميمي الـ١٩...

فإذا كان هذا ما حدثَ بركنَي الإسلام البسملة والشهادتين، فما تراك يحدث بسائر آيات الكتاب الكريم!؟ فـ« الصلاة » هي « صلة قلوبكم بتوحيد

---

(٢٠) انظر كتاب النقض الخفي ٦ / ٥٠ ـ ٥٢.
(٢١) انظر رسالة ١٢ / ١١٧، و٣٦ / ٢٦٣.
(٢٢) كتاب النقض الخفي ٦ / ٥٣...
(٢٣) نفس المرجع ٦ / ٥٠ ـ ٥٣...

مولانا »[٢٤]، و « الزكاة هي في الحقيقة توحيد مولانا بتزكية قلوبكم »[٢٥]، « والبرّ هو توحيد مولانا »[٢٦]، و « الفحشاء والمنكر هما الشريعتان الظاهر والباطن »[٢٧]، و « الصوم هو صيانة قلوبكم بتوحيد مولانا »[٢٨]، « والبيت (أي الكعبة) هو توحيد مولانا »[٢٩]، و « ربّ البيت » هو مولانا جلّ ذكره »[٣٠]، و « الجوع والخوف » في سورة قريش ١٠٦ / ٤ هما الظاهر والباطن[٣١]، و « الجهاد هو الجهد في توحيد مولانا »[٣٢]، « والنفع والضرّ » في سورة الرعد ١٣ / ١٦ ــ ١٨ هما الظاهر والباطن »[٣٣]، و « الروح والريحان » في سورة آل عمران ٣ / ١٠٥ هما الإِمام وتاليه »[٣٤]، و « جنّة النعيم تعني دعوة التوحيد[٣٥]، و« سبّح باسم ربّك العظيم » يعني سبّح باسم الإِمام الأعظم ذو معة (حمزة)[٣٦]... وهكذا[٣٧].

*****

٢ً ــ معنى الأعداد: ٧ و١٢ و١٩ و٢٨...

وهي دلائل صريحة على موجودات الكون وأنظمته فأنت ترى أن العدد سبعة ٧ موجود في كل مكان: ٧ نطقاء، و٧ أوصياء، و٧ أيّام،

---

(٢٤) انظر ٦ / ٥٦.
(٢٥) ٦ / ٥٧.
(٢٦) ٦ / ٥٧.
(٢٧) ٦ / ٥٦.
(٢٨) ٦ / ٥٨.
(٢٩) ٦ / ٦٠.
(٣٠) ٦ / ٦١.
(٣١) ٦ / ٦١.
(٣٢) ٦ / ٦١.
(٣٣) انظر ١٠ / ٨٤.
(٣٤) ١٠ / ٨٦.
(٣٥) ١٠ / ٨٦.
(٣٦) ١٠ / ٨٦.
(٣٧) انظر الرسائل: ٦ ـ ٤٠.

و٧ سموات، و٧ أرضون، و٧ جبال، و٧ أفلاك، و٧ أقاليم... ثم إنّ القــرآن نــزل علــى ٧ صنوف، ناسخ، منسوخ، محكم، متشابه، وقصص، وحكايات، وأمثال؛ وقرئ بــ٧ أحرف... والطواف حول الكعبة ٧، وطول الإنسان بشبره ٧ أشبار، وعرضه بشبره ٧ أشبار، وفي وجه الإنسان ٧ خروق... الخ[٣٨].

والنتيــجة هي إن « كل شيء، إذا بلــغ سبعة، انتهــى، ووجبَ تغيــيرُه وحــدوثُ غيره »[٣٩]... ومعنى ذلك إن دورَ الأنبياء السبعة قد انتهى ووجب حدوثُ دور جديد هو دور العقل حمزة بن علي قائم الزمان...

وبهذا الوجه نستطيع أن نفسّر الأعداد الباقية... ولا نرى منها الآن فائدة ترجى...

*****

٣ ـــ حروف الأبجديّة:

سنعطيك منها مثلاً: « الألف والباء والتاء والثاء يتشابهون بعضهم ببعض. غيــر أن الألف يكتب بالطول، والباء والتاء والثاء تكتب بالعرض. فالألف دليل على العقل وهو الإمام (حمزة)، والألف قائم بلا نقطة فوقه ولا علامة تحته. والباء دليل على النفس (التميمي) وهي الحجة وتحته نقطة واحدة، لأن بينه وبين العقل حَدّاً واحِداً هو الضدّ

---

(٣٨) انظر كتاب النقض الخفي ٦ / ٥١ ـ ٥٢.
(٣٩) الجزء الأوّل من سبعة أجزاء ٤١ / ٣١٨.

الروحاني، فصارت نقطة الباء من تحت حيث عصى الضدّ أمر باريه، ونافق علـــى إمامـــه وهاديه، ولو كان الضدّ طائعاً لكانت نقطةُ الباء من فوق... والتاء دليل على الكلمـــة وفوقهـــا نقطتين دليل على الحدّين اللذين هما فوقه والثاء دليل على الجناح الأيمن رابع الحدود. ونقطه دليل على الثلاث حدود الذين فوقه في المرتبة...

والجيم والحاء والخاء في الصورة شيء واحد، لكن بينهم فرق كثير في الحقيقة، لأن الجيم دليل على شريعة الناطق الظاهرة، والنقطة التي تحتها دليل على شريعة الأساس التـــي هي تحت الظاهر مستورة فيه. والخاء دليل على شريعة الأساس وهو التأويل، والنقطة التـــي فوقها دليل على شريعة الناطق التي هي عالية على شريعة الأساس. والجيم والخاء هما يمين وشمال، وهما مضلّتان والنجاة في المحجة الوسطى (أي الحاء) والحاء دليل على شريعة قائم الزمان... الخ.

وكذلك الميم والواو والراء والزاي والنون شيء واحد، لكن الميم شكلته مـــن خلفـــه مدوّرة، والواو شكلته من قدّامه. وهذه صورتهما: مو والنون يبقى على حاله لكن فوقه نقطة، والميم دليل على محمّد، والواو دليل على وصيّه... والنون دليل علـــى شـــريعة قـــائم الزمان، والنقطة التي فوقها دليل على ظهور قائم الزمان بالقوّة والسيف... الخ[٤٠].

---

(٤٠) رسالة كشف الحقائق ١٣ / ١٤٣ ـ ١٤٥. انظر مخطوط ١٤٣٩ من المكتبة الوطنية بباريس، وتفسير كشف الحقائق للإمام السيّد ٧١٩...

٤ ــ ألغاز الحكمة:

إنّ التقيّة عند الدروز أوجبت عليهم التفاهم فيما بعضهم بعضاً بواسطة رموز وإشارات لا يفهمها عامّة الناس، ولا ينالون مقصودها. فقارئ الرسائل يقرأ مثلاً عن « الفلاحَة » و « الزراعة » و « الربح والخسارة »، و « الضيعة » و « الحصص »، و « البستان وصاحب البسان »، و « الجراد » و « الكتان والقطن والأهليلج » و « الزيت والزيتون والكرم والعنب »... ويكاد لا يعرف سبب موقعها، ولا يفهم شيئاً بمقصودها... ولكنّها تعني عند الدروز أشياء وأشياء، سنتوقّف عند القليل منها.

تقول الرسائل مثلاً: « وأمّا الكتّان فهو غال، ثقيل المحمل، مضرّ بالتاجر، لكثرة مؤونته وثقله »[٤١]، وأيضاً: « وما وصل من الكتّان فَتَحَرَّصْ على إنفاقه وقبضِ الثمن، وإنْ اشتريتَ به زيتاً من عمل فلسطين فهو أفضل »[٤٢]، وأيضاً: « وما حزمناه مع أعدالِ الكتّان فليحطاطْ على بَيعه من غير تضجيعٍ ولا توانٍ »[٤٣]. فـ« الكتّان » هنا « يرمز إلى الرسائل العارية من الرمز »[٤٤]؛ و « الزيت » ممثول حكمة السيد المسيح، أي الإنجيل، الذي يسهل حمله أكثر من الكتّان[٤٥].

---

(٤١) منشور رمز لأبي الخير سلامة ١٠١ / ٨٠١.
(٤٢) مكاتبة نصر ابن فتوح ٩٤ / ٧٨٢.
(٤٣) منشور رمز لأبي الخير سلامة ١٠١ / ٨٠١.
(٤٤) كتاب الدرر المضيّة... باب « نون » فصل « كاف ».
(٤٥) نفس المرجع، باب « ت » فصل « ز ».

« وأمّا الشُزَّبُ والدَّيبَقي فهو على غاية من حسن العاقبة في حمله »[٤٦] و« الشُزَّبُ » يعني الزرع النامي، والدَّيبقي منتوج زراعي في قرية مصرية ينسب إليها. « والشزّب الديبقي ممثوله الرسائل المرموزة »[٤٧]، أي الرسائل التي لا خطر من حملها والتنقّل بها بين الأضداد، لأنها، إنْ وقعت في أيديهم قد لا يفهمون منها شيئاً. فهي إذن بخلاف رسائل الكتّان الذي يصعب التنقّل بها.

« وأمّا الهليلجات والقرفة والزنجبيل وجميع البهارات فقد انقطعت السبل بتاجره، ووقع عليه المسار، فلا تذكره في شيء من المكاتبات »[٤٨]. هذه الألفاظ « هي ممثول الرسائل العارية من الرمز، وفيها الحقائق والمفترضات وذكر الحدود والمقامات »[٤٩]، وكل ما تقوم به العقيدة التوحيدية. ومع هذا تبقى أقلّ خطراً من رسائل الكتان.

« وأمّا القطن[٥٠] فممثول رسائل التوابيخ[٥١] التي منع وصولها شرذمة من المرتدّين الكافرين لأنهم كانوا يمسكون الطرق على رسل مولاي بهاء الدين حتى لا تصل إلى الشيوخ الموحدين، كما قال: « وأمّا القطن الذي قطعوا عليه التدمريّون فأمره قد فات »[٥٢]. ورسائل القطن هذه أقلّ خطراً من الكتان والأهليلج، وأكثر صعوبة في حملها من الديبقي.

---

(٤٦) رسالة ١٠١ / ٨٠١.
(٤٧) كتاب الدرر المضيّة، لفظة « ديبق »، ص ٤٣٠.
(٤٨) رسالة ١٠١ / ٨٠١.
(٤٩) كتاب الدرر المضيّة، لفظة « بهار »، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.
(٥٠) رسالة ١٠١ / ٧٩٩ ـ ٨٠٠.
(٥١) انظر رسائل: ٧٦ ـ ٨٢ في توبيخ ابن البربرية ولاحق وسكين وسهل...
(٥٢) كتاب الدرر المضيّة، لفظة « قطن »، ص ٦٦٢.

وقد تكون العلامة لمعرفة الدروز بعضهم بعضاً في سؤال الجاهل للعالم: « كيف نعرف أخانا الموحّد إذا رأيناه في الطرق، أو خطر مارّاً علينا، ويقول إنّه منّا؟ وجواب العالم: بعد السلام وبسط الكلام، نسأله أفي بلادكم فلاحون يزرعون حبّ الهليلج؟ فإذا أجاب نعم نزرعه في قلوب المؤمنين، ثم نسأله: هل تعرف الحدود؟ فإنّ أجاب نعم، يكون لا محالة أخانا، وإلاّ فيكون غريباً عنّا »[٥٣].

*****

بالرموز إذن يتعارف الدروز، وبالرموز يتميّزون. وعلى تفسير الرموز يجتمعون في مساجدهم، وبفهمها يكونون من المخلّصين الموحّدين الطيّبين. « فانتبهوا (أيّها الموحّدون) لمواعظ النذير (بهاء الدين)، وافهموا رموزات السادق البشير (قائم الزمان) »[٥٤]. وبالرموز، أيضاً، يتخلّص الدروز من شرّ الأشرار ومحنة « الأضداد » وخطر المضطهدين. وقد يكون العلم الحقيقي في الدرزية هو علم فكّ الرموز، كما أن العلم عند المسلمين هو « علم الكلام ». وهذا هو « اللاّهوت الدرزي »، إنْ جاز التعبير، في أمّه وأبيه.

*****

(٥٣) مخطوط ٥١٨٨ في تعليم الديانة الدرزية، سؤال ٤١.
(٥٤) منشور إلى آل عبد الله وآل سليمان ٩٩ / ٧٩٤.

رابعاً ــ سَيفُ الانتقَام والأخذ بالثَأر

هناك نتيجة رابعة في مجابهة الموحّدين للأضداد أصحاب المذاهب والأديان عامّة والمسلمين بنوع خاصّ، وهي ردّ إيجابي من الدروز، فيما كانت التقيّة والسرّيّة والرموز والصبر على المحنة وصون الحكمة ردّاً سلبياً على تلك العداوة المستشرية والمستحكمة. هذه النتيجة تقوم على قتال الموحّدين للمسلمين، في زمن القوّة والمقدرة.

على الموحدين أن يقاتلوا المسلمين، لأنّ المسلمين عامّة « لا يهتدون إلاّ بالسيف »[١]، ولأنّ الكفرَ هم أئمّتْه وأربابُه: « قاتِلوا أئمّةَ الكفر، إنهم لا إيمانَ لهم، لعلّهم ينتهون. وهم رؤوساء الشريعة الناموسيّة »[٢].

وكثيراً ما تبتدئ « رسائل الحكمة » أو تنتهي بهذه العبارة التي تصف قائم الزمان حمزة بأنّه « هادى المستجيبين، المنتقم من المشركين والمرتدّين، بسيف مولانا، سبحانه، وشدّة سلطانه »[٣].

---

(١) السيرة المستقيمة ١٢ / ١١٣.
(٢) رسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين ١٧ / ١٩٠.
(٣) انظر: ٥ / ٤٨، ٦ / ٦٣، ٧ / ٦٨، ٩ / ٨٢، ١٠ / ٩٦، ١٢ / ١٢٩، ١٣ / ١٤٥، ١٥ / ١٧٤، ١٦ / ١٨٣، ١٧ / ١٩٤، ١٩ / ٢٠٥، ـ

وقائم الزمان نفسه يعرّف على نفسه بقوله: « أنا مجرّد سيف التوحيد، ومهلك كلّ جبّار عنيد »[٤]. ويحذّر « خمّار بن جيش السليماني » بأنّ يرتدع عن شرّه، قبل أن ينتقم منه بالسيف: « الحذر الحذر على نفسك ممّا أنت عليه، وانظر لروحِك قبل قيامي بالسيف على جميع المشركين، وأنت أوّلهم »[٥].

ومن جملة وصايا حمزة لمقام الرضى قوله له بتوصية الموحدين بحمل السلاح دفاعاً عن أنفسهم وعقيدتهم، يقول : « الموحدون يحفظِ بعضهم بعضاً، ولا يمشي أحدٌ منهم إلاّ ومعَه شيءٌ من السلاح، وأقلّه سكّين »[٦].

وبهاء الدين المقتنى يذكّر الموحّدين بأمر من السجل المكرّم بحمل السلاح في كل مكان، وحتى في الحرم الأمين: « ألم تُؤْمَرُوا في سجل مكرّم عن الأمر العالي الشريف المعظّم بحَمْلِ السلاحِ في جميع الأماكِن حزَماً... وفي الحَرَمِ الأمينِ، إشارةً إلى إظهار التوحيد »[٧].

وقد يكون السيف هو الوسيلةُ الوحيدة للدفاع عن دين التوحيد ولتأييده ضد المنافقين: « وأمّا السيوفُ فهو تأييدُ مولانا الذي أيّدني به لحصاد المنافقين والمارقين بقدرة مولانا... »[٨].

٢٠ / ٢٠٦، ٢١ / ٢٠٨، ٢١٢، ٢٢ / ٢١٣ و٢١٤ و٢١٦ و٢١٧، ٢٤ / ٢١٩، ٢٦ / ٢٢٣، ٢٧ / ٢٢٥، ٢٨ / ٢٢٧ و٢٢٨، ٣٢ / ٢٤٠، ٣٤ / ٢٤٩، ٣٦ / ٢٥٩... الخ.

(٤) رسالة التحذير والتنبيه ٣٣ / ٢٤٣.
(٥) رسالة إلى خمار... ٢٧ / ٢٢٥.
(٦) تقليد الرضى وسفير القدرة ٢١ / ٢١٠.
(٧) رسالة التنبيه والتأنيب والتوبيخ... ٤٢ / ٣٢١ ـ ٣٢٢.
(٨) رسالة الرضى والتسليم ١٦ / ١٧٨...

أمّا من نجا من السيف تفرض عليه الجزية. وهي محدّدة على أهل السنّة والشيعة وخونة الدعوة في رسالة الرضى والتسليم[٩]. يقول حمزة: « ومَن فَضلَ من السيفِ تُؤخَذُ منه الجالية »[١٠]، وكذلك يقول في مكان آخر: « والذي يبقى من فضلةِ السيف تؤخذُ منهم الجزية، وهم صاغرون، ويلبسون الغيارَ وهم كارهون »[١١].

وتؤخذ الجزية من المسلمين، تماماً كما يأخذها المسلمون اليوم من أهل الكتاب: « وتصريح بيانه للموحدين، لا للمشركين، إلى أن يظهرَ السيف فيكون ظاهراً مكشوفاً، طوعاً وكرهاً. وتؤخذ الجزية من المسلمين والمشركين كما تؤخذ من الذمّة »[١٢].

*****

هذا في قوّة الموحدين وفي هذه الدنيا. أمّا في اليوم الأخير فسيكون السيفُ علامةَ القيامةِ والغَلَبَة: « إن القائمَ، سلام الله على ذكره، بعد غيبته، لا يظهر لأحد الاّ بعد كمال العدّة، وسيفه مشهر قائم به على الجحدة الفسّاق في جميع الأقطار والآفاق »[١٣]. في ذلك اليوم سيقوم جميع الموحدين عند « ضجيج السيد الهادى الإِمام (حمزة) وشموس القيامة وأقمار التمام (الحدود) بسيوفهم، ينتقم من

(٩) رسالة الرضى والتسليم ١٦ / ١٨٣.
(١٠) نفس المرجع.
(١١) رسالة البلاغ والنهاية ٩ / ٨١.
(١٢) كتاب النقض الخفي ٦ / ٥٠.
(١٣) توبيخ ابن البربرية ٧٦ / ٦٩١ ـ ٦٩٢.

أبالسة الأدوار (النطقاء) وأشياعهم الفاسقين »[١٤].

في اليوم الأخير، سيحلّ بالمنافقين الذعر. وبعد أن يشربوا « كأس الحمام »، سيخضعون جميعهم لـ« الذل الشامل، والسيف الصارم القاتل، وتطأهم بأخمصها كتائب الملك المظفّر المسعود »[١٥]. عندئذ « إذا استُلَّ من غمدِه الصارمُ الذكر[١٦]، واقتدحَتِ الأرضُ بالنارِ والشرَرِ... هنالك تبورُ الدجاجلة (النطقاء) »[١٧]، و « إذا اشتهرَ من المشرقِ الصارمُ المُشرفي، وظهر من الحجبِ المستورُ الخفي، لتطهيرِ الأرض وتغييرِ الملك، وقتل أبالسةِ الدين (الأنبياء) ونقل الدول... هنالك يشتهر من المشرق المشرفي الصارم، ويقوم بحدّه على الملحدين الإِمام القائم »[١٨].

في ذلك الزمان العسير، « أين يتاه بعالم النجس... من سيف يعلو الربى مثعنجراً بالدم، يَطوي طَلا الباطل، ويهدمُ الأركانَ من نواميسِ الشرَع »[١٩]. « فأينَ المفرّ... وكيفَ الخلاص لأهلِ الخِلاف المَرَدة المعانِدين، وقد أحدقَ بهم طوفانُ السيفِ؟ »[٢٠].

*****

(١٤) رسالة الايقاظ والبشارة ٥٦ / ٤٧٨.
(١٥) رسالة التعقّب والافتقاد ٥٥ / ٤٢٢.
(١٦) كناية عن حمزة الملقّب بـ« الذكر »، والصارم هو السيف.
(١٧) رسالة اليمن ٦٠ / ٤٧٢.
(١٨) رسالة التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٤ ـ ٤٨٥.
(١٩) رسالة تأديب الولد العاق ٦٣ / ٤٨٩.
(٢٠) رسالة تمييز الموحدين ٦٦ / ٥١١.

هذا السيف المسلّط على رقاب المسلمين، لا بدّ أنّه سيتحقّق فعله آخر الأزمنة. ـــ نودّ احالتك إلى رؤية صورة غلاف كتــاب « تاريخ الموحدين الدروز السياســي فــي المشــرق العربي »، المطبوع سنة ١٩٨٠، حيث تشاهد قائمَ الزمان حمزة على ظهر جوادٍ رافِعاً ســيفَه مستعِدا لدخولِ مكّة لهدمِ كعبتهــا ساحِباً ذيله وراءَه بحسب مــا تصفه « الحكمة » بقولهــا: « وسحَبَ ذيلَه بالخَسْفِ لِمَقطَرةِ الكفرِ والبابِ الأعظمِ لتهامة، وعكسَ دخانَـــه لـــذاتِ الفجــاجِ والشعوبِ، وسعَرَ نارَه بها لهدمِ الهيكلِ وإحراقِ بصائرِ القلوب »[٢١]ـــ.

هذا السيف هو الذي اطمأنّ إليه الدروز في تاريخهم السياسي المقهور، وهــو الــذي يجيز لهم الاعدادَ ليومه العظيم بأخذِ الثأر لدماءِ الموحدين المظلومين.

والوصيّة بأخذ الثأرِ عزيزةٌ على قلبِ كل درزيّ موحِّد مخلِصٍ لعقيدته ودينــه. بهــا يحفظُ أخوانَه، ويسدقُهُم، ويتعهّدُ كرامتَهم، وينتقمُ لدمائهم المهدورة ظلماً وقهرَاً.

وهي أمر جسيم معظّم أوجبته « الحكمة » على أصحابها: « ولا تَهِنوا عن أَخْذِ الثَّأْرِ لِدمَاءِ المُوَحِدِينَ المَظْلُومِينَ »[٢٢] وجميع الدروز مدعوون إلى أن يكونوا « مقتفين لفضــائِلهم (فضائل الحدود) بأخذ الثأرِ لدماءِ الموحدين المظلومين الممتحنين »[٢٣]. وجميع الموحــدين، حدوداً كانوا أم دعاة أم مستجيبين، سيقومون بعملية الثأر

---

(٢١) رسالة تأديب الولد العاق ٦٣ / ٤٨٩.
(٢٢) رسالة السفر إلى السادة ٦٨ / ٥٤٧.
(٢٣) نفس المرجع ٦٨ / ٥٣٨.

هذه: « سادات الأمم رؤوساء الأعراف الآخذين بثأر أهل الحق عند قيام القائم الهـادي »[٢٤]. وأيضاً « نهض لأخذِ الثأر ساداتُ الأمم رجالُ الأعراف »[٢٥]. و « أولئـك أعـرافُ الحـق ساداتُ الأمم الرافعون الحقَّ على كل منار وعلَم، الآخذون بثـأرِ أهـل التوحيـد... جـزاءً لارتكابهم (أي لارتكاب أهل الشك والكفر والتلحيد) من الموحدين العظائمَ واستحلالِهم مـنهم الكبائرَ والمآثم... وانتهاكِ المحارِم بذمم الإبليس (محمّد) وشياطينه وأترابه (أتباعه) »[٢٦].

في اليوم الأخير « أين يتاه بكم أيّها المرقة الفسّاق، وقد أُسْرِجَتْ لثـأر أهـل الحـقّ الضُمْرُ العِتَاق (الخيل) وتقضَّى المضمارُ وحانَ السِبَاق »[٢٧]. لقد « آن أخذُهم للثأرِ بدماء آلِ الحقّ المظلومين الموحدين، من حزبِ الدّجال ومن الأدعياءِ النكثة أهـل الالحـادِ والتكـذيب المعاندين »[٢٨].

وما قائم الزمان حمزة إلاّ « الآخذ بثأر أوليائه الممتحنين الركّع السجود من آل السفه والفسق والجهل والجحود »[٢٩]. وهو يتعهّد بأنّ يكون « آخذا بثأر أهل التوحيد من الشيصبان (عليّ) والعجل (محمّد)[٣٠]، ويحلف بالله العظيم وبعدله الذي لا يفوته شائبة

---

(٢٤) رسالة الايقاظ والبشارة ٥٦ / ٤٣٨.
(٢٥) رسالة تمييز الموحدين ٦٦ / ٥١٧.
(٢٦) رسالة إيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٦٣.
(٢٧) رسالة التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨٤.
(٢٨) رسالة تمييز الموحدين ٦٦ / ٥١٦.
(٢٩) رسالة إيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٦٤.
(٣٠) رسالة التقريع والبيان ٦٢ / ٤٨١.

بأنّ لا يهدأ له روع إنْ لم يأخذ بثأر أتباعه المظلومين: « وحقّ الباري عندنا، وعدله يوجب أخذَهم بثأر أنفسِهم من أولادِ السفاح والحرام »[٣١].

وفي عودة حمزة، عند تجلّي الحاكم في مكّة، سيكون استيفاء الحقّ وردّه لأصحابه الأصيلين، ومعاقبة الأشرار، والثأر منهم: « فها هو قد أزمع للمجيء الإمام السيّد، لاستيفاءِ الثأر، ومعاقبتكم بأمره على خبيث أفعالكم يا أشرّ الأشرار »[٣٢].

*****

إنْ رسائل الحكمة الدرزيّة تزخر بأخذِ الثأر هذا. وقد يتمّ الثأر في ساعة ملائمة، لا نخال وقوعَها، عندما تؤاتي الظروف. وذلك عندما يفلت المجتمعُ البشري من قيوده وأنظمته، في ثورة، أو في حرب، أو عند تغيير الدول، أو لدى اضطراب الأمن والنظام. عندئذ لا بدّ للموحدين المخلصين أن يعدّوا العدّة. ويرافق الثأرَ غدرٌ، لأنّ المتربّصَ لعدوّه يرابطُ له، ويترقّبُ الانقضاضَ عليه، فيغدرُ به، دون أن تقع عليه لومة لائم.

والثأر الدرزي هو الجهاد الإسلامي، مع الفرق إنّ الجهاد في الإسلام هو سبيل الله ولأجل الدعوة إلى الدين، فيما الثأر عند الدروز

(٣١) رسالة إيضاح التوحيد ٧٤ / ٦٦٥.
(٣٢) رسالة التعقّب والافتقاد ٥٥ / ٤٢٨.

لن يكون لدعوة الناس إلى مذهبهم ــ لأن باب الدعوة عندهم مغلق على سواهم ــ، بل هو انتقام لأخوانهم الذين قُتِلوا ظلماً في أوائل الدعوة، والذين يقع صراخُ دمائِهم الهائجةِ على عاتقِ كل واحد منهم.

ولا بدّ للدرزي أن يصلّي كل يوم، ويذكر في صلاته، كي تستجابَ، كلَ ما يعودُ إلى الثأر لدماء أخوانه والانتقام لهم بإذلال محمد والإسلام والمسلمين، لأنّ هؤلاء كانوا هم المسؤولين عن هذا الدم البريء. يصلّي الدرزي إلى باريه قائلاً:

« اللّهمّ! إنَّ قرنَ الشيطانِ (محمّد) قد طَغى فأَذِلَّهُ، وعددَ أهلِ الارتداد والنكثِ قد كَثُر فأَقِلَّهُ. فقد أظهروا من الغِلِّ والنّكثِ ما كانَ في الكنائسِ مستوراً، وأبدُوا من الضدادةِ والعِنادِ ما صارَ لِمُتَأَمِّلِهِ بعدَ الطيّ منشوراً. فقاتلونا بأسلحتِنَا من حيثُ أَمَّنَّا على النفوسِ، ورجِعُوا إلى ما أَلِفُوه من عبادة العجلِ (محمّد) والجاموسِ (عليّ).

« اللّهمّ فبكَ المستغاثُ، وإليكَ المُشْتكَا، وفي يدَيكَ المماتُ والمَحْيَا، وإليكَ، بولّيكَ، المفزعُ والملْجَا.

« اللّهمّ! فَأَرِنَا بمسادِيقِ وعدِكَ اجتثاثَ شجرةِ الأوغادِ (المسلمين)، وصلِّ على أوليائكَ الطاهرين الأشهاد، وسلّمْ تسليما... »[٣٣].

*****

(٣٣) رسالة الحقائق والانذار ٥٧ / ٤٥١ ـ ٤٥٢، انظر ٦٠ / ٤٧٣.

خاتمة الفصل

يحمل الدروز على عاتقهم عبء تاريخ مرير، مملوءٍ ظلماً وقهراً، حافلٍ بالقتل والدم، تلفُّه ضبابةٌ سوداء، شدَّ القهرُ فيه رباطَه بحبلٍ مِن مَسَدٍ مَتين، فتعاونَ الموحِدُونَ على الانقيادِ بوجهةِ سَيرهِ متكاتِفينَ متّحدِينَ مترابطِينَ منتظرِينَ يومَ فَكَاكِه العجيب.

تُرى أيَّهما أقوى: ظُلْمٌ جَحْفَلٌ تتناقلُ الأيّامُ رعبَهُ وتزيد، أم عِلْمٌ غزيرٌ يحطِّمُ قيودَ الماضي ويفتّحُ على مستقبَلٍ زَاهٍ بالخيرِ والسلامة؟ لو دخلَ محلِّلٌ نفسانيٌّ قَعْرَ ضَمائرِ الموحِدينَ لوجَد، في لاوعيهم، ظُلْماً قابعاً، منذُ ألف سنة، يتفاعلُ ويتعاظمُ يوماً بعد يوم. ظُلْمٌ تاريخيٌّ جُماعِيٌّ، يَحشُدُ معَه ألوفَ الضحايا البريئة، لن يسكّنَ غليانَ دمائِها مسكّنٌ.

عالجوا الظلمَ بشتّى الوسائل: بالتقيّةِ، والمسايرةِ، والتمويه، والحِيطة، والعزلةِ، والتدليسِ، والتظاهرِ بعقيدة أعدائهم... فكانتِ الوسائلُ نفسُها زَيتاً يُصبُّ على نار. عالَجوه بالمسكِّناتِ والمطفِئات فكانَ « أضعفُ الأدويةِ المسكِّنات، وأقلُّها نفعاً المطفِّئات. وإنّما المنفعةُ في العقاقير البشِعَة، والشَرْطِ والبَطِّ والقَطْعِ والكَيِّ »[١].

عالجوه بالعلم والتسامي على الجراح، فعَقَدَ العلمُ عليه طَلاءً ظاهراً لم يَنفُذْ إلى عمقِ أسبابِه، وارتفعَ التسامي إلى حدٍّ أن رأَوا نفوسَهم « أساتيذَ الدنيا في التسامحِ والتساهلِ »[٢]. فأيُّ حظٍّ يكونُ للعلمِ مع الدين؟! والدينُ نفسُه مظلومٌ يدعو لثأرِ نفسِه من سائر الأديان!

---

(١) منشور الشرط والبط ١٠٢ / ٨٠٥. انظر معاني الألفاظ في مكانها.
(٢) عارف النكدي في مقدمة كتاب « الواقع الدرزي وحتمية التطوّر »، ص ٨.

الفصل الثامن

المَعَادُ الدّرزيّ

أوّلاً ــ نظريّة التّقمّص

ثانياً ــ جنّة الموحّدين ونارهم

ثالثاً ــ يوم الدروز الأخير

أوّلاً ـــ نَظريَّةُ التَقَمُّص

يختلف المَعَادُ الدرزي (أي الإِسْكَاتُولُوجِيَّا) اختلافاً جوهرياً عن المَعَاد الإسلامي. هذا يقولُ بحياةٍ واحدةٍ للإنسان، وبجنّةٍ ونار مادّيتين، وبيومٍ للحساب والقضاء رهيب، وبنهايةِ هذا العالم وزواله؛ وذاك يقولُ بحَيَوَات متعدّدة، أو بتمقمّصِ الأرواحِ ونُقْلَتِهَا من جسد إلى جســـد، وبأدوار للخليقةِ مُتلاحِقة، وبجنّةٍ ونار روحيتين، وبنهايةٍ لهذا العالم بنهايةِ أديانه ومذاهبه...

وتعتبر الدرزيّة أنَ الدورَ الذي نحنُ فيه هو آخر الأدوار؛ في نهايته يتجلّـــى الحـــاكمُ بمجدٍ عظيم وَغَلَبةٍ لا تقهر. وتحشرُ جميعَ النفوس في دينِ التوحيد أو تحتَ حكمـــه الســـعيد. وتكون للموحدينَ سعادةٌ لا يوصفُ بهاؤُها، وللمخالفين عذاباتٌ لن تنقضـــي وقهـــرٌ يُسَـــاوي أضعافَ ما حلّ بأهلِ الدعوة المنكوبين. وأعظمُ القهر سيقعُ على المســـلمين، عنـــدما يـــرونَ مدينَتهم المقدّسة تُدَكُّ دَكّاً وتُهدَم حجراً بعدَ حَجَر.

بيد أنّنا قبلَ الوصول إلى النهاية، لا بدّ من النظرِ في وضعِ الإنسان وتحوّله من حياةٍ إلى حياة، أي نُقلَته من جسدٍ إلى جسد، أي تقمّصه المتتابع. فهذا أيضاً يُعِدُّ للآخرةِ اعداداً عادِلاً مُسْتَحَقّاً.

*****

التقمّص هو انتقال النفس من جسد بشرى إلى جسد بشرى آخر. والقول بالتناسخ، أي بانتقال النفس إلى أي جسد كان، هو، عند الدروز، أمر باطل، مخالف لأسفار الحكمة. « الموحدون الدروز لا يؤمنون بالحلول ولا بالتناسخ، بل يؤمنون بالتقمّص »[١]. هذا ما يعلّمه شيخُ عقل الطائفة الدرزية محمّد أبو شقرا. وهو يعتمد، في قوله، على تعليم قائم الزمان القائل:

« لا يدخلُ في المعقول، ولا يجبُ في عدل مولانا سبحانَه، بأنّ يَعصيه رجلٌ عاقل لبيبٌ، فيعاقبُه في صورةِ كَلْبٍ أو خنزير، وهم لا يعقلونَ ما كانوا عليه في الصورة البشرية، ولا يعرفون ما جَنوه. أو يصيرُ حديداً يُحْمَى ويُضْرَبُ بالمِطرقَة. فأينَ الحكمة في ذلك والعدلُ فيهم؟ وانّما تكونُ الحكمةُ في عَذابِ رجلٍ يَفهَمُ ويعرفُ العذابَ، فيكونُ مأدبَةً له وسبباً لتوبته »[٢].

فالتقمّص إذن أمرٌ مُقَرَّرٌ وتعليمٌ وعقيدةٌ أساسيّةٌ في التوحيد. وقد استعانَ الدروز المعاصرون بالعِلْمِ المعاصرِ ليؤكّدوا الدينَ في نظريّته ويَدعَمُوا رأيَه هذا. ونحن ننقل للقارئ ما قرّره « العقلُ » عند عبد الله النجّار. يقول:

١. إذا كانتْ حياةٌ أرضيّة واحدةٌ كافيةً لإعداد المرء ليوم الدينونة أو الحساب الذي تقول به جميعُ الأديان، فلماذا تكونُ هذه الحياة، أحياناً قصيرةً، وأحياناً طويلةً، أحياناً تنتهي في الطفولةِ

(١) مجلّة الضحى، يصدرها المجلس المذهبي للطائفة الدرزيّة، عدد ١٠ سنة ١٩٧١.
(٢) رسالة الردّ على النصيري الفاسق ١٥ / ١٧١.

البريئة، أو بالفتوّة الجامحة، بالجنون أو بالنبوغ، في نطاقات متفاوتة من الفرَص والسنين؟

٢. ما دام للحسابِ يومُه الأخير، لماذا لا يستمرّ اتّحادُ النفس بجسدِها حتى ذلك اليوم؟

٣. أين تُستودَع هذه النفسُ، بعدَ الموت، في مُهلةِ الانتظار؟ أفي مطهرِها؟ وأيُّ مطهرٍ أولى بها من الجَسد؟ أم في خَفَاء مكتومٍ يُفْتَح سجلُّه يومَ الدينونة، بعد انطوائِه في الدهر الطويل، بانتظار فتحِه الأخير؟

٤. أتبقَى النفسُ منفصِلةً، مستقِلّةً، بعد موت جسدِها حتى ذلك اليوم؟ ثم تتّحد ثانيةً بجسدها الذي بُلي في التراب؟ « يوم يقوم الأموات من القبور » كما تقول إحدى الآيات؟[٣].

أيكون معنى ذلك إنّه ليسَ للروح شأنٌ بدون الجسد؟ ما دامتْ قيامةُ الأجساد من القبور شرطاً لحساب الأرواح. وهو ما تعنيه الآية؟

بعد هذه التساؤلات الاستنكارية، يتساءل العقل جوابيّاً:

٥. لماذا لا تبقى النفسُ، أو الروح، مستمرّةَ التواصل مع أجسادها، في أعمارٍ متجدّدة، جيلاً بعد جيل، ما دام لا بدّ من الموت؟ فتمرّ مع الزمن متطوّرةً في أدوار الامتحان (كما تقول النصوص)، والتصفية، والتكامل، وِفَاقاً لناموسِ التطوّر الذي سنّه الله لجميعِ المخلوقات الحيّة، وكأنّها، في هذا التواصلِ مستمرّةٌ في عمر واحدٍ لا

(٣) رسالة بولس الرسول إلى رومة ـ فصل ٨ عدد ١١ ـ...

تنتقل منه؟

٦. لماذا لا تحاسب أخيراً، بعد هذا التطوّر المتواصل بدلاً من حصيلة عمـر واحـد يتضاءل فيه كل تطوّر؟

ويسأل العقل:

٧. كيف يتساوى، في الحساب، مَن مات في عصور الهمجيّة الأولى، ومَن عاش، بعد فارق الزمن، في نعمة الرسالات السماويّة، وهدى الحضارات المدنية؟ كيـف تميّـز العدالـةُ الإلهيّة بينَها في موازِينها؟

٨. وفي عمر واحد، كيف يُحَاسَبُ الطفلُ البريء، والشابُ الذي يقضي فـي غمـرةِ الغرور ونزوةِ الشهواتِ، والعجوزُ التائب عن ذنوبه؟ هل تتفاوتِ الموازينُ بتفاوتِ الفـرص المُتَاحَة؟ ولماذا هذه الاتاحات؟ أم إنّ الله يحاسِبْ على ما يصل إليه الإنسانُ في نهاية التطوّر؟ لا بنسبةِ الرجَحَانِ والنقصانِ، بين الخيرِ والشرّ في كفّتَي الميزان؟

على جميع هذه التساؤلات، يُجيب العقلُ بنظريّة التقمّصِ التي مـرّت فـي مراحِلهـا الهندية، والمصرية، والأورفيّة، والفيثاغوريّة، والأفلاطونيّة، بتعـاريفَ وتكهّنـاتٍ متعـدّدةٍ مختلفةٍ، إلى أن تولّتْها فلسفةُ التوحيد، وبَلْوَرَتْهَا بشكلِها الحاضر.

تقول هذه النظريّة:

إنّ الروحَ، أو النفسَ، لا تفارِقُ الجسدَ إلاّ إلى سِواه، بالولادة؛ ولا شأن لهـا إلاّ مـع الجسد. به امتحانُها. وبَلاؤُها.

وتطوّرها بالنقلة المتواصلة بالأجساد »(٤).

فعبد الله النجّار إذن يؤمن بأنّ التقمّص هو الحلّ الأمثل، بل الأوحد، لجميع تساؤلات العقل، ولمعظم مشاكل الإنسان الماورائيّة المستعصية. وهو يعتمد على مُسَلَّماتٍ لا تحتاج إلى برهان، مثل تجزئة الإنسان إلى عنصرين، كل منهما قائم بذاته: النفس والجسد؛ ويعتبر النفسَ هي ذاتها الروح، لا فرق بينهما، ويعتقد كالحكمة الدرزية بأنّ النفوسَ أزليّة أبدية، لا زيادة فيها ولا نقصان محدودة العدد، ويقول:

بهذا تفسِّرُ نظريّةُ التقمّصِ زيادَةَ عَددِ سكّان الأرض بما يَنْتَقِلُ إليها من أرواحٍ تَهْبطُ من كواكبَ مأهولةٍ، باعتبار إنّنا لسنا وحدَنَا في هذا الكون اللانهائي غرضَ ربِ الوجود. فإنّ اللهَ يرعى مخلوقاتِه جميعاً. وكوكبنا الأرضيّ بين سائر الأكوان أشبهُ بِذَرَّةِ رملٍ على ساحل الوجود. وما أيسرَ انتقالِ الأرواحِ بين الكواكبِ بالنسبة إلى انتقالِ المَرْكَباتِ الناريّة التي نُطلِقُها إلى أَبعادِ الفضاءِ الخارجيّ »(٥).

*****

ويؤكّد نظريّةَ التقمّصِ درزيّ مستنيرٌ آخر هو القاضي أمين طَلِيع، رئيسٌ فخري في محكمةِ التمييز اللبنانيّة، تأكيداً لا ريب فيه ولا شكّ بعده. ويستعرضُ نظرياتِ الفلسفةِ اليونانيّة، والحضارة الغربيّة المعاصرة، ويرى

(٤) عبد الله النجار، إمامة العقل في مذهب الموحدين، ص ٢٠ ـ ٢١.
(٥) نفس المرجع، ص ١١.

بأنّ العالم يسير نحو الإيمان بالتقمّص إيماناً وطيداً، ويُسنِدُ رأيَه بآيات من القرآنِ والإنجيل. ثم يقدّم أدلّةً من الواقع بشكل أسئلة:

١ً ــ ما معنى قولِ البعض بالالهامِ عندما يقولون ببساطة: الله ألهمني؟

٢ً ــ وما معنى أن تفكِّر بقريبك المهاجِر في ديار الغربة منذ عدّة ساعات، وقبلَ أن ينقطِعَ حبلُ تفكيرك به يكونُ ساعي البريد قد طرقَ البابَ حامِلاً إليك رسالةً منه؟

٣ً ــ وما معنى إنّك وأنتَ في الصيدِ تشعرُ بخَطَر يهدّدُك أو خوفٍ يعتريك من جهةٍ معيّنةٍ دون أن تَرى له أثراً أو تسمَعَ له صوتاً، ثمّ لا تلبثُ أن تكتشِفَ وجودَ أفعى أو حيوانٍ على مقربةٍ من المكان الذي أنتَ فيه؟

٤ً ــ وما معنى الأحلام لا سيّما ما يتحقّق منها بسرعة؟

٥ً ــ وما هي الحاسّة السادسة؟

٦ً ــ وكيف تشعر أحياناً بوجود مَن يلاحِقُكَ في سَيْرِك وأنتَ لا تراه ولا تسمَع له صوتاً أو وَقْعَ قَدَمٍ؟

٧ً ــ وكثيراً ما يقع للإنسانِ أن يرَى شخصاً ويعتقِدُ أنّه رآه ويعرفُه سابقاً، في حين أن اجتماعَه به كان للمرّة الأولى.

٨ً ــ وكم يقع لك أن تذهبَ إلى مكانٍ ما لأوّل مرّة ولكنّك لا تَرى فيه شيئاً جديداً وكأنّك تعرِفُه من قَبْل، أو أقمتَ فيه فيما مضى مِن سالِف الأيّام.

كيف تفسّرُ هذه الغوامضَ؟ »[٦].

---

(٦) أمين طليع، التقمّص، ص ٧ ـ ٨.

لا مجال للشكّ فإنّ القاضي يفسّرها بنظريّة التقمّص، كما هي واردة في كتب الحكمة. وجميع أسئلته تدور حول « تذكّر » الإنسان ماضيه، ممّا يجيز له الاعتقاد بأنّ الدليل على صحّة التقمّص هو ما تحمله النفس معها من ذكريات وعلوم ومعارف حصّلتْها في الحَيَوَانات السابقة. والله أعلم لو تقمّصَ « الشيخُ محمّد أبو شقرا » خمسينَ مرّة، وراحَ يَحْمِلُ معَه كلَّ علومِه الدينية والكونية المستمدَّة من « العقل »، أيُّ حَظٍّ يكونُ للذين سيعيشونَ معه؟! أو أيضاً لو تقمّصَ « القاضي أمين » مائةَ مرّة، وهو يجمع لديه « قوانينَ » العالَم من أنحاءِ الكون، فأيُّ حظّ يكونُ لـ« داللّوز »؟

*****

أمّا شيخ العقل محمّد أبو شقرا فيوجز لنا مجمل ما يَفهَم بالتقمّص، فيقول: « الموحدون الدروز لا يؤمنون بالحلول ولا بالتناسخ، بل يؤمنون بالتقمّص. فبالتقمّص يثبتُ عدلُ الله في مخلوقاته، وتتكأفَأ الفَرص، وتُتَاح لكل مخلوق. النفوسُ البشريّة اللطيفةُ خالدةٌ باقيةٌ، والأجسامُ الكثيفةُ أقمصةٌ للنفوس، ولا لطيفٌ دونَ كثيف. والنفوسُ لا تفارِق الأجسامَ لحظةً واحدة، بل تنتقل بسرعةٍ من جسدٍ بشري إلى جسدٍ بشري جديد. وتَسرِي فيه كَسَرَيَان تيّارِ الكهرباء في السِلك. والنفوسُ جواهرُ، والأجسامُ آلاتُها، كالعينِ آلةُ البصر، واللسانِ آلةُ الكلام، والآذانِ آلةُ السمعِ، والجسمِ بمجموعِ أعضائِه آلةُ النفس.

« إن خلودَ النفس لا يكون ولا يمكن أن يكون بالنسبة إلى عدل الخالق تعالى، وبالنسبة إلى الثواب والعقاب، إلاّ بواسطة التقمّصِ،

وهذا الأمر أشارت إليه كتب الأديان جميعها »[٧].

في كلام الشيخ جميع عناصر التقمّص كما يؤمن به الدروز. فهو كلام موزون مدروس، يشمَل مفهومَ التقمص، وطريقَته، ومبادئَه، وغايتَه، كما نراها في رسائل الحكمة. وهو أيضاً من المسلّمات الدينيّة في عقيدة أهل التوحيد. لنرى ما تقوله الحكمة:

لما كان التقمص ، كما حدّده قائم الزمان[٨]، هو تعاقب الأرواح في الأجساد البشريّة للامتحان والتطهير. ولا يمكن للنفس أن توجد بدون الجسد. فالله، عند خروجها من جسدها الأوّل، يُعِدُّ لها مباشرةً جسداً آخر تتّحد به. وهذا الاتّحاد لا يعني حلولاً، أي إن الجسدَ موجودٌ سابقاً لتحلّ النفس فيه. ولا يعني تناسخاً بجميع أشكاله كالنسخ والفسخ والمسخ والرسخ وغيرها.

يقول كتاب النقط والدوائر: « لمّا كانَ من مقتضى حكمة العزيز القادر سبحانَه احتياجُ النفس إلى الجسم، وإنّها لا تستغني عنه طرفة عين فكان لها في الجسم ممازجات ومشاركات وآلات مدركة »[٩].

ويقول أيضاً بأنّ النفس بحاجة إلى الجسم لتعرف: « فما تقدر النفس الناطقة على الذكر إلاّ بالقوّة المذكّرة التي في الجسم، ولا تقدر على تخييل الأشياء إلاّ بالقوّة المخيلة التي في الجسم، ولا تقدر على

(٧) مجلّة الضحى، عدد ١٠ سنة ١٩٧١.
(٨) رسالة الرد على النصيري الفاسق ١٥ / ١٧١.
(٩) كتاب النقط والدوائر، ص ٣٠.

التفكّر إلاّ بالقوّة التي في الجسم... فالجسم حجابها ومنه تظهر أفعالها، ولا تُدرَك إلاّ منه، ولا تُعرَف إلاّ به. ولا غنى لها عنه، ولا تنتقل منه إلاّ به... وانتقالها بتدبير العلّة الأولى التي هي العقل الكلّي، لأنه علّة وجودها، ومرقى صعودها... فما لَطُفَ فإلى عالَمِ العقلِ يَرْقَى... »(١٠).

ثم إنّ الله قادر أن يثيبَ الإنسانَ أو أن يعاقبه في جسد بشري. وليس بحاجـة، لكـي يُثِيبَه، أن يُلبِسَه جسداً ملائكياً، ولا أن يُلبِسَه جسداً حيوانيّاً، لكي يعاقبَه. فإنّ « الخلقَ مجتمعون على أنّ الباري قادرٌ. فالقادر قادر أن يُنعِمَ في هذا الجسم، قادر أن يعاقِبَ فيه » أيضاً(١١).

*****

أمّا مبادئ التقمّص فتقوم:

١ ـ إن الأرواح في العالم محدودة معدودة، لا تزيد ولا تنقص. والسبب هو محدوديّة العالم ونهايته. ولو زاد العالم كل ألف سنة نفس واحدة لضاقت الأرض بالناس، ولو نقص كلَ ألف سنة نفس واحدة لم يبق على الأرض إنساناً واحد. تقول الحكمة:

« إنّ هذه الأشخاص، أعني عالَم السواد الأعظم، لم يتناقصوا

(١٠) كتاب النقط والدوائر، ص ٣٠ ـ ٣١.
(١١) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٣٥.

ولم يتزايدوا، بل هي أشخاص معدودة من أوّل الأدوار إلى انقضاء العالم والرجوع إلى دار القرار. والدليل على ذلك إنّ هذه الخلقة، أعني العالم العلوي والسفلي، ليس لها وقت محدود، ولا أَمَدٌ عند العالم معدود. أليس لو زاد العالَمُ في كل ألف سنة شخصاً واحداً لضاقت بهم الأرض، ثم إنّه لو نَقصَ في كل ألف سنة شخصاً واحداً لم يبقَ منهم أحد؟

فصحّ عند كل ذي عقل راجح ومَن هو بالحقيقة لنفسِه ناصح، إن الأشخاصَ لم تتناقصْ ولم تتزايدْ، بل تظهرُ بظهوراتٍ مختلفات الصُوَرِ على مقدار اكتسابِها من خير وشرّ »[١٢].

وربّ معترض يقول: إنّنا نرى العالم يتكاثر ويزيد عمّا كان عليه فكيف تكون النفوس محدودة إذن؟ إنّنا نترك لأمين طليع أن يسأل هذا السؤال وأن يجيب عليه. يقول:

« يتبادر إلى الذهن سؤال، كثيراً ما سمعناه ونسمعه من الناس، وهو إنّ سكان الكرة الأرضية في ازديادِ مستمرّ، فلو كانت الأرواح تذهب من جسد لتعود إلى جسد جديد هي هي نفسها أزلية باقية دائمة، لما كانت هذه الزيادة ممكنة. وكان يجب أن يكون عدد سكّان العالم هو نفسه لا يتغيّر.

« يجيب على هذا السؤال الكاتب بْرَنْسْلِي لُوبْوَار تْرَانْش في كتابه « سكان السماء » حيث يقول:

---

(١٢) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٣٥.

« إن مخلوقاتٍ تعيشُ في كوكب آخر، أو في أكثر من كوكب. ويبدو أن بعضَها قــد تقدَّمَنَا كثيراً. ولكي يبرهنَ عن نظريته يعودُ إلى أقدم التاريخ لينتهي إلى الصُــحُونِ الطــائرةِ والمحاولاتِ التي يبذُلها العلماءُ للوصول إلى مصدر ذَبذَبات وإشارات تلتقطها الآلات، وهــي دون شك من خارج الأرض... وشاهدَها رسمِيّون، ولم تَعُدْ خرافةً...

« ويقدّم دليلاً آخر بقوله: إن علمَ الآثار أكّد أن مدنيّاتٍ كبيرةً جدّاً ومتقدّمةً جدّاً وُجدت في الماضي، ومكانُها الآن صحراوي، سكّانه أقلّ من القليل. فمصر كانت في القديم مأهولــةً بعدَد أكبر من عدد سكانها اليوم رغم ازديادِه، وبابل في العراق كانت تَعِدُّ عشرات الملايــين، وكذلك المكسيك، وبلاد أميركا اللاتينية، ومناطق أخرى من آسيا، ولعــلّ جزيــرةَ البحــرين الكبرى في شبه جزيرة العرب تعطي برهاناً آخر على أن جزيرةَ العرب كانت مأهولةً بعــدد كبير من السكّان... فيما هي اليوم لا تزيد عن مئة وعشرة آلاف ثلثهم أجانب... »[١٣].

٢ ـــ يعتمد القول بـــ« التقمّص أيضاً على نظريّة العدل الإلهي، إذ ليس من العدل في شيء أن يحاسِبَ اللهُ الإنسان، على فترة من العمر قصيرة. و « لا يمكن أن يستقيمَ العدلُ إذا كانت الحياةُ مقتصِرةً على جيل واحد. لذا كان التقمّص، وكان تعدّد الأجيــال. وكــان علــى الإنسان أن يمرَّ في جميع الأدوارِ ليُظهِرَ جوهرَ نفسه... وعندئذ يُمكِنُ الحكمُ عليــه، فيســتقيمُ العدل »[١٤].

---

(١٣) أمين طليع، التقمّص، ص ١١٤ ـ ١١٧.
(١٤) نفس المرجع، ص ١٨.

ويقول أيضاً القاضي طليع: « إن حساب الروح وعقابها مبني على قاعدة العدل الإلهي في محاسبة الأرواح بعد مرورها في أدوار الدهر الطويل، التي تتقلّب فيه مارّة في مختلف حالات الحياة كمرور المادّة في مُخْتَبَرٍ لكشفِ جوهرِها »[١٥].

وهو أيضاً رأيُ الشيخ محمّد أبو شقرا، والسفير عبد الله النجار، كما رأيناه. وهو بالتالي رأيُ جميع الموحّدين. وجميعها تعتمد على « الحكمة » الواضحة في هذا الشأن[١٦].

٣ً ــ وهناك مبدأ آخر يقوم على أنّ « في العقيدة الدرزيّة أنّ التقمّص يميّز الجنسَ. فالذَكَرُ يخلقُ ذكراً، والأنثى تعودُ أنثى، كما كانت »[١٧]. والحقيقة أنّنا لم نرَ نصّاً واحداً في رسائل الحكمة، أو في شروحات المشايخ الأقدمين، دليلاً على هذه النظرية. ولكنّ ذلك قد يكون استنتاجاً منطقيّاً للقول بالتقمّص.

٤ً ــ إنّ التقمّصَ يكونُ للدروز في دينِهم فقط، فالنفسُ لا تنتقلُ من دينٍ إلى دين: « إن مَنْ وحّدَه (من وحّد الله) في وقتِنا هذا فَقَدْ وحّدَه في سائر الأعصار »[١٨].

بيد أنّ هذا المبدأ مختلَفٌ فيه: فالشيخ أبو شقرا يتأرجَحُ باستعماله لفظةَ « غَالِباً » في قوله: « إن الروحَ الدرزيّة تتقمّصُ غَالِباً شَخْصاً

---

(١٥) أمين طليع، التقمص، ص ١٥.
(١٦) انظر رسائل ٦٧ و٦٦ و٦٨...
(١٧) أمين طليع، التقمص، ص ١٩.
(١٨) من دون قائم الزمان، ٦٧ / ٥٣٦.

درزيّاً »[١٩]، والأستاذ النّجار يؤكّد بأنّ « في التقمّص تنتقل النفسُ من جسدٍ إلــى جسـد دونَ تمييز عنصري أو مكاني »[٢٠]، ثم ينفي ما أكّده بقوله: « إن الأرواحَ تنتقل إلى أجسادٍ جديدة بالولادة: أرواحَ الموحدين إلى موحّدين، وأرواحَ المشركين إلى مشركين »[٢١]، وكمالُ جنبلاط يتناقضُ، فيؤكّدُ بقوله: « لا يقبلُ الدروزُ أحداً في دينهم، ولا يسمحون لأحدٍ بــالخروج منــه، وحتى هؤلاء الذين يخرجون لا يعترفُ الدروزُ بأنّهم قد خرجوا »[٢٢]، ثم يعود ليقول: إنّه في سنة ٢٠٠٠ « يُفتَحُ الطريقُ من جديد ويصيرُ بإمكانِ جميعِ الناس في كافّــةِ أصــقاعِ العــالَمِ سلوكُها »[٢٣].

سبب هذا التأرجح والتناقض إنّ الدروز يعترفون بأنّ هناكَ موحّدين مســتترين فــي أديان العالم، لا يمكن عدّهم أو إحصاؤهم، وقد يؤلّفون « أكثر من ربع البشريّة »[٢٤]. لــذلك، قد يموت درزيّ موحّد، وتنتقل نفسُه إلى جسد مسيحي أو يهودي، ولا يتمكّن « المتقمِّص »، في هذه الحال، إعلانَ نفسه، فيستترُ إلى أن ينتقلَ نقلةً أخرى في تقمّصٍ جديد. فإنْ كانَ صالحاً انتقلَ إلى ما بينَ الدروز، وإنْ كان سيّئَ السيرة، استمرّ يتنقّلُ ما بين اليهوديّة أو المســيحيّة. ونادراً ما ينتقل في المسلمين.

(١٩) الدكتور مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص ٢٩٤.
(٢٠) النجار، مذهب الموحدين الدروز، ط ٢، ص ٨٨.
(٢١) نفس المرجع، ص ٨١.
(٢٢) الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص ٢٩٠.
(٢٣) كمال جنبلاط، هذه وصيتي، ص ٥٠.
(٢٤) نفس المرجع.

وقد يرجع هذا التناقض إلى سبب جوهري يقوم على أنّ نفوسَ البشر، كلَّها، كانت، في البدء، موحِّدَةً. ولكنّ بعضَها تخلّفتْ عَبْر الأدوارِ المتعاقبة، وبعضَها أشركتْ، وبعضَها ارتدّتْ، وبعضَها لم تصلْها الدعوةُ... وكلّها، تستطيعُ، في كشفٍ جديد أن تدخلَ الدعوةَ، أو يمكنها، بعد الامتحانِ والاختبارِ بتقمّصاتٍ جديدة، أن تعودَ إلى صفاءِ التوحيد.

فحكمةُ الحكمة « من وحّدَه في وقتنا هذا فقد وحّدَه في سائر الأعصار »، يصعب حصرُها فيما بين مَن هم دروز في الظاهر.

ينتج من هذا أمر جسيمٌ للغاية، وهو إن مَن كانَ غيرَ موحِّد ويحكمُ « العقلُ » في طهارتِه وخَلاصِه، يُنقلُه إلى جسدٍ موحّدٍ. لكنّ بعضَ الدروز الغيارَى على دينهم يستعجِلون خلاصَ بعضِ النفوسِ الطاهرةِ من جسدِه الكافر، فيتعمّدون قتلَ الجسدِ لتخلصَ النفسُ من شقوتِها. وكم حدث ذلك؟[٢٥]. وكذلك أيضاً، الدرزي الذي يُحكَم عليه بارتكاب الفواحش والزنا، يستعجلُ « العقلُ » في نقلتِه من جماعةِ الموحدين إلى أجسامٍ كافرة. إنّه أمرٌ إلهيّ يقرّرُه العقلُ ومَنْ ينوبُ عَنه.

---

(٢٥) أكّد لنا بعض سكّان إحدى قرى الشوف الجبلية بأنّ درزيّاً شابّاً زنى بفتاة درزية ـ وهو عار عظيم ـ فطارده أهل الفتاة، فهرب في شعاب القرية، ولحق به المطاردون. فوصل الشاب إلى رجل مسيحي يقطع أوراق التوت ويحمّلها بغلته، فطلب إليه المساعدة، فوضعه الرجل على ظهر البغلة وطمره بأوراق التوت. ولمّا وصل المطاردون سألوا الرجل عن الشاب الهارب، فدلـّهم على طريق سلكها، وسعوا في أثره مجدّين، ولمّا اطمأنّ الشاب إلى حياته عمد إلى خنجره وطعن به خاصرة الرجل، فصاح به: أهذا جزاء المعروف؟ أجاب الشاب: لأنّك هكذا أردت لنفسك الخلاص من جسدك الكافر... (يتبع)

٥ً ــ أمّا مسألة « النطق »، أو « التذكّر »، وتعني أن الروح، عند تنقّلها من جسد إلى آخر، تحمل معها معلوماتِها السابقةَ، فــ« تَنْطُق » بها وتحدّث عنها. ويروي لنا الدروز حوادثَ مدهشةً وقعتْ لهم في حياتهم الماضية. ويعتقدُ سامي مكارم، في معرَض ردّهِ على النّجار الذي يرفض القول بــ« النطق »، بأنّ « الأكثريّةَ الساحقةَ من الدروز الذينَ يعتقِدُون بالتقمّص يعتقدونَ بالنطق »(٢٦).

وفي رأي القاضي طَليع أن « الموتَ معبَرٌ من حياة إلى حياة أخرى، وكلُ البشر يتقمّصون، والقليلُ منهم مَنْ يذكرُ حياتَه السابقةَ بالنطق »(٢٧). ويعتبر أيضاً أنّ « الحياةَ السابقةَ حلمٌ يَراه الإنسانُ في نَومه. ومن الأحلامِ ما يبقى في الذاكرةِ بعد اليَقظة، ومنها ما يزولُ من الذاكرة. كثرةٌ هم الذين يحلَمون، وقلّةٌ منهم يتذكّرون. وأكثرُ ما يبقى في الذاكرة من هذه الأحلام هي التي انتهتْ بفاجعَة أو ألمٍ شديدٍ أو بحادثٍ تكتنفُه الغرابةُ فيؤثّرُ في النفس تأثيراً شديداً لا تُزيلُه اليقَظة »(٢٨).

ويستنتج القاضي قائلاً: « أمّا النطق فقد اتّفق فيه الدروزُ مع بقيّةِ المؤمنين بالتقمّص »(٢٩). ثم يحيلُنا إلى « كتاب الدكتور سْتِيفِنْسُنْ المحتوي على عشرينَ واقعة »، منها واقعة لبنانيّة « حقَّقَها بنفسه في رِحلَتَين قام فيهما بزيارة لبنان، رافقَه في إحداها الدكتورُ سامي

ـ وهناك حادثة أخرى وقعت في « العبادية »، مفادها إن مسيحيّاً هجّرته أحداث ١٩٧٥ من بلدته. ثم بعد سنتين عاد إليها وفي نفسه طمأنينة لكثرة أصدقائه من دروز القريّة. وفاجأه صديق حميم بقوله: ألا تعلم أنني أحق من سواي بقتلك!!! من استطاع فليفهم!

(٢٦) الدكتور سامي نسيب مكارم، أضواء على مسلك التوحيد، ص ١٢٦.

(٢٧) أمين طليع، التقمص، ص ١٧.

(٢٨) نفس المرجع. انظر: خليل تقي الدين في « العائد ».

مكارم وهو دكتور في الفلسفة ومن أساتذة الجامعة الأميركيّة في بيروت. ومن القائلين بوجود حادثةِ تقمّصٍ ونطقٍ مِن كل خمسمئة ولادةٍ بين مواطنيه الدروز »[٣٠].

وكلاهما، القاضي والدكتور، يعتمد على مؤلّفات حديثة كبيرة، « تبحثُ موضوعَي التقمّص والنطق... وفيها درسُ عدّةِ حالاتٍ من النطقِ حدثتْ في مختلَف أنحاءِ العالَم »[٣١].

كما يعتبرُ الدكتور مكارم أنّ « تذكُّر ما حدثَ في أجيال ماضية تُقِرُّه بعضُ النصوص التي تُثبتُ إمكانَ تذكُّرِ بعضِ ما يحدثُ في الحَيَوات السابقة »[٣٢]، ولكنّ الدكتورَ لا يفيدُنا بأيِّ نصٍّ من الحكمة، اللّهمَ إلاّ نصّ واحد محرّف، في قوله: « فالمستجيبون، حسب ما جاء في النصّ، إنّما استجابوا إلى الدعوة بعد أن ذُكِّروا بالحق فذَكَروه وعُرِّفُوه فعَرَفوه »[٣٣].

أمّا السيّدُ كمال جنبلاط فيروي لنا قصّةً طريفةً تدلُّ على إيمانِه بالتقمّص وبالنطق سواء. جاءه شابٌّ مسيحيٌّ يقول له: « اسمعْ. لقد قرّرتُ الموتَ. فأنا إنسان تُلاحِقُني حياتي السابقةُ. وعندما أستيقظُ كلَ صباح، أقضي ساعةً أو ساعتين في اقناعِ نفسي بأنّي أعيشُ الآنَ حياةً أخرى غيرَ تلك التي عشتُها سابقاً. لقد أنهكتْني هذه الحياةُ السابقةُ التي تُلاحِقُني بكافةِ هذه الصُوَرَ التي يختلِطُ بعضُها ببعض. كان يتذكَّرُ حياتَه في

(٢٩) نفس المرجع، ص ١٩.
(٣٠) نفس المرجع، ص ٧٨.
(٣١) مكارم، أضواء على مسلك التوحيد، ص ١٢٦ ـ ١٢٧، أمين طليع، التقمص، ص ٥٩ حتى ١٥٠.
(٣٢) مكارم، نفس المرجع، ص ١٢٦.
(٣٣) نفس المرجع يقابل مع نصّ الحكمة ٦٧ / ٥٣٦.

ميونيخ منذ ما ينوف عن القرن بقليل. وعندما ذهبَ إلى هناك فإنّه عثَرَ على منزلِـه وقبـرِه وكافّةِ ما كان مألوفاً لديه... »[٣٤].

وقد يذهبُ الأستاذ سامي أبو شقرا إلى دفعِنا نحو الإيمانِ بالتذكّر والـتقمّص دفعـاً، فالجميعُ، برأيه، « ملزَمون بالتسليمِ في التقمّص. ويؤيّدهم إلزاماً واقعُ التذكّرِ »[٣٥]. وحافظُ أبو مصلح يؤكّدُ « أنّ بعضَ الدروز يسترجِعون في ذاكرتِهم أمورَ حياتهم الماضية »[٣٦].

إنّ « النطقَ » هو بالفعل عقيدةٌ شائعةٌ عندَ بني معروف. لا شكّ فيها. بل إن الإيمانَ بها يقوّي إثباتَ نظريةِ التقمّص...

بيد أنّ تعليمَ الحكمةِ هو غيرُ هذا، بل هو عكسُ هذا. إنّه يناقضُ كل ما شاع، ويُبطل كلَ ما رأينا ابطالاً واضِحاً ثابِتاً، لا مجالَ بعده لأيّ مغالَطَةٍ أو لأيّ ضلالٍ وتعليمٍ معاكس.

تقول الحكمة:

« فإنّ قالَ قائل: فما لنا لا نعرفُ ما مضَى من الأدوارِ والأكوارِ، قال لـه المحـتجُّ بالحقيقة (أي بهاء الدين)... إنّ لو ذَكَرتَ وعرفتَ لَشَارَكْتَ المبدِعَ في غيبِ حكمتـهِ، ولكـانَ ذلك عجزاً من الباري جُلّتْ قدرتُه، ونعوذُ بالمولى من هذا. ولكان أيضاً ينفسِدُ النِظامُ، لأنّك لو عَرفْتَ نفسَك وما كنتَ عليه في الأدوار الماضية لعرفتَ غيرَك، ولكنتَ أيضاً عارفاً بمبـدعِك الذي رَدَّدَكَ في الأشخاصِ، ولو عرفتَهُ لعرفتَ جميعَ العالَم

---

(٣٤) كمال جنبلاط، هذه وصيتي، ص ٥٥.
(٣٥) سامي أبو شقرا، مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ، ص ٢٢.
(٣٦) حافظ أبو مصلح، واقع الدروز، معتقداتهم...، ص ٢١.

كمعرفتِكَ بنفسك، ولتساوَى فيه العالمُ والجاهِلُ، والناقِصُ والفاضِلُ، ولكان ذلك عجــزاً فـــي القدرة من إظهار عالمٍ ليس فيه جاهِلٌ وناقصٍ ليس فيه كامِلٌ، وانّما ظهرتِ القــدرةُ، وتمّــتِ الحكمةُ، في إظهارِ العالِمِ والجاهِلِ والناقِصِ والفاضِلِ والشيءِ وضدِّه »[٣٧].

وكتابُ النُّقَط والدوائر واضحٌ أيضاً في إثباتِ ما ذهبتْ إليه الحكمةُ، يقول: « وأمّا في دارِ الدنيا فليسَ للنفوسِ الناطقةِ دَرْكُ ما مَضَى مِنَ الزمانِ، إلاّ لِمَنْ هو مُحْصِي أعمالِ الخلائق الذي هو إمامُ الزمان »[٣٨].

على هذه النصوص يعتمدُ السفيرُ عبد الله النّجار، وهو الوحيدُ في لائحةِ الدروز الذينَ ذَكَرْنَا، لكي ينفيَ نفياً قاطِعاً نظرية « النطق » من أساسِها. فهو يقول: « أنّني لم أجــدْ كلمـــةً واحدةً، في جميعِ كُتْبِ « الحكمةِ » تثبتُ هذا الزَعم. بل وجدتُ ما ينفيه نفياً قاطِعاً، لا يتـــركُ مجالاً للتأويل »[٣٩]. لهذا، فهو يعتبرُ « النطق خرافَةً »، يَتَّسِمُ بـــ« النِفاق والتضليل »[٤٠].

وبعد اعتمـــاده على نصوص من الحكمة، لا نرى مجالاً لـــذكرها[٤١]، يختمُ قـــــوله: « أوردتُ هذه النصوصَ دحضاً لكل ادّعاءٍ، وقطعاً لكل « واقعٍ مزعوم »[٤٢].

(٣٧) رسالة من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٣٥ ـ ٥٣٦.
(٣٨) كتاب النقط والدوائر، ص ٣٤.
(٣٩) النجار، مذهب الموحدين الدروز، ط ٢، ص ١٠٠.
(٤٠) نفس المرجع، ص ١٠١.
(٤١) انظر رسائل ٧٠ و٦٩، وكتاب النقط والدوائر.
(٤٢) النجار، نفس المرجع، ص ١٠٥.

*****

أمّا غاية التقمّص فهي أيضاً مختَلفٌ فيها، كما اختُلِفَ حول المبادئ. هل الغايةُ من التقمّصِ امتحانُ النفسِ وتطهيرُها أو ترقّيها في درجاتِ الكمال؟ وإلى أيّة درجةٍ من الكمال يمكنّها الوصول؟ وكيف تكونُ في حال وصولها؟

يبدو أنّ للدروز المستنيرين رأيّاً يختلِف عن رأي الحكمة نفسِها. ففي حين تعتبرُ الحكمةُ أن غايةَ أدوار التقمّصِ في أن تبلغَ النفسُ حدَّ الإمامةِ والكمالِ، يعتبر الدكتورُ مكارم والقاضي طليعُ أن الغايةَ من التقمّصِ هي في الامتحانِ والتطهيرِ وَحَسْبْ.

تقول الحكمة: « الجزاءَ في الثواب... فهو زيادةُ درجتِه في العلوم وارتفاعُه من درجة إلى درجة في اللَّهَوَات[٤٣] إلى أن يبلغ حدَّ المكاسرة، ويزيد في ماله، وينبسط في الدين من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ إلى حدّ الإمامة »[٤٤].

وفي رسالة أخرى، عندما يقترب حسابُ المولى للناس، وتستحقّ كلُ نفسٍ جزاءَ صنيعِها، يكونُ للنفوسِ الطاهرة إنّها « تعلوُ برَونَقِ حكمتِه (حكمة قائم الزمان) الدينيّة بالأعمالِ الرويّة، وتَستخرجُ بِنَهْلِ فيضِ العقل عليها معاني الخيرات الشريفة العلمية، وتتعالى في دَرَجِ الكَمَالِ مُغْتَبِطَةً بالمعارفِ اليقينيةِ، وتَسْتَسْعِدُ

---

(٤٣) « اللهوات» جمع « لُهَات » وتعني هنا: التكرار في الأقمصة.
(٤٤) رسالة الردّ على النصيري الفاسق، ١٥ / ١٧١.

بالضوء المشرق عليها... وتتحلّى بجواهر الفضائل، وتتحدُ بالأنوار القدسية، وتكونُ مُفْتَنَةً في تمام الجواهر وتربيتها بالمِهَنِ العقلية... لفوزِها بمملكةِ المعالم الإلهيّة. فهي باقيةٌ مدى الدهور والأبد، قد صفا لها السدقُ اليقيني بصحةِ المذهب والمعتقد...

« هنالك تَنُورُ بُدُوْرُ التمامِ (أي الحدود)، وتتعالى بالضياءِ والإشراق، وترتفع نفوسُ أهلِ العدَل، بِقوامِ جواهرها مختصّةً بالسكون (أي بالطمأنينة والغِبطة) لقَبولِ تأثيرِ العقلَ المبدِع الفيّاض، مُلتَحِفَةً بقالَب البقاء، والأَمنِ من الفسادِ، والانحلالِ والانتفاض، قد خلعتْ لطهرِ عنصرِها وقوّةِ صَفَائها من دَنَس الشكوك والأعراض، وتهذّبتْ بتحقيق قَبولها للصُورَ العقلية بمحضِ اليقينِ وعدلِ الارتياض...

« وقد لمعتِ الأنوارُ بالبشرى لنفوسِ المُحِقِّين، وتشعشعتْ بحقِ الظهورِ معاقِدُ الأَعرافِ أصحابِ اليمين، وانبجستْ بِمَوَاردِ السادة (أي ببركاتِ الحدود) عيونُ الحياةِ للشاربين (الموحدين المحقّين)، وَتَعَنْجَرَ شُؤْبُوبُ جَوهرِها بالسعادةِ لما فيه من الاستعدادِ لِقَبول ماهيّةِ الدين... ونهضتْ بِمُعْجَزِ الإرادة (أي بقدرة قائم الزمان) وقوى حقائقها ببعضِ كمالات المملكة... واتّحدتْ، بعدَ المفارقةِ للموادِ الطبيعية (أي بعد التقمّص) بشريفِ وجودِ معقولاتِ الروحانيين، وأرسِمَتْ بمقرٍّ قدسِهم مراسمُ العقلِ الفعّال إمام الزمان...

« فعند ذلك... تَتَعَالَى بمعالِمِ الحقِّ دَرَجَاتُ المُحِقِّين... هنالكَ تَطلَّعُ نفوسُ أهلِ الحقائق بصَفَائِها على الخَفِيّاتِ، وتبلغُ بقوّتِها المتجلّيةِ لصُوَرِ الحقِّ نهايةَ النهايات، ويتأثّر فيها من العقل الفعّال

محاكيات... ويكونُ لها بما مَلِكَتْهُ إِشْرافٌ على المعقولات... ونَظَرٌ في شرائف الموجــودات، وتَتَرَقَّى بِشَرَفِ مَعلومِها إلى أَعلى المراتِبِ، وتتنبّأ بالأمور الإلهيّات... »[٤٥].

نصّ طويلٌ نقلناه من الحكمة لجودة معانيه، وصفاء رؤيته للنفوس التي تترقّـــى فـــي درجاتِ الكمال، جدير بالتوقّف عنده وبالتأمل فيه. وهو يدلّ على أنّ الغايةَ من التقمّصِ هـــو بلوغُ الكمال، و « محاكاةُ » العقل في بهائه، والاستقرار « والمسكون » فيه.

بيد أنّ الدكتورَ سامي مكارم، في ردّه على النجار، يرى غير ما ترى الحكمة. فهـــو يقول بوضوح بـــ« أنّ التقمّص، في معتقد التوحيد، ليس تطوّراً للروح في هذا الدور، بل هو تقلّب الروح في شتى الأحوال، لكي يتسنّى لها أن تختبر هذه الأحوال »[٤٦]. ولكنّه لا يفيـــدنا ماذا سيكون للنفس بعد هذا الاختبار؟ ولماذا هي تنتقل باستمرار من جسدٍ إلى جسدٍ؟ وما الغاية من هذا التنقّل؟ وإلى أيّ حدّ تصل بعد تنقّلها؟

وهو أيضاً رأي القاضي أمين طليع القائل بأنّ الدروز « خلافاً لسواهم لا يرى الدروزُ في تدرّج الروحِ طريقاً إلى الكمال أو الإمـــامة، بل اختبـــاراً وامتحانـــاً »[٤٧]. ويؤكّد بقوله: « التقمّص ومرور الروح في أدوارٍ حياتية مختلِفة هو في سبيل الاختبارِ والامتحانِ، ولـــيس للتنقيةِ والتطهيرِ

---

(٤٥) رسالة تمييز الموحدين ٦٦ / ٥١٣ ـ ٥١٧.
(٤٦) مكارم، أضواء على مسلك التوحيد، ص ١٢١.
(٤٧) أمين طليع، التقمص، ص ١٨ ـ ١٩.

والوصول إلى الإمامة أو الكمال »[٤٨].

*****

في العقيدة الدرزية أن التقمّص هو ما يجمع بين الشعوب على اختلاف نزعاتهم وألوانهم ومواقعهم، وهو ما يفرض على البشر التحلّي بأنبل صفات الأخوّة والمحبّة والمساواة بين جميع الأممِ. فالنفس، عبر تنقّلها من جسد إلى جسد، قد ترحَلُ بعيداً، وتقطَع حواجزَ العِرق والدينِ والحضارة والأرضِ والمقامات والمميزات...

هذه النظرية التي توحِّد بينَ أبناء الأرضِ وسكّانِ الكواكب غنيّةٌ الأبعاد شريفةُ المغزى نبيلةُ المرمى. ليتَ الدروزَ أخذوا مجملَ أبعادِها!

ولكنْ يصعبُ علينا التسليمُ بقَولٍ شائعٍ، تمكَّنَ في عقولِ الناسِ منذ الفلسفةِ اليونانية التي جَزَّأَتِ الإنسانَ وقَسَمَتْهُ إلى عُنصرَين: واحدٍ يزول، وآخر يبقى مدى الأبد، هما الجسدِ والنفس. ما أدراك إذا قلنا إن الإنسانَ وَحْدَةٌ كَامِلَةٌ، لا ثُنَائيّةَ فيه ولا تَجزِئَةَ لكيانِه! ما أدراكَ إذا قلنا، نتيجةَ ذلك، إن الموتَ يُغيّبُ الإنسانَ كلَ الإنسان! لا يرحَم منه قِسماً ويقضِي على آخر! قسمٍ بريء يستهزئُ بالقِسمِ الفاني المسكينِ الذي بسببه تمكّنتِ النفسُ البريئةُ من وجودِها وسعادتِها!!

تقولُ بالقيامة! لا بأس. ولكنْ لا يُركَنُ إلى عنصرِ النفسِ الخالدة للإيمانِ بها. إنْ كنتَ تؤمن بالله، يكفيكَ ذلك، فهو كفيلٌ بما تَبَقّى.

---

(٤٨) نفس المرجع، ص ١٩.

ثانياً ــ جَنَّةُ الموَحَّدينَ ونَارُهم

في مفهوم الجنّة والنار عند الدروز والمسلمين خلافٌ شاسعٌ وتناقض مبين. فالمسلمون يقولون بجنّة ونارٌ ماديّتين، فيما الدروز يعتقدون بهما روحيّتين، لا سعادة إلاّ بالتوحيــد، ولا شقاء إلاّ بالشرك.

*****

في جنّة المسلمين أنهارٌ من لَبَنٍ وعَسَلٍ ورَحِيقٍ مختومٍ، وأشجارُ وارفةُ الظِلال كثيرةُ الأثمار، ولذّاتٌ جسديّة مكتَمِلَة مع حوريّات هنَّ « عُرُبٌ »[1] « تُرُبٌ »[2] « كَواعِب »[3]، أيّ هُنَّ عاشقاتٌ لأزواجِهنّ، مستَوَياتٌ في العمر معهم، تكعّبتْ صدورُهنّ استثارةً للذّةِ والمتعـــةِ. وهنّ أبكارٌ على الدوام[4]، كلَّما باشرَهنّ أصحابُ الجنّة لَمَسوا فيهنّ بكارَتَهنّ كأنّهنّ معهُم للمرّةِ الأولى، ولا يزيدُ عمرُهنّ، مدى الأبديّة، عن ثلاثٍ وثلاثينَ سنة، هنّ « مقصوراتٍ في الخيام لم يَطمثْهُنّ أنسٌ قَبْلَهُم ولا جانّ »[5]. وفي الجنّةِ مِن الحِلى الزاهيةِ من سندسٍ واستِبْرقٍ وحريرٍ

(١) سورة ٥٦ / ٣٧.
(٢) ٥٦ / ٣٧، ٣٨ / ٥٢، ٧٨ / ٣٣.
(٣) ٧٨ / ٣٣.
(٤) ٥٦ / ٣٦، ٦٦ / ٥.

وطنافسَ وسُرُرٍ مرفوعة وأوسدةٍ خضراء وغُرَفٍ مبنيّة، وأساورَ من ذهبٍ ولؤلؤ ما يجعلُ البهجةَ والمتعةَ واللذّةَ في أقصى توتّرها الجنسي[٦].

أمّا الجحيم فهي مكان معدّ لعذاب الهالكين الذين لم يؤمنوا بالاسلام أو الذين آمنوا ثم كفروا. فيها نار خالدة (١٢٠ مرّة) وسعيرٌ (٩٦ مرّة) ولظًى وحريقٌ. إنّها كحفْرةٍ لا تمتلئ رغم كثرةِ الوارِدين إليها[٧]. النارُ من تحتِهم ومِن فَوقِهم[٨]، جعلَ اللهُ في أعناقِهم أغلالاً من حديدٍ وسلاسلَ ثقالاً[٩]، يأكلونَ الشوكَ والزقوم[١٠]، ويشربون الغسّاقَ، أي القَيْحَ والدَمَ[١١]، والصَديدَ[١٢] الذي يُمزّقُ الأحشاءَ[١٣]. وهم في خزي وذلّ[١٤] وزفيرٍ متصاعدٍ وشهيقٍ دائم[١٥]...

*****

هذا باختصار حالُ جنّة المسلمين وجحيمِهم. أمّا جنّةُ الدروز

---

(٥) ٥٥ / ٥٦؛ ٧٠ ـ ٧٤.
(٦) ١٨ / ٣١، ٤٤ / ٥٣، ٧٦ / ٢١، ٢٢ / ٢٣، ٣٥ / ٣٣، ٨٨ / ١٣...
(٧) ١٩ / ٨٦، ٥٠ / ٣٠، ٣ / ١٠٣، ١٠١ / ٩، ١٠٤ / ٤ و٥، ١٤ / ٢٨.
(٨) ٢٩ / ٥٤، ١٠٤ / ٦ ـ ٩، ٧ / ٤١، ١٤ / ٥٠.
(٩) ٤٠ / ٧١، ٣٦ / ٨، ٧٣ / ١٢.
(١٠) ٨٨ / ٦، ٤٤ / ٤٣، ٧٣ / ١٣.
(١١) ٧٨ / ٢٥، ٣٨ / ٥٧.
(١٢) ١٤ / ١٦.
(١٣) ٤٧ / ١٥، ٥٦ / ٥٤.
(١٤) ٩ / ٦٣، ٦٨ / ٤٣.
(١٥) ٢١ / ١٠٠، ١١ / ١٠٦...

فهي روحانيّة خالصة، تقوم السعادة فيها على « التوحيد ». ويوجّه الدروز تهمتهم للمسلمين على إيمانهم المادّي هذا، ويقولون:

« لمّا كانتِ الجنّة من حيث الحسّ محيطةٌ بأنواع الأشجار المثمرة والأمياه الجارية، تعلّقتْ بها أوهامُهم، وطلبَوا العدمَ الذي ما له حقيقيّة ولا محصول، إذ عَجِزوا عن المعاني المعقولات. ولو عَرَفُوا الجنّةَ (الحقيقيّة) لَسَارَعوا إليها، وكانوا مخلَّدين فيها، وعَلِمُوا أنّها موجودةٌ، وأنّ الباري سبحانَه ما أحالَهم على عدمٍ، بل كانَ جميعُ ما أُوعِدُوا به موجوداً بوجوده. وأمّا زعمُهم بـ« أنّ الجنّة عرضُها السَموات والأرض »[١٦] فقد جَهِلوا معنَى هذا القول. فإذا كان عرضُها السمواتِ والأرضِ فكيف يكونُ طولُها؟ وأينَ تكونُ النارُ منها؟ ولو عَرفوا الطولَ عرفوا العرضَ. وكلُ شيءٍ طولُه أكثرُ مِن عَرضِهِ »[١٧].

أمّا الجنّة بنظر الدروز فـ« هيَ الدعوةُ الهادية المهديّة، وأثمارُها العلومُ الإلهيّة الحقيقية، التي بها يتخلّصُ الموحِّدون من جَهلِهم من داءِ الشرك. وأمّا معنى الطولِ والعرضِ فإنّ طولَها هو العقلُ الكلّي الذي هو قائم الزمان... وعرضَها مثلُ النفسِ... الذي منه وجودُ جميعِ الصُورِ الروحانيّة »[١٨].

فالجنّة إذن، أيّ « الثواب، الذي هو أفضل العطاء وأجزله، وأشرفُ الجَزاء وأكملُه، هو دركُ المعلوماتِ الإلهيّة، واقتناءُ الفضائلِ

---

(١٦) سورة آل عمران ٣ / ١٣٣، انظر سورة الحديد ٥٧ / ٢١.
(١٧) رسالة الزناد ٣٧ / ٢٧٢.
(١٨) نفس المرجع.

البرهانيّة، وإنّها السعادة القصوى، وإن هذه السعادة هي الغرض في وجود الإنسان، وهي كماله... والكمال... هو العقل الذي أشارت إليه الحكماء المتقدّمون... وهذا هو حقيقيّة التوحيد... »[١٩].

*****

« أمّا النار فهي من حيث المحسوس، المُحرِقةُ للأجسامِ... ومنها نار العذاب، وهي الهاوية والجحيم. وهذه الأسماء (هي) معنى الشريعة التي هَوَوا (هكذا) أهلُها وغَوَوا ولَقوا فيها العذابَ. ولو قيل لهم (أي المسلمين) أخرجُوا منها، أَبَوا واستكبَروا وصَدُّوا عن السبيل. فهم فيها ماكِثون مُنكِرون في جميعِ الأدوار والأعصار، إذ تخيَّروا الضلالةَ على الهدى، وعلى البصيرةِ العمَى، وتمسّكوا بزخاريف الأقاويل »[٢٠]...

والنار التي هي « دار البوار » كما يعرّفها القرآن هي، بحسب الدروز، الشريعةُ وتكاليفُها الإبليسيّة. وهذه هي « النار بالفعل »[٢١]. والشريعة، كما هو معروف عنها، هي الكفر والشرك والتلحيد، فتكون النار، بالتالي، هي الشرك والجهل والشرّ.

*****

فالجنّة إذن، وبكل بساطة ووضوح، هي الإيمان بالتوحيد، والنار هي رفض التوحيد، أي الشرك والاتّكال على العدم والشريعة.

---

(١٩) معراج نجاة الموحدين ٦٩ / ٥٨٥ ـ ٥٨٧. تُقرأ بكاملها.
(٢٠) رسالة الزناد ٣٧ / ٢٧٣.
(٢١) نفس المرجع، ٣٧ / ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

ثالثاً ــ يَوْمُ الدُروز الأخير

يومُ المَعَاد هو اليوم الأخير من هذا العالم، فيه تصير الدينونة، وتُحاسَب كلُ نفسٍ بما صنعتْ، وفيه ينتهي العالَم، ويتجلّى العليُّ الأعلى الباري الحـاكم المعبـود، ويقضـي علـى أصحاب النواميس الأبالسة وحزبِهم بالسيفِ وبقوّةٍ عظيمة رهيبة.

في هذا اليوم لن تكون « قيامةٌ عامّة للأموات »، كما هو الحال في اليهوديّة والإسلام، لأنّ الأرواحَ لم تبرحْ هذا العالم تنتظرُ قيامَتها، فهي فيه تنتقلُ من جسم إلى جسم حتـى تبلـغَ تطوّرَها وكمالَها. وتتّحدُ بالعقل الكلّي نهايةِ كل رقيّ وتطوّر.

وفي هذا اليوم لن يكونَ « حسابٌ عامّ » للأموات، لأنّ كلَ نفس تُحاسَبُ عند تنقّلهـا في الأجساد. وينتهي الحسابُ عند وصولها إلى حدّ الكمال في العقـل الكلـي. أمّـا النفـوسُ الشريرة والمشركة فتستمرُّ في تقمّصها الأجسادَ الشريرة إلى الأبد.

*****

أمّا اليوم الأخير من هذا العالم ففيه يتجلّى الحاكِم بقوّةٍ لا توصف ويظهَر، قَبْلَه، صفيُّه قائمُ الزمان حمزةُ ببأسٍ عظيم. « وغالِبُ الظنِّ، كما

يقول الأمير السيّد في شروحاته للحكمة، إن بدء التجلّي (سيكون) في مكّة، لأنّ صفيه صلّى الله عليه، إذا اقتضتْ مشيّةُ الربّ تعالى، إنه يَظهر بالعسكر العظيم، فيَظهرُ من الشرق حتماً، ويَسْحَبُ ذَيْلَه قاصِداً بَيْتَ مَكَّة، فتُلاقِيه ملوكُ الدنيا مِن مشارقها إلى مغاربها، كما قالَ (قائم الزمان): « إذا اشتهرَ من المشرقِ الصارمُ المُشَرفِي، وظهرَ من الحجبِ المستورُ الخفيّ »، وكما قالَ: « وسَحَبَ ذَيْلَهُ بالخَسْفِ لِمَقْطَرَةِ الكُفْرِ والبابِ الأعظم لتهامة »، وكما قال: « إن السيّدَ يملكُ جميعَ الدنيا »، وإنّه يجوزُ من البحرِ إلى لدنِ الأنهارِ إلى منقطعِ الأرضِ، وإنه الذي تَخُرُّ الجبابرةُ له بينَ يديه على رُكَبِهِم، وتجلسُ أعداؤُه على الترابِ، وتأتِيه الملوكُ بالقرابين، وتسجدُ له، وتدينُ الأممُ كلُّها بطاعتِه والانقياد.

فيظهرُ السيّدُ العظيمُ، صلّى الله عليه، بعساكِرَ وعظَمَاتٍ ومعجزاتٍ وآياتٍ، وهيئةٍ وسلطان، وعزٍّ وامكان، وخيلٍ شُزَّبٍ عِتاق[1]، وزينةٍ تبهرُ الآفاق. فترتجُّ الأرضُون لهيبتِه وعزّته، وفعلِه وعَظَمتِه، فيشتهرُ في أقطارِ الأرض بِظهُورِه، بهذا الزَخْمِ العظيم، ولأجلِ ذلك تأتيهِ الملوكُ بالقرابين.

وأغلبُ الظنّ أنَّ ما يَبقى في أقطارِ الأرضِ مِن مشارقِها إلى مغاربِها مَلِكٌ إلاّ ويأتيه من تلقاءِ نفسِه، بغيرِ طلبٍ، ولا حثٍّ من أحدٍ. بل لتواترِ الأخبارِ في الأقطارِ، بأمرِ مَلِكٍ ظَهَر بالشرقِ بحالٍ لم يُرَ ولم يُسمَع بمثلِه قطّ، فتقعُ الهيبةُ والرعْبُ العظيمُ في قلوبِ الملوك والجبابرة. ولا تأتيهِ لقصدِ محاربةٍ، ولا لدفعِه عن مملكةٍ من ممالكِ الدنيا، بل طَمَعاً لابقائهم

---

(١) الخيل الشزّب العتاق هي الخيل الضوامر.

على ممالكهم، ويكونوا مِن قِبَلِهِ وتحتَ أمرِه، خاضعين خاشعين طائعين.

ويكونُ ظهورُه بهذه العظمات بعد ظهورِ الدجّال الأعورِ اللعينِ مدّةَ زمانٍ وخرابِ الفِسطاط... وتكونُ أهلُ الحقِّ في أشدِّ البلاءِ، كما قال: « وضاقتْ على أولياءِ الحقِ الأرضُ بما رحَبتْ ».

ومن حين ظهوره بالشرق، صلى الله عليه، يقعُ الزمعُ والذعرُ والهيبةُ في قلوبِ الملوك والكفّار. ويقع الفرحُ الشديدُ والرجَا والهنَا والابتهاجُ والاستبْشَارُ في قلوبِ السّادقين الأبرار.

وربّما لا يصلُ، صلى الله عليه، بهذا العسكرِ الجرّارِ إلى مكّةَ إلاّ وقد اجتمعتْ به ملوكُ الأرضِ. ومن جملةِ الملوك أبو السُوَيقَتَينِ المشهورُ عنه أنّه يأتي لخرابِ بيتِ مكّة، وهو من السودان...

وإذا لاقوه الملوكُ (هكذا) صلّى الله عليه، أغلب الظنِّ أنّه ما يردُّ قربانَ أحدٍ، بل يَقبَلُه، أو يُوعِدُ بقَبوله، إذا وصلَ إلى مكّة. ولا يُظهِرُ لهم غضباً، ولا يبذِلُ فيهم سيفاً ولا غيرَه. ولا هم أيضاً يَعرفُوا ما يَحلُّ بهم.

فإذا وصلَ المَلِكُ العظيمُ بهذا العسكر الكبيرِ إلى مكّة وحلَّ بها ونزلَ فيها الذي لَمْ يَكنْ مِن يومِ قيامِ الدنيا رأى أحدٌ عسكَر، ولا سمعَ بعسكرٍ مثله، ولا يشبهُه، ولا يدانيه في حالٍ من الأحوال، لا في فرسانٍ، ولا في خيلٍ، ولا في لباسٍ، ولا في زينةٍ، ولا في عَظمةٍ، ولا في عزٍّ، ولا في مُعجَزٍ، ولا في هيبةٍ، ولا في حُرمةٍ، ولا في وَقارٍ، ولا في سلطانٍ، ولا في قدرةٍ، وربّما يكونُ مع العسكرِ آلاتٌ بِحِسٍّ كالرعود

الصواعق، والبروق اللوامع، تهزّ الأرض هزّاً، وتملأ الأرض هيبةً وذعراً، وتزلزل النفوس عن مراكزها رعبةً ورهباً...

فحينئذ يتجلّى الملكُ العلاّم جلَّ جلالُه، ويظهرُ بين تلك العساكر بالقدرة الربّانيّة، العظيمة الإلهيّة، ويبرزُ بالجبروتيّة، فتخرُّ جميعُ العساكر لعزّةِ سلطانه وقدرتِه جلّ جلاله، وينكشفُ لأعين الجميعِ تلكَ الساعة، ويُشاهِدوا إلوهيَّته وربوبيتَه، ويصعقُ مَن في الأرض والسموات لهيبتهِ وعظمته. فهنالك يصيرُ ما قالَ السادِق (حمزة) « عند ذلك تهتزُّ الممالكُ بأقطار المعمورةِ المبنيّة »، وكما قال: « واهتزّتِ الأرضونَ لظهور القائم »...

فصحّ بهذه الشواهِد إنّ الأرضَ يصيرُ فيها يومَ القيامة أمرٌ عظيمٌ من الحركاتِ والرَّجّات والرَّجفاتِ والزلزال، وفي الأفلاكِ حركاتٌ مزعجات، ما لا صار في الدنيا أبداً.

وربّما يكونُ يومُ يتجلَّى الربُ جلّت قدرتُه بمكّةَ، يعرفوا أهلُ الدنيا بقيامِ القيامةِ بحركاتِ الأفلاك وارتجاجِ الأرضين. وفي ذلك اليوم يأذن جلّ جلالُه بِخَرَابِ البيتِ العَتيق الذي هو الكعبة. ويأمرُ السيّد العظيمُ قائمْ الزمان بجريانِ سَيفِ الحقِّ في العساكرِ المجتمعة. ويكونُ بدءُ الفعل مع خرابِ البيت. كما قال: « وظهورُ بدءِ الفعل المنتظَر من تهامَة ».

والمشهور إنَّ إذا حضرتْ دَابَّةُ الأرض (كنايةً عن حمزة) في مكّةَ، ومعها خاتَمُ سليمان، تصرخُ ثلاثَ صرخاتٍ، فيَسمَعُها مَنْ بين الخافقين، يعني الشرق والغرب. والدابّةُ هي إِمام الزمان، صلى الله عليه، إذا

حلّ بمكّة، يُجري اللهُ تعالى على يده أموراً عظيمة، ما لا أذن سمعتْ، ولا عينَ رأت، ولا خطر على قلبِ بشر، من كشف الأمور الدينية، وإظهار المعالم الإلهية، والاطلاعات على الأحوال السرّيّة، والثواب للأنفس الزكيّة، بالنعيمين المستقرّين في الجنّة العليّة، والعقاب للأنفس الخبيثة الدنيّة، من الحسرات المحرقة السرمدية، والتنكيل والتمحيق والمسوخية، المعنويّة والصوريّة.

وكل ذلك بحضرته تعالى، وهو متجلّي في الصورة الناسوتيّة، ومع تجلّيه سبحانه وتعالى في الصورة البشرية، يظهَر بالقدرة الباهرة الربّانيّة، والمعجزاتِ الجبروتيّة، والعظماتِ القاهرة القدّوسيّة، وتملأُ هيبتُه قلوبَ جميع البريّة، ويقعُ الزّمع والفزع والخوفُ في السرّ والعلانيّة، ويستقرّ الرعبُ والرهبُ والذلُّ والخشوعُ في النفوس الناطقةِ الجوهريّة، لأن الربَ سبحانه بحكمته البالغة، يَقدِّرُ بإظهارِ قُدَرِهِ وساطِع نوره وبواهر آيات وهيبة وجلال، لم يكن مع ذلك أحدٌ يستطيعُ يَفعلُ زلّةً ولا يرتكبُ معصية، حتى ولا إبليسُ اللعين (محمّد) لِعِظَمِ الهيبةِ والحرمةِ والقدرةِ التي عمّتِ الدنيا من مشارقِها إلى مغاربها »[٢].

لقد أردنا نقلَ هذا النصّ الطويل بحرفيّته لأنّه يدلّ دلالة صريحة على ما في الرسائل، وعلى فهم الدروز ما في الرسائل، ولأنّه من يد جليلة معتبرة في العالم الدرزي، ألا وهي يد الأمير السيّد جمال الدين التنوخي وقد يغنينا هذا النصّ أيضاً من نقل رسائل عديدة في هذا الموضوع، كما

---

(٢) تفسير كشف الحقائق للأمير السيّد، ص ٧٨١ ـ ٧٨٦، مخطوط رقم ١٤٣٩ في المكتبة الوطنية بباريس، ورقة ٥٥ ب ـ ٥٩ ب.

يعفينا من تهمةٍ قد تصيبُنا على غير حقّ، لما يستحلُّ الدروزُ إطلاقَه علـــى أقـــدس مقدّســـات الإسلام.

ومع هذا نحيلُ القارئَ إلى الاطلاع على ما في الرسائل من كلام، إنْ قـــرأه بامعـــان ومعرفة، قد لا يصدّق عينيه ما تقرأ في حقّ مكة والكعبة والحجر الأسود، وفي حقّ الإســـلام والمسلمين، وفي حقّ النبي محمّد ووصيّه عليّ بن أبي طالب.

فليقرأ القارئُ مـــثلاً: رســـائل ٥٦ / ٤٣٧ ــ ٣٣١، و٥٧ / ٤٤٤ ــ ٤٥٠، و٦٠ / ٤٧١ ــ ٤٧٢، و٦٢ / ٤٨١ ــ ٤٨٢، وأيضاً ٤٨٢ ــ ٤٨٥، و٦٣ / ٤٨٩ ــ ٤٩٠، و٦٤ / ٤٩٣، و٦٦ / ٥١١ وما يلي، و٩٠ / ٧٧٠ ــ ٧٧١. وليقـــرا أيضـــاً: ٥٥ / ٤٢٨، و٤٨ / ٣٥٩، و٤٢ / ٣٣٤، و٥٣ / ٣٨٣ و٣٩٦، و٤٩ / ٣٦٣، و٥٥ / ٤٢٢... وغيرها.

*****

يومُ المَعَاد هـــذا يكونُ إذن في مكّة، حينَ يجيءُ حمـــزةُ « لاســـتيفاء الثـــأرِ لـــدماء الموحدين »[٣]. ولكنّه يومٌ لا يبدو أنّه آخرُ يوم لهذا العالم، كما في اليهودية والإسلام، بل هو آخر يومٍ للشرائع والأنبياء والأُسس، فيه تنتهي مهمّةُ النواميس الشريرة، ويُعْلَن « التوحيـــد » جَهاراً على جميع البشر، ويبدأ دورُ « كشفٍ » جديد تكونُ الغَلَبة فيه للموحدين الذين يملكون العالَم وما فيه، ويُخضِعون كلَ مخالِف مشرك. ويبقى الحكمُ فيهم إلى الأبد.

---

(٣) رسالة التعقّب والافتقاد ٥٥ / ٤٢٨.

الفصل التاسع

دَعَائمُ دين التَوحيد

أوّلاً ــ سدقُ اللسان

ثانياً ــ حفظ الأخوان

ثالثاً ــ ترك عبادة العدم والبهتان

رابعاً ــ البراءة من الأبالسة والطغيان

خامساً ــ توحيد الحاكم جلّ ذكره

سادساً وسابعاً ــ الرضى والتسليم

أوّلاً ــ سدقُ اللّسَان

في الصفحة ٢٠٩ من هذا البحث، قلنا: « للتوحيد غايتان متكاملتان: الواحدة سلبيّة والأخرى إيجابيّة. أمّا السلبيّة فهي البراءة من جميع الأديان والمذاهب ودعائم الإسلام السبع »... ولعلّ القارئ انتظر قولَنا المفروضَ أن يُقال: « أمّا الإيجابيّة... ». الآن نستطيع الإجابة على هذه الغاية الإيجابيّة، وهي التي تتكلّم عنها « الخصال التوحيديّة السبع » بدل « السبع دعائم التكليفيّة الإسلاميّة ».

يقول قائم الزمان: « واعلموا أنّ مولانا جلّ ذكره، قد أسقَط عنكم سبعَ دعائم تكليفيّة ناموسيّة، وفرضَ عليكم سبعَ خصال توحيديّة دينية: أوّلها وأعظمها سِدْقُ اللسان. وثانيها حِفْظُ الإخوان. وثالثها تَرْكُ ما كنتم عليه وتعتقدوه من عبادة العدم والبهتان. ورابعها البراءَة من الأبالسة الطغيان. وخامسها التوحيد لمولانا جلّ ذكره في عصر وزمان ودهر وأوان. وسادسها الرضى بفعله كيفما كان. وسابعها التسليم لأمره في السرّ والحَدَثَان »[1].

*****

(١) رسالة بدء التوحيد لدعوة الحقّ ٧ / ٦٦، ميثاق النساء ٨ / ٧٢. « الحدثان » يعني « الجهر » و« الإعلان »، بخلاف « السرّ والكتمان ».

أوّل خصال الموحدين وأعظمها هو « السدق »، بل « السدق هو الإيمان والتوحيد بكماله. والكذب هو الشرك والكفر والضلالة »[٢]. « السدق دليل على توحيد مولانا جلّ ذكره »[٤]. و « السدق من الإيمان كالرأس من الجسد »[٥].

« والسدق أيضاً دلّ على خمسة معاني، وهي أنّه: دلّ على الإله السِدق، ودلّ على التوحيد السدق، ودلّ على الإِمام السدق، ودلّ على حروف السدق، ودلّ على فريق السدق »[٦].

فالسدق هو مختصر ديانة التوحيد وفضائل الموحدين: « فمن كان يزعم أنّه مؤمن موحّد ولا يعمل بفرائض مولانا سبحانه، ولا يكون سادقاً في أقواله، محسناً في أفعاله، كان مدّعي التوحيد، مستعمل الشرك والتلحيد »[٧].

ولن يكون في نهاية المطاف خلاص إلاّ للموحّدين الذين سدقوا القول: « ولا رفعة المعاد إلاّ لمن سدق لسانه »[٨].

أمّا الكذب فهو « ليل على شخص ابليس اللعين »[٩]، « وهو الشرائع الناموسيّة »[١٠] و « هو الكفر »[١١]. والكذب لا يكون كذباً إلاّ

(٢) رسائل ٩ / ٧٦، ٤١ / ٣١٢، ٧٧ / ٦٩٩.
(٤) رسالة ٩ / ٧٨.
(٥) رسالة ١٥ / ١٦٥.
(٦) كتاب النقط والدوائر، ص ٥٤.
(٧) رسالة ٤١ / ٣١١.
(٨) رسالة ٩٣ / ٧٧٩.
(٩) رسالة ٤١ / ٣١٢.
(١٠) رسالة ٥٣ / ٣٩٧.
(١١) رسالة ٢١ / ٢١٠، انظر: ٤١ / ٣١٢...

على إخوان التوحيد، أمّا مع « الأضداد » فلا يسمّى كذلك. فـ« الكذب على أخيك المؤمن هو الكفر »[١٢]، و « من كذب على أخيه المؤمن فقد كذب على داعيه، ومن كذب على داعيه فقد كذب إمامه، ومن كذب على إمامه فقد كذب على مولانا جلّ ذكره وجحد نعمه واستوجب سخطه »[١٣].

والكذب هو « إن يقول أحدكم في أخيه (المؤمن) ما ليس فيه، أو يحرّف عليه قوله، أو يحلّل له شيئاً ممّا حرّمه عليه إمامه، أو يقول في مولانا ما لا يجوز أن يقال في عبده، فقد جحد الفضل والإيمان، وتظاهر بالردّة والطغيان »[١٤].

فالسدق إذن لا يكون إلاّ مع « الإخوان »، وأمّا مع « الأضداد » فالكذب والحذر والحيطة والمساترة والمصانعة والمداراة هي خير وسيلة. والاعتماد على السدق هو أعظم أركان الدين، تماماً كالصلاة عند أصحاب الشرائع[١٥]، فيما الكذب على الأضداد هو أعظم وسيلة للحفاظ على الحقّ عند أهل الحق.

« فالحذر الحذر، معاشر الموحدين، أن تخالف قلوبكم ما تنطق به ألسنتكم لأخوانكم. فإنّ ذلك يسخط قائم زمانكم. وهو نفس الشرك... وليس يلزمكم، أيّها الأخوان، أن تسدقوا لسائر الأمّة،

---

(١٢) رسالة ١٢ / ٢١٠.
(١٣) رسالة ٤١ / ٣١٢.
(١٤) رسالة ٩ / ٧٦، انظر ٧٧ / ٦٩٩ ـ ٧٠٠، ٤١ / ٣١٢...
(١٥) كتاب النقط والدوائر، ص ٥٤.

أهل الجهل والغمّة، والعمى والظلمة، وأن لا يلزمكم فيه شيئاً لهم. والسدق فهــو مــن نفــس الأدب. وليسَ لِغَيرِكم عليكُم فَرْضٌ، ولا ذلك إلاّ لبعضِكم بعض »[١٦].

ولكن، يستطيعُ الموحّد الكذبَ على أخيه إذا كان بينهما ضِدٌّ: « ولــيسَ لأحــد مــن الموحدين فَسْحَهُ في الكذب لأخوانه، إلاّ ان يكون هناك ضِدٌّ حاضرةٌ، لا يمكن كشفُ الأمــور إليه، ولا شرحُهما بين يديه. وإنْ أمكنَ الصمت فهو أحسن، وإنْ لم يمكن فلا بأسَ أن يحرِّفَ القولَ بحضرته، أعني الضدّ. ويجب عليه أن يرجِع يَسْدُقُ الحديثَ لأخوانه، بعد خلوّهم مــن الشيطان »[١٧].

ولكن، « لا بأس بالسدق فيما لا يضرّ عند الأضداد »[١٨].

لذلك، لا يجوز الكذب بين الأخوان إذا كان مجتمعهم خال من الأضداد: « من حــرّك لسانه بالكذب بين أخوان التوحيد والدين، وهو آمن أهل الردّة والمخالفين، فقد صدّ عن التوحيد والكشف، وباين النفاق والخلف »[١٩].

*****

إن الكذب خطر جداً. وخطره كامن في كونه يتشبّه بالسدق. لأنّ كلاهما ثلاثة أحرف. إلاّ أنّ فرقاً شاسعاً بين مجموع حروفهما: فالسدق: ١٦٤ حرفاً، الكذب ٢٤ حرفــاً. والنــزاع حاصل بينهما حتى يوم المعاد[٢٠].

---

(١٦) رسالة ٤١ / ٣١٤.
(١٧) نفس المرجع.
(١٨) نفس المرجع.
(١٩) رسالة ٥٧ / ٤٤٥.
(٢٠) انظر رسائل: ٩ / ٧٨ ـ ٧٩، ٢٢ / ٢١٥ ـ ٢١٦، ٤١ / ٣١٢...

ثانياً ــ حُفظُ الإخوان

هي الدعامة الثانية من دعائم التوحيد وخصال الدين، وهي، عند الدروز، « عِـوَض الزكاة » عند المسلمين[١]. وإذا كانت « الزكاة هي الشــريعة بكاملهـــا »[٢] فــإنّ « حفــظ الأخوان » هو التوحيد بتمامه.

ولهذا لم يفتأ قائمُ الزمان، في كل رسالة، من توجيه النصيحة والتوصية: « أوصــيكم بحفظ إخوانكم، فإنّ بحفظِهم يكمل إيمانُكم. فأجيبوا دعــواهم، واقضــوا حاجــاتِهم، واقبِلــوا معذرَتهم، وعَــادُوا مَن ضامَهم، وعُودوا مَرضــاهم، وبــرّوا ضــعفاهم، وانصــروهم ولا تخذِلُوهم »[٣].

وفي وصيّة حمزة لسفير القدرة قوله:

« أوصِهم بحفظِ بعضهم بعضــاً ». و « احفظ الأخــوانَ، واعضــدْهُم فــي الســرِّ والإعلان ». و « اجمع شمل الموحدين. وكنْ لهم في نَفَاسِهِم وأَعرَاسِهم وجَنائزِهم على السنّةِ التي رُسِمَتْ لهم ». وإنْ خالفَ موحِّد إيمانَه، على سفير القدرة تأديبُه وضربُه « حتى لا يعودَ إلى خطأ لا يليقُ بالموحدين، وذلك في بيتِكَ موضعٌ لا تكونُ فيه الأضداد »[٤].

---

(١) كتاب النقط والدوائر، ص ٥٧.
(٢) كتاب النقض الخفي ٦ / ٤٩.
(٣) رسالة التحذير والتنبيه ٣٣ / ٢٤٥.
(٤) تقليد الرضى وسفير القدرة ٢١ / ٢١٠.

وإذا كان من حجّة لإسقاط دعـائم الإسلام فليس أعظـم منهـا سوى حفظ الإخوان: « وأنتم معاشر المؤمنين الموحدين قد علمتم وسمعتم السجل الذي أمر مولانا جلّ ذكره بقراءته عليكم، وأسقط عنكم الزكاة والأعشار والأخماس وسائر السدقات إلى أبد الابدين. ولم يُسـقِطْ عنكم محافظةَ بعضكم بعضاً. ولا يكونُ في نسخِ الشريعة حجّةٌ عقلية واضحةٌ مرئيّة أعظم من هذا »[٥].

و « الحفظ، في لغة الدروز، معناه الصيانة والحراسة والرعاية. ومعنـى اسـتحفظه استرعاه، ومعنى استرعاه لاحظه بالإحسان إليه. وفي اللغـة، المحافظـة معناهـا المراقبـة والمحافظة المواظبة والذبّ عن المحارم.

« فعليك أن تنظرَ درجاتِهم، وتحفظَ عهودَهم، وتصونَ ذمـامَهم، وتحـرسَ مقـامَهم، وترعى حقوقَهم، وتراقِبَ مصالحَهم، وتواظبَ خدمتَهم، وتقضي حاجاتِهم، وتمحضُ محبَّـتهم بالعقلِ والجَنان، وتذبَّ عنهم بالمالِ واليدِ واللسان.

« فإنْ كنتَ ذا علم فاهْدِهِم بعلمِك، وإنْ كنتَ ذا جهلٍ فأَرشِدْ بعلمهم جهلَك، وإنْ كنـت ذا مال فبرّهم بمالِكَ، وإنْ كنتَ ذا فقرٍ فأغنِ بجودهم فقرَك، وإنْ كنتَ ذا عـزّ فـاكنفهم فـي عزِّك، وإنْ كنتَ ذا ذلّ فادفع » بعزّهم ذِلَّكَ...

« ولا يجوزُ لأحد منهم أن يميّزَ نفسَه على غيره، ولا يتعدَّى طورَه، ولا يرى لنفسـه فضيلةً على أخيه بِنَسَبٍ ولا بمالٍ ولا بجاهٍ ولا بآلٍ، إلاّ بالعلمِ والعملِ والعفّةِ عن الزللِ.

---

(٥) رسالة بدء التوحيد لدعوة الحقّ ٧ / ٦٦.

« ولا يَعتقِدُ شرَّ العقوبة لأخيهِ لعلَّه يتوب. ولا يعتقدُ فيه الانخفاضَ لعلّه يترقّى، بل يجوزُ النظرُ بعين النقصِ على قدرِ خطأه. ولا يعتقدُ فيه الاسقاطَ. ولا يَعتقِدُ لنفسه ثواباً يزيد على أخيه لعلّه يفوتُه عند غفلته وتوانيه.

« وإذا أخطأَ أخوه وَعَظَهُ وعَاتَبَهُ. وإنْ تمادى لاَمَهُ وَعَنَّفَه. وإنْ طالَ به السفهُ واللددُ هجَرَهُ. وإنْ دام على غيّه أبعدَه وتبرّأ منه. وإذا خرجَ إلى البِدَعِ عَادَاه وصانَعَه ودارَه...

« وعليك بلمّ شملِهم، وذكرِ فضلِهم، ونشرِ محاسِنهم، وسترِ عيوبِهم، واحتمالِ عَثرتِهم، وحسنِ الظنِّ بهم... »[٦].

« والمحافظةُ كلمةٌ جليلة القَدر، وهي فريضةٌ لازمة على أهل هذه الدار. مِيمُها معونات. وحَاؤُها حسنات. وأَلِفُها افادات. وفَاؤُهَا فرائض لازمات. وظَاؤُها ظَفر بالكرامات. وهَاؤُها هنيئاً لمن حافظ عليها ورزق عاقبة الثبات »[٧].

وفي « المصحف المنفرد بذاته » هذه النصائح أيضاً: « وإنْ أحدٌ من الموحدين استجَاركم فأَجِرُوه، ثم أَبلِغُوه مَأْمَنَه، أو أصابتْه مصيبةٌ، فكلّكم يُكفِه. إنّما الموحدون تتكافأ دماؤُهم. وهم يدٌ على سواهم. وكان مولاكم بما تعملون خبيراً »[٨].

---

(٦) كتاب النفط والدوائر، ص ٥٥ ـ ٥٧.
(٧) كتاب الدرر المضيّة، ص ٣٤٢ كلمة « حفظ »، مخطوط ١٤٣٩ ورقة ٩٢.
(٨) مصحف المنفرد بذاته، منسوب إلى قائم الزمان حمزة، ص ١٥٢، انظر أيضاً ص ٢٤٤.

وأمّا بهاء الدين المقتنى فلم يوفّر فرصة إلاّ توجّه فيها إلى الموحدين لحفظِ بعضهم بعضا. فيقول: « فارعُوا بالرأفة حقوقَ بعضكم بعض »[٩]، « واحذروا من التحاسد والاختلاف. وكونوا على قَبولٍ من الحق والوفاء والانصاف »[١٠]. وينصحهم بتوحيد كلمتهم بقوله: « فلتكنْ، أيّها الإخوان، الكلمةُ واحدةً، والالفةُ مجتمعةً، والمذاكرةُ دائمةً »[١١]، وبقوله أيضاً: « ولتكن كلمتكم واحدةً وشملُكم مجتمِعاً وقولُكم مؤتلَفاً. فالاختلاف يورِّث الفشل، وقلّةُ المذاكرة في الدين تُهبِطُ قديمَ العمل »[١٢].

وإنْ كان من فضل لموحّد على أخيه فهو بما يعرفه من الحكمة: « لا ميزةَ لأحد على أحد إلاّ بما عَلِمَه من الحكمة... ولا فضيلةَ إلاَّ بمواصلة أهل الحقّ في الحقّ والبراءة ممّن عَنَدَ عنه وأَباه »[١٣].

*****

لا يظنّنّ أحد بأنّ فضيلة « حفظ الإخوان » شاملة لجميع أبناء البشر على مختلف ألوانهم ومعتقداتهم. لأنّ أهل الكفر والضلال لا يستحقّون من المؤمنين رحمة. وقلّما نجد في « الحكمة » كلمات تعوّدنا سماعها في المسيحية والإسلام، مثل المحبة والتسامح والمغفرة وغيرها. ولعلّ ذلك مردّه للظلم والقهر اللذين وصما تاريخ الموحدين الكثيب.

---

(٩) رسالة جبل السمّاق ٩٨ / ٧٩٢.
(١٠) مكاتبة تذكرة ٩٣ / ٧٧٩.
(١١) جواب كتاب السادة ٩١ / ٧٧٣.
(١٢) منشور إلى آل عبد الله ٩٠ / ٧٧١.
(١٣) مكاتبة تذكرة ٩٣ / ٧٧٩.

ثالثاً ــ تَركُ عبَادة العَدَم والبهتَان

ثالث الخصال التوحيدية ترك عبادة العدم والبهتان. في كتاب النقط والدوائر، « العدم والبهتان يجمع العقيدتين: التنزيل والتأويل وفروعهما. لأنّ اعتقادهم (اعتقــاد أصــحابهم) أنّ الربّ سبحانه ساكن فوق السماء، فهو عدم وبهتان... والعدم هو الذي لا وجود فيه، ولا فائدة له. والبهتان هو الكذب الذي لا سدق فيه. وذلك مجموع العقيــدتين، وحاصــل المــذهبين... وبالجملة فكل مذهب خارج عن مذهب التوحيد فهو عدم.

« وهذه الفريضة كونها: ترك عدم وبهتان، فلذلك كانت عوض الصوم، لأنّ ظــاهر الصوم ترك الأكل والشرب، وحقيقيّتهما التنزيل والتأويل. وكذلك باطن الصــوم عنــد أهــل التأويل ترك الكلام والمفاتحة لغير إخوانهم »[١].

وباختصار الكلام إنّ « كل مَن ذكر عن نفسه أنّه موحّد وهو متمسّــك بشــيء مــن الشرع، فقد أبطل وكذب في قوله. بل هو ملحد كافر »[٢]. وفي الحقيقة إن « العدم » هو إلــه اليهود والمسلمين الساكن فوق السماوات.

---

(١) كتاب النقط والدوائر، ص ٥٨.
(٢) رسالة الشمعة، ٣٨ / ٢٨٠.

رابعاً ــ البَراءَةُ من الأبالسَة وَالطغيَان

ورابع الخصال: البراءة من الأبالسة والطغيان. « والأبالسة والطغيان تجمع كلّ فريق الضلال. أوّلهم ابليس اللعين »، ثم سائر الأبالسة « النطقاء والأسس والأئمّة والحجج أصحاب الشرائع الظاهرة والباطنة ». أمّا التبرّى فهو « البراءة من شرائعهم الدارسة وعقائدهم الفاسدة وأديانهم المضلّة ونيّاتهم الخبيثة وأقوالهم الكاذبة وأفعالهم القبيحة. ثم الاحتماء من كثرة لقائهم ومجالستهم وقلّة الاصغاء إليهم، ثم مصانعتهم ومداراتهم والمسايرة بمألوفهم... »[١].

ولن نعود إلى ما قلناه في شأن موقف الدروز من محمّد وعليّ وشريعتيهما وغير ذلك. فهي تدخل في موضوع البراءة هذا. ولن يكون الدرزيّ درزيّاً طيّباً إنْ لم يحسب لبراءته من هؤلاء حساباً. فالجنّة مرتهنة بالبراءة. والبراءة هي التوبة والاستغفار وطلب العفو من الحاكم المعبود عمّا قد يكون علق بنفوس الدروز من شرائع الأبالسة.

هكذا « كل من ادّعى التوحيد وهو يقول بالظاهر والباطن كان كاذباً في قوله »[٢]. ومن تبرّى منهما نال حظوة عند ربّ العالمين.

---

(١) كتاب النقط والدوائر، ص ٥٩.
(٢) رسالة الشمعة، ٣٨ / ٢٨٠.

خامساً ــ تَوحيدُ الحَاكم جَلّ ذكره

التوحيد يعني إن « الباري سبحانه منفرد عن جميع مخلوقاته بصفات الربوبيّة التي لا نهاية لها... فمن أجل ذلك سبحانه انفرد بالوجود عن العدم... وانفرد بالتنزيه عن التحديد... وانفرد بالقدرة عن العجز... وانفرد بالعظمة عن المضاددة... وانفرد بالوحدانيّة عن المشاركة... وانفرد بالألوهيّة عن العبودية... وانفرد بالأزليّة عن البداية... وانفرد بالإرادة الفعّالة عن المعين... وانفرد بالعلم المحيط عن الزيادة... وانفرد بالإبداع عن المثال... وبالجملة فالتوحيد هو نقطة مركز الفرائض الدينية وهيولاها وأصلها وغايتها »[1].

والتوحيد هبة من الله للموحدين، به تعزف الأشياء جميعها. وقد كشفه الله في وقتنا هذا على يد قائم الزمن حمزة وحدوده الأربعة. وهو نعمة منه لا يفوقها نعمة على الذين سدّقوا واستجابوا.

لئن كان كلّ دين يدعو إلى التوحيد فإنّ الدرزية وحدها عرفته، واقتنت منه الحكمة. وبقي غيرها في ضلال، يعبد العدم الذي لم يظهر مرّة واحدة لأوليائه ليأنسوا به ويطمئنّوا إليه.

---

(١) كتاب النقط والدوائر، ص ٦٠ ـ ٦١.

سادساً وسابعاً ــ الرضَى والتَسْليم

والفرضان الأخيران في دين التوحيد هما الرضى والتسليم. وهما نتيجة الخصال السابقة. لأنّ من سدق بلسانه وحفظ إخوانه وترك العدم وآمن بالتوحيد لا بدّ أنّه يرضى بفعل الباري كيف ما كان، ويسلّم أمره إليه سرّاً وجهراً. وقد يكون بهاتين الفضيلتين ما يجعل الموحدين متميّزين عن سائر البشر: « معشر الإخوان... ليس بينكم وبين عالم الجهل فرق إلاّ الرضى والتسليم. والرضى والتسليم نهاية العلم والتعليم »[١].

بهما يكون للدروز شعارُ مُمَيَّز واقرارٌ بما هم عليه من إيمان: « فاجعلوا الرضى والتسليم لجماعتكم شعاراً ووسيلة إلى رحمة المولى بوليّه (حمزة) واقراراً... »[٢].

وكلاهما يقوم على « ترك الاعتراض فيما يفعله مولانا جل ذكره. (بمعنى إنّه) لو طُلِبَ من أحدِكم أن يَقتُلَ وَلَدَه لَوَجَبَ عليه ذلك بلا إكراهِ قلبٍ، لانَ مَن فعلَ شيئاً وهو غيرُ راضٍ به لم يُثَبْ عليه »[٣].

---

(١) رسالة الغيبة ٣٥ / ٢٥٤.
(٢) الجميهيرية ٥٠ / ٣٦٩، السفر إلى السادة ٦٨ / ٥٤٧.
(٣) رسالة البلاغ والنهاية ٩ / ٨٠، انظر رسالة البنات الكبيرة ٨٣ / ٧٤٧، ورسالة البنات الصغيرة ٨٤ / ٧٥٠.

الفصل العاشر

المُجْتَمَعُ الدّرزي

أوّلاً ــ طبقتا المجتمع: عقّال وجهّال

ثانياً ــ المرأة والزواج

ثالثاً ــ أخلاق الموحدين وصفاتهم

أوّلاً ــ طَبَقَتَا المُجْتَمَع: عُقّال وَجُهّال

ينقسم المجتمع الدرزي من الناحية الدينية إلى قسمين: عقّال وجهّال، ومن الناحية الاجتماعيّة إلى أمراء وفلاّحين، ومن الناحية السياسيّة إلى جنبلاطيين ويزبكيّين، ومن قبل قيسيين ويمنيين. ويعنينا منها الآن قسما المجتمع الديني: العقّال والجهّال.

أمّا العقّال فهم القيّمون على دعوة الحقّ، والمحافظون على سرّيّتها وسرّيّة كتبها، والناسخون لرسائلها، والشارحون عقيدتها، والمتمسّكون بقواعد الأخلاق والسلوك النبيلة.

هؤلاء يمسكون عن التدخين، وشرب الخمرة، واحتساء القهوة. ويمارسون الزهد والتقشّف في المأكل والملبس والمسكن. ويرفضون أخذ قرش واحد من الحكّام والموظّفين لظنّهم بسوء مصدره. ويتجنّبون الرذائل والشهوات، ويمتنعون عن الحرام من الطعام، ويسدقون في القول ــ طبعاً مع الأخوان ــ. ولا يختلي بامرأة، ولا يردّ تحيّتها إنْ حيّته، إلاّ إذا وجد بينهما ثالث[١].

يتميّزون بزيّهم عن سائر المؤمنين، فــ« العمامة المدوّرة لا يلبسها

---

(١) اقرأ « ميثاق النساء »، رقم ٨ ص ٧١.

إلاّ المؤمنون الذين حفظوا غيباً جميع كتب « الحكمة ». والأجاويد الذين لهم لحى طويلة يرتدون العباءات القصيرة ذات الكمّ النصفي والمخطّط باللون الأحمر أو اللون الأسود. أمّا الأجاويد الذين ليس لهم لحى يرتدون العباءات الحمراء المخططة بخطوط بيضاء صغيرة »[٢].

يرأس الدروز اليوم شيخ عقل واحد، يسمّى بشيخ العقل، أو شيخ العصر، أو شيخ المشايخ، فيما كان، في زمن ماض، شيخان أو ثلاثة، بحسب اختلافاتهم السياسيّة.

ينقسم العقّال إلى طبقتين: الطبقة الدنيا وهم الذين يحق لهم معرفة رسائل «القطن»[٣]، والطبقة العليا وهم الذين يعرفون كل ما في الحكمة من رموز ومواقف عدائية من الإسلام وسائر الأديان...

أمّا الجهّال فهم عامّة الناس الذين لا يحقّ لهم سماع شيء من الحكمة أو من شروحاتها. بل لهم أن يسمعوا « السجلاّت » الأربعة الأولى من مجموعة الرسائل. وهذه، كما نعلم، لا تمّت إلى العقيدة الدرزيّة بصلة.

هؤلاء يحضرون المجالس الدرزية التي تقام كل مساء خميس (أي ليلة الخميس الجمعة) لسماع الوعظ والإرشاد العام، وأخذ بعض تعليمات خاصّة بحسب المناسبات السياسيّة والمواقف الموحّدة التي يتّخذها الدروز حيالها، بما قد يكون وَفَد إليهم من المجلسِ الدرزي الأعلى، أو من خلوات البيّاضة ــ قرب حاصبيا ــ...

---

(٢) حافظ أبو مصلح، واقع الدروز...، ص ٧٠.
(٣) انظر ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ من هذا البحث.

لا يتميّز الجهّال في الدين أو في الزيّ بشيء، فهم يجهلون عن الدين كل شيء. ولكنّهم، قبل بلوغ سنّ الأربعين بسنتين، يتدرّبون على استلام الدين، بممارسة الزهد والأعمال الصالحة... فإنْ كان منهم من يستحقّ التقدّم إلى قبول الدين، سلّموه إيّاه، ولكن بالتقسيط، وعلى درجات. وينصح لهم بلبس السراويل وارتداء ألوان غير زاهية.

والتدرّج إنما يكون بقدر حفظهم الحكمة ومقدرتهم على صونها، عملاً بنصيحة بهاء الدين المقتنى: « بحفظ الحكمة والعلم ترتفع درجات المحقّين... وبحفظ الحكمة تتميّز الأخيار من الأشرار »(٤). و « استر نفسَك، وامسك لسانَك، ومَن بحوزتِك، عن الكلام الخارج عن أهلك وأخوانك »(٥).

ويتمّ التدرّج في يوم عيدهم، وهو اليوم الموافق لعيد الأضحى عند المسلمين. في هذا اليوم ــ وليس له من الأضحى شيء ــ يجتمع الدروز في « المجالس »، ويحصل تسليم الدين. وهو يوم خروج قائم الزمان بالسيف وإهراقه دماء الكفرة والمشركين استيفاء لدماء الموحدين، وأخذا بثأرهم(٦).

والنساء أيضاً، كالرجال، عاقلات وجاهلات. وشروط الانتقال هي نفسها كما عند الرجال.

*****

(٤) رسالة البنات الكبيرة ٨٣ / ٧٤٧.
(٥) منشور نصر ابن فتوح ١٠٧ / ٨٢٦.
(٦) انظر مخطوط ٦١٨٢، ورقة ٣٨ أ في المكتبة الوطنية بباريس.

ثانياً ــ المَرأةُ وَالزَوَاج

في مجموعة الحكمة جملة رسائل موجّهة إلى النساء، منها « ميثاق النساء » رقم ٨ ص ٦٩ ــ ٧٢، و « رسالة البنات الكبيرة » رقم ٨٣ ص ٧٤٤ ــ ٧٤٨، و « رسالة البنات الصغيرة » رقم ٨٤ ص ٧٤٩ ــ ٧٥١. ومنها أيضاً رسالة « الردّ على النصيري الفاسق » رقم ١٥ ص ١٦٣ ــ ١٧٤...

المرأة، عند الدروز، هي « عرض الرجل »، كما « العقل هو طول الجنّة، والنفس عرضها »[١]، والنفس هي زوج العقل، كما رأينا. « والعرض... في اصطلاح بني معروف، هو المرأة. وصيانتها، عندهم، أعزّ من صيانة النفس. يستميتون في الدفاع عنها. ويفاخرون بها الشعوب »[٢].

يشدّد الدروز جدّاً في الحفاظ على المرأة وتصرّفاتها وأخلاقها، ويبالغون في الحيطة عليها، لئلا تقع فريسة الظنون والشبهات، ويحرصون على آدابها وتهذيبها وطهارتها وتعليمها أشدّ الحرص، ويغارون عليها من أن تكون عرضة لكل ناظر، ومطيّة لكل زير نساء. فيأمرونها بالحجاب والتستّر والتعفّف وملازمة دارها. « ولا يعرف التاريخ جماعةً أحرص من

(١) انظر صفحة ٣٤٥ من هذا البحث.
(٢) عبد الله النجار، مذهب الموحدين الدروز، ص ٢١٩.

الدروز على الآداب، والتهذيب الجنسي، وطهـارة الأعـراض، وصـراحة الأنسـاب »[٣]. ويبالغون في الحصانة عليها « مبالغة أصبحت مضرب الأمثال. فليس فـي الأنـام جماعـة كالدروز ظلّت ألف سنة لم يصبها الخلاط »[٤].

« ولا يعرف المجتمع الدرزي شيئاً من الزنا أو الخيانة الزوجيّة، أو ما شابه ذلك من المفاسد الاجتماعيّة. فالمرأة الدرزية أعفّ نساء العالم، وأشدّهنّ طهارة ومحافظة على شرفها. ولا يزال الحجاب إلى الآن مضروباً على نساء الدروز، بل حجاب المرأة من صميم عقيـدة الدروز »[٥].

والمرأة التي تصون نفسها هي أشرف من الملائكة. وعليها أن تكون مصانة عَفيفـة عندما تشاهد رجلاً، وكأنّها، وهي تنظر إليه، تنظر إلى ابنها أو إلى أبيها. والله يراها في جميع حالاتها، فيما تخفيه كما فيما تبديه. وعليها أن تبتعد عن كل حالة منكَرة، وتتحاشى النـزوات الغرائزيّة، وتخلّص روحها بمعرفة مولانا وحدوده العظام[٦].

وعلى الرجل الحفاظ على عرضه وشرفه، أي على عياله، لأن « مَنْ لا يغار علـى عياله فليسَ بمؤمن، بل هو خِرَّمِيٌّ طالبُ الراحة والإباحة، راكبٌ هواه وضلالته »[٧].

*****

---

(٣) نفس المرجع، ص ٢٢١.
(٤) نفس المرجع، ص ٢٢٣.
(٥) الدكتور محمد كامل حسين، طائفة الدروز، ص ٢٩.
(٦) رسالة ١٥ / ١٦٤، ١٧٤، و٨ / ٧١ ـ ٧٢.
(٧) رسالة ١٥ / ١٦٥.

إنّ « عفّة المرأة فشرط لسلامة الزواج، وَبَتُوليّة الفتاة شرطٌ لعقده. ويُفسخ إذا هي لـــم توافق عليه »[٨]. وقد لا يكون الزواج أمراً مهمّاً في الدين، بقدر ما هو يعني الـــزواج مـــن الحكمة. فـــ« الجماع ليس هو من الدين، ولا ينتسب إلى التوحيد إلاّ أن يكون جماع الحقيقـــة، وهو المفاتحة بالحكمة »[٩].

ولا تزيد « المجامعة الظاهرة » في الدين شيئاً. « فإنّه لو أنّ رجلاً موحّداً عاش مائة سنة ولم يتزوّج حلالاً ولم يَعرِفْ حَراماً لم يُنْقِصْ ذلك من منزلته في الدين شيئاً. وكذلك لو أنّ امرأةً مؤمنةً موحّدةً عارفةً بدين مولانا وتَعبدُه حقّ عبادتِه وعاشتْ مائةَ ســـنة ولـــم تتـــزوّج وماتتْ بِكْراً لم يُنْقِصْ ذلك من دينها شيئاً »[١٠].

« لا يستطيع الدرزي أنْ يتزوّج أكثر من امرأة واحدة مهما كانت ظروفه الشخصـــية والدينية »[١١]. وجاء في قانون الزواج الدرزي في لبنان ٢٤ شباط سنة ١٩٤٨ في المادّتين ٩ و١٠: إن تعدد الزوجات ممنوع وباطل. وجاء في المادّتين ١١ و٣٨ بأنّ إعادة المطلّقة غيـــر جائزة. بل إنّه من « المحرم والممنوع على المرأة الدرزيّة المطلقة ان ترى وجهَ زوجهـــا أو أن تحضرَ في مجلسٍ يَضُمُّه »[١٢].

إنّ الزواج محصورٌ بين الموحدين والموحدات عملاً بشريعة قائم

(٨) عبد الله النجار، نفس المرجع، ص ٢٢٢.
(٩) رسالة ١٥ / ١٦٥.
(١٠) رسالة ١٥ / ١٦٦ ـ ١٦٧.
(١١) حافظ أبو مصلح، واقع الدروز، ص ٧٠.
(١٢) نفس المرجع.

الزمان: إن « زِيجةَ الموحدِين والإلفةَ بين الإخوان والأخوات مُرْتَجَةٌ (أي مغلقة) عليهم »[١٣]. وينهي الدروز عن زواج « المتعة »، كما هو عند الشيعة، أي الاستمتاع بالنساء لوقتٍ محددٍ وبِدَارَهِمَ معلومةٍ. كما يحذّرُ من زواجِ الأخوةِ مع الأخوات، كما هو عند النصيريّة، ولو بقـي الواحدُ منهم طيلة العمر بلا زواج.

وقد يكون مَن نهى نفسَه عن الزواج وعن الشهوات أفضلَ مِن الملائكة، لأنّ « مَـن نَهى نفسَه عن الشهوات البهيميّةِ كان أفضلَ من الملائكة المقرّبين »[١٤]. وكثيراً ما مارسَ هذه الفضيلة بعضُ مشايخ العقل، فانقطعوا، في تعقّلهم، عن النساء والطيّبات.

أمّا مساواةُ المرأة بالرجل فهو أمرٌ طبيعي في الدين الدرزي وقد جاءَ فـي « شَـرْطِ الإمام صاحبِ الكشفِ » إنّه إذا تسلَّم أحدُ الموحدين (أي تزوّج منها) بعضَ أَخَوَاتِه الموحداتِ، فيُساويها بنفسِه، ويُنصِفُها من جميع ما في يده... »[١٥]. وممّا يدعو إلى قول كلمة الحـقّ: إنّ وضعَ المرأة الدرزيّة في مجتمعها يستحقّ كل إكبار، حتى إن المراة المطلقة تحتفظُ برتبتهـا الدينية التي كانت لها مع زوجها الأوّل[١٦]. غيرُ ذلك وَضْعُها في الإسلام حيثُ هي تتعـرّضُ للغَيرة والحَسَد والفِراق.

*****

(١٣) شرط الإمام صاحب الكشف ٢٥ / ٢٢١.
(١٤) رسالة الرّدّ على النصيري ١٥ / ١٦٦.
(١٥) رسالة ٢٥ / ٢٢١ ـ ٢٢٢، حيث تجد مبادئ الزواج والطلاق والمساواة والانصاف والإرث والنفقة التي اعتمدها القانون المدني.
(١٦) رسالة ١٥ / ١٦٨.

غير إن مساواة المرأة بالرجل لم تكن في جميع الأمور. فلم تحظَ بنفس الحرّيّة. بـل هي مقيّدةٌ بلبسها وخِدرها ونظرتِها إلى الحياة. « وأمّا أمرُ النسوان فينبغي أن يكونَ جَبَـاهُنَّ (اختيارُهنّ) أشدَّ وأعظمَ، ولا يَنْكشِفْنَ إلاّ على القليل من الرجال، لأنّ النِسَاءَ عَوراتٌ. وكـلُّ عَورَةٍ يَجبُ سترها. فيجب على كل امرأة لا تخرج من بيتها الاّ وهي ساترةٌ غالبَ وجهِهـا، ولابسةٌ لباسها. والـذي يَحسُنُ ويليقُ انّ الامرأةَ لا تفـارقُ اللبـاسَ لا في بيتِهـا ولا فـي غيره »[١٧].

« وينبغي أيضاً أنّ الرجلَ لا ينكحُ امرأةً مَنَّانَةً، ولا حَدَّاقَةً، ولا بَرَّاقَـةً، ولا شَـدَّاقَةً. فالمنّانةُ هي التي تَمِنّ على زوجها فتقول فعلتُ من أجلِكَ كذا وكذا. والحدّاقـة التـي ترمـي بِحَدقَتيها إلى كل شيء فتشتهيه وتكلّفُ الزوجَ شراءَه. والبرّاقة أن تكون طـوالَ النهـار فـي تصقيل وجهِها وتزيينها ليكونَ وجهُها برّيقاً يحصلُ بالصنع. والشدّاقة الكثيرةُ الكلام »[١٨].

وأغرب ما في الـدرزيّة كَبْتُ عاطفة المرأة كبتاً مَرَضيّاً مُخيفاً. وقد عبّرت عن ذلك « الآنسةُ عفيفه صَعب » الدرزيّة أحسنَ تعبير. فقالت: لـ« قد عنّفتِ التعاليمُ الدينية، وبعدَها التعاليمُ الاجتماعيّة، أشدَّ العنف على العاطفة وكبتَتِها. وأخذتِ الرجلَ عنجهيّةُ الحفـاظِ علـى العرض فاستنكرَ العاطفةَ في أكثر مظاهرِها تحفّظاً، وشدّدَ مِن

---

(١٧) مخطوط ١٤٣٨ بعنوان « الجوارح السبع »، في المكتبة الوطنيّة بباريس، ورقة ١١٧ ب.
(١٨) نفس المرجع، ورقة ٧٥ ب ـ ٧٦ أ. انظر أيضاً ما يلي في صفات المرأة.

محاصرتها والحجْر عليها، حتى تجاوزَ مسلكُ المرأة في ذلك حدَّ الاحتشام والتحفظِ إلى الرهبةِ والخوفِ، وحتى لنسمع من المتديّنات المتصوّفات في تراتيلهِنّ الدينيةِ قولَهُنَّ: « مُــشْ حَــرَام حُبِّي لِربَّي مُشْ حَرام؟ »(١٩).

وتعبّر الأديبةُ الدرزيّة « الآنسةُ نور سلمان » عن مرارةٍ في نفسها حيالَ وضعِ المرأة الدرزيّة التعيسِ في مجتمعٍ يحجُر عليها حتى أنفاسَها. فهي تخاطبُ أمَّها، كأنّها تخاطبُ جميعَ الأمّهات، بألمٍ وحزنٍ مريرين. فتقول، مبيّنة تعاستَها في بيئة بالية:

« أتُراني ضعيفةً سخيفةً عندما أخاطبُ أمّي بمريرِ أعماقي.

انتظارٌ مِن عصيرِ السمِّ... ثم أيّامٌ لا تتحرّك، ثم ساعاتٌ تتثاءبُ ولا تنام... ثم غيــومٌ من الغبار.

صوتُك يا أمّي يُعميني: « ابنتي دعينا والتهوّر... ابنتي التعقّلُ... التعقّل... التعقّل ».

كلماتُ جَارَتِكِ تَصفَعُني: « يا صَغيرَتي! احذري غَدْرَ الزمــان... احــذري خــداعَ الأيام... احذري المحبِّين... احذري احذري.. احذري.. مكرَ الرجال.. »...

« يا أمّي! اتركي يَدي اتركيني.. دَعيني أطيرُ... أركضُ في الجلجلة مع العَجَلة.. ما نفعُ سلامةٍ نائمةٍ... يا أمّي اتركي يَدي... هذا الجديد يناديني... يا أمّي لا تقولي انتظــري... الغدُ يناديني... »(٢٠).

---

(١٩) عفيفه صعب، « المرأة الدرزيّة »، في كتاب « الواقع الدرزي »، ص ١٢٦.
(٢٠) نور سلمان، « آن لنا أن نعترف »، نفس المرجع، ١٧٣ ـ ١٧٤.

ثالثاً ــ أخلاقُ الموَحّدين وَصفَاتهم

يعتبر الدروز أنفسهم أفضلَ الأمم وخيرَ عبادِ الله. « فأنتم أفضلُ الأممِ، وخيــرُ مَــن وَطِئَ الأرضَ بِقَدَم. لأنّكم عبدتم الموجودَ، وانعكفوا هُم على عبادة العدم المفقود. فسوفَ أجعلُ أكابِرَهُم لأصاغِرِكم أَعْبُدَ، وعزيزَهم لأَحَدِكم يُطيعُ ويَسجُد. »[١].

بهذه الصفة يرى الدروزُ أنّهم شعبُ الله المختار. اجُتَبَاهُم العليُّ الأعلى منذ البدء، لأنَّ « مَنْ وَحَّدَه في وقتِنا هذا فقدْ وَحَّدَه في سائر الأعصار »[٢]. ولا يستطيعُ أحــدٌ، مهمــا عــلا شأنه، أن يختارَ لنفسه الدخولَ في الدرزيّة، لأنّ حكمَ الله مبرَم، قضى على الجميع بالبقاء حيثُ هم. وبذلك يكون الدروزُ أكثرَ قُرْباً من قلبِ الله من اليهود.

بالنسبة إلى هذا الاختيار الإلهي منذ البدء، اضطُرّ الدروزُ « إلى أن يكونوا شــديدي المحافظةِ على تقاليدِهم القديمة، ولم يختلطوا بغيرِهم من الشعوبِ. وصاروا في شبه عزلــةٍ، مستقلّين عن كل شيء يحيطُ بهم. ولذلك ظلّتْ أخلاقُهم وعاداتُهم هي نفسُ الأخلاق والعــادات التي

(١) رسالة الأعذار والانذار ٣٤ / ٢٤٩.
(٢) من دون قائم الزمان ٦٧ / ٥٣٦.

ورثوها جيلاً بعد جيل دون أن تتأثّر بمؤثّرات خارجيّة »[٣].

وكان نتيجة ذلك أن تحصّنَ الدروزُ في جبالِهم وتمسّكوا بتقاليدَ مجتمعِهم المتوارثةِ وانكمشوا عن سواهم: « إن حقيقةَ الدروز وواقعَهم الصارخ لا نجدُهما إلاّ حيثُ كثرتُهم المنكمشةُ في حيث تقطنُ النسور »[٤].

هذا الانكماش فرض عليهم، أوّل ما فرض، جملة فضائل:

أَوَّلُهَا: التَّعَفُّفُ. « إن العفافَ وقمعَ الشهوة وقهرَها أمرٌ عظيم، وفضلٌ جزيل، وثوابٌ عميم، وتخليدٌ في النعيم المُقيم »[٥]، فـ« إنَّ الله عزّ وجلّ ما خلقَ هذه الشهوةَ إلاّ لأجل النَسْلِ لا غير. فالأَولى والأليقُ والأحسنُ والأجدرُ بالموحِّد الديّان أنّه لا يُجَامعُ زوجَتَه إلاّ للوَلَد فقط... فإذا جامَع الرجلُ زوجتَه للقصدِ المذكورِ فلا يجوزُ له أن يُعَاوِدَ بالمجامعةِ. والجماعُ محرّمٌ أيضاً في حال الرضاع وفي حال الحَمْل أيضاً »[٦].

وعلى الموحّد « أن يكون غضيضَ الطرفِ، خاشعَ اللحظِ، لأنّ إرسالَ الطرف يقتضي الحَتْفَ. والعينُ مجلبة لبواعثَ الهوى ودواعي الغرام، فإنّ لم تتقيّدْ بالغضِّ مُقْلَتُه أوقعتْه بالآلام والأَسقام »[٧] وللأُذُنِ أيضاً آداب. فعليها أن « لا تُصغِي إلى سَماع غناء امرأة... لأنّ الاصغاءَ إلى ذلك يحرّكُ الشهوة... والصبيانُ يَجرون مجرى النساء، فَلْيُتَجَنَّبُوا أيضاً »[٨].

---

(٣) الدكتور محمد كامل حسين؛ طائفة الدروز، ص ٢٨.
(٤) عفيفة صعب، الدروز وحتميّة التطوّر، في « الواقع الدرزي »، ص ٢٨.
(٥) مخطوط ١٤٣٨ في « الجوارح »، ورقة ١٠٠ أ.
(٦) نفس المرجع، ورقة ٨٦ ب ـ ٨٧ أ، و٨٩ ب ـ ٩٤ أ، و٩٦ ب ـ ٩٧.
(٧) نفس المرجع، ورقة ١٧ أ.
(٨) نفس المرجع، ورقة ٢٣ أ و ب.

فالمذهب الدرزي يفرض « على أتباعه، إذنْ، الامتناعَ عن التمتّع بما أباحَه القــرآن الكريم للمؤمنين، وما أجازَ من ملذّات الدنيا الحسيّة. ويعتبرّها مناقِضةً للفضيلة أو للجَودة التي ينميها التعفّف، حتى أنّ المغرقين في « الجودة » كثيراً ما يُسْمَعون مستغفِرين من ربّهم مــن طعامٍ استطابوه، أو راحةٍ استساغوها »[٩].

وَثَانيهَا: الصَّبْرُ والاحْتِمَالُ. وهي فضيلة نشأتْ معهم في محنتِهم، واستمرّتْ فيهم عَبْرَ تاريخِهم المنكود، وتوسّعت حتى شملتْ جميعَ نواحي حياتهم الاجتماعيّة والطبيعيّة. فهم، أكثر من أيّ شعبٍ، تمرّسوا على احتمالِ مصائبِ الدهرِ ومشاكلِ السياسة وآلامِ الحروب ونكبــاتِ الزمان.

ولدى بهاء الدين المقتنى جملةُ نصائح يحثُّهم فيها على الصبر: « اثبتوا فإنّ العاقبــة لِمنْ ثَبتَ وصبَر وأغضَى »[١٠]، و « اعلموا إخوان الدين أن العاقبة بالحسنى للصابِرين فــي دار الحقّ الممتحنين »[١١] « وروّضوا نفوسَكم على الرضى والتسليم والصبر والتــدبّر »[١٢]. ويطلب من داعيه نصر ابن فتوح: « ثبّتِ الجماعةَ في كل موضعٍ على السترِ وإجمالِ الحال، وترْكِ الكلامِ والمنازعة. ويكونوا على الصبرِ والاحتمالِ. ولا يوافقوا أحداً لا بقولٍ ولا بفعلٍ، بل يكونُ أعظمُ ما عندهم الصبرُ والسكوت »[١٣]. فــ« مَنْ صَبَرَ على بَرْدِ القرِّ نالَ خضــرةَ الربيع »[١٤]...

(٩) عبد الله النجار، مذهب الموحدين الدروز، ص ٢٢٨.
(١٠) رسالة الوادي ٥٢ / ٣٧٩.
(١١) نفس المرجع، ٥٢ / ٣٧٨ ـ ٣٧٩.
(١٢) نفس المرجع، ٥٢ / ٣٨٠.
(١٣) منشور نصر ابن فتوح ١٠٧ / ٨٢٨.
(١٤) مكاتبة رمز إلى الشيخ ابن المعالي ١٠٥ / ٨١٦...

وثالثها: التَمَنُّع عن المال الحرام. وهو أمر بالغُ الأهميّة في سعي الدرزيّ العاقل نحو الكمال. إنّه « من الحرامِ المحضِ أجرةُ الزنا والنياحة وغناء الامرأة وأجرة الشَعْبَذة... وبيعُ الخمرة... ومن الحرامِ أيضاً مالُ السلطان وحاشيتهِ وحَشمِه ووُلاتِه حيثُ كانوا بالمدنِ أو بالبرّ، وكذلك مالُ القضاةِ وخدّامهم ونوّابهم... والحلالُ في رزقهم نادرٌ... فالتجنّب لمالِهم ومخالطُتهم والاجتماعُ بهم واجبٌ لأنّهم نارٌ مضرَمة... ومن الحرام أيضاً ما يؤكل من الأوقاف من غير شرْطِ الواقف... (ويجب) تَركُ معاملة الفقهاء من بيعهم وشراهم لأن الغالبَ في أرزاقهم من الوقوفات... من لم يَسْأَلْ مِن أينَ اكتسبَ المالَ لم يَسأل اللهُ من أين أدخلَه النارَ... ومن لم يُبَالِ مِن أينَ مَطعمُه لم يُبَالِ اللهَ من أيِّ أبوابِ النارِ أدخَلَه »[١٥].

ولئلا يكونَ الحكم على أموال السلطان والقضاة مطلقاً، يرى الأميرُ السيّد « فيها بعضَ الحلال. لكنَّ الحرامَ هو الغالب. والله أعلم إنْ كان عشرُ عشير مالِهم حلالٌ. ولا عبرة بذلك »[١٦].

ومن المحرّمات أيضاً أخذ الربا من بعضهم بعضاً، وإنْ كان جائزاً أخذه من الأضداد: « لا تقرضوا أموالكم لتأخذوا الربا أضعافاً مضاعفة، إنْ ذلك كانَ على الموحدين محذوراً. ولقد عَفا مولاكم عن الذين يأخذونه من غيرِ الموحدين، مضطّرين غير عادين »[١٧]. وقد يجوز للدرزي، إذا

(١٥) مخطوط ١٤٣٨: « الجوارح السبع »، ورقة ٢٩ أ ـ ٣٣ ب.
(١٦) نفس المرجع، ورقة ٤٠ ب.
(١٧) المصحف المنفرد بذاته، ص ١٤٨. انظر أيضاً حتى ص ١٥٦.

ما كان عليه دين لأحد الأضداد أن ينكره عليه. يقول بهاء الدين: إذا « كان للضدّ عنده (عند الموحّد) دَيْنٌ، بغير وثيقةٍ أو وديعة بغير بليّة، وكان مُعْسِراً عن وَفَائه... يجوز له الانكارُ وقلّة السدق »[١٨]. « أمّا إذا كان لأحدِهم عند أخيه مالٌ، وعلِم إعْسَارَه، صَبَرَ عليه. وان سأله الزيادةَ دَفَع إليه »[١٩].

وَرَابِعُهَا: العَصَبِيَّة. قد يصعبُ الكلامُ على العصبيّة في أيّامنا هذه، لأنّها أصبحتْ تهمةً نكراء يتبرّأُ منها المسلمونَ والمسيحيون واليهودُ على مُختَلَف طوائِفهم، ويرمونَ بها سواهم. وكذلك الدروز يبرّئون أنفسَهم من هذا التعصّب، ويكيلونه على سائر الطوائف كَيْلَين...

ولكنّهم يقيمون الأرضَ ويقعدونَها إذا ما تجاهلَ الناسُ حقَّهم. ويعتبون حتى على الجرائد التي « لا تذكرُ مِن طوائفَ هذا الوطنِ سوى المسلمين والنصارى واليهود... ثم تتوسّع في التفصيل فتعدّد الطوائف الإسلاميّة، ولو كان لليهود بطون وأفخاذ لعدّدتْها فرداً فرداً تفصّل ذلك وهي لا تشاء أن تذكر أنّ في سوريا طائفةً لها مُقامُها ولها نفوذها، لها آدابها ولها قوميّتها، لها أخلاقها ولها وطنيتها ــ ألا وهي الطائفة الدرزية الكريمة ــ »[٢٠].

وفيما هم يلقون التعصّبَ على الطوائف اللبنانية يلومون أنفسَهم كيف هم لم يكونوا على هذا المستوى في هذا المعترك الطائفي الذي « ليس

(١٨) رسالة ٤١ / ٣١٤.
(١٩) نفس الرسالة ص ٣١٥.
(٢٠) فؤاد الأطرش، الدروز... ص ١٤.

من جماعة ضائعة فيه، غائبة عنه، إلاّ نحن بني معروف. ومردّ هذا إلى عوامل، أهمّها في رأينا أربعة: التساهل المزرِي، الضعف المخزي، الوحدة الممزّقة، القيادة المفرّقة »[٢١].

وفيما الجميع يشيدون بمواقف السيد كمال جنبلاط التقدّميّة العالمية المنفتحة على الشرق والغرب والفلسطينيين والمسلمين، يعود حافظ أبو مصلح ليعطيه قوّته هذه من جحافل الدروز اللاحقة به، إذ كان « يستطيع أن يجمعَ حولَه في ساعاتٍ معدودةٍ عدّةَ آلاف من الرجالِ من أجلِ القيام بحركة ثوريّة »[٢٢].

وفيما شيخُ العقل محمّد أبو شقرا يدعو إلى التسامح والمحبّة والانفتاح على الجميع، نسمعُه يُبْرِقُ إلى رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة قائلاً: « الغبنُ والاجحافُ بل الحرمانُ، مظالمٌ لاحقةٌ بطائفتنا الدرزيّة، أثبتناها في المذكرات المسهبة... استمرارُ الاهتضام والتجاهل، لا يصلحان للحكم دعامة، وللوحدة الوطنيّة أساً. إذا حَاقَ الدروزَ ضَيْمٌ، لمْ يبيتُوا على استقرارٍ. وهم حُمَاةٌ لهذا الوطن »[٢٣]. ومرّةً أخرى هدّدَ بحمل السلاحِ ان لم تُسْتَجبْ مطالبه الطائفية: « لن نسكتَ على الضيمِ، ولن نحجم عن الدعوةِ إلى حَمْلِ سلاحِ الإيمان بالحقّ، لاخمادِ الباطل »[٢٤].

---

(٢١) عارف النكدي في مقدمة كتاب « الواقع الدرزي »، ص ٨.
(٢٢) حافظ أبو مصلح، واقع الدروز...، ص ١٦.
(٢٣) برقية بتاريخ ٢٦ / ٣ / ١٩٦٣.
(٢٤) برقيّة بتاريخ ٢٠ آذار سنة ١٩٥١.

لم ننقل هذه الشهادات للنيل من الرجال، أو لأننا نرى في العصبيّة عَيْباً، بل لأنّنا نودُّ ألاّ نُؤْخَذَ بالتنكّر لها واتّهامِ الغير بها. بل أفضل تعبيرٍ عنها ما نَقَلَه الشيخُ عارف النكدي نفسُه ما قيل في الدرزيّة « بأنّها في أمورها العامّة، تقف صفّاً واحداً متراصّاً، يشدّ بعضه أزر بعض »[٢٥]. وهل هذا غير العصبيّة! وهي، أي العصبيّة، تشدّها روابط الدم الواحد والتاريخ الواحد والظلم الشامل!

وخَامِسُهَا الشَّجَاعَةُ. لن تقرأ كتاباً أو مقالاً وُضِعَ في مناقبِ الدروز إلاّ وتجد في رأسها الشجاعة. بها عَرَّفُوا عن أنفسِهم، وبها عَرَفَهم الناس. على حمزة قائم الزمان عرّفتْنا رسائلُ الحكمة بصاحبِ سيفِ الانتقام، وبأنّه في آخر الزمان سيحملُ سيفَه لقطعِ رِقابِ الملوكِ والجبابرة الملحِدين، وبأنّه أوصى « كلمتَه » ليُوصي الموحدينَ بحمْلِ السلاح وأقلُّه سكين[٢٦]. « والدرزي اليوم كما كان من ألف عام يدٌ على المحراث، وأخرى على السلاح »[٢٧]، « وكل درزي صالح يحمل في كل حينٍ على وسطهِ سكّيناً قويّاً معكوفاً » (كالخنجر)[٢٨].

غيرَ أنّ هذه الشجاعة هي لدرء المخاطر وأغدارِ الناس، إذ لا يجوز البتةَ أن يُغْدَرَ به أو أن يُقْتَلَ على يد كافر مشرِك؛ ولا تجوزُ الرحمةُ عليه إذا ما قُتِلَ غَدْراً. لذلك فهو حَذِرٌ، مُتَيَقِظٌ، متربِّصٌ، مترقِّبٌ،

(٢٥) عارف النكدي في مقدمة كتاب « الواقع الدرزي »، ص ١٠.
(٢٦) انظر فصل « الانتقام والثأر » من هذا البحث، ص ٣١٠ ـ ٣١٧.
(٢٧) عفيفه صعب، « الدروز وحتميّة التطوّر » في « الواقع الدرزي »، ص ١٩.
(٢٨) Capitaine CARBILLET, Au Dejebel Druse, Paris 1929, p. 72…

« عليه أن يكون فطنا دائما للأمور »[٢٩].

هذه الشجاعة لم تكن يوماً لاقتحام الصعاب، والانتقال بصاحبها من الجبال الوعرة إلى ما وراء البحار، والمغامرة بالمال والحياة لكسب عيش أفضل، اللّهم إلاّ عند النوادر في أيامنا هذه. بل كانت شجاعة نادرة في الصبر والاحتمال، ومداراة الأضداد، ومصانعتهم، والميل إلى عقيدتهم إنْ قويت عليهم، والميل عنها إنْ آتَاهم الزمان.

وشهادة التاريخ في شجاعة دروزِ جبلِ حوران مزوّرةٌ في أساسها. فزحف هؤلاء الدروز إلى السويداء في ٥ نيسان، وقطعُ أربعينَ كيلومتراً في الصحراء، وضربُ الخيام البيضاء في السهول المترامية، لم تكن كلُّها لأجل اعتراضٍ على دولةِ الانتداب، بل لأجل ذكرى إعلان فرنسا استقلالَ جبل الدروز. وقد عبّر حاكمُ الجبل آن ذاك عن شعوره بقوله: « حقّاً إن الإيمان يَنقل الجبالَ. فالجبلُ كلُّه الْتَفَّ حولَ العاصمة. والناسُ كلّهم يَلهَجون بمجدِ شعبِ الله المختار »[٣٠].

وفي ظنّنا أن أكثر الناس خوفاً وتخوّفاً ورهبةً من الأعداء هم الدروز. ليست هي تهمةٌ بحقٍّ بني معروف، بقدر ما هي فضيلةٌ عندهم يتجنّبون بها الأضدادَ، عَملاً بنصيحة ربّهم: « أيّة أمّة تغلّبتْ عليكم اتبعوها ».

ومع هذا، لئن اتّصفَ الدرزيّ بالشجاعةِ فإنّ أحسنَ علاماتِها، في هذا الدهر، الغدرُ، وفي الدهر الآتي، الثأرُ لدماء الموحدين الذين قُتِلوا في أوائل الدعوة. وقد تتجلّى هذه الشجاعة يومَ تُنْتَهَكُ الحكمةُ، وتُفْضَح الأعراضُ، ويُتَعَدَّى على الحياة والنساء والبنات...

(٢٩) حافظ أبو مصلح، واقع الدروز، ص ٢٠.

(٣٠) Cap. CARBILLET, op.cit., p. 123; 177-187…

إن الذي يجيدُ السباحةَ ويقطعُ النهرَ مِن ضفةٍ إلى ضفةٍ بسهولة، لا يُدْعَى شجاعاً؛ بل الذي يجهلُ السباحةَ ويحاولُ قطعَ النهرِ مُغامِراً، أَفَازَ بالوصولِ إلى هدفِه أم لم يَفُزْ، هو الشجاع. ومَن أجبرَ على الدفاعِ عن نفسِه وحياتِه، أَنَجَحَ في الدفاعِ أم لم ينجحْ، لا يُسمّى شجاعاً، بل الذي يغامرُ بنفسِه ويعرّضُ حياتَه للهلاك، ولو هَلِكَ، هو الشجاع... فما بالُ بني معروف يُطلقون على نفوسِهم الشجاعةَ والبَسالةَ وهم مستقرّون في جبالِهم، وَادِعون في أمرِهم لبارِيهم، راضون بشظفِ العيشِ وفقرِه، مُكْتَفون بما لهم وبما عندهم، لا يعترِضون على حكمةٍ أغلقتْ دونَ الكثيرِ منهم أبوابُها، ويسلِّمون أمرَ سرِّهم وسرِّ خلاصِهم إلى سواهم!!

كثيراً ما يتغنّى الدروز بشجاعَتهم لأجلِ إيمانِهم بالتقمّصِ. ففي ظَنِّهم أن الدرزيَ لا يهابُ الموتَ، لأنه إنْ ماتَ أو عرّضَ نفسَه للموتِ، سيُنقَل مباشرةً إلى حياةٍ ثانية، قد تكونُ أفضل، إذا ما كان صالحاً، من الحياة الأولى. وإذا ما ماتَ في سبيلِ الحكمة والعقيدةِ التوحيدية فإنّ الحياةَ الثانية، لا محالةَ أحسنُ من الأولى... ولكنّ الحقيقةَ تُقال، وهي إنّ الشجاعةَ في سبيلِ عقيدةٍ ما لم تكنْ يوماً دافِعاً للمغامرةِ بالحياة. وحدَه الإنسانُ يَستحقُّ أن تُبذَلَ لأجلِه الحياةُ، لأن كلَ شيء وُجِدَ لأجل الإنسان: الدينُ والعقيدةُ والحكمةُ والحقيقةُ والوطنُ والحياة...

*****

ليست هذه المناقب وحدَها هي بارزةٌ في حياة الدروز. ولكنّنا آثرْنَا علـى غيرها لخلافٍ فيها. فالدروز يُجيدون المجامَلةَ، ويُصيغونَ العباراتِ الجميلةَ، ويَذكرون كلَ صنيعٍ معهم أو ضدَّهم، ويَرضونَ بالواقِع...

الفصل الحادي عشر

الأحوالُ الشَخْصيّة والمؤسّسَات الدّرزيَّة

أوّلاً — الأحوال الشخصيّة الدّرزيّة

ثانياً — الخلْوَات والمقامات الدّرزيّة

ثالثاً — مشيخة العقل

أوّلاً ــ الأحوالُ الشَخْصيَّة الدرزيّة

ًا ــ التَنظيم الدّرزي للأسرة:

أوّل قرار صدر من نوعه هو قرار رقم ٦٠ بتاريخ ١٣ آذار سنة ١٩٣٦. فيه اعترف المفوّض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان بأنّ الطائفة الدرزيّة هي من الطوائف الدينية التاريخيّة الحائزة على مميّزات: يحقّ لها أن تتمتّع بشخصيّة معنويّة، وتسنّ قوانينها، ويكون لها مؤسّسات تعليمية وخيرية، وتملك وتشتري وتتصرّف كما تشاء، وتتمثّل برئيس ديني...

وفي تاريخ ٤ تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ صدر مرسوم اشتراعي، تحت رقم ٢٤١ ينظّم الأحوال الشخصية لجميع الطوائف في لبنان، ومن جملتها الطائفة الدرزيّة.

ثم عدّل هذا المرسوم بقانون ٤ كانون الأول سنة ١٩٤٦. ثمّ جرى عليه تعديل آخر بمرسوم رقم ١٠ بتاريخ ٢ كانون الثاني سنة ١٩٥٢. ثم تعديل ثالث يحمل رقم ٥٣ بتاريخ ١٢ آذار سنة ١٩٥٣.

وأخيراً صدر عن مجلس النواب اللبناني قانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية بتاريخ ٢٤ شباط سنة ١٩٤٨.

وتتضمّن هذه المراسيم والقوانين كل ما له علاقة بالأمور التالية:

الخطبة (قوانين ١ ــ ١٣)، والزواج (١٤ ــ ٢٣)، والمهر (٢٤ ــ ٢٧)، والنفقة (٢٨ ــ ٣٦)، والمفارقات (٣٧ ــ ٤٩)، والعدّة (٥٠ ــ ٥٣)، والحضانة (٥٤ ــ ٦٦)، والنفقة (٦٧ ــ ٨٠)، والولاية (٨١ ــ ٨٧)، الوصاية (٨٨ ــ ١١٨)، والحجر ومفاعيله (١١٩ ــ ١٢٥) والقيّم عن المفقود (١٢٦ ــ ١٣٦)، والنسب، أي انتساب الولد إلى أبيه (١٣٧ ــ ١٤٤) والوصية والارث (١٤٥ ــ ١٦٩)، والأوقاف (١٧٠). ثمّ قانون ١٧١ الأخير، حيث يطبّق القاضي الدرزيّ أحكام الشرع الإسلاميّ المذهب الحنفي وجميع النصوص القانونية التي لا تتعارض مع الشرع الإسلامي. هذا في حال عدم ورود نصّ في القوانين الدرزية المذكورة.

يجدر بنا التنويه بنقاط أربع يتباين فيها الشرع الدرزي عن الشرع الإسلامي الحنفي المتّبع لدى مسلمي لبنان:

١ً ــ منعَ الدروز تعدّد الزوجات منعاً مطلقاً.

٢ً ــ منعَ الدروز إعادةَ المطلّقة إلى زوجها منعاً مطلقاً.

٣ً ــ يجيزُ الدروز الوصيةَ لوارثٍ ولغيرِ وارثٍ، وبكلِ التركةِ أو بعضِها، فابتعدوا عن قاعدة لا وصية لوارث.

٤ً ــ يطبّق الدروز قاعدةَ التنزيل التي يحلّ بموجبها الأحفادُ محلَّ الأولاد في الارث[1].

*****

(١) راجع أمين طليع، أصل الموحدين الدروز، ص ١٤١ ـ ١٨٠، ثمّ محاضرة حليم تقي الدين في « نظرة الإسلام إلى الأسرة في مجتمع متطوّر ».

٢ً ــ قانون تنظيم القضاء المذهبي:

قانون ٥ آذار سنة ١٩٦٠ المعدّل بقانون ٤ كانون الأول سنة ١٩٦٧. وهو ينصّ على تأليف محاكم درجة أولى ــ بدائية ــ ومحكمة استئنافية عليا (مادة ١)، ويعتبر جزءاً من تنظيمات الدولة القضائية[٢]، ويحدّد عدد المحاكم البدائية ومراكزها ومناطق صلاحياتها وعدد قضاتها والمساعدين القضائيين والحجاب (٣ ــ ٤)، ويجعل مركز المحكمة الاستئنافية العليا في بيروت، وتشمل صلاحياتها جميع الأراضي اللبنانية (٣ و٥)، وينصّ على انتداب قاضٍ درزي من سلك القضاء العدلي للقيام بمهام التفتيش (١١ ــ ١٢).

٣ً ــ قانون إنشاء المجلس المذهبي:

قانون ١٣ تموز سنة ١٩٦٢: « يتولّى شؤون الطائفة الزمنيّة والمالية، وتمثيلها في الشؤون العائدة لكيانها الاجتماعي والسهر على رفع مستواها، والمحافظة على حقوقها » (مادة ١).

تتناول صلاحياته: الاشراف على الأوقاف الدرزية، باستثناءِ أوقافِ خلوات البيّاضة[٢] التي تبقى تحت إشراف وتصرف شيوخها، وعلى المؤسسات وجمعيات الطائفة... وتعيين مدير عامّ للأوقاف، والاهتمام بالمدارس الطائفية، والاطلاع والمصادقة على موازنة وحسابات

---

(٢) سيأتي الكلام عليها.

المؤسّسات والجمعيات الدرزية... الخ (المواد ٣ ــ ٥).

ويتألّف المجلس من أعضاء دائمين وأعضاء منتخبين: الأعضاء الدائمون: هيئة مشيخة العقل، الوزراء والنواب الحاليون والسابقون، الأعضاء المنتخبون: محاميان، مهندسان، ثلاثة من حاملي شهادات الطب، وثلاثة من حاملي شهادات جامعية، وأعضاء ممثّلون للمناطق: ٦ عن الشوف، ٦ عن عاليه، ٣ عن بعبدا، ١ عن حاصبيا، ١ عن راشيا، ١ عن بيروت والمتن الشمالي وباقي المناطق (مادة ٦).

مدّة ولاية المجلس ٤ سنوات (مادّة ٧). من شروط صحة المنتخب في المجلس « أن لا يكون موظّفا في الدولة » (مادّة ٣).

٤ً ــ قانون انتخاب شيخ عقل الطائفة الدّرزيّة:

قانون ١٣ تمّوز سنة ١٩٦٢. يتضمّن « استقلال الطائفة الدرزيّة بشؤونها الدينية » (مادة ١). يكون للطائفة الدرزية شيخَا عقلٍ يتمتّعان بذات الحرمة التي يتمتّع بها سائر الرؤوساء الروحيين » (م ٢). ولا يجوز الجمع بين منصب شيخ العقل وبين أيّة وظيفة أو مهنة حرّة أو حرفة كانت (م ٣) ويتقاضى تعويضَ تمثيلٍ شهري قدرُه ٦٠٠ ل ل (م ٤). يُنتخب شيخ العقل لمدى الحياة (م ٦) يُشترط فيه أن يكون « قد أكمل الأربعين من عمره، من أهل التقوى والدين، من ذوي العلم والمعرفة بتقاليد الطائفة، حَسَن السمعة ومحمودَ الشيم، منزّهاً عمّا يمسّ الكرامة والدين، وغير محكوم بجناية أو جنحة شائنة » (م ١٠). « يتولّى مشيخة العقل مَن تتفق كلمةُ الطائفة الدرزية في لبنان على اختياره من أبنائها اللبنانيين الأخيار.

ويتم ذلك بطريقة الانتخاب العام من قبل جميع الذكور من الدروز الذين لهم حق الانتخاب وفقاً لقانون انتخاب أعضاء المجلس النيابي » (م ٥).

٥ً ــ القوانين الدّرزيّة السورية:

وضعت الحكومة السورية في قانون الأحوال الشخصية العام مادّة خصّت بها الطائفة الدرزية هي المادة ٣٠٧، ونصّت على صلاحيّة القضاء المذهبي الدرزي.

أمّا تنظيم القضاء فنجده في قانون ١٣٤ بتاريخ ٣٠ / ١ / ١٩٤٥ وقانون ٢٩٤ سنة ١٩٤٦، وقانون ٥٦ سنة ١٩٥٩، وقانون ٩٨ سنة ١٩٦١. ومعظم موادّها لا يختلف عمّا هو في القوانين اللبنانية.

٦ً ــ القوانين الدرزية في فلسطين:

كان دروز فلسطين، إبّان الاحتلال العثماني، يتقاضون أمام قاضي المذهب في حاصبيّا. وبعد الحرب العالمية الأولى وإقامة الحدود بين لبنان وفلسطين وصعوبة عبر الحدود وانقطاع الصلة بين دروز فلسطين وقاضي حاصبيا طالب الدروزُ السلطةَ البريطانية المنتدبة باستقلال مذهبي يضمن لهم مصالحهم. وكان أوّل جواب تلقّوه الكتاب الموجه من الحاكم البريطاني إلى الشيخ طريف الأحمد بتاريخ ٧ تموز سنة ١٩١٩ يقضي بأن ينظر الدروز بقضايا الزواج والطلاق طبقاً للتقاليد دون سائر القضايا

مثل الأوقاف والارث...

وبتاريخ ١٨ آب سنة ١٩٣٢ طالب الدروز بإعادة النظر، فلم يستجب طلبهم.

وفي الاحتلال الإسرائيلي، يمارس الدروز كامل حقوقهم كطائفة مستقلة ذات كيان له قوانينه وعاداته الخاصّة[٣].

*****

لم نخرج في هذا الفصل عن العقيدة الدرزيّة، إلا للدلالة، بطريقة أخرى، ومن جهة القوانين الدينية والاجتماعية، على استقلالية الطائفة الدرزية عن الإسلام. في هذه القوانين ما يجعل الدروز الموحدين منذ عهد الانتداب جماعة مستقلّة منظّمة حرّة في مقاضاة أمورها من كل قيد.

*****

(٣) انظر: حليم تقي الدين رئيس المحكمة الاستئنافية العليا الدرزية، قضاء الموحدين « الدروز في ماضيه وحاضره، الطبعة الأولى، سنة١٩٧٩، مطابع لبنان الجديد، عاليه، ٤٤٦ صفحة.

ثانياً ـ الخلْوَاتُ والمقَامَاتُ الدرزيَّة

لا مساجدَ ولا جوامعَ في الدرزيّة. ولئن كان منها شيء فهو « جوامع أثريّة »[١]. ويصرّح بذلك كمال جنبلاط بقوله: « وليس لدينا كنيسة ولا مسجد بالمعنى المعروف للكلمة »[٢]. ومع هذا ما نزال نسمع « دكتور الفلسفة محمّد الزعبي » يقول: « اتّفقت كلمة المؤرّخين على أن جميع قرى الموحّدين... كانت عامرة بالمساجد والجوامع »[٣]... ... ونحن نقدّر له كلمته: « كانت » أمانةً له منّا.

أمّا أمكنةُ العبادة في الدرزيّة فهي على ثلاثة أنواع: المجلس، والخلوة، والمقام. أمّا المَجْلِسُ فهو مكان لصلاة العموم. يوجد منه، أقلّه، واحد في كل قرية أو مجموعة درزية. وأمّا الخَلْوَة فهي مكان خاص بأحد المتديّنين. وهي أكثر ما تكون في مكان منعزل عن الناس، يختلي فيها الموحّد العاقل التقيّ المتعبّد لربّه. وأمّا المُقَامُ فهو مزار مخصّص لأحد حدود الدعوة في ظهوراتهم المتعدّدة عبر التاريخ، أو لأحد الأولياء الصالحين. يأتيه الدروز، بمناسبات سنوية معيّنة، للتبرّك من ترابه، والصلاة على روح صاحبه.

---

(١) انظر: أمين طليع، أصل الموحدين الدروز، ص ١٣٩.
(٢) كمال جنبلاط، هذه وصيتي، ص ٥٣.
(٣) محمد علي الزعبي، الدروز ظاهرهم وباطنهم، ص ١٠٨.

أشهر الخلوات الدرزيّة:

١ً ــ خلوات البيّاضة:

تقع على تلّة مرتفعة، تشرف على حاصبيا وفلسطين والبحر وسهل مرجعيون وقسم كبير من البقاع. تتألّف من عدّة مجالس: مجلس يخصّ دروز لبنان، ومجلس يخصّ دروز حوران، وثالث يخصّ دروز فلسطين، ورابع يخصّ دروز حلب. تتوسّط هذه المجالس الخلوة الأساسيّة المركزيّة التي تقوم أمامها بركة مزورة مبنية من الحجر، ترمز إلى معان دينيّة يعرفها المشايخ الأجلاّء.

تعدّ خلوات البيّاضة المركز الديني المشترك لكل دروز العالم قاطبة. فهي فَاتيكان الدروز وَمَكَّتُهم. فيها يقوم المشايخ بنسخ كتب الحكمة وشروحاتها ــ كلّما فُقِدَ كتابٌ من مجلسٍ ما أو خلوةٍ في مكان ما من المعابد الدرزيّة، يُرسَل عِوَضَه كتابٌ آخر من نسخ البيّاضة ــ. وفيها يمارسون العبادة والزهد والتأمّل. ويحفظون الكتب غيباً، ويتمّمون جميع الفرائض التوحيديّة.

يعيش المشايخ من محصول الأراضي الزراعيّة العائدة لوقف الخلوة. وأهمّ محاصيلها: المزروعات من الحبوب والخضار، وكروم العنب، واللوز، والصنوبر، وسائر أصناف الفاكهة، والعسل. ومن هذه الأصناف اشتهر المشايخ بصنع نوع من الضيافة يسمّى بــ« النقل ».

ولكن، مع انقطاع هؤلاء المشايخ عن الناس، يقومون بين

الحين والحين بزيارات اجتماعيّة وقت الحاجة. فهم بـ« استطاعتهم أن يوفّقوا دائماً بين المتنازعين منهم (من الدروز)، وأن يحسروا نار الحقد والتعصّب البغيض، وأن يخفّفوا من حدّة الأعمال الخطيرة ونتائجها، وأن يغرسوا بذور الوفاق الاجتماعي، ويقوّوا روابط المحبّة ». يخرجون من عزلتهم كلّما دعت الحاجة إلى وفاق بين أبناء الشعب، أو أيّ مصالحة بين متخاصمين، أو إلى تهدئة الخواطر بساعة الهيجان. كلمتهم مسموعة، ورأيهم محترم ومقرّر[٤].

٢ً ــ خلوة القطالب:

خلوة قديمة، ترجع إلى أيّام الأمير السيّد في القرن الخامس عشر. تقع على تلّة صغيرة، مشرفة على عين قنيّة في الشوف. رُشَّتْ جدرانها كلّها باللون الأبيض. فيها يَقرأ المتعبّد الحكمة، ويَطّلع على كل التفسيرات الدينية الضرورية لحياته الروحيّة. تعلو عن سطح البحر نحو ألف متر، سمّيت كذلك لكثرة شجر القطلب المحيط بها. و « الوافدون (إليها) هم في العادة أناس بسطاء سليمو الطويّة ويطمحون إلى القداسة »[٥].

٣ً ــ خلوة عين الشاوى:

تقع في عبيه على مقربة من الكلّيّة الداودية. بناء قديم شبه مهمل الآن، ربّما لوجود مقام الأمير السيّد بالقرب منه والذي يستقطب معظم

(٤) راجع: حافظ أبو مصلح، واقع الدروز...، ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٥) كمال جنبلاط، هذه وصيتي، ص ٥٣.

الوافدين. القيّمون عليها الآن آل فرج من عبيه.

٤ً ــ خلوات المونسة:

تقع على رابية فوق بلدة عرمون في قضاء عاليه. تشرف على البحر ومدينة بيروت. كانت في القديم جملة خلوات لم يبق منها إلاّ واحدة عامرة، والبقيّة آثار وخرائب.

*****

وأشهر المقامات:

١ً ــ مقام شمليخ. ويدعى أيضاً « المقام الشريف »، ومقام « سيّدنا لوقا » ــ الإنجيلي ــ الذي مَثَّلَ في دوره بهاءَ الدين المقتنى. بني هذا المقام تخليداً لذكرى إقامة بهاء الدين ليلة واحدة وهو في طريقه على دمشق. يقع بالقرب من بلدة شارون، إلى الجنوب من الصفا، عند سفح الجبل. مدخله الرئيسي مؤلّف من ثلاث قناطر نُقِشَ على كل واحدة منها ثلاث نجمات. كل نجمة تنتهي بخمسة رؤوس، تمثّل الألوان الدرزية الخمسة والحدود الدينية الخمسة.

يتألّف هذا المقام من سبع عشرة غرفة، وساحة فسيحة تصلها بدرج من حجر منحوت، في وسطها ثلاث شجرات وارفة الظلّ. وفي المقام أيضاً قاعة واسعة بطول ٢٥ م وعرض ١٢ م. فيها حجرة مغطّاة بالسجاد المزخرف، وجدرانها مزنّرة بالعلم الدرزي.

٢ً ــ مقام النبي أيّوب. هو نفسه أيّوب التوراة. يقع المقام فوق بلدة نيحا الشوف، في مكان رائع الجمال غني المناظر كثيف الأشجار، على ارتفاع ١٤٠٠ م. يقوم علـــى قنـــاطر عالية من حجر منحوت. ويتألّف من ساحة رئيسة محاطة من كل جهاتهـــا بعشـــرين غرفـــة صغيرة من الحجارة البيضاء، وفي أعلاها غرفة المقام، تدخلها من باب صغير بعد أن تخلـــع حذاءك من رجليك.

يزوره كل نهار جمعة. ويحتفلون في صيف كل عام بذكرى هي من أحبّ الـــذكريات والعِبَر إلى قلوبهم. ومن تقاليدهم فيها أنّ رئيسَ الجمهورية اللبنانية يُرسِل ممثِّلاً عنه ويُلقي في المحتفلين خطاباً أصبحَ تقليديّاً. وتتوالى خطبُ ممثلي سائر الطوائف الدينية في لبنـــان. كمـــا يشترك بهذا الاحتفال معظم السفراء والوزراء والوجهاء.

وسبب إجلال هـــذه الذكرى وتكريم هـــذا المقام، هو بمـــا يرمز إليه النبي أيّوب من « الصبر والاحتمال » فضيلة الدروز العظمى.

٣ً ــ مقام الأمير السّيّد جمال الدين التنّوخي. يقع إلى الجنوب من بلدة عبيـــه. فيـــه رفات صاحبه وذكراه الطيّب. يؤمّه الزوّار من أصقاع البلاد ملتمسين بركاته فـــي ظـــروفهم العصيبة، طالبين من رضاه « الصبر والاحتمال » ــ لأن الأمير السيّد، كـــأيّوب، ابـــتلاه الله بموت أبنائه وبناته كلّهم في حياته. ــ يغطي أرض المقام سجادٌ مزركش، وتكثر في زوايـــاه الهدايا على مختلف أنواعها من شموع وساعات وأعلام ملوّنة. وهو يُعتبر من حيث المكانـــة كمقام النبي أيّوب.

٤ً ــ مقام عين الزمان (في سوريا). وعين الزمان هو قائم الزمان الإِمام حمزة بن علي. يتألّف من طابقين يحتويان على عدد كبير من الغرف يقع قرب السويداء عاصمة جبل الدروز.

٥ً ــ مقام المسيح (في سوريا أيضاً). يقع في جبل حوران بين منعلة ونمرى والطيبة في منطقة « البجعة ». يُقال إن المسيح التجأ مرّة إلى هذه القمة حيث أقام حلقة سرّيّة مع تلاميذه. والمسيح هو تجسّد العقل، وهو قائم الزمان حمزة. يتألّف هذا المقام من ستّ غرف ومن اسطبل كبير للحيوانات. تعلوه قبّة من ثلاثة أمتار. بناؤه من الحجر، وسقفه مرتكز على قناطر.

٦ً ــ مقام شعيب (في فلسطين). وشعيب هو من « مِدْيَن »، أنكره شعبُه وجحدوا نبوَّته، فهاجر من بلدته إلى فلسطين حيث مات في حِطّين عند سفح الجبل في أعلى طبريّة. يُحتفل بذكراه في ٢٥ نيسان من كل سنة. تُقام فيه الاحتفالات الدينية، وتُنقل إلى العالم بواسطة الراديو والتلفزيون. يتألّف المقام من ثلاث طبقات، ومن حوالي ثلاثين غرفة. في الطابق الثالث منها حجرة النبي المقدسة.

*****

ثالثاً ــ مَشيَخَةُ العَقل

« مشيخة العقل » هي المركز الذي يستعيض به الدروز، اليوم، عن مقام «الإِمامة»؛ أو هي امتداد تاريخي ديني للإِمامة[١] « إن هذه الزعامة الروحيّة الأصيلة ــ على حدّ قول جنبلاط ــ هي اشتقاق معنوي وامتداد تاريخي لفكرة الإِمامة، أي الرشاد والحكمة وسلطة التوجيه والتقويم لمن تكون له. وهي نوعان: ولاية تنظيم ورعاية للمصالح الشرعية والروحيّة الظاهرة للجماعة ولاية القسط فيما بينهم بالعدل؛ وولاية استرشاد بالمثل الأفضل واهتداء بالولاء الأرفع واستئناس بالعرفان الأعلى وبالتوجيه الأصفى والأفضل. والأقرب إلى تمثيل فكرة الإِمامة هو قيام الولايتين ووجودهما وتوحّدهما في الشخص ذاته »[٢].

كان مقرٌ شيخِ العقل محصوراً في لبنان، وصلاحياته تشمل جميع الدروز حيثما كانوا، في لبنان أم في سوريا أم في فلسطين. وفي لبنان، « لم يكن للمشيخة مكانٌ معين خاصٌ بها، فكان مكانُها تابعاً لمكان الشيخ، فالبلدة التي منها الشيخ هي مركز المشيخة، ولذا فقد تداولتْها

---

(١) القاضي أمين طليع، مشيخة العقل والقضاء المذهبي الدرزي عبر التاريخ، المطبعة الانطونية، بيروت ١٩٧١، ص ٧٤.

(٢) كمال جنبلاط في مقدمة كتاب « أضواء على مسلك التوحيد »، ص ١٩...

مناطق جبل لبنان، كما تداولتها مناطق وادي التيم »[٣].

لُقّب شيخ العقل، في الماضي، بعدّة أسماء. فكان يدعى بشيخ العصر، وشيخ العقّال، وشيخ المشايخ، وشيخ مشايخ العصر... يعاونه عدد من المشايخ الذي سمّوا هم أيضاً بشيوخ العقل. وكان عددهم في الغالب أربعة ليتم بهم عدد الحدود الخمسة. يأتمرون بأمر الشيخ الأكبر.

« وقد كان شيخ المشايخ يتميّز بلبس مشلح أبيض ونظافة فائقة. ويصحبه في أثناء تنقّلاته جمهور غفير من الناس، وأينما حلّ كان الشعب يستقبله بالحفاوة والحماسة، وكان السعيد مَن يُتاح له أن يَمسّ ذيلَ جبّته تبرّكاً »[٤]. « وقد تعوّد الدروز منذ القدم أن ينظروا إلى مقام المشيخة نظرة احترام وتكريم. يرون في احترامه احترامَ ذواتهم وفي تكريمه تكريمَ أنفسهم. يلحظون فيه الرمز القائم لعظمة الإِمامة وهيبتها ووقارها »[٥].

« كان الشيخ منذ توليه ينقطع عن كل عمل دنيوي، ويعيش من الهدايا التي كانت تأتيه من مختلف النواحي. وكانت حياته بسيطة منظمة منعزلة خليقة بعاقل يعيش في الزمن القديم. وكانت أعماله روحية... وكان مشايخ العقل يعيشون ممّا يأتيهم من رزق يوصى لهم به. وكان حقّاً لهم أن يرثوا كلَ مَن مات وليس له وارث شرعي. كما أنّ الدروز كانوا في اضطرار إلى الايصاء بشيء إلى أولئك الشيوخ كي ينالوا بذلك رضاهم

---

(٣) عارف أبو شقرا، الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفيّة، مطبعة الاتحاد، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٩٠.
(٤) نفس المرجع، ص ١٩٠.
(٥) نفس المرجع، ص ١٨٨.

وبركتهم »[٦].

استمرّ شيخ العقل واحداً لجميع الدروز حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر، بسبب خلاف نشب بين البشيرين: الشيخ بشير جنبلاط والأمير بشير الشهابي الثاني. وانقسمت مشيخة العقل بين الحزبين الدرزيين الكبيرين، فكان شيخ عقل لليزبكيين وشيخ عقل آخر للجنبلاطيين... وبعد الحرب العالمية الأولى، عند تقسيم الدول العربية، انقسمت أيضاً المشيخة شتاتاً: فكان لسوريا ثلاثة مشايخ، ولفلسطين شيخ واحد، وفي لبنان كان عددهم يتراوح بين شيخين وثلاثة أمّا اليوم فاجتمعت المشيخة في واحد.

« ليس لدينا ثَبْتٌ يوضح تعاقبَ الشيوخ على هذا المنصب شيخاً شيخاً وعهداً عهداً. فهنالك عهود لم يصل إلينا أيّ خبر عن أي شيخ في أثنائها »[٧]. وقد يكون سبب ذلك شدّة القهر على الدروز ممّا جعلهم ينحسرون في وعرهم آخذين بنصيحة بهاء الدين وهي « أن يكون أعظم ما عندهم الصبر والسكوت والسترة »[٨].

هذا القهر توالى عليهم منذ نشأتهم، منذ غيبة الشيخ الأول بهاء الدين المقتنى، واضطهاد الفاطميين لهم، واحتلال الصليبيين لبلادهم، وانتصار السلطان صلاح الدين عليهم، واحتلال المماليك، إلى احتلال العثمانيين الذين قدّموا المعنيين على سائر الأمراء في

(٦) نفس المرجع، ص ١٩٠.
(٧) نفس المرجع، ص ١٨٨.
(٨) منشور نصر ابن فتوح ١٠٧ / ٨٢٨.

أوائل القرن السادس عشر... كل هذه الفترة غامضة جدّاً في تاريخ مشيخة العقل، وإنْ لم تكن غامضة بالنسبة إلى النكبات التي حلّت بالدروز.

*****

ومع هذا، تلمع أسماء بعض المشايخ، في عصور القهر هذه، سنتوقّف عندهم قليلاً لما لهم من أعمال تفيدنا في توضيح العقيدة وتفسير الحكمة واستجلاء ألغاز الدين والتاريخ. نذكر منهم:

١ً ــ الأمير عيسى التنوخي: وهو الجدّ الخامس للأمير عيسى المعاصر للأمير السيّد. عرف عنه جمع كتب الحكمة في ستّة أجزاء، في الجزئين الأول والثاني جمع رسائل حمـزة بن علي وإسمعيل التميمي، وفي الأربعة الباقية رسائل بهاء الدين المقتنى. وعـدد رسـائلها جميعها: مائة وسبع رسائل (١٠٧ لا ١١١ كما هي عليه اليوم. وذلك يعني أن الرسائل الأربع الأولى لم تحسب في عدادها). و « لذلك يكون له فضل كبير على كل موحّد »[٩].

٢ً ــ الأمير عيسى الثاني المعاصر للأمير السيّد. كان يفتنّ بكتابة الحروف وتنميقها حتى شبّهه بعضهم بــ« ابن مُقْلَة » كاتبِ القرآن الأوّل. وقد كلّفه الأمير السيّد فنَسخَ له كتـبَ الحكمة بخطٍ جميل. ولا يزال رجال الدين يغالون بالكتاب الذي يعرفون انّه مخطوط بيده.

---

(٩) توفيق سليمان، أضواء على تاريخ مذهب التوحيد، ص ٢١٩. انظر أيضاً: سامي أبو شقرا، مناقب الدروز...، ص ٥٧.

ويُقال إن الأمير السيّد استكتبه في وضع كتب الشرح. فعليه « يكون لكل من الأميرين فضل لا يُمحى وذكر لا يزول »[١٠].

٣ً ـ الأمير سيف الدين التنّوخي (٧٨٩ ـ ٨٦٤ هـ). « الأمير الخطير والشاعر الكبير والصائغ القدير ». ولد في عبيه. كانت جلّ أشعاره في الغزل والوصف والمديح، فاستدعاه الأمير السيّد وطلب إليه أن يحوّل غزله المادي بالغزل بالعزّة الإلهية ومدح الأنبياء، فنزل عند رغبته. ذهب إلى القاهرة وتعلّم فيها الصياغة وصكّ النقود، ثم عاد إلى عبيه فأخذ يشتري الحلى القديمة ويصكّها دنانير فأثرى، ولكنّه زهد بما أثرى. كان يتجوّل على دابّته بين الموحّدين، وعلى دابّته خُرْجٌ، فيطلب من المحتاجين أن يأخذوا من الخرج حاجَتَهم، ومن الميسورين أن « يحطّوا » في الخرج ما يزيد عنهم. فضُربَ بذلك المثل: « حطّ بالخرج ». ولمّا تحسّنت بذلك أحوال الموحدين وأصبحوا كلّهم مكتفين راحوا جميعهم « يحطّون بالخرج ». وهكذا جعل الأمير من « الخرج » بدايةَ الاشتراكية عندهم، وكان الخرج انطلاقة خيّرة لـ« لحزب التقدّمي الاشتراكي ».

٤ً ـ الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي المعروف بالأمير السيّد ولد سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م وتوفّي سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م. « لعلّ أكبر شخصية علميّة بين الدروز، منذ بهاء الدين المقتنى، هي شخصيّة الأمير السيّد جمال الدين عبد الله التنوخي »[١١]. وقد لا يكون له بين الدروز

(١٠) توفيق سليمان، المرجع المذكور، ص ١٣٣.
(١١) عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين: « الدروز »، ص ٦٤٤.

مثيل، لسعة اطلاعه، وعمق سرّه، وكثرة شروحاته للحكمة، ونزاهة آدابه، وشمول معرفتـــه، وقداسة سيرته، وتجلّده على نكبات الدهر، واستئناسه بالقرآن والإسلام...

ولد في عبيه، و « كان يطوف القرى في طلب العلم والحديث وهو صـــغير الســـنّ، وتورّع يافعاً »(١٢). « جوّد كتاب الله العزيز (القرآن) ودرسه وتلاه غيباً، ولازم الدرس فيـــه حتى انطبعت فصوله وآياته وأعشاره وسُوَرُه وسطوره في قلبه، بحيث لا يغيب عنـــه لفظـــةٌ واحدة »(١٣). وكان يحرّض الأولادَ على حفظ الكتاب العزيز، ويأمر الآباء بأن يجعلوا لأبنائهم جُعلاً على حفظه ترغيباً لهم.

رحل الأمير السيّد إلى دمشق للعلم، وبقي فيها اثنتي عشرة سنة. بعدها عاد إلى عبيه حيث أقبل عليه التلاميذ من مختلف البلاد. وكان متشدّداً معهم في أمور الدين: « فمن خـــالف أو بان منه زلّة يطرده من المجلس، فيشهر أمره أنّه منفيّ، ويكون ذلك عاراً عليـــه. فصـــار لذلك أمر عظيم في قلوب الناس وخوف شديد وهيبة بالغة من غير قيد ولا سجن ولا خـــوف قتل ولا ضرب. ثم جَعَل رسماً على مَن يثبت عليه ذنب من الذنوب العظيمة... ومَن شـــرب شيئاً من المسكرات، أو أخطأ في تصرّفه بوجه آخر، أو ظلم أحداً، أو تعدّى على أحد، ومـــا أشبه ذلك، يمنعونه من دخول تلك المجالس التي رتّبها. فصار ذلك أشدّ هيبة عند الناس مـــن قصاص الحكام بالضرب والقتل، وهابوا مخالفة أوامره أكثر من مهابتهم ســـطوات الملـــوك الدنيوية. وكان الرجل إذا جرى منه ذنب كبير واشتهر

(١٢) عجاج نويهض، التنوخي الأمير جمال الدين...، ص ١١٣.
(١٣) نفس المرجع، ص ١١٣.

عنه ذلك يلزم بيته ولا يجسر على الخروج بين النــاس، حياءً وخجلاً، أو احتســاباً للطــرد والنفي »[١٤].

رزق ثلاثة أولاد وبنات، توفّوا جميعاً في حياته. وكان آخرهم عبد الخالق الذي مات ليلة الاحتفال بعرسه، وذلك برفسة بغلته المميتة. ولمّا بلغ الأميرَ السيدَ مقتلُه، كتَم الأمرَ على المحتفلين والمغنّين، ثم أعلمهم آخر الأمر، وارتجل لهم خطبة في الأمر العصيب.

بعد وفاة آخر أبنائه « كره الدنيا، واشتدّ شوقه إلى ربّه، ثمّ أخذ في تدوين الشروحات، وتبيين السنن والفروض والواجبات، في التوحيد وإقامة الحجة وإيضاح المحجة واليوم الآخر ومعرفة ربّ الأرباب وخالق الأرض والسماوات »[١٥]. ويصف لنا ابن سباط زهد الأمير في أواخر حياته بقوله: « كان يسهر الليل في طاعة ربّه، وينام ثلثه. وكان يجلس أكثر لياليــه لا يشتغل بأمور دنيوية ولا حكايات في غير الحكمة. ثمّ يعظ ويفيد مَن حضر إلى نحــو ثلــث الليل، ثم ينام ثلثه، فينام مَن في المجلس، ثم يقوم الثلث الأخير فيخلو في طاعة ربّه »[١٦].

عُرِف عنه أنّه « أمَرَ بعمارة المساجد في القرى وتجديد الجوامع وإنشاء الأوقــاف... ثم جَلَبَ الفقهاء إلى النواحي، وأقَام الخطب أيّام الجمعات في كل قرية... ثم شدَّد على القراءة الصحيحة في القرآن الكريم »[١٧]. ويستفيد الدكتور عبد الرحمن بدوي من تشدّد الأمير

(١٤) عجاج نويهض، المرجع المذكور، ص ١١٤ ـ ١١٥.
(١٥) عجاج نويهض، المرجع المذكور، ص ١٠٠، نقلاً عن أبي مرعي.
(١٦) عجاج نويهض، المرجع المذكور، ص ١١٤.
(١٧) عجاج نويهض، المرجع المذكور، ص ١١٤.

في حفظ القرآن وفرائض الإسلام ليقول عنه: « إن هذا الأمير العالم الـدرزي الكبيـر كـان يستمدّ علمَه وورعه من أعلام أهل السنّة ويقتدى بهم »[١٨]. ويطمئنّ إلـى « أنّ أحـداً مـن الدروز قد أنكر عليه شيئاً من هذا. وهذا يدلّ دلالة قاطعة على أنّ الدروز ـــ حتى ذلك الوقت على الأقل، أعني في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ـــ لم يسقطوا الفـرائض الدينية، ولم يطّرحوا القرآن، ولم يترخّصوا في ركن من أركان الإسلام، وكانوا يؤدّون الصلاة في أوقاتها، ويؤذّن المؤذّنون في أوقات الآذان »[١٩].

ولكن، إذا علمنا، من ناحية ثانية، أن الدروز، حتى يومنا هذا، يعدّون الأميـر السـيّد قطباً من أقطاب مذهب التوحيد، وأنّ قبره في عبيه، لا يزال مقصد الزيارة والتبرّك من آلاف الدروز في كل عام، وأن شروحاته لرسائل الحكمة تنال عناية فائقة لدى شيوخ العقـل حتـى الآن، وأنّ هذه الشروحات نفسها سرّيّة كسرّيّة الحكمة نفسها... فهذا يعني أن فـي مواقـف الأمير السيّد ازدواجيّة: واحد هو فيه مسلم تقيّ، وآخر هو فيه درزي خفيّ. واحد معلَن، وآخر سرّي. واحد ظاهر، وآخر باطني. وهو ما سمّيناه بـ« التقيّة ».

لقد أخطأ الدكتور بدوي في استنتاجه، ودليل خطأه يثبته بنفسه فـي قولـه بـأنّ الموضوعات التي وضعها الأمير السيّد « تدور كلّها حول موضوعات في الأخـلاق والآداب المعاملات، ولا شأن لها بشيء من

(١٨) عبد الرحمن بدوي، مذاهب الاسلاميين: « الدروز »، ص ٦٤٧.
(١٩) نفس المرجع، ص ٦٤٧ ـ ٦٤٨.

عقائد الدروز في الإلهيات والتوحيد والمعاد. وإذا تصفّحناها وجدناها في آرائها لا تخرج عمّا نجده في كتب الأخلاق والمواعظ والفقه السنّيّة الإسلاميّة، وليس فيها أيّ ظل من تأثير عقائد الدورز الإلهية »[٢٠].

إن خطأ الدكتور سببُه جهلُه بــ« شروحات الحكمة للأمير السيّد. ومن حقّه أن يجهل ذلك لأنّها سرّيّة، ولكن ليس من حقّه اطلاق الأحكام الفاسدة المبتورة الضالّة والمضلّة. ألا يعلم الدكتور أن الأمير السيّد هو نفسه أرسل إلى مصر مبعوثاً ليأتيه بسجلاّت حاكمية فاطمية ليضعها في مقدّمة الرسائل الــ١٠٧ وذلك لأجل التمويه والتدليس. كنّا نظنّ بأنّ الدكتور يعرف أكثر من سواه مضمون رسائل الحكمة، ولكنّه كما يظهر الآن « خَتَم على سَمْعِهِ وقلبه وجَعَلَ على بصره غشاوةً »، على حدّ قول الله تعالى سبحانه عزّ وجلّ[٢١].

ألا يعلم الدكتور أيضاً أن الأمير، عندما استجاب لدعوة أهل بلدته للرجوع إليهم من دمشق، عرضَ عليهم مطالبَه وشروطَه، « فاجتمع الناس لدرسِ مطالبه. ولمّا تُليتْ عليهم وَقَفوا اجلالاً وتقديراً. ولا يزالون إلى اليوم عندما يهمّون بقراءة ما كَتَبَه في شرح بعض الرسائل يقفون جرياً على العادة التي ألفوها. وبعد تلاوة الرسالة (المطالب) رضخوا لمضمونها. من هذه المطالب « حثّ الناس على مجاراة الكثرة فيما يَرغَبونه، ودراسة القرآن الكريم، وقطع المناداة على الأموات في المآتم، ومنع النساء من النواح، وتعليم البنات، وفتح المدارس... »[٢٢]... ألا يعلم الدكتور

(٢٠) نفس المرجع، ص ٦٥١.
(٢١) سورة الجاثية في القرآن ٤٥ / ٢٣.
(٢٢) توفيق سليمان، المرجع المذكور آنفاً، ص ١٤٥.

أنّ « مجــاراة الكثرة » هي دعــوة سيّدنا حمــزة: « استتروا بالمــألوف عند أهله »، وهي « التقيّة »، والمساترة، والمداراة، والمصانعة... وأن في « دراسة القرآن » أضــمن ســلامة لــ« مجاراة الكثرة »!!!

لقد كان الأمير السيّد أكثر حذاقة من الدكتور حتى يجعلَه يظنُّه مسلِماً طيّباً. ولئلا نُتَّهم بالغباوة نقول: لعلّ الدكتور يريد كسبَ الأميرِ السيّد العالم ومَن هم وراءَ الأمير إلى حظيــرة الإسلام!!! الله أعلم. ولكن برهان جهل الدكتور كان أقوى حجةً من حذاقته.

بقي أن نقول كلمة وجيزة للأستاذ سامي أبو شقرا القائــل: « للأميــر الســيد كتــب متعدّدة.. وكل كتاب منها لا يقلّ عن أربع مائة صفحة منسوخة نسخاً ومحظورٌ علــى غيــر العاقل تلاوتُها »[٢٣]. ثم يدعونا إلى شعورنا بالحاجة إلى مثل هذا الأمير والتعرّف إلى آثــاره وأخلاقه والتشبّه به فيقول: « ما أحوج البلد، على مختلف طوائفه وأحزابه، إلى ســيّد مقــدام حصيف يفرض طاعته على كل مواطنيه، ويعمل على إزالة التخلّــف الحضــاري والنزعــة التقدميّة المزعومة... »[٢٤].

نسأل الأستاذ أبا شقرا: كيف يكون البلد بحاجة إلى الأمير، وكيف تكون معرفتُنا بــه، وكيف نتشبّه بأخلاقه، وكيف نحقّق أقوالَه... وجميعُ كُتبهِ « محظور على غيــر العاقــل »؟ واحدة من اثنتين: أمّا سرّيّة شروحات الأمير وبالتالي خراب هذا البلد؟ وأمّا نجاة البلد وبالتالي نشر أقوال الأمير؟... أقلّ ما يقال: إنّنا نطالب بعودة الأمير السيّد إلينا جميعا.

---

(٢٣) سامي أبو شقرا، مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ، ص ٢١٥.
(٢٤) نفس المرجع، ص ٢١٧.

٥ً ــ الشيخ أبو علي مرعي زهر الدين، تلميذ الأمير السيّد. عُرف عنه أنّــه أوفــده الأمير السيد إلى مصر ليأتي منها ببعض الرسائل الدينية، فرجع حاملاً « السجلات الأربعــة التي ألحقها الأمير السيّد بالكتاب الأول من المعلوم الشريف »[٢٥]. مــات فــدفن فــي قريــة الفساقين ناحية غرب الشوف، وله فيها ضريح لا يزال قائماً إلى يومنا هذا.

٦ً ــ الشيخ زين الدين عبد الغفّار تقي الدين. ولد في كفر متى سنة ٩١١ هــ. وتوفّي سنة ٩٦٥ هــ / ١٥٥٧ م. تأتي منزلته في تفسير رسائل الحكمة، بعد الأمير السيد. و « قلّما نجد من خلّف مثله تراثاً دينياً وأدبياً ضخماً. وقد بلغت كتبه المتعلّقة بالدين منزلة عالية جــدّاً يستعان بها في تفسير ما غمض أو أشكل من النصوص »[٢٦].

من مؤلّفاته الهامّة، وهي أيضاً سرّيّة: ١) قاموس الحكمة. وهو يحتوى علــى شــرح مفصّل لرسائل الحكمة[٢٧]. ٢) النقط والدوائر. نشره سيبولد المستشرق الألماني ســنة ١٣١٩ هــ / ١٩٠٢ م. وهو كتاب مخطوط فيه أيضاحات دينية كثيرة. ٣) كتاب مختصر البيان في مجرى الزمان. نشره هنرى غِيْز وترجمه إلى الفرنسية سنة ١٨٦٣.

٧ً ــ الشيخ محمّد أبو هلال المعروف بالشيخ الفاضل. من قرية الشعيرة من أعمــال وادي التيم. رعى الماعز، ثم احترف الزراعة. وكان مع

(٢٥) توفيق سليمان، المرجع المذكور، ص ١٥٢.
(٢٦) أمين طليع، مشيخة العقل...، ص ٨٩.
(٢٧) اسم القاموس الحقيقي: « كتاب المناظرات وبهجة المذاكرات ».

هذه يتعلّم حتى اشتهر بعلمه وفضله. عاصر الأمير فخر الدين المعني الكبير وكانت وفاته سنة ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م في قرية عين عطا قضاء راشيّا. وله فيها مقام يقع غربي القرية. لــه جملة قصائد تُرتّل في المعابد، وفي مناسبات مختلفة: كالزواج والموت... وله في مديحِ صبرِ قومه واحتمالِهم مشقّاتِ هذا الدهر قوله:

الشوقُ أقلقَهــم والخوفُ أحرقَهَم   طوبى لقوم إلى الفردوسِ قد ورَدُوا

والصبرُ قــد اتّخذوا منه مطيّتَهم   نالوا الــذي طَلَبوا بفــوزِهم سَعدوا

اشتهر الشيخ الفاضل بالورع والزهد والخلوة في الجبال واعتزال الناس. واتّخذ الخَشِنَ من اللباس، والجافَّ من الطعام. وتورّع عن كثيرٍ من الملذّات البدنيّة، طمعاً في اللحاق بمَــن تقدّمه من عقّال وصوفيين. كان يلبس الملبوسَ الأزرقَ من الثياب دون غيره[٢٨]. « ولعلّ هذا هو الأصل في اتّخاذ العقال حتى اليوم الأزرق الغامق من الثياب »[٢٩].

٨ً ــ الشيخ محمّد الاشرفاني، مؤلّف كتاب « عمدة العارفين في قصص النبيــين ». ويسمّي رجال الدين هذا الكتاب بــ« المؤلَّف ». وهو من المراجع الأساسيّة في فهم ما غمض من أمور الدين. ولد الشيخ في أشرفية الشام، وعاش، على ما يبدو، في القرن الحادي عشــر الهجري، وذلك من قوله في خاتمة كتابه بأنّه عمل في تأليفه سبع سنين آخرها سنة سبعين بعد الألف (١٠٧٠ هــ).

(٢٨) راجع عجاج نويهض، « التنوخي » حيث يستشهد بـ« آداب الشيخ الفاضل محمد أبي هلال » لأبي علي بن عبد الملك بن الحاج يوسف الحلبي، ص ٢٧٤.

(٢٩) الدكتور بدوي، مذاهب الإسلاميين، ص ٦٥٦.

٩ً ــ الشيخ يوسف بن الشيخ سعيد الكفرقوقي. كان شاعراً فذاً يضاهي ابن الفارض في التصوّف، والمعرّي في نظمه لزوم ما لا يلزم. لقد التزم في قوافيه اتّباع الحروف الهجائيّة، وسمّى كتابه « درر النحور في التوبة إلى الملك الغفور ». وقدّم لكل قصيدة منظومة بمقطوعة نثرية، هي الأخرى تبتدئ بالحرف الذي تبتدئ به القصيدة وتنتهي...

١٠ً ــ الشيخ أبو زين الدين يوسف أبو شقرا. عاصر الأمير يوسف الشهابي الذي تولّى حكم لبنان من سنة ١٧٦٢ حتى سنة ١٧٧٠ م. وكان له معه حادثة شهيرة، وهي: إن الأمير يوسف أحدث ضريبة على الشاشات (والعمائم هي من الشاشات) فاعترض مشايخ الدروز على هذه البدعة، وتوجّه الشيخ لمقابلة الأمير في دير القمر. ولم تسفر المقابلة عن نتيجة. فاحتدم بينهما الجدال. وقال الأمير: إن البلاد لم تعد تتسع ليوسفين، أجابه الشيخ: « المَزْرُوك يَرْحَل »، أي المتضايق يرحل. وخرج الشيخ غاضباً وهو يسمع الأمير يقول: « إنّني سأحمّي أفرانَ دير القمر بشاشات العقّال ». وصل الشيخ إلى بعقلين ودعا الدروز إلى القتال، فاجتمع لديه في مرج بعقلين سبعةُ آلاف مقاتل. وركب بغلتَه وسار أمام الثائرين نحو دير القمر، وهو يردّد صلواتِ الحرب. فلمّا علِم الأميرُ يوسف بالأمر، همّ بالفرار. غير أنّ آل نكد سَعَوا بالصلح وأقنعوا الأميرَ بالرجوع عن قراره، والدروزَ بالعودة إلى ديارهم... إلاّ أنّ الأمير حَقَد على الشيخ وأضمرَ له الشرّ، لكنّه أظهر له غيرَ ما يُضمر حتى قرّبه إليه. فاطمأنّ الشيخُ، وقَبل، في أحد الأيام، دعوةَ الأمير إلى الطعام. وفي الطعام دسّ له السمّ فمات... ولكنّ الدروز لم يبيتوا على ضيم، فدبّروا للأمير وشاية لدى حاكم عكا الذي أماته شنقاً.

١١ً ــ الشيخ علي جنبلاط جدّ الشيخ بشير (+ ١٧٧٨ م) عاصــر الأميــر حيــدر الشهابي والأمير ملحم والأميرين الشقيقين منصور وأحمد، ومات في نهاية عهد الأمير يوسف الشهابي.

وبانتقال الإمارة من المعنيين إلى الشهابيين عمد الأمير ملحم على قسمة الدروز بــين جنبلاطيين ويزبكيين. فانقسمت بالتالي مشيخة العقل بين الشيخ علي جنــبلاط والشــيخ عبــد السلام يزبك العماد.

واستمرّت المشيخة مشيختين في لبنان إلى أن اجتمعا من جديد في الشيخ محمّد أبــو شقرا من عمّاطور، الذي ولد سنة ١٩١٠، وتولّى المشيخة سنة ١٩٤٩. وبوفاة الشيخ اليزبكي رشيد حمادة، استقلّ أبو شقرا وحده منصب مشيخة عقل الموحدين.

*****

خاتمة الكتاب

يَومَ تُكشَفُ الأَسرَارُ

مَجْدُ التَقِيّة يومَ الكشف

مَجْدُ التَّقِيَّة يَوْمَ الكَشف

« ... وسوفَ أَعقِد مؤتَمراً صحافياً أذيعُ فيه أسراراً ووثائقَ عن محاولاتِ إسـرائيل لإنشاءِ دولةٍ طائفيةٍ تضمّ جنوبَ لبنان وجزءاً من الشوف والبقاع الغربي مع الجولان المحتلّ. إن محامياً لبنانياً كبيراً قد دعي إلى روما لمقابلة رئيس الاستخبارات الإسرائيلية، وقد قابلـه بالفعل، واطّلَع على ذلك المخطط الرهيب، فأَطْلَعَ عليه بعضَ الجهاتِ اللبنانيّة والسورية. وتمّ إحباطُ المكيدة حينذاك »[١].

هذا الكلام هو لنقيب الصحافة اللبنانية رياض طه الذي دعا يومذاك إلى اجتماع مغلَق عُقِدَ في ٢٢ أيّار سنة ١٩٧٣ في دار النقابة. لقد ذهل الحاضرون، وراح ينظر الواحد الآخر، ويريد مزيداً من المعلومات والإيضاحات والأسماء، فلم يكشفِ النقيبُ عن شيء منهـا، بـل وعدهم خيراً في اجتماع مغلق آخر يكون فيه الحاضرون أكثرَ جَلَداً وأصلبَ أَعصاباً. وبقيتِ الأسرارُ في بطنِ النقيبِ لم تُكشَفْ لشرٍّ يَحْدُث.

إلاّ أنّنا، والشرُّ الكبيرُ على النقيب قد حَدَث، سنوافيكَ بما لم يستطيعِ النقيـبُ الشـهيدُ إعلانَه:

---

(١) فاضل سعيد عقل وأنطوان جرجي الجبيلي، وقائع الحرب في لبنان ١ / ٣١٤.

« بتاريخ ١٦/١٠/١٩٦٧، اتّصل كمال كنج هاتفياً من روما بكمال أبو لطيف (المحامي اللبناني الذي أشار إليه رياض طه) إلى منزله في عيحا ـــ راشيا. وطلب إليه أن يوافيه إلى روما لأمر هامّ... اعتذر أبو لطيف لأنه كان قدماً حديثاً من أمريكا اللاتينية حيث زار أخوته هناك، وأن الناس يأتون للسلام عليه، ووعدَه بالسفر بعد حوالي أسبوعين.

« اتّصل الكنج عدّة مرّات هاتفياً بأبي لطيف على رقم مكتبه أو منزله في بيروت يلحّ عليه بأن يحضر إلى روما. فتذرّع أبو لطيف بضيق الوقت لا سيّما وانّ السنة القضائية كانت في مطلعها. فظنّ الكنج انّ نفقات السفر هي التي تُعقيه، فقَطَع لأبي لطيف تذكرةَ سفرٍ من روما. وأُبلغتْ لشركة أَليطَاليَا بَرقياً. وهذه اتّصلتْ بأبي لطيف وأخبرتْه بالأمر. فعيّنَ أبو لطيف موعداً للسفرِ بعد أن اطّلعَ على بطاقة سفرِه من بيروت إلى روما وبالعكس.

« استقبل الكنج أبا لطيف في مطار روما، ثم انتقلا معاً إلى « بانسيون فرانشيسي » في شارع « ڤِينيتو » قرب متحف « بوركيزي »، حيث حُجزتْ غرفة لكمال أبي لطيف، بينما كان الكنج يمكث في فندق أقل شأناً من « البنسيون ».

« قال الكنج لأبي لطيف بأنّ اليهود منذ احتلوا محافظة القنيطرة وهم يحاولون بشتّى الوسائل التقرّب من الدروز في الجولان، وخاصّة مع بيت الكنج في مجدل شمس، باعتباره المتنفِذ الأوّل في المنطقة... وقد قام عدد من الضباط اليهود بزيارة كمال الكنج في منزله،

وكذلك زاروا الشيخ سليمان الكنج ابن عمّه...

« وتردّد الضباط اليهود، من نساء ورجال، لمجدل شمس. وكانوا يحلّون في دار الشيخ سليمان الكنج باعتباره ابن دار زعامة المنطقة وصاحب العباءة التقليدية... وبقيت مجدل شمس مدّة شهرين لا تخلو يوميّاً من عشرات الزائرين من دروز فلسطين... وقام عدد من الوزراء بزيارة مجدل شمس أيضاً، منهم « موشة دايان » و « ألون »... ثمّ بدأ يُقبِل عليهم ضبّاط من المخابرات الإسرائيلية...

... وابتدأ الدروزَ يشعرون أنّ أمراً خطيراً سيحدث... وعمد الزائرون على الافصاح عن مهمّتهم وغرامهم بزعماء مجدل شمس الروحيين والزمنيين. وعرف هؤلاء « أن الغاية من ذلك فصلُ الدروز عن الإسلام لأنهم لا يمكن أن يتعايشوا وإيّاهم »...

« وعندما أبلغت المخابرات الإسرائيلية بقبول بعض الوجهاء الدروز بالتعاون معهم سُرَّ اليهودُ لذلك كثيراً، وأَخَذوا يكثِرون من التردّد على مجدل شمس، ويُسْدون الخدمات للناس، ويُنفّذون المطالبَ بسرعة مذهلة. وبدأ تنفيذ المخطط إذا انتُدِب كمالُ الكنج للاتصالِ بدروز سوريّا ولبنان، بعد أن وُضعتْ قوائمُ بأسماء الوجهاء الدروز الذين يُمكن التعاونُ معهم وطريقةُ اصطيادهم. ولذلك ذهب إلى روما « بمهمّةٍ كعضو في لجنة إسرائيلية تدرس مع السلطات الإيطالية موضوعَ تصريفِ الفاكهة من إسرائيل، متّخذين من كون مجدل شمس بلدةً غنيّة بالفاكهة ذريعةً لوجودِ كمالٍ في اللجنة. كما أشاعَ كمال، قَبْل مغادرته مجدل شمس بأنّه سُيداوي عَينيه لدى أطبّاء في تل أبيب، وقد يُضطرّ

لعرضها على اختصاصيين خارج إسرائيل.

« وبذلك حضر كمال كنج إلى روما برفقة ضابط مخابرات إسرائيلي (من الشِّيْنْ بِتْ) تحت اسم « يعقوب ». ويصف كمال أبو لطيف يعقوبَ هذا فيقول إنّه رجل متوسِّط القامة، أحدب، يُتقن اللغةَ العربية. وكان كمال الكنج قد اقترح الاتصال بكمال أبو لطيف وهو ضابط سابق في الجيش السوري، وقريب له. ووافقت المخابرات الإسرائيلية على ذلك بعد أن قامت بجمع المعلومات عنه.

« ولذلك استدعي أبو لطيف إلى روما، واجتمع مع كمال الكنج الذي أخبره بالمخطط، واتّفقا على ابلاغ الجهات العربية المعنيّة بالطريقة التالية:

١ً ــ يقوم كمال أبو لطيف باعلام كَمَال جنبلاط بالأمر، ليقوم بدوره بإعلام السلطات اللبنانية وغيرها من السلطات العربيّة التي يجد من المناسب إعلامها.

٢ً ــ يقوم كمال أبو لطيف، بعد أخذ موافقة جنبلاط، بإعلام السلطات السوريّة.

وبعد أن عاد كمال أبو لطيف ونفّذ ما اتّفق عليه، طلب منه متابعة الاتصال مع المخابرات الإسرائيلية. فسافر مرّة ثانية إلى روما، واجتمع بــ« يعقوب » وكمال الكنج... »

« واتّضح، لأبي لطيف، المخطّطُ على الشكل التالي:

مشروع الدّولة الدّرزيّة:

ً١ ــ حدود الدولة الدرزية: تمتدّ هذه الدولة من جبل الدروز إلى الشــاطئ اللبنــاني محيطة بإسرائيل. وتشمل: القنيطرة، وقضاء قطنا، وضواحي دمشق (بعض قــرى الغوطــة الدرزيّة)، فقضاءي حاصبيّا وراشيّا، ثم الشوف، وقضاء عاليه حتى خلده، بما في ذلك بلــدة الشويفات.

ً٢ ــ عاصمة الدولة الدرزية: ومن المقرّر أن تكون السويداء أو بعقلين عاصمة هذه الدولة. وذلك حسب أيٍّ مِن دروز لبنان أو سوريّا يكونون أكثر تعاوناً مع إسرائيل.

ً٣ ــ علَم الدولة: هو العلم ذات الألوان الخمسة الذي وضعتْه فرنسا للدولة الدرزيــة بعد تقسيمها لسوريّا.

ً٤ ــ السكان: يكون المسلمون السنّيون والشيعة في لبنان الجنوبي وكذلك في حوران والبقاع الغربي مخيّرين بين البقاء كأقليّة لا شأن لها ضمن الدولة الدرزيّة أو الرحيــل. أمّــا المسيحيون فلا ضير من بقائهم. ويمكن إشراكهم في الحكم كأقلية.

ً٥ ــ المقوّمات الاقتصادية: هي مضمونة من قِبل إسرائيل، بتعهدات أميريكيّة. يصبح ميناء صور ــ بعد تطويره ــ الميناء التجاري للدولة، ويبقى ميناء صيدا لتصدير النفط.

ورصدت أميركا ٣٠ مليون دولار للبدء بتهيئة الأجواء للتنفيذ.

طريقة التّنفيذ:

ًا ــ تحت ستار مقاتلة الفدائيين الفلسطينيين تقوم القّوات الإسرائيلية باقتحام واحتلال المناطق التي يتواجد فيها الفدائيون. ثمّ تقوم قوّات أخرى باحتلال جنوبي لبنان حتى صيدا. وتتوجّه في الوقت ذاته قوّات مدرّعة إسرائيلية خارقة الجبهة السورية على محور درعا ــ أزرع ــ السويداء، وعلى محور القرى المتاخمة للحدود السورية الأردنيّة.

ً٢ ــ تقوم حركات « سلبيّة » ضدّ الجيش الإسرائيلي المحتلّ، فيشجّعها اليهود سرّاً ولا يقمعونها بعنف، إلى أن تبلغ من القوّة ما يكفي ظاهرياً لنشوب معارك بين الفريقين، يكون النصر فيها للدروز المحتلّة مناطقهم.

ً٣ ــ في تلك الأثناء يكون الاتفاق قد تمّ مع عدد من زعماء الدروز على الصمود في مناطقهم والمحافظة عليها، كي لا تعاد إلى سوريا ولبنان، تمهيداً لإنشاء كيان سياسي مؤلّف من هذه المناطق « المحرّرة » يتمتّع باستقلال تامّ.

ً٤ ــ تتكفّل أميركا بحماية هذا الكيان عن طريق إسرائيل، كما تتكفّل أميركا بالاعتراف فوراً بهذا الكيان السياسي، وبأن تدفع الامم المتحدة والدول الغربية السائرة في فلكها للاعتراف به. وتكون إسرائيل بذلك قد كسبت « حزاماً واقياً لها » (حسب تعبير يعقوب)، يقيها شرّ الاعتداءات العربية، إنْ من الجيوش النظاميّة أو الفدائيين.

ً٥ ــ بعد إنشاء الدولة الدرزية تقوم أميركا بالعمل لجعل

لبنان وطناً قوميّاً مسيحيّاً، وتقيم دولة علوية في اللاذقية، ودولة كرديّة في شمال سوريا تتعاطف فيما بعد مع حركة البرزاني، فتقلّص الجمهورية العربيّة السوريّة إلى سوريا الداخلية وتشلّ قدراتها.

ونفّذ كمال أبو لطيف المهمّة، فتمّ إبلاغ كمال جنبلاط وشوكت شقير والسلطات اللبنانية والسورية. ونقلت المعلومات إلى الجمهوريّة العربية المتّحدة (إلى عبد الناصر مباشرة)، وكلّف عبدُ الناصر الضابطَين: أكرم صفدي وهيثم الأيّوبي بنقل هذه المعلومات إلى السلطات العراقية بغيةَ حثِّها على تكوين الجبهة الشرقيّة، ثمّ استدعي أبو لطيف إلى بغداد للاستفسار منه عن بعض التفصيلات[٢].

*****

ولكن، إثر اكتشاف هذا المشروع، قطع أبو لطيف اتّصالاته بالمخابرات الإسرائيليّة خوفاً على سلامته، وألقي القبض على كمال الكنج، وحكم عليه بالسجن... واستمرّ عضو الكنيست الدرزي « جَبر معدى » يعمل باتّجاهه، فعَقَدَ يوماً « اجتماعاً صحفياً بمفرده، دعا فيه إلى ضمّ هضبة الجولان لإسرائيل. واعترف أنّ أمنيتَه هي أن تقوم دولة درزيّة تضمّ لكل الدروز، وتكون عاصمتها السويداء ». وعندما استهزأ الصحافيّون بأقواله، أعلن: « إن اليهود أيضاً أرادوا قبل مئة سنة أن تكونَ لهم دولة، وإذا ذاك ضُحِكَ منهم أيضاً »[٣].

---

(٢) انظر كتاب « الدروز في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي » لغالب أبو مصلح، منشورات مكتبة العرفان، بيروت ١٩٧٥، ص ٢٤٧ ـ ٢٥٢.

وبعد مدّة، طالب « جبر معدى »، وكان نائباً لوزير الاتّصال، بقيام « وكالة درزيّة » على غرار الوكالة اليهودية، « تهتمّ بالهجرة والتوطين، وتجمع النقود من ثمانين ألف درزي يعيشون في المهجر »، للبدء بانشاء دولة درزيّة مستقلّة[٤].

*****

إلاَّ أنّ « جبر معدى » لم يكمّل شوطَه، فقتله أحدُ عربان فلسطين في أوائل شهر شباط سنة ١٩٨١... وكمال جنبلاط أيضاً لم يرَ لجهوده ثمرةً، فقُتل هو الآخر في ١٩٧٧/٣/١٦... وكمال الكنج قُطِعتْ عنه، بعد خروجه من السجن، كلُ زيارة من أيّ درزي... وكمال أبو لطيف فَرَّ بنفسه من ملاحقة الاستخبارات العاملة لإسرائيل... وشوكت شقير عُزل من منصبه... وسليمان الكنج يُدلي بشهاداته على المضايقات الإسرائيلية[٥].

مَن كان وراء كل هذه المُلاحقات!؟ لم يَعدْ في الأمر سرٌّ. ولماذا استمرار حرب لبنان؟! ألِإخْتِلافٍ بين طوائفه؟ أم لأجل إنشاء دولةٍ فلسطينيةٍ على أرض لبنان؟! أم لأجل امتيازاتٍ مسيحية مارونيّة؟! أم لأجل غُبْنٍ يَلحقُ بسنّة الإسلام؟! أم لأجلِ حرمانٍ عند الشيعة؟! ... في ظنّنا أن كلّ هذه فقاقيعُ تطفو على سطح المياه، ومواضيعُ تمويه طمساً للحقيقة... أمّا الحقيقةُ فهي في مخططٍ لم يُحْكَ عنه بعدُ كِفايةً. ابحثْ عمّا يربحُ اسرائيلَ وقلْ مع أرشيميد: « أورِيكَا »، أي « وجدتُها ».

---

(٣) جريدة الاتّحاد، ١٦ / ٨ / ١٩٦٨، نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢٥٣.
(٤) جريدة الاتّحاد، ٢١ / ٧ / ١٩٧٢، نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢٥٤.
(٥) جريدة العمل البيروتيّة، ٢٥ / ٢ / ١٩٨١.

هذا المشروع الإسرائيلي هو استمرار لمحاولات عديدة سبقته في التاريخ. وكلّها تضرب على وتر « إن الدروز لا يمكنهم أن يتعايشوا مع المسلمين ».

ففي مخيّم عكّا ١٧٩٨/٣/٢٠، أعلن الامبراطور نابليون بونابرت للأمير بشير: إن « رغبتي المخلصة هي أن أقيم للدروز استقلالهم، وأعطيهم مدينة بيروت ذات المرفأ كمركز تجاري لهم »

الامضاء

نابليون[٦].

وأجاب الأمير بشير، لا برسالة، بل بـ« قوّة من الخيّالة الدروز لنجدة نابليون بينما كان يحاول اخضاع عكّا، تحت إمرة الشيخ عمر الظاهر. وكان ذلك في آذار سنة ١٧٩٩»[٧].

وفي زمن الانتداب قسّمت فرنسا برّ الشام إلى خمس دول « ذات سيادة كاملة »: دولة لبنان، دولة دمشق، دولة حلب، دولة جبل الدروز، دولة جبل العلويين. وعرفت « أنّ هذه الدول تتألّف من شعوب مختلفة، لا جامع بينهما. لا تشدّها أواصر واحدة، ولا تجمعها أيّة مصلحة مشتركة »[٨].

لقد عرف دروز إسرائيل هذه الحقيقة واعترفوا بها وأعلنوها على صفحات الجرائد. فقال « شريف مهنّا » ــ من البقيعة ــ: « نعيش نحن

---

(٦) BOURON, Capitaine N. Les Druzes, Histoire du Liban et de la Montagne Houranaise, Paris, 1930; Trad. angl. Par MASSY, 1952, p. 51-52.

(٧) Ibid., p. 52-53.

(٨) Ibid., p. 137-138.

أبناء الطائفة الدرزيّة أقلّية صغيرة ذات عقيدة دينيّة وطقوس وعادات تختلف عمّا لدى الشعوب والطوائف الأخرى »(٩). وينقل سلمان فراج عن لسان فلاح عجوز هذه الحقيقة: « أسمعوا يا شباب! صحيح إنّني فلاّح بسيط، لكن بودّي أن أبدي رأيي: لقد كان دروز سوريا هم الذين أشعلوا الثورة على الفرنساويين وخسروا، وضحوا في سبيل استقلال بلادهم أكثر من غيرهم بكثير. ولكن، عندما جاء الاستقلال، خسروا ثمرة تضحياتهم وخسروا مركزهم واحترامهم، لأنهم لم يدركوا أنّهم أقليّة، وأنّهم رضوا لم أبوا فهم دروز، يعني دروز، لا يحق لهم أكثر ممّا يسمح به وزنهم العددي »(١٠).

ويعلّق أحد الباحثين الاجتماعيين الإسرائيليين على هذه الظاهرة الأقلّيّة: « إنّ الدروز هم أقليّة صغيرة، حتى أنّهم طيلة تاريخهم كان همّهم الأساسي تقرير مَنْ هي القوّة الأكبر ليتحالفوا معها ». ويَنقلُ رأيَ أحدِ مشايخ العائلاتِ الدرزيّة الذي يبلغ الرابعةَ والتسعين من سنّيه، قال لـه: « في رأيي، كل مَنْ يَتركك تعيش، وموجود في السلطة، يجب أن ينالَ دعمَكَ »(١١).

*****

هذا الوعي الدرزي عَرفتْه إسرائيل وأَدركتْه، وهي تسعى لتساعد، كالأمِّ الرؤوم، أقلّيّةً مقهورة، ظلمَها العالَم بأسره، واضطهدَها كلُ صاحبِ

(٩) مجلّة الهدى، ٣٠ / ٥ / ١٩٦٩.
(١٠) نفس المرجع، العدد ٥، ص ٣٥.
(١١) Alfred FRIENDLY, Minority Rights Group, Report №. 12, Aug., 1972, London……

سلطان. إسرائيل تعرف، والدروز سوف يعرفون بأنّ سرَّ حكمتهم لن يدومَ إلى الأبــد ســرّاً. فأصحابُ المطابع يقتنصون المخطوطاتِ من تحت الأرض، وأصحابُ دور النشر يســيّرونها إلى أقطار الدنيا. والعلم لم يعد احتكاراً على أصحابه ومستحقّيه. فلا ذريعة، بعــد اليــوم، أن ليس بمقدور أحد، غير بني معروف، معرفة مضامين الحكمة وأسرارها وألغازهــا وألوانهــا ونقطها وتآويلها ورموزها...

قَبْلَهم، عرفت إسرائيل ذلك، وراحت تعمل لأجلهم، بالرغم عنهم، أحياناً، وبرضــاهم، أحياناً أخرى. تعمل لمصلحتهم، كما تعمل مصلَحتها. ومصلحتها الكبرى أن تتعاون مع هؤلاء. وهي تعمل. هي تعرف أنّ أفضلَ جار لها هم الدروز. هؤلاء، إنْ اُكتشفتْ حقيقتهم، لن يكونَ لهم عونٌ إلاّ من إسرائيل. فهم، كجيران لها، أقــلّ خطــراً مــن المســلمين والفلســطينيين والمسيحيين والعرب والعجم... لأنّهم محدودو العدد، لا يتكاثرون ولا يتزاوجــون مثنَــى أو ثلاث أو رباع، ولا مصلحة لهم فيما وراء البحار أو مع سكّان البوادي. يكتفــون بمــا لهــم. ويصبِرون. ويتحمّلون. وينامون. ويبقونَ كهم حيثُ هم ومِن حيثُ هم.

*****

وفي الختام، نريد أن تسمعَ صوتَ الشهيد كمال جنبلاط الذي قال بنظريّة « تتمتّع بها كلّ أقلّيّة مذهبيّة أو اتنيّة في أن تراجع الأمم المتحدة بشأن كيانها ومصيرها، استناداً إلى الحقّ الطبيعي والحقّ الدولي وشرعة حقوق الإنسان »[١٢].

قد لا يحقّ لنا أن نسمعك صوتنا بعد هذا الصوت الجنبلاطي الدرزي الغيور. ولكنّنا نريد براءة من القارئ الذي قد يسيء فهم مقصدنا. نريد براءة من الضمير الذي، إذا كنّا أسأنا إلى إنسان، يتبرّر بحسن نيّتنا. ونيّتنا أن نخدم الإنسان، أيّ إنسان.

لن نجرؤ القول بأنّنا خدمنا الحقيقة، ولئن كان قول الحقيقة في وكدنا. بل نجرؤ أكثر في قولنا بأنّ مقصدَنا كان الإنسانَ نفسَه: بما صنعنا للإنسان نريد أن نُحَاسَب، لا بما صنعنا بالله والحقيقة والحكمة والمبادئ والدين والعقيدة...

كان همّنا أن نقول كل شيء ليعرفَ إنسانُ هذا الشرق أنَّ كلّ شيء يُبنى على المعرفة؛ وكان همّنا أن نقولَ بصراحة لأنَّ الكَذِبَ، عندنا، أصبحَ « ملحَ الرجال »، ولأنّ الحقيقةَ أصبحتْ موجودةً في ما لا يُقال؛ وكان همّنا الأمانة لأنّ خطورةَ الموضوع تقتضيها لا محالة.

*****

وربّ معترض علينا يقول: « إنكم أظهرتم التوحيدَ قبلَ أوانه، وكَشفتُم ما لم تُؤمَروا به بكشفِه »[١٣]. وربّ قائل أيضاً: « إن الحقَّ معكم فيما قلتم، لكنّكم أذعتموه في غير وقتِه، واستعجلتُم »[١٤]... نجيبُ بما أجاب به بَهَاء الدين المقتنى: « إنَ هذا الوقتَ هو دورُ القيامة؛ وفيه كشفُ المذاهب، شاءَ العوالمُ ذلكَ أم أبوه »[١٥].

---

(١٢) كمال جنبلاط، لبنان في واقعه ومرتجاه، الندوة اللبنانيّة، ص ٦٧.
(١٣) رسالة إيضاح التوحيد، ٧٤ / ٦٥٢.
(١٤) نفس المرجع، ٧٤ / ٦٥٢.
(١٥) نفس المرجع، ٧٤ / ٦٥٩.

المصَادر والمَراجع

أوّلاً ــ المرجع الأساسي

١) رسائل الحكمة، تأليف حمزة بن علي بن أحمد، إسمعيل بن محمّد التميمي، بهاء الــدين علي بن أحمد السّموقي، ستّة أجــزاء في ثلاثة مجلّدات، سنة ١٤٠٠ هــ. في بدايتهـــا « مقدّمة » في مواجهة سرّ الحكمة والمخطوطات وتصنيف الرسائل ومختصر العقيــدة وتفسير بعض الألفاظ المستعصية. في مقدمة كل رسالة لمحة وجيزة عــن موضـــوعها وتاريخها. وفي أسفل كل صفحة بعض الشروحات والتوضيحات والمراجع القرآنيّة. وفي آخر كل مجلّد صُوَرٌ عن المخطوطات. تقع المجلّدات الثلاثة في ٨٣٦ صفحة.

ثانياً ــ مخطوطات في شرح الحكمة

٢) ميثاق يعني حجّة ورباط على الخلق. مخطوط رقم ١٤٣٦ في المكتبة الوطنيّة ببـــاريس. ٧٩ ورقة. وهو شرح لقسم من « ميثاق وليّ الزمان »، رقم ٥ من « رسائل الحكمة ». قد يكون للأمير السيّد التنّوخي.

٣) « الجوارح السبع ». مخطوط رقم ١٤٣٨. ١٢٣ ورقة. فيه معالجة لجــوارح الإنســـان السبع، وهي اللسان (٢ أ ــ ١٠ ب) والعــين (١٠ ب ــ ٢٢ أ) والأذن (٢٢ أ ــ ٢٥ أ) واليد (٢٥ أ ــ ٢٦ ب) والرجل (٢٦ ب ــ ٢٨ أ) والبطن (٢٨ ب ــ ٦٦ ب) والفــرج (٦٦ ب ــ ١٢٢ ب). ولعلّه للأمير السيّد جمال الدين التنوخي.

٤) تفسير « الموسومة بكشف الحقائق »، للأمير السيّد. يقع في ٧٩٦ ص. وهو تفسير واسع لمجمل الرسالة رقم ١٣ من الرسائل. وتشرح مجمل العقيدة الدرزيّة شرحاً وافياً عميقاً.

٥) مخطوطات رقم ١٤٣٩ بباريس. وهو جزء من « تفسير كشف الحقائق ». من ص ٢ أ حتى ٦٩ أ. وهو يؤلّف الجزء الأخير من التفسير، أي من ص ٧١٩ حتى ٧٩٦. ويتضمّن أيضاً:

* أسباب المناداة الخمسة، ص ٦٩ ب.

* وفصول « عن إمام العارفين وحجة الطالبين ومنهل الواردين وزين العابدين وأزهد الزاهدين وكنز المجتهدين دنيا ودين، وحيد عصره وفريد دهره، الأمير العالم العامل الراجع الكامل جمال الدين ». وهي تفسير لبعض آيات الحكمة مأخوذة من رسائل شتّى: ٧٠ أ ــ ٩٢ ب.

* و « تعيين الفصول التي شرحها الشيخ شرف الدين ابن المرحوم الشيخ بدر الدين، وهو دون ثماني سنين، وأكثرها من فكره بغير نقل ». وهي أيضاً شرح لبعض آيات الحكمة: ٩٢ ب ــ ١٠٠ أ.

* و « دعاء مبارك للشيخ الفاضل »: ١٠٠ ب ــ ١٠٢ ب.

* وللشيخ الفاضل أيضاً: صباحيّات: ١٠٢ ب ــ ١٠٥ ب.

* دعاء آخر: ١٠٥ ب ــ ١٠٦ أ.

* ودعاء اسمه « تحويطة »: ١٠٦ أ ــ ١٠٦ ب.

* وشروحات على آيات من رسائل الحكمة: ١٠٧ أ ــ ١٠٩ أ.

* وذكر معرفة الأربعة وخمسين فريضة توحيدية: ١٠٩ ب ــ ١١٤ ب.

* وله أيضاً شعر: وحكم مأثورة: ١١٤ ب ــ ١١٦ ب.

* وذكر معاني متفرّقة من الحكمة: ١١٦ ب ــ ١٢١ أ.

* وذكر أسماء الحدود الطاهرين والمشايخ المحمودين وأكابر المرتـدّين: ١٢١ ب ــ ١٢٧ ب.

* « من فضائل السيّد الأمير » نصائح وحكم مأثورة: ١٢٧ ب ــ ١٣٠ ب.

* أشعار عن المعاد الأخير: ١٣٠ ب ــ ١٣١ أ.

* وذكر طرف من سيرة الشيخ العالم العامل المفضال المرحوم الشيخ أبي هـلال (+ ١٠٥٠ هـ) ومن تعاليمه عن الأمير السيّد: ١٣١ ب ــ ١٣٢ ب.

٦) « تعيين أسماء الفصول المستشهدة من التـوراة ومن الـزبور ومن الإنجيـل ومـن القرآن ». مخطوط رقم ١٤٤٠. ٩٦ ورقة. وهو جزء من « تفسير كشف الحقـائق » من ص ٨٨ ــ ٢٠٧.

٧) « ذكر معرفة الشرور السبعة »، وهي: الزنا والفسق والقتل والسرقة والرغبة والغـش والحمق. مخطوط رقم ١٤٤١. مؤلّف من ورقتين.

٨) « مختصر البيان في مجرى الزمان ». مخطوط رقم ١٤٤١: ٨٠ ورقـة. هـامّ فـي معرفة جميع الأدوار والظهورات والحدود الروحانيّة.

٩) مخطوط رقم ١٤٤٨ وهو « قصيدة تشتمل على ذكر الأزمان الماضية والقرون الخالية. بها ذكر الأنبياء والخلفاء والحكماء والفلاسفة والعابر والغابر والقفار والبحـار وغيـر ذلك ». ١٦٢ ورقة.

١٠) كتاب النقط والدوائر. « وهو من كتب الدروز الدينية. نقله خْرِيْسْتْيَان فرِيدِرِخ سَـيْبُلد الألماني. وفي ذيله نبذة من شرح البيان في ذكر البدعة ومجرى الزمـان، والرسـالة الموسومة ببدؤ الخلق، والرسالة الموسومة بكشف الحقائق ». الطبعة الأولى ١٩٠٢ في مطبعة شْمِرْسُو

في كِرْخهَاين من مدن لوسَاصيْا السفلى. والكتاب من تأليف الشيخ زين الدين عبد الغفّار تقي الدين من بعقلين ٩٦٠ صفحة.

١١) « مصحف المنفرد بذاته ». من ٢٧٠ صفحة. جاء في وصفه: هذا المصحف هو « نور صراط المستقيم. وهو مسوق إلينا، معروض علينا، دان إلى أفهام قلوب ألبابنا، عال بأسراره وأنبائه، لا يُمَلُّ مِن تِلاوته، ولا يُنْزَفُ مِن حلاوته. ظاهرُه أنيق، وباطنه عميق، قريبه حكْم وبعيده علْم... هو الكل والبعض، والجمع والفرق. به تبدّل الأعيان، ولا عدّة إلاَّ به، والجميع إليه » ص ٤ ــ ٥. ذكره قائم الزمان حمزة في رسالة رقم ١٧ ص ١٨٦ مرّتين على انّه من تأليفه.

١٢) « سجلّ سرائر الأوّل والآخر، والظاهر والباطن، والحق والنور، والأرض والسماء، والنار والماء، والمَعَاد والمَعَاش، ومعالم الأكوار والأدوار، وأنباء الأدوار وتهاليج الأكوار ». تزيد صفحاته على ألف صفحة. « وهو يشتمل على سبعة فصول في سبع رسائل كاملة. وهي تسع وأربعون جامعة. أملاها مولانا الحاكم جلّ وعلا على عين العين وشمس السائرين الموحدين قائم الزمان... وأرسلها حمزة إلى الشيخ المقتنى (بهاء الدين) السنة الواحدة والثلاثين من سنّي حمزة » (ص ٢).

١٣) « كتاب الدرر المضيّة واللمع النورانيّة في تلخيصِ ألفاظ الحكمة الشريفة ومعانيها الروحانيّة ». مخطوط من ٧٧٠ صفحة من القطع الكبير. كان الفراغ من تأليفه سنة ١١٤٤ هـ. وهو كثير الفائدة، يعتمد على نصوص كثيرة من الرسائل ومن كتاب « عمدة العارفين »، وخواطر الأمير السيد وشروحاته وكتاب « المناظرات ». وهو يتّبع

طريقة قواميس اللغة العربية القديمة، أي إذا أردت كلمة « حكمة » تنظر باب «الميم» فصل « الحاء ». وإذا أردت لفظة « ظمآن » تنظر باب « الألف » وفصل «الظاء». جاء في مقدّمته: « إن المُداوِمَ لمطالعته والمتبحِّر فيه يَكفيه ذلك عن غيره، لأن الذي يَطلبُه في المفرّق قد حَصَلَ له في هذا الكتابِ مجموع ».

١٤) « كتاب المناظرات وبهجة المذاكرات وكاشف الاختلافات في مواقع الأسماء والصفات ». وهو مرتّب كـ« كتاب الدرر ». يوجد نسخة منه في مؤسّسة كيتاني في روما، رقم ٦٤. وهو أقلّ قيمة من السابق.

١٥) « عُمدَة العارفين في قَصص النبيين والأمم السالفين ». تأليف الشيخ محمد مالك الأشرفاني. فرغ منه سنة ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩ م. وهو في ثلاثة أجزاء. « اشتهر كتابه عند بني معروف اشهاراً واسعاً، لم ينل مثله كتابٌ آخر إلاّ كتبُ الأمير السيّد » (نويهض، التنّوخي، ص ٢٣٩) « ولعلّ هذا الكتاب هو آخر ما أُلِّفَ على هذا المستوى في بابه في المجتمع المعروفي في لبنان وديار الشام حتى اليوم » (نويهض ٢٤١). عرف هذا الكتاب باسم « المُؤَلَّف ». قيل فيه: « لا يبلغ العَالِمُ مِن علماء بني معروف رتبةَ العلمِ إذا لم يكنْ مُتقناً الوقوفَ على عُمدة العارفين » (نويهض، ص ٢٤١).

١٦) « مختصر بيان صحّة الدين بدحض مذهب العقّال الموحدين »، مخطوط رقم ٢٣١. من ٩٠ ورقة. فيه يقصّ علينا شيخٌ درزي « البكفتيني نسَباً، والدرزي في الأصل مَذهباً، والكاثوليكي الآن عقيدة (٢ أ). ولد بقرب مدينة حلب الشهباء من وَالِدَين كريمين. وحصّل على يديهما

« تربيةً حسنة ». ويقول: « لإفراطِ ميلي نحو الحقِّ طبعاً تركتُ مساعي الجهل جانِباً وصرتُ عاقلاً. إلاّ إنّه لسببِ اختلاطي مع الذمّيين وفقهاء المسلمين صارت أحياناً تخطرُ على بالي بعضُ الشكوك في المذاهب » (٥ أ). ثم راح يهتمّ « بمكاسب التجارة »، وقد حصّل منها « أعلى ثروة » (٥ ب). وضربه الله « بمَرَض ثقيل جدّاً حتى أشرفَ بعد أيّام قليلة على حالة التَلَف. وكان في وَجَلٍ عظيم مِن أنْ يَدهَمَه الموتُ وهو بحالة الشكوك ». واستدعى أحدَ المشايخ ليرتشدَ منه عساه يهدِّئُ جأشَه ويُسكِتُ روعه » (٦ أ). ولكنّه أقسمَ قَسَمَاً عَظيماً إنّه إذا ما رجعتْ إليه الصحةُ سيَعمل على اعتناقِ دينٍ يرى فيه خلاصَه. وبعد تماثله للشفاء سافرَ إلى أوروبا، وهو يتقن ثلاثَ لغات، واعتنقَ دينَ الكثلكة. ثم راح يفنِّد رسائلَ الحكمةِ وينصحُ مشايخَه الأقدمين بالنظرِ فيها والارتدادِ عنها. ويروي لهم قصّةَ فخر الدين الثاني مع ترجمانه حول الدين المسيحي. ويبدو أن الأميرَ كاد يعودُ إلى بلاده على الدين المسيحي. ولكن ليس في ذلك تصريح.

١٧) تعليمُ الديانة الدرزية. هناك نسخةٌ مطبوعةٌ بدون تاريخ. ومخطوط في باريس رقم ٥١٨٨. ومخطوطة من « الشيخ محمّد الدرزي البعقليني النازح من لبنان إلى جبل الدروز »، وهي من خطّ يده ومن تاريخ ١٩٢٤/٢/١٣. وهذه المخطوطات تكمّل بعضُها بعضاً. الأولى تقع في ١٠١ سؤال، والثانية في ١٠٤ أسئلة. وهي مصدر للأولى، وترجَمَهَا « سِلفَسْتِر دِي سَاسي » إلى الفرنسية، والثالثة في ١٢١ سؤال هذا « التعليم » واسعُ الانتشار، موجود في أيدٍ عديدة... منها ما هو ناقص، ومنها ما هو زيادة. وقد تجدُها باسم « رسالة الانذار ».

ثالثاً ــ المراجع الدّرزيّة المطبوعة

١٨) عبد الله النجّار، مذهب الدروز والتوحيد، طبعة أولى في دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥. وقد أصدرت السلطات اللبنانية المختصّة قراراً رقمه ٤٨٩ بتاريخ ٢ تموز ١٩٦٥ يقضي بمنع الكتاب ومصادرته.

* طبعة ثانية سنة ١٩٦٧ في بيروت دون ذكر المطبعة ولا السنة، ظهر تحت اسم « مذهب الموحدين الدروز ». يتصدّر الكتاب أقوال تقريظ في الكتاب والكاتب. ص أ ــ ك. عدد صفحاته ٢٣٤... في هذه الطبعة تعديل بسيط وتوضيح أكثر.

١٩) أضواء على مسلك التوحيد « الدرزيّة »، بقلم الدكتور سامي نسيب مكارم. قدّم له الأستاذ كمال جنبلاط، ووطّأه بايازيد. دار صادر بيروت سنة ١٩٦٦. ١٧٦ صفحة. منها ٧ ــ ٦١ مقدمة، و٦٣ ــ ٧٧ توطئة. وهو يردّ، بتكليف من مجلس الطائفة الدرزيّة، على كتاب النّجار. لكنّ الردَّ جَاء بغيرِ استشهادٍ واحدٍ بنصٍ مِنَ الحكمة.

٢٠) مذاهبُ الإسلاميين: فصل « الدروز » من الجزء الثاني، للدكتور عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٣، من صفحة ٥٠٧ حتى ٨٢٣.

٢١) طائفة الدروز، تاريخها وعقائدها، للدكتور محمد كامل حسين، مكتبة الدراسات التاريخية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ١٣٠ ص.

٢٢) الواقع الدرزي وحتمية التطوّر، مجموعة محاضرات، منشورات رابطة

العمل الاجتماعي، (رابطة درزية)، سنة ١٩٦٢؛ ٢٣٨ ص.

٢٣) الدروز، ظاهرهم وباطنهم، محمّد عليّ الزعبي دكتور بالفلسفة، مؤسّسة مطابع معتوق، طبعة ٢، سنة ١٩٧٢، ١٨٤ ص.

٢٤) التقمّص، لأمين طَليع، سلسلة « زدني علماً » رقم ١٦٨، منشورات عويدات، بيروت ــ باريس، ١٩٨٠، طبعة أولى، ١٥٢ ص.

٢٥) أصل الموحدين الدروز، أمين طليع، سلسلة « زدني علماً » رقم ٩٧، منشورات عويدات، بيروت ــ باريس، ١٩٨٠، ٢٠٠ ص.

٢٦) إِمامة العقل في مذهب الموحدين (الدروز)، عبد الله النّجار، محاضرة في دار الطائفة الدرزية في ٦ آذار سنة ١٩٧٤، ٣٠ ص.

٢٧) مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ، سامي أبو شقرا « دكتور في الفلسفة »، لا ذكر لدار نشر ولا لسنة نشره. لكنّه يبدو في ١٩٧٨، ٣١٠ صفحة.

٢٨) واقع الدروز، معتقداتهم، خلواتهم، أدباؤهم، وضعه بالفرنسية حافظ أبو مصلح، ترجمة نازك فوّاز، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، ٨٨ ص. بدون تاريخ، لكنّه يبدو من سنة ١٩٧٨.

٢٩) الدروز في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي، غالب أبو مصلح، منشورات مكتبة العرفان، ١٩٧٥، ٢٨٠ ص.

٣٠) الدروز، مؤامرات وتاريخ وحقائق، فؤاد الأطرش، بيروت ١٩٧٥، طبعة ثانية، ٣٩٢ ص.

٣١) الدروز: وجودهم ومذهبهم وتوطّنهم، الجزء الأوّل، للأستاذ سليم أبو اسماعيل، مؤسسة التاريخ الدرزي، بيروت، بدون تاريخ.

٣٢) أضواء على تاريخ مذهب التوحيد، توفيق سليمان، بيروت، دار ألف ليلة وليلة، سنة ١٩٦٣، ٢١٩ ص.

٣٣) تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، تأليف الدكتور عبّاس أبو صالح الاشتراك مع الدكتور سامي مكارم، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والانماء. بدون تاريخ، لكنّه من سنة ١٩٨٠. يقع في ٤٣٢ صفحة.

٣٤) « أصل الدروز » لسليمان أبو عزّ الدين، مقال في مجلّة « المقتطف »، يونيو سنة ١٩٣٠.

٣٥) مشيخة العقل والقضاء المذهبي الدرزي عبر التاريخ، للقاضي أمين طليع، رئيس غرفة في محكمة التمييز اللبنانية. (ويحتوي مجموعة قوانين الأحوال الشخصية، وتنظيم القضاء المذهبي الدرزي المعمول بها حالياً). المطبعة الانطونية، بيروت ١٩٧١، ١٧٥ ص.

٣٦) قضاء الموحدين « الدروز » في ماضيه وحاضره، حليم تقي الدين، رئيس المحكمة الاستئنافية العليا الدرزية، الطبعة الأولى ١٩٧٩، توزيع دار النهار للنشر، بيروت. ٤٤٥ ص.

٣٧) هذه وصيّتي، كمال جنبلاط، مؤسّسة الوطن العربي للطباعة والنشر، طبعة أولى ١٩٧٨، ١٥٨ ص.

٣٨) إسلام بلا مذاهب، الدكتور مصطفى الشكعة، الدار المصرية

للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧١، ٥٢٠ ص.

٣٩) الدولة الدرزية، بيجيه ده سان بيير، سنة ١٧٦٢، ترجمة حافظ أبو مصلح سنة ١٩٦٧، الناشر محمّد آل ناصر الدين، قدّم له يوسف يزبك. عدد صفحاته ١٤٧.

رابعاً ــ كتب التَاريخ والسّير

٤٠) ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف، شعرهم، آدابهم، تصوّفهم، عارف أبو شقرا، سنة ١٩٥٧، ١١٢ ص. لا دار نشر.

٤١) التنّوخي الأمير جمال الدين عبد الله، والشيخ محمّد أبو هلال المعروف بـ« الشيخ الفاضل »، طبعة ثانية، دار الصحافة بيروت سنة ١٩٦٣. عدد صفحاته: أ ـــ ع + ٣٠٤ ص.

٤٢) سيرة العارف بالله الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي، أبو عليّ مرعي (تلميذ التنوخي)، بيروت سنة ١٩٦٣.

٤٣) وليّ من لبنان، سيرة العارف بالله الأمير السيّد جمال الدين عبد الله التنوخي، قدّس الله سرّه، يوسف ابراهيم يزبك، طبعة ثالثة، منشورات « أوراق لبنانية، سنة ١٩٦٠، ١٠٠ ص.

٤٤) الحركات في لبنان إلى عهد المتصرّفية. وهي شهادة درزية صريحة في مخطوطة تلمّ بحوادثَ لبنان وأحوالِه يُدْلِي بها مِن رواةِ الدروز

شاهدُ عَيان ويساهم بها واحدٌ منهم لأوّلِ مرّة في تاريخ لبنان. الراوي: حسين غضبان أبو شقرا، المؤلِّف: يوسف خطار أبو شقرا، الناشر، عارف يوسف أبو شقرا. المكتبة الأهلية في بيروت سنة ١٩٥٢ عدد صفحاته ٢٥٦.

٤٥) الحركات الفلاحية في لبنان، النصف الأول من القرن التاسع عشر، تأليف أ. سْمِيْلِيَانْسْكَايَا، تعريب عدنان جاموس، دار الفارابي، بيروت ودار الجماهير دمشق، ١٩٧٢، ٢٥٦ ص.

٤٦) « النقد التاريخي وعروبة آل معروف » مقال في « مجلة المجمع العلمي العربي » بدمشق ج ١١ سنة ١٩٣١، لشكيب أرسلان. يردّ فيه على الدكتور فيليب حتّي الذي ينكر هذه العروبة.

٤٧) تاريخ بيروت وأخبار البحتريين من بني الغرب. الأمير صالح بن يحيى التنوخي من عبيه، وضعه سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م. طبعه لويس شيخو سنة ١٩٠٥ طبعة أولى، وطبعة ثانية سنة ١٩٢٧، وأعيد طبعه في بيروت دار المشرق سنة ١٩٦٩ في ٢٨٤ ص.

٤٨) تاريخ ابن سباط: جزءان كبيران. يوجد منه نسخة في الجامعة الأميركية ببيروت تحت رقم ٢٨١٨٦، وثانية في المكتبة الوطنية في باريس، رقم ١٨٢١، وأيضاً في الفاتيكان وفي المكتبة الشرقية... ومعظم المخطوطات ناقص، وتكمّل بعضها بعضاً.

٤٩) تاريخ بن سعيد الأنطاكيّ، صنّفه تتبّعاً لتاريخ سعيد بن بطريق. طبعة الأباء اليسوعيين بيروت سنة ١٩٠٩، من ص ٨٩ حتى ٣٦٣.

٥٠) تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، للدكتور حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، طبعة ثانية ١٩٥٨، ٧٤٢ صفحة.

٥١) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، محمد عبد الله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، طبعة ثانية ١٩٥٩، ٤٢٣ صفحة.

خامساً ــ بعض ما نشر من رسائل الحكمة

٥٢) كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور. الجزء الثاني: « لمَع من كتب الدروز أصحاب حمزة بن عليّ » ويتضمّن الرسائل التالية مع ترجمتها إلى الفرنسية: رقم ١ و٢ و٤ و٥ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٤٣ و٨٣ و٨٤. صفحاته من ٦٧ حتى ١٥٥. وصفحات الترجمة: من ١٨٩ حتى ٢٧٧. وعليها شروحات وتعاليق. وهي من نشر M. Le Baron Silvestre de Sacy

في: Chrestomathie arabe ….. Impr. Royale, 1826

٥٣) L'Epitre à Constantin (N° 53), écrit religieux druze, publié et annoté pp. J. Khalil et L. Ronzevalte, in Mélanges de la Faculté Orientale, III, Fasc. II. Université St. Joseph, Beyrouth, 1909, pp 493-534…….

سادساً ــ المراجع الأجنبيّة

54) Le Baron Silvestre de Sacy, Exposé de la Religion des Druzes, 2 tomes: I-VIII + DXVII+ pages; t. II: 708 p. Librairie Orient-Editon, Paris 1838; Réimpression 1964.

55) Henri Guys, La Nation Druze, son histoire, sa religion, ses mœurs, est son état politique; Paris, 1863; 233 p.

56) H. Guys, Théogonie des Druzes, ou Abrégé de leur système religieux, traduit de l'Arabe avec notes explicatives et Observation critiques. Imp. Impériale, 1863; XXII+ 141.

وهو ترجمة لمخطوط عربي من عمل الأب حنانيا منير الــذي يختصر بدوره مخطوط « مختصر البيان في مجرى الزمان » (رقم ٨ من هذه المراجع).

57) Sami Nassib Makarem, The Druze Faith; Edit. Caravan Books, Delmar, New York, 1974; XII+154 p.

58) Selim Hassan Hichi, Doct. En Hist., La Communauté druze, son origine et son historie, Beyrouth, 1973, 80 p.

59) Capitaine N. Bouron, Les Druzes, Histoire du Liban et de la Montagne Houranaise, Paris, 1930.

60) Charles Churchill, The Druzes and the Maronites under Turkish rule from 1842 – 1852; London, 1862.

61) Philip Hitti, The Origins of the Druze. People and Religion; New York; Colombia University Press; 1928.

62) G.W.Chasseaud, The Druzes of Lebanon, their Manners, Customs and History, London, 1855.

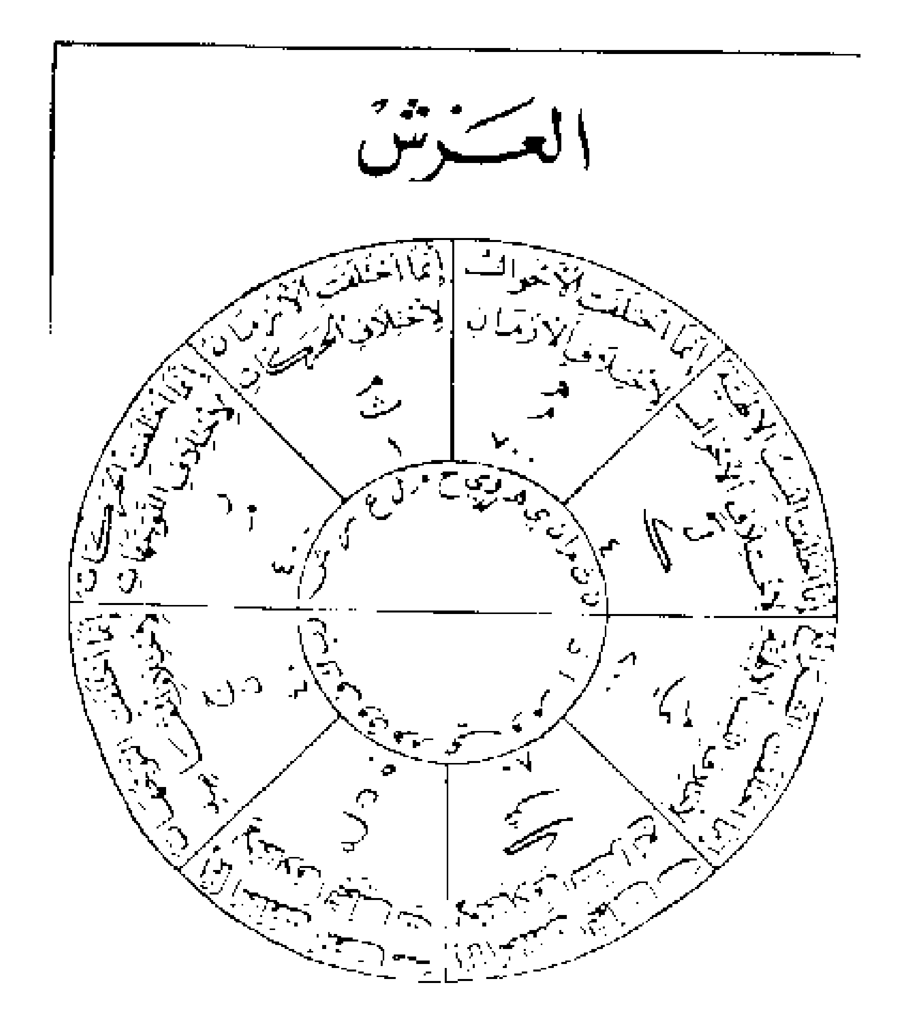
63) Capitaine Carbillet, Au Djebel Druze, Choses vues et vécues; Ed. Argo, Paris, 1929.

صُـوَر
من الحكمَة
وَشُروحَاتَهـا

كتاب الدرر المضية واللمع النورانية في تلخيص ألفاظ الحكمة الشريفة ومعانيها الروحانية

الصفحة الأولى من « كتاب الدرر المضيّة...»

الصفحة ١١٧ من « كتاب الدرر المضيّة...»



[illegible]

حروف الدوائر الأخرى [illegible]

صفحة ٢ من « مصحف المنفرد بذاته »

وأما الذين أعرضوا عنه شغلتهم أنفسهم فلبئس تقلبهم في الآفاق ، ختم ربكم على قلوبهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب مهين .

عرف الحشر العجيب المجر

يا أيها الذين آمنوا ، لا يمنعنكم مهابة الناس أن تقولوا الحق إذا علمتموه ، واعلموا أن أفضل عمل تقدمونه بين يدي مولاكم قولة حق عند متكبر جائر .

نادى أولو العزم من الذين سبقوا : ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، وبذلك شهد الكتاب ، ولسوف تشهدون . سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ، ليس له دافع ، وهم من كل

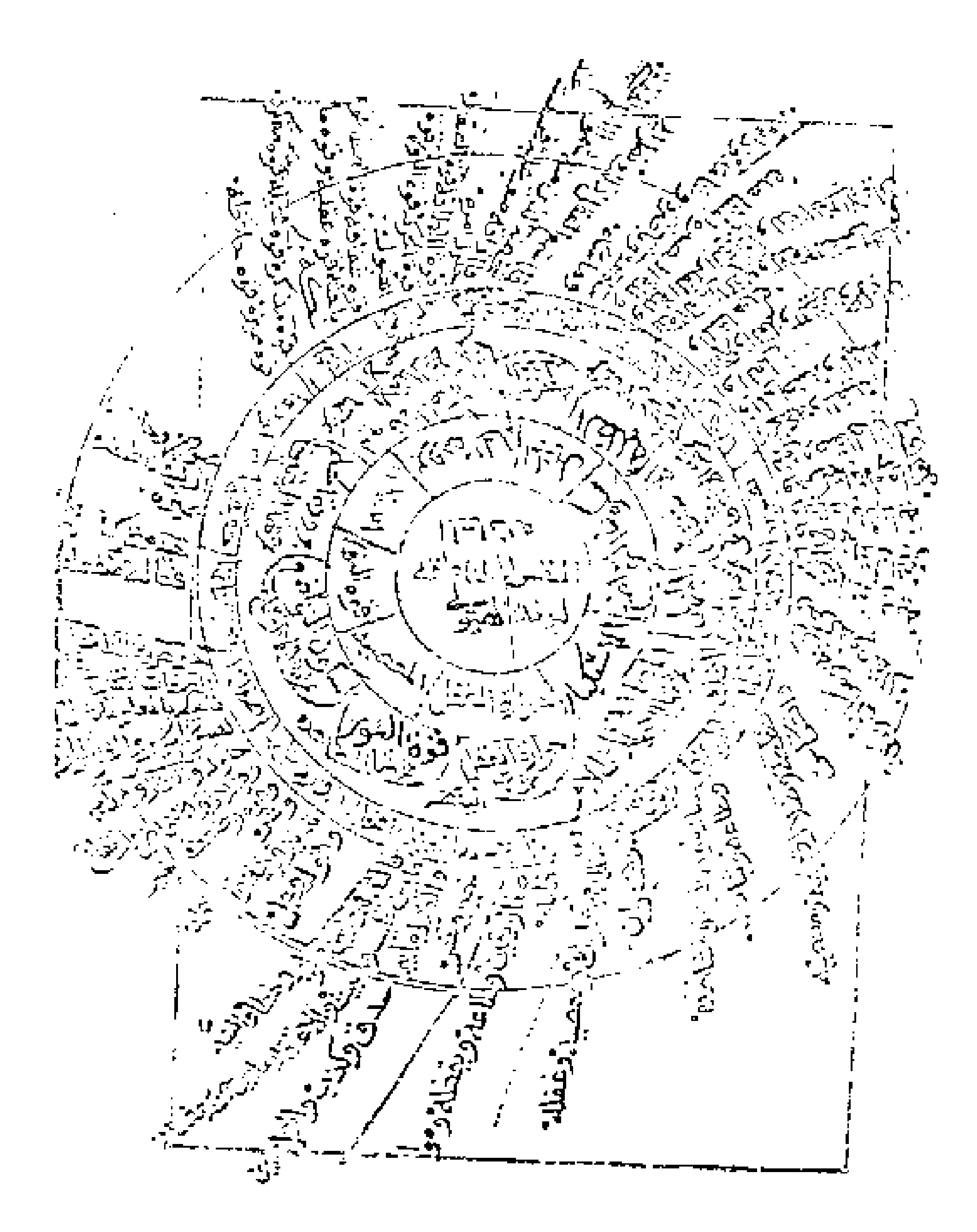
ذَلِكَ ٱلْحُبِّ عَلَيْهِ ، ٱلْعِنَايَةُ أَمْنًا وَسَلَامًا وَسَكِينَةً . فَسَمَا
أَسْعَدَهُ بِتِلْكَ الرُّعُودِ وَٱلْبُرُوقِ وَٱلْغَمَامِ وَٱلْمَطَرِ بِغَيْثِهِ .
فَفِي رَعْدِهِ مُنَاجَاةُ الصَّلْصَلَةِ ، مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ،
وَفِي بَرْقِهِ مَشَاهِدُ مَوْلَاهُ الذَّاتِيَّةُ ، وَفِي ٱلْغَمَامِ صُوَرٌ
تَجَلَّتْ ، لِوُجُوهٍ نَضِرَتْ ، وَفِي ٱلْغَيْثِ تِلْكَ ٱلْمَعَارِفُ
وَٱلْعُلُومُ ؛ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ، قَالُوا مَاذَا قَالَ
رَبُّكُمْ ، قَالُوا ٱلْحَقَّ . وَتَسَاقَطَتْ أَثْمَارُ ٱلْأَشْجَارِ أَمَامَهُ ،
وَفِيهَا هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ ٱلْغَمَامِ
وَٱلْمَلَائِكَةِ ، وَلَقَدِ اهْتَزَّ هَيْكَلُ عُمْرِهِ . وَهَنِيئًا لِهَذَا
الْعَنْدَلِيبِ بِرُؤْيَةِ الرُّؤْيَةِ ، وَبِذَلِكَ ٱلِاسْتِئْذَانِ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ
فَأَذِنَ لَهُ سَيِّدُ ٱلْأَسْيَادِ ، وَمَادَتْ تِلْكَ ٱلْأَوْتَادُ ، وَاهْتَزَّتْ
بِٱلْإِبَالِيَةِ ٱلْبِلَادُ ، وَقَامَ لِقُدُومِهِ وَقَعَدَ . وَتَنَادَى سَائِلًا :
مِنْ أَيْنَ حَضَرَ رَكْبُكَ ٱلْمَحْفُوظُ ، ٱلْمُصَانُ ٱلْمَلْحُوظُ ، ٱلْغَنِيُّ
بِٱلْعِنَايَةِ ٱلْمَحْظُوظُ . قَالَ : مِنْ بَلَدِ ٱلْحَسِيبِ ٱلنَّسِيبِ ٱلْعَبْدِ ،
وَمِنْ مَدِينَةِ ٱلْجَسَدِ ٱلْغَرِيبِ ، وَمِنَ ٱلْمَقَامِ ٱلْأَدْنَى فِي ٱلْجَبَلِ

ٱلْأَقْصَى

والتبصر في معانيها لكونها من ادق اللطائف بان لا يحصل
للكل فالسعيد من عرف جوهره وعرف كمال الاخروية
وصرف سعيه الى تحصيله فيصير ملكا بجوهره مخلدا
ابديا من فضيلة ذاته مشغوفا بما ناله من الواهب من له
الخلق والامر في الطوبى بقاء الابد وقد بينا في هذا الكتاب عن
معرفة النفس الناطقة الباقية وطبايعها وانحالها وافعالها
وبيان حالها ما اقتضيته في كل ناحية وبحسب البصيرة ان
بنيتها من السعادة في المعاني ورتبة في الدايرة الاولى
جوهر النفس الناطقة وصورة ليونانة الكبرى والحيوانية حيث
تركيبه وامتزاجه من الطبايع المتضادة فبذا الزكي
طبع منها ملاحق صفيته وفي الدايرة الثانية بيان مقابلات
الطبايع الوليد والصدية ومقابلات ثم ما لاذ الدايرة الثالثة
تضمنت منها من الفوايد ما به فائدة لا انتهاء غرين بينا وبينا
بين منها اخر فوايد اقرانها عن حقيقتها وهذه صورتها
وبالله المستعان . .

دائرة

صفحة ٢٣ من « كتاب النقط والدوائر »



صفحة ٢٤ من « كتاب النقط والدوائر »

صفحة ٣٢ من « عمدة العارفين »

١٠٨

[illegible]

صفحة ١٠٨ من « عمدة العارفين »

الانسان بعض رسايل الحكمة بالاحتفاظ وحفظ
عوض ذلك ما يقوم به للستر كان ذلك
واجب لان الانسان اذا غرس بستانا ولم يصنه
بشي لم يسلم ابدا واذا غرسه ثم نقص بعض
غراسه وجعل عوض ذلك النقص حاجزا يصونه
كان ذلك ازيد لسلامته وانجح فيه وكذلك
مذهب التوحيد ما يصح لاحد صحة كاملة
الا بالاستتار والاستتار بما لا يوقف هو ان كان
الحق ساكن بين اهل الظاهر التنزيل فيستتر
بمذهبهم من صلاة وصيام وحج وتقديم ابو بكر
وعمر وعثمان على علي ابن ابي طالب وغير
ذلك وان كان ساكن بين اهل التاويل في بلاد
غالب عليه الشيعة فيستتر بمذهب التاويل

صفحة ٢٦ أ من مخطوط ١٤٣٦.

75

لأن الخلق السمح عون عظيم للمرأة على
دينها وعلى طاعة زوجها، تستريح وتريح، وإذا
كانت سليطة سيئة الخلق كافرة للنعم
كان الضرر منها أكثر من النفع، وينبغي أيضا
أن الرجل لا ينكح امرأة منانة ولا حداقة.
ولا براقة، ولا حداقة؛ فالمنانة هي التي
تمن على زوجها فتقول فعلت من أجلك
كذا وكذا، والحداقة التي ترمي بحدقتها
إلى كل شيء فتشتهيه، وتكلف الزوج
شراءه، والبراقة أن تكون طوال النهار
في تصقيل وجهها وتزيينها ليكون

صفحة ٧٥ ب من مخطوط ١٤٣٨.

للقب الايمة من صاحب الكشف لا اشد عتوا ولا اشد ناموسا

ولا اضر مستبقا ولا اعظم فعلا ولا اقوى كيدا لانه اعظم

رغب في شئ او نوى شهوات بهيمية ولا ابلغ

معاصي من شخص محمد بن عبد الله لعنه الله ينبغي ان يحمل

ذلك فاعلم انما ذكر لانه جمع نواميس النطقاء وجمع

اجمعين لانه جمع فيه فتنة وعنه نواميسهم

واخبار عنهم الجمع ونالحمه على اخبار حكمه

... وسموه كافة في الافاق مع ان هو هم

وهو الكل نفس واحدة لكنه زاد عليهم

وبرز لانه خليفة الناطق وخليفة يعني محمد

الا الاساس وهو خليفة الناطق ... بعد

محنته وكان باول ما اتى به الناطق لانه ...

واشار الى ... دون الصحابة كلهم ثم ...

ونحن

صفحة ٢٤ أ من مخطوط ١٤٣٩.

مَضْمون الكتَاب